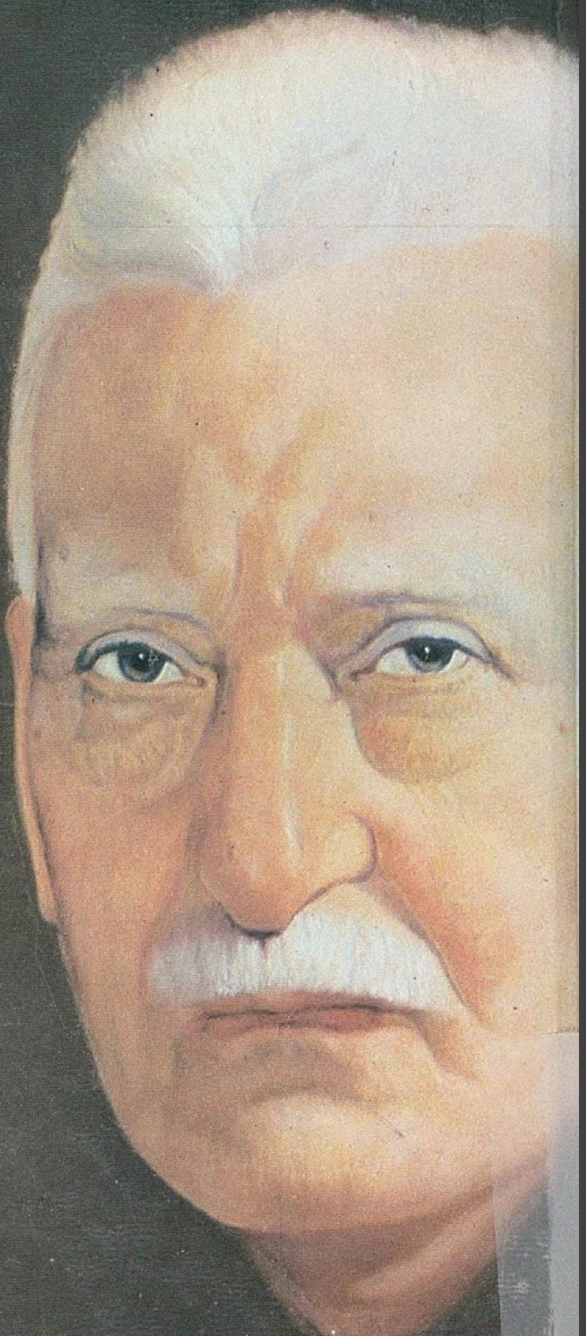
المجموعة الكاملة
لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود
العقاد



العقائد والمذاهب
4

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقيا: كتامصر

TELEX No. 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT

المجلد الرابع عشر

العقائد والمذاهب ٤

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الرابع عشر

العقائد والمذاهب ٤

يحتوي على

الحكم المطلق في القرن العشرين

الصهيونية العالمية

النازية والأديان

هتلر في الميزان

فلاسفة الحكم في العصر الحديث

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

رقم الإيداع
١٩٩٠/٤٥٥٨
I.S.B.N. 977 - 238 - 097 - 8

دار الكتاب المصرى
٢٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٢٤٢٠١ فاكسيملي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181
ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسيملي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب ١١/٨٣٣٠ أو ١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان.
برقيا: داكلبان
TELEX: DKL 23715 LE
ATT: MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX: (9611) 351433

الطبعة الثانية
١٤١١هـ - ١٩٩١م

Second Edition
1991 A.D — H 1411

عباس محمود

العقاد

الحكم المطلق في القرن العشرين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

هل فشلت الديمقراطية

كان الاستبداد المطلق مقدساً في زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء مآربهم وكان هو يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سلطانه على الضمائر والاجسام ، وكان لحق الحكم مصدر الهي يتلقاه الحاكم المستبد من السماء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب الا أن يطيعه كما يطيع خالقه ويؤمن بحكمته التي تخفى عليه كما يؤمن بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة سماوية معصومة على هذه الارض الخاطئة ، والشك في الحكومة كالشك في العقيدة كلاهما كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدي من رحمة الله .

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ما قبل القرن الثامن عشر ، وكان الايمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه الا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كما يخفي المجرم جريمته والآثم وصمة عاره ، فلما انتقل سلطان الحكم من الملوك المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد وأصبح حق الحكم مقدساً ـ مرة أخرى ـ من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان ، وتغير النظام القديم ولم يتغير قالبه الذي صنعته العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والعقائد الموروثة ، وربما بدأت هذه القداسة الشعبية

على سبيل المجاز في التعبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الغابرة وأساس الحكومة الحاضرة ، ثم أضيفت الى هذا المجاز حماسة الفكرة الناشئة وروح الامل في المستقبل والنقمة على الماضي فاصبحت القداسة الحديثة عقيدة في الضمير يشوبها من الابهام كل ما يشوب العقائد التي تستعصى على متناول العقول .

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة في العرف الشائع فجاءها الخطر من هذه الناحية في عصر الشك والسخرية من جميع « المقدسات » . . . وسمع الشاكّون والساخرون بهذه « المقدسة » الجديدة فعلموا ان هناك شيئاً طريفاً يظهرون فيه براعة التنفيذ وقدرة التصغير والتقييد! فاسرعوا اليه في جد ووقار وأعنتوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شيء لم يهبط على الارض من السماء وان القداسة هنا مجاز لا حقيقة له في العلم والاستقراء . . . فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد ، لان قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية يبحثها الناقدون الممحصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار ، فالذين يضعونها هذا الوضع ينظرون اليها من أضيق حدودها التي يعرفها المجازيون والجهلاء ولا ينظرون اليها من أوسع الحدود التي يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح . واذا كان المتكلم الذي يقول ان الماء العذب شهد حلو المذاق مخطئاً في صيغة التعبير العلمي فأشد منه امعانا في الخطأ والغفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب الى المعمل الكيمي ليثبت ان الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق كما يقولون في لغة المجاز .

***

في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت « السيكولوجية » أو علم النفس وتفرعت فروعه وكثر الاشتغال بتطبيقه على الافراد والشعوب . ولعل أغرب ما استغربه الناس من قضايا هذا العلم وصفه لاطوار الجماعات والاساليب التي يجرى عليها في تكوين عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية في العالم الحديث بأكثر من جيلين فلاح

لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر في الاذهان أو لما يجب ان يتقرر في الاذهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتي سنة أو لو أنه تقدم في عصر الاصلاح مثلا لما وقع من الافكار موقع الغرابة في شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذي يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف ، ثم لجأت الديمقراطية حتماً في سياقها الطبيعي دون أن يخيل الى أحد أن حقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطي أو تعارض حكم الشعوب . لان الديمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجة لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم في تفسير حركات الجماعات . فلو علم الناس في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا منزهة عن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانعا لوقوع تلك الحركات في أوانها ولا واقياً للانظمة العتيقة من التداعي والسقوط . ولكن « السيكولوجية » ظهرت بعد الديمقراطية فنشأة غرابتها من ثمَّ وكان استغراب الناس اياها وهما متولداً من الوهم القديم الذي تطرق اليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين . فلولا الخرافة الداثرة خرافة المستبدين الالهيين لما وجدت خرافة الشعوب الالهية ولا اتخذت أطوار الجماعات التي استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلا على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل ان نظامها قائم على أساس واهن لانه قائم على مشيئة وهي مشيئة لا توصف بالعصمة . ! وقديما عرف الناس من أطوار الافراد أنهم يطمعون ويستأثرون وأنهم ينقادون للهوى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضلال البعيد وأنهم غير معصومين بحال فلم يكن هذا العلم باطوار الافراد هو الذي قضى على حكومة الفرد ولم تتقوض النظم الاولى الا حين تعذر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الامم .

❊ ❊ ❊

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الحالمين فيها وخيبت آمال أولئك المظلومين الذين صوروا زمانها المترقب في صورة الفردوس الارضي أو العصر الذهبي الذي تغنى به الشعراء وتحدثت به الاساطير . فلا ظلم ولا اجحاف ولا تمييز بين القويّ والضعيف أو القريب والبعيد : كأنما صوت الشعب المنطلق من غيابات الاسر نغمة ساحرة كنغمات « أورفيوس » يتجاور في سماعها

الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يخيب فيها الظن ويحكم عليها الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجربة الاولى وهي لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب . فلم يكن أقسى على الديمقراطية ولا أظلم لها من غلاة المؤمنين بها الذين كانوا يكلفونها ما ليس يكلفه نظام في هذه الدنيا أية كانت قواعده من الصحة ونيات القائمين به من الصلاح .

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالاسباب المصطنعة للشك في حقيقة النظام الديمقراطي والاخذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود . على أنها ليست بجميع الاسباب المصطنعة التي يمكن أن تعدد في هذا المقام . فهناك أسباب مثلها دعت الى الشك في حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات الى دخائل الامور . فمنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائعة لاستفاضة علاقاتها واشتراك المئات والالوف في دعواتها وأعمالها . فليس لها حجاب من الفخامة والروعة كذلك الحجاب الذي كانوا يسترون به عيوب الحكومات المستبدة ويتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزويق ، وخليق بهذا التكشف أن يغض من فضائلها بعض الشيء ويرسل عليها ألسنة الثراثرة والفضوليين ومن لا ينظرون الى عواقب الكلام .

ومن الاسباب المصطنعة ان نقد الديمقراطية يرضي غرور تلك الفئة التي تحب أن تتعالى عن « الشعبيات » لما في ذلك من الامتياز والادعاء ، ومنها ان المستبدين الطامعين في رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سراً وجهراً لتشويه كل نظام غير نظامهم وتأليب الناقمين على الحكم الحديث ولا بد في كل حكم من راضين وناقمين ، ومنها أننا في زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الاخبار . فاذا مضت خمسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالذي يفاجئهم بعد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب الزيّ الطريف في كل مجال .

فانت ترى ان نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجبه الاسباب الحقيقية التي لا دخل فيها للوهم والغرض والفضول . وأما الاسباب المصطنعة

فما هي وما مبلغ ما تجيزه ؟ هي أشياء لا تجيز لاحد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها في طريق الفشل القريب .

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر الى الآن من آثارها وعلاماتها الا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم في المستقبل تُبنى عليه قواعد الحكومات ويُرجع اليه في اصلاح كل ما يحتاج منها الى الاصلاح . أما تلك الاسباب المصطنعة التي ألمنا بها فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة الى الاستبداد القديم وهم أقل الناس حقاً في تجريح الديمقراطية بعد ما تبين من فشل حكمهم في بلاد كثيرة وأحوال مختلفة . فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية ـ مجازا أو حقا ـ فمن المقرر المقطوع به أنهم لا يرجعون الى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات ، واذا قيل ان الجماهير تنخدع للزعماء وتؤخذ بالمظاهر وتستمال الى العقائد التي تبث فيها بالايحاء والتكرار فهذه الاطوار لم تكن ملغاة في العصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفا في تصريف الامم وقيادة الحكومات . وماذا كان يصنع المستبدون طوال العصور الماضية الا أن يستعينوا على خداع الجماهير تارة بالخرافات والاوهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والالقاب والاسماء وتارة اخرى بالعطايا والمواعيد الى سائر ما هو معروف من أساليبهم في تمويه الاعمال واخفاء الحقائق والتحيل على الغرائز

والشهوات . ولو أحصيت الحروب التي أريقت فيها دماء الالوف من المحاربين والمسالمين لخداع الشعوب وتمليقها ، أو لو أحصيت الارواح البريئة التي أزهقها أعداء الحرية والمعرفة ، أو لو أحصيت الثورات والقلاقل التي شجرت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والاسماء والمنازعات الصبيانية والدعاوى الفارغة ، أو لو أحصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الحظوة وأعوان الطغيان لكان في بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير ومن يضرهم انتباهها وأن تلك الغفلة لم تدم كما دامت في عهود المستبدين ولم تفد أحدا كما آفادتهم ولم يحذروا شيئا قط كما حذروا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط كما رغبوا في بقائها واستطالتها . وانما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع في هذه لاقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ولكنه لا يتسع في عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والكتمان

وان مجرد القول بان الشعوب لا تصلح للديمقراطية دليل على انها درجة عالية يجب أن تتوجه اليها آمال المصلحين وطلاب الكمال ، في حين ان القول بجهل الشعوب واضطرارها من اجل ذلك الى الحكم المطلق دليل على مصلحة الحكام المطلقين في بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التي بها يخلدون .

ومما يضعف جانب الحكام المطلقين في دعوتهم هذه أنهم يعيبون على الجماهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك الى تزكية الحكم الدكتاتوري أو الحكم المطلق مع أن التجارب الكثيرة ـ والتجارب الحديثة منها على الخصوص ـ قد أظهرت ان الدكتاتوريين الصالحين هم رجال الشعوب وثمرة تلك الاطوار وأن الجماهير لا تنقصها البديهة التي تفطن بها الى مقدرة القادة وتوليهم اعجابها وتخصهم بثقتها واقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التي تغار عليها وتغضب للمساس بها اذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الاعجاب . فاذا احتاجت الجماهير الى المصلح النافذ في اصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من زعيم شعبي تبرزه البديهة الشعبية ولا أسرع منه في حث غريزة الامم ومغالبة ما فيها من العيوب ، وكأن هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذي يطاع لان طاعته سرور . ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التي تبذل في اطاعة أمره . وقد بكون الزوج

زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانة ولا يأمن الرياء والخيانة اذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة .

وعبثٌ ولا ريب أن تعاب أطوار الجماهير وأن يقتصر الامر فيها على النقد والزراية وهي هي الاطوار التي لازمتها في كل ما تمخضت عنه الانسانية من الثقافات وفي كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين ، فأصلح الطبائع لاحياء الشعوب هي الطبائع التي بينها وبين الشعوب مجاوبة في الشعور ومساجلة في عناصر الحياة . واذا كانت الشعوب تخطىء في عرف العلماء فليس عرف العلماء هنا هو المقياس الذي يُرجع اليه في تقدير الدوافع والنتائج لان الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيما تريد . بل ليس العلماء انفسهم بنجوة من الخطأ على حسب مقياسهم لان أخطاءهم قديما وحديثا في تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

وللديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها . وقد يكون لهذه العيوب في مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها ان لم يزد عليه ، ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الاعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الاحلام . اذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالانظمة الاخرى في جملتها ويُنظر في عيوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية ، اذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزلها فيما مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد . وكذلك لا يصح أن نقيس الديمقراطية بمقياس الاغراض التي أعلنها دعاتها والآمال التي عقدوها عليها لان هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها ويسيطروا عليها ـ وانما تقاس مزاياها بالضرورات التي أدت اليها اولا ثم بالفوائد التي نجمت عنها فعلا ولا تزال تنجم : فهي بلا ريب قد أوجدت للعصبيات الحزبية مخرجا غير الفتن الدموية وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة في الحكم وأنها قادرة على تبديل الحكام فضعفت فيها نزعة الثورة بقدر ثقتها من الاشتراك في الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهي في مدى خمسين سنة قد

صاحبت في عالم الصناعة والعلم.تقدما لم تبلغه الانسانية في خمسين الف سنة ، وكلما ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الخرافة التي كانت تهيىء لفرد واحد أن يملكهم له ولابنائه من بعده ملك السيد للعبيد .

***

يقول بعض الباحثين - (ومنهم الاستاذ سارولينا الذي ألقى محاضراته في هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) - ان الحكم النيابي تراث انجليزي غير قابل للتعميم في الامم الاخرى . ويضرب « سارولينا » المثل بالامة الفرنسية التي لا تستقر فيها الوزارات طويلا لاختلاف الاحزاب وصعوبة التوفيق بينها الى زمن طويل . ويعتبر ذلك الاختلاف من اعراض الحكم النيابي ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل امة ! ولو كان الحكم النيابي هو الذي خلق العصبيات الحزبية في فرنسا لكان قول الاستاذ وقول أمثاله صحيحا في هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع ان العصبيات الحزبية لم تفتأ تمزق فرنسا كل ممزق في عهود حكامها المطلقين ولم يخل جيل واحد في تاريخها من فتنة على وراثة العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة على القحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لاخفاء هذه المنازعات ، حتى توطدت فيها الديمقراطية فانحصرت « العصبيات » في مناوشات الاحزاب وسكنت الثورات وبطلت المجاعات ولم يمنعها اختلاف الاحزاب أن تتماسك بعد الحرب العظمى وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر افادتهم لها منكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها في عهد الملوك الشموس ، وأن تكون هي وزميلاتها المنتصرات عنوانا لانتصار الحرية الشعبية وآية على أن حكومات الشعوب تحتمل من الصدمات مالم تحتمله حكومات القياصرة والطغاة . فانكسرت الروسيا والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة في الشؤون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الامم من تلك المحنة بعبرتها التي لا تضيع .

وقد فعل تراث الحكم النيابي فعله في انجلترا كما فعل فعله في الامة الفرنسية فوقاها الثورات والخصومات الدامية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين في القرن

التاسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب ، وهو في جوهره أشد من الخلاف الذي أفضى الى الثورة الجائحة في عهد الاستبداد .

ومن النظريات التي أذاعها بعض المؤرخين ـ وفي طليعتهم فلندرس بترى العالم المشهور في الاثريات المصرية ـ أن الحكومة الشعبية كانت هي الدور الاخير من ادوار الدول في التاريخ القديم ولا سيما تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفاتح عظيم ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون ثم يضعف القادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الامر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الاول كرة أخرى وهكذا دواليك عصراً بعد عصر في سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشارقة والمغاربة ، فاذا صح هذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم لان الحكومة الشعبية كانت في التاريخ القديم فترة منفردة تقع في احدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها في تلك الفترة بل ربما كانت في بداية الدور الاول ـ دور الفاتح العظيم ـ فتحدث الغارات من ثَمَّ وتتجدد الادوار . اما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات !

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كما تكررت في دولات الفراعنة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذر على الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين . ويبقى علينا أن نسأل أنفسنا متعجبين : هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التي وصلنا اليها ان هي الا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء في مقدرتهم على الحكم دون الكافة والاوساط ثم نعود بعد زوال هذا الوباء الى عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت اللّه ؟ لقد كانت الديمقراطية بالامس حكومة الشعب وكان الشعب هو العامة . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها الا جزءاً من سلطان الامة وهي كُلٌ شامل يدخل فيه السوقة والسراة والامراء .

تمثيل الشعب

في الحكومات النيابية يختلف تمثيل الشعب على حسب اختلاف القوانين الانتخابية . فقد ينتهي الانتخاب على طريقة من طرقه الكثيرة الى تمثيل طبقة واحدة دون طبقات الشعب كله أو تمثيلها جميعاً ما عدا طبقة واحدة هي الطبقة الفقيرة التي لا يتيسر لها شروط الكفاءة المالية . وقد ينتهي الانتخاب الى تمثيل جميع العناصر على نسبة متوازنة يشعر كل عنصر فيها باشتراكه الصحيح في تكوين الحكومة وقدرته الصحيحة على تبديلها بالوسائل الدستورية . وهذه هي الحكومة الديمقراطية في أحسن أشكالها وأوفاها بالغرض من هذه الحكومة .

لم تثبت التجربة قط أي فرق في نوع النواب وكفاءتهم العامة بين المجالس النيابية التي انتخبت من درجة واحدة والمجالس النيابية التي انتخبت من درجات متعددة ، فنتيجة الانتخاب على درجة واحدة كنتيجة الانتخاب على درجتين أو أكثر من حيث الكفاءة العامة للنواب الذين يقع عليهم الاختيار في النهاية ، وكل ما هنالك من فرق بين الطريقتين ان تعديد الدرجات يسهّل الغش والاكراه وشراء الاصوات وأن الانتخاب من درجة واحدة يمنع ذلك جهد المستطاع .

كذلك لم تثبت التجربة أن حصر الاصوات او تضييق حقوق الانتخاب أصلح لتسيير الحكومة ومراقبتها من التوسيع والتعميم ، بل قد ثبت على نقيض ذلك ان الرشوة والاكراه وعامة الوسائل الشائنة تروج مع حصر الاصوات وتقل مع اطلاقها وتوزيعها بين أكبر عدد من الناخبين . فكان الانتخاب في انجلترا قبل قانون سنة ١٨٣٢ أشبه بسوق علنية لشراء الاصوات ومساومة الناخبين ، وما برحت عيوبه القديمة فاشية في تلك البلاد حتى اتسعت حقوق الانتخاب في سنة ١٨٨٥ فأخذت تقضي شيئاً فشيئاً على تلك العيوب ، ومن عجائب المشاهدات ان توسيع الحقوق الانتخابية لم يؤد الى تحكيم السلطة التشريعية في الحكومة كما أنذر بعض المحافظين المتخوفين من تفاقم الحركة الشعبية وتقييد التاج ومجلس النبلاء ، بل هو قد أدى الى تقوية الوزارة واقامة الموازنة بينها وبين مجلس النواب على نمط يدعو الى الحكمة والتؤدة في تدبير الامور . ويعللون ذلك بخوف النواب ـ ولا سيما بعد ان أصبحت لهم مرتبات ـ من حل المجلس ومواجهة الحرب الانتخابية في كل وقت ، فان كان هذا هو السبب أو كان السبب شيئاً آخر غير هذا الذي يقوله المحافظون والمعارضون في توسيع الحركة الشعبية فينبغي أن نذكر أن مزية الديمقراطية المحققة هي ايجاد هذه الموازنة بين المصالح المتباينة لا تطهير القلوب البشرية من التفكير في مصالحها أو انشاء نواب لسياسة الامم زهاد وقديسين . وحسن ـ وليس بقبيح من وجهة المصلحة العامة ـ الا يكون اسقاط الوزارات سهلا هيناً بحيث يندفع فيه النواب مع أول خاطر يخطر على البال . وهناك من الجانب الآخر ضمان الرأي العام والخوف على السمعة السياسية يحول بين النائب وبين التمادي في مجاراة الوزارة الى حد التفريط المذموم ، فمتى توازنت جميع العوامل الديمقراطية توازناً يمنع بعض المصالح ان تطغى على جميع المصالح الاخرى فهذه هي مزية الديمقراطية على الاستبداد . واذا قيل ان الديمقراطية تجعل النواب والوزراء ورجال السياسة على العموم ملائكة أبراراً لا يؤخذون يوما بضعف النفوس البشرية فذلك هراء لا يصدقه أحد ولا يصادف عند الناس الا ما يصادفه كل ادعاء كاذب من الشك والحذر والاستياء ، ولكننا اذا وطنا العقول على أن الديمقراطية هي المصالح المتوازنة بين العوامل المشتركة في الحكومة فقد وطناها على الحق المعقول وهو في ذاته غاية تستحق كل ما يبذل في سبيل

الديمقراطية من الجهود .

وهذا التوازن الذي لا غنى عنه هو الذي يقضي بألا تُستثنى من الانتخاب طبقة او يصَدّ عنه عدد كبير من أبناء الامة . فحسب الاغنياء وأصحاب المصالح الكبيرة والمفكرين وذوي النفوذ أنهم اصحاب قوة فعالة في الحياة الاجتماعية والسياسية قد تربي على قوة الاصوات العددية التي يخولها أفراد الجماهير . والاشتراكيون المتطرفون يهزأون بالحكومة النيابية ويقولون عنها انها حكومة طبقات أو حكومة ماليين لان أصوات الناخبين لا تقاوم النفوذ الذي يناله الماليون بالتواطؤ مع السواس وتسخير الصحف والكتاب والخطباء . فكيف اذا أصبح الالوف والملايين الفقراء ـ وهم يطالبون بالموت في الدفاع عن أوطانهم ـ ولا أصوات لهم في الانتخاب ولا رأي لهم على الاطلاق الى جانب آراء الاغنياء والملاك وذوي النفوذ ؟ ومن المغالطة أن يقال ان الديمقراطية تسوي بين العالم والجاهل والغنيّ والفقير لانها تعطي كلا منهم صوتاً واحداً في الانتخاب ، فان الديمقراطية لن تسوي بين رجل له نفوذ شعبي ورجل لا نفوذ له على غير نفسه أو لعله لا يملك النفوذ على نفسه الا لينقاد به لسلطان الآخرين . اما اذا تجرد العالم أو الغني من النفوذ الشعبي فذلك على الاعم الارجح دليل على أنه لا يصلح للاعمال الشعبية وأن مجال صلاحه في ناحية أخرى بعيدة عن أصوات الناخبين ، ان باستور لم يمنعه أن يكون باستور وان يملأ الارض بعلمه أنه صاحب صوت واحد في الانتخاب . فاذا فرضنا أن شهرته لم توله كلمة مسموعة في سياسة قومه وأنه لم يتسع له الوقت لقيادة الجماهير فلا خسارة عليه ولا خسارة على الجماهير في التفريق بين كفاءته الشعبية وكفاءته في دائرة العلم والتفكير .

أهم ما في الديمقراطية أن يشعر كل فرد وكل فريق بانه صاحب رأي في حكومة بلاده . وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية ولا يطمئن المحكومون الى المجالس النيابية ، فالحكم النيابي الارلندي الذي تقرر الغاؤه سنة ١٨٠١ لم يفلح في اختلاس ثقة الشعب ولم يمنع ثورته الدموية والحاحه في طلب الانفصال عن الدولة البريطانية ، والبرلمان الذي انتخبه الملكيون في فرنسا بعد هزيمة نابليون لم يفلح في شيء قط حتى خدمة الملكية التي انتخبته !! فحلته الوزارة على الاثر

وأعادت الانتخاب بطريقة أقرب الى الحرية والتخيير . فالديمقراطية اما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً ، لانها حين تزيف أو تحصر لا يطول عليها تعويل الشعب ولا تعويل المستبدين .

وقد تعززت مبادىء التوسع في حقوق الانتخاب عملا قبيل الحرب وبعدها فاخذت بها أكثر الامم في انتخاب مجالس النوب ، ففي نحو مائة دستور يلخصها كتاب الاحصاءات السياسية لم تشذ غير انجلترا التي ينص قانونها على شروط مالية غاية في السهولة ، والارومانيا التي تشترط في الناخب ان يؤدي ضريبة ما من الضرائب العامة ، والاجمهورية العبيد التي تشترط الملكية ، والا بضع ولايات وجمهوريات في أمريكا تشترط اداء ضريبة الرؤوس . وقليل جداً من الدساتير يشترط القراءة والكتابة في الناخبين لان الاميين بينهم من جنس آخر وهم على الاغلب حمر أو سود[1]

---

[1]) امريكا الوسطى والجنوبية للاستاذ وليام شبرد

بلاد الدكتاتورية

(١) اسبانيا

لما وقعت حوادث الانقلاب في تركيا وايطاليا واسبانيا ومصر جمعها بعضهم باسم الدكتاتورية في بلاد البحر الابيض وحاول آخرون ان يجعلوا من هذه التسمية رابطة تسوغ شيوع الدكتاتورية في تلك البلاد . كأن كلمة البحر الابيض كافية لالقاء الشبه بين بلاد لا يشبه بعضها بعضاً في الجنس ولا في الاحوال السياسية أو الاقتصادية . فالفرق بين تركيا واسبانيا كالفرق بين أبعد أمتين على ظهر الكرة الارضية وكذلك الفرق بين مصر وايطاليا من وجوه كثيرة وان كانت جميعها واقعة على سواحل بحر واحد .

وهذه البلاد على اختلافها في كثير من الشؤ ون تختلف كذلك في الاسباب التي أدت الى الانقلاب والعوامل التي تمكّن فيها الحكومة الانقلابية . وأشد هذه البلاد اختلافا هي اسبانيا التي لا تضارعها في أحوالها المتناقضة أمة أخرى من أمم الحضارة .

مصطفى كمال وموسليني كلاهما بطل الانقلاب في بلاده ومحور الحركة القومية

التي اشتهرت باسمه . اما بريمودي ريفيرا (او مجوبلتو) كما يعرفونه في وطنه فلم يكن بطل الانقلاب ولا كان هو المختار لتمثيل دوره ، وانما انصرف اختيار الرجعية أولا الى الجنرال « أجوليرا » لتنفيذ الخطة المرسومة وانعقدت النية على ابراز هذا الجنرال لقيادة الحركة وأوشك ذلك أن ينفذ لولا أنه وقف مرة في مجلس الشيوخ يقول ان شرف العسكري مقدم على شرف « غير العسكري » فتصدى له رئيس الوزارة السابق « سانشي جوير » وصفعه صفعتين فقضى على مستقبله في الدكتاتورية بهذا الحادث الذي كثر حوله اللغط واشتد من جرائه اللجاج في البيئات العسكرية والاجتماعية .

عندئذ تحولت العناية الى بريمودي ريفيرا وهو رجل ارتقى الى رتبة القيادة قبل الثلاثين وشمله الطالع السعيد لانه ابن أخي الجنرال بريمودي ريفيرا الذي خذل الحكومة الثورية في سنة ١٨٧٤ ورد العرش الى ملوك البربون ، ولم يكن لذلك الجنرال ولد من نسله فكوفيء على عمله بترقية ابن أخيه حامل اسمه ووارث سمعة بيته !

والحركة كلها معتمدة على قوة الضباط الذين يكرهون الحكومة الدستورية الحرة لانها تريد أن تحد من عددهم ومرتباتهم وتنفق هذا المورد الكبير فيما ينفع الامة ويصلح مرافقها المهجورة . اما الرجعية فهي تأبى ذلك وتستبقي هذه القوة الكبيرة لقمع كل حركة تتوجس منها . وما الضباط في اسبانيا ؟ هم قوة لا نسبة بينها وبين حاجة الامة ولا عدد الجنود . « فقد قيل انه كان في اسبانيا عند نهاية الحرب مع الولايات المتحدة ٤٩٩ جنرالاً و٥٧٨ كرنيلا و٢٣٠٠ ضابط . وبعبارة أخرى انه كان للاسبان ٣٦ ضابطا حيث يكفي ضابط واحد للجيش الفرنسي في هذه الفترة ، وقد كانت عدة الجيش الاسباني سنة ١٩٠٦ ثمانين الفا ثلثهم ضباط ، وكان ستون في المائة من موارد الدولة تنفق على الجيش في أوائل هذا القرن وثلاثة أخماس هذا المبلغ تنفق على الضباط . . والقواد يتدخلون في السياسة كلما عنت لهم مناسبة . ففي سنة ١٩٠٥ نشرت احدى الصحف

---

(١) كتاب الفونس الثالث عشر مكشوف القناع للكاتب الاسباني الكبير بلاسكو ابانيز .

القطلانية مقالات اغضبت العسكريين فهجمت ثلة من الضباط على مكتب الصحيفة ودمرته تدميراً . ولو حدثت هذه الحادثة في غير اسبانيا لعدت تمرداً على النظام ولكنها لا تعتبر كذلك في اسبانيا على ما يظهر ، فان الضباط لم يعاقبوا . . لا بل ذهب القواد الى أبعد من ذلك فطلبوا أن يسلم كل من يتعرض للجيش او للمملكة الى لجنة عسكرية تفصل في أمر ادانته بدلا من تسليمه الى المحاكم القضائية ، فجعل الوزراء يستقيلون واحداً بعد واحد في مواجهة هذا الطلب ثم اقترح « جارشيا بريتو » وزير الحقانية يومئذ أن يحل المشكل بزيادة العقوبة على هذه الحملات مع بقاء المحاكمة موكولة الى القضاء . فتوعد الجنرال لوك ـ وزير الحربية ـ بالاستقالة من منصبه وأمهل « جارشيا بريتو » حتى يتدبر في الامر ويأتي باقتراح آخر قبل يتسنى للجنرال ان يقول هل الجيش راض بالاقتراح الجديد او غير راض ! وكان مغزى الكلام واضحا فلم يسع جراشيا بريتو الا أن يستقيل لانه لم يقبل الاذعان . ومن ثم اتفقوا على التوسط في نظام المحاكمة فتركوا قضايا الحملات على الضباط للمحاكم العسكرية وأبقوا القضايا التي تتعلق بالمملكة والراية للمحاكم القضائية »[١]

ومما يزيد الارتباك في سياسة الجيش ان صغار الضباط من فرق المشاة مخالفون لرؤسائهم في الميول والمطالب لاتهامهم اياهم بالمحاباة في الترقيات ، فهم يريدون الاصلاح ويشايعون خصوم القواد المكروهين بعض المشايعة . وليس من شأن هذا الاختلاف أن يهون علاج الحالة لمن يريد العلاج الحاسم لاصل الداء .

فهذه الحركة العسكرية تؤيدها الرجعية الممثلة في النبلاء والكنيسة ومن يكمنون وراءهم هي سر الانقلاب المدبر المرسوم بمعزل عن الحياة القومية على مثال غير الذي عرف في تركيا وايطاليا ، وما النبلاء أيضا في اسبانيا ؟ وما الكنيسة فيها ؟ أما النبلاء فهم الطبقة المسيطرة على الامة بين طبقات الاسبان . اذ ليس هناك الا سادة غنية وجماهير فقيرة وليس بينهما موضع للطبقة المتوسطة التي تظهر

---

(١)الاستاذ شارل شيهان في المجلد السادس والعشرين من تاريخ المؤرخين .

في الامم بظهور المشروعات الاقتصادية ورواج الصناعة والتجارة والتناسب في توزيع الارض الزراعية . يقول الاستاذ شارل شيهان : « ان بين النبلاء والجماهير فجوة واسعة لان الطبقة الوسطى ضئيلة الشأن بالقياس الى ما ينبغي أن تكون . والجماهير على الغالب عنصر طيب محب للحرية ميال الى الديمقراطية ولكنهم مرهقون بسوء الحال وقلة فرص الاعمال . فينزع الطامعون منهم الى الهجرة وارتياد الرزق في الارجنتين والمكسيك وغيرهما من أصقاع امريكا الاسبانية ، ويبرح اسبانيا في كل سنة مائة الف او أكثر من خيرة العناصر المطلوبة للبلاد ، ويبقى الذين يتخلفون في حالة من الضنك بالغة في السوء والضعة » .

اما الكنيسة أو رهبان الاديرة فقد كان لهم في القرون الوسطى نصف الارض ومعظم الثروة ، ولا تزال لهم في اسبانيا قوة لا تغالب لانها كانت مباءة رجال الدين ومحكمة التفتيش بعد اجلاء العرب واشتداد الدعوة الصليبية . فتواطأ سلطان الاستبداد وسلطان الكنيسة على قتل التعليم ومحاربة العلوم والفنون التي لا بد منها لاحياء الصناعة وتثمير موارد الثروة . حتى حظروا دخول الكتب الاجنبية وحرموا كل معرفة لا يباركها أنصار العصبية الدينية . ونجم عن ذلك « ان اسبانيا فيها الآن الفا الف هكتار من الارض لا تزرع وستة وعشرون الف الف هكتار من الارض الصالحة للزرع لا تروى والف الف فقط من الارض المروية المزروعة . . . وأنهار البلاد تتدفق الى البحر فتجري في أقاليم جرداء ظامئة وتطم في الشتاء لاجتراف كل ما يعترضها في طريقها لا لاخصاب الاقاليم واصلاحها للزراعة . ففي اسبانا صخور كثيرة لبناء الكنائس والاديرة ولا صخور فيها لبناء السدود والخزانات »[1]

وجاءت المستعمرات فافسدت ولم تصلح وضاعفت البلاء ولم تخففه . نزح اليها نخبة الشباب وخلفوا الديار خاوية على عروشها للنبلاء والرهبان والكسالى من السكان ، ثم تهورت المملكة في حرب مع الولايات المتحدة من أجل تلك المستعمرات فكان كل ما أصاب الحكومة منها أنها خرجت بدين أهلي قدره مائتان

---

(١) في ظل الكنيسة للكاتب الكبير بلاسكو ابانيز

وسبعون مليون جنيه بفائدة سنوية أربعة في المائة وستون مليونا بفائدة سنوية خمسة في المائة . وهذا فضلا عن الديون الاجنبية وأثمان الارض المبيعة مما أدى الى متاجرة الحكومة بورق النصيب ونقص المرتبات[1] واختلال الوظائف وشيوع الفساد في دواوين الحكومة ، حتى أصبح الموظف يقبض ما يقبض من مرتبه ولا يذهب الى ديوانه لاشتغاله بحرفة أو حرف أخرى ، وروي عن موظف اسباني قبل سنوات قليلة أنه كان يشتغل بخمس عشرة حرفة غير الوظيفة[2] .

في وسط هذه الفوضى الفاشية في كل مكان ، وفي وسط هذا الاستبداد الذي يتعاون عليه الرجعيون جميعاً ويستمسكون به كلما أنذرتهم بوادر التداعي والزوال ، في هذا الغمار المضطرب المتقلقل حبطت مساعي الاحرار وشاعت البطالة والتسول والفقر المدقع وسرت روح التذمر بين العمال وتفرقت البلاد شيعاً وأقاليم يطلب كل منها الاستقلال لبلده ويمعن بعضها في ذلك حتى يعلن الثورة وينادي بالانفصال كما حدث في قطالونية . اذ يجب ان نذكر ان اسبانيا كلمة واحدة ولكنها في الواقع أمم شتى لم يندمج بعضها في بعض ولم يزل كل فريق منها يكره كل فريق غيره ويعيره أصله وقومه . ففيها ملل كثيرة تزيد على العشرة وفيها أقاليم منعزلة تلح في طلب « اللامركزية » ولا يعنى ابناؤها بالوطن كما يعنون بمصلحة الاقاليم .

هذا الى جانب الدعاية الجمهورية والدسائس المتشعبة بين أجزاء الامة المفككة الاوصال ، والى جانب المكائد الخفية التي تعرقل كل اصلاح يرجى أن يقتلع أصول الحكومة السيئة ، فلما وقعت كارثة « النورال » ـ وهي الكارثة التي قتل فيها عشرة آلاف جندي والقائد سلفستر ومئات من الضباط واستأسر بقية الجيش كله للمراكشيين ـ جرى التحقيق على أيدي لجنة النواب واشترك فيه الملكيون والجمهوريون فظهر من أقوال الشهود ومن أوراق ضبطت في أمتعة القائد القتيل ان خطة القتال التي أودت بذلك العدد الكبير من ابناء البلاد قد وضعت بغير علم

---

(١) اسبانيا الحديثة من ١٨١٥ الى ١٨٩٨ للاستاذ بتلر كلارك .

(٢) الاستاذ شبهان في تاريخ المؤرخين .

وزير الحربية الذي نبزه واضع تلك الخطة المشؤ ومة بلقب « الحمار » . . فهاجت الخواطر هياجا عظيما وأوشك أن يقع الحادث المنتظر وأن يسقط معه المسؤ ولون عن هذا الفساد ولكنهم عجلوا بالانقلاب ـ وقد طال تحفزهم له ـ ودفعوا آلاتهم للتنفيذ فمضوا فيه وكان أول ما اهتموا له مهاجمة البرلمان والاستيلاء على محاضر لجنة التحقيق !

هذه حالة لا شبيه لها في غير اسبانيا من بلاد العالم أجمع وذلك انقلاب يراد به اطالة أسباب الفساد لا اصلاح تلك الاسباب التي لن يرجى مع بقائها صلاح .

تركيا

اذا كانت اسبانيا مخالفة جداً لتركيا وايطاليا في انقلابها فالشبه من الجهة الاخرى غير قريب بين أسباب الانقلاب الذي حدث في هذين البلدين ومظاهره وأشخاص القائمين به . غير أنهما قد يتشابهان في أمر واحد وهو أن بطل الانقلاب في كليهما هو محركه ومحوره وان تباينت البواعث والاغراض .

لما عقدت الهدنة بعد الحرب العظمى كان قد مضى على تركيا سبع عشرة سنة في حروب متلاحقة من حرب طرابلس الغرب الى حرب البلقان الى الحرب العظمى الى ما تقدم ذلك وتخلله من مناوشات في اليمن وأرمينية والبانيا وغيرها ، بحيث انقضى على معظم الجنود في الجيش العثماني خمس عشرة سنة لم يلقوا السلاح ولم يزالوا طوال ذلك الزمن بين هزيمة فادحة أو ظفر لا غنم فيه . هذا الى شظف العيش وادمان الهجرة وقنوط النفس من عواقب الجهاد المتتابع في غير طائل . ثم كانت الطامة الكبرى بعد الحرب العظمى فسقطت تركيا متهالكة من الاعياء لا رمق فيها ولا رجاء : خراب فوق خراب ويأس مطبق لا منفذ فيه للرحمة ، جيش مشتت مفلول وأمة منهوكة يرهقها ذل الهزيمة وعاصمة محتلة وحكومة منخوبة القلب يعبث بلبها الوعد والوعيد وخليفة يخير نفسه بين حماية انجلترا أو حماية

الولايات المتحدة ، والحلفاء من وراء ذلك ظافرون مختالون قد حكموا على عدوهم الواقع في قبضة يدهم بالمحو والفناء وقسموه بضعة بضعة وأطلقوا على كل بضعة منه خصما متعطشا للنقمة يقتل وينهب ويهتك الاعراض ويدمر العمار .

من هذا الخراب المطبق انشأ مصطفى كمال دولة جديدة تنفض عنها ضعف القنوط ويبرم لها أعداؤها قيوداً جديدة فتخرج هي من محنتها وقد حطمت قيوداً لأولئك الاعداء كانت ترسف فيها قبل الحرب وأبطلت كل ما كان لهم في بلادها من الامتيازات وكل ما كان لهم في دواوينها من الجاه المطاع .

لم يكن مصطفى كمال حكيما متئداً بلا ريب حين صحت عزيمته على أن يحارب الحلفاء ويحارب اليونان ويحارب حكومته ويحارب الخائنين من أبناء وطنه ، لم يكن حكيما متئداً حين صحت عزيمته على أن يحارب هؤلاء جميعا بطائفة من أمته الصغيرة مثخنة بجراح الهزيمة والافلاس معودة أن يتورط بها القادة فيما لا يفيد ولا يعود منه فخر ولا عزاء . وانما كانت الحكمة كلها والاتئاد كله عند اناس آخرين من الترك كانوا يجلسون في الاستانة في هينة وسكينة ينتظرون الخاتمة التي ما كان عنها محيد ، وكانوا يعلمون ما لا فضل في علمه لاحد على أحد : كانوا يعلمون أن الحلفاء أقوياء ظافرون وأن مصطفى كمالا ضعيف مخذول ، وأن الحماقة كلها حيث يعمل مصطفى كمال والحكمة كلها حيث يعملون هم مع الحلفاء أو بعبارة أخرى مع الانجليز . وصدّقوا - لانهم حكماء متئدون - أن الانجليز لا يتنمرون لتركيا ولا يشتطون عليها في شروط الصلح الا لأن فيها حركة وطنية وانسانا يسمى مصطفى كمالا يقود تلك الحركة الوطنية ! فبعثوا اليه البعوث تقاتله ونصبوا المحاكم تدينه في غيبته وقضوا عليه هو وصحبه بالموت لانهم عصاة يقلقون سلام الدولة ويفسدون بطيشهم سياسة الدهاة المحنكين ! قال مصطفى كمال : « كانوا يقولون للامة من جهة وللحكومة الاستانة من جهة أخرى لا تعترفوا بمصطفى كمال ولا تثقوا به لان الحلفاء لم يشتدوا على تركيا الا من جراء فعله . كانوا يقولون ذلك ويزعمون انه اذا قضي عليَّ نالت البلاد عند الدول الاجنبية كل صداقة وهوادة » .

كان دهاة الاستانة المحنكون هم الحكماء المتئدون لانهم صدّقوا هذا الكلام المقنع الجميل . أما مصطفى كمال فلم يكن الا رجلا وطنيا غيوراً يحس احساس الوطني الغيور . رجلا يشعر بعاطفة الحب لبلاده فلا يصدق أنها تموت كما لا يصدق الوالد المشفق ان وليده مائت بين يديه وإن أحدقت به أعراض المنية ولم يبق فيه الا قليل ذماء ، ولم يكن بعيداً عن مصطفى كمال أولئك الذين يوسوسون له بان أمته أمة هالكة لا تستحق حبه ولا ينفعها ولاؤه . فقد كان في أوائل الحرب يشكو الى الرؤساء إشراف الالمان على جيش بلاده وتسليم الهيئة الالمانية جميع اسراره ومعداته فلم يأبه له أحد ولم يظفر منهم بخبر ، الا صديق له من أصحاب المناصب الكبيرة في وزارة الحربية قال له وهو يتلطف اليه : « اننا أكثر منك تجربة أيها الاخ ! لا أنكر ان ما يستجيشك الى هذه الاخيلة وهذا الشعور انما هو حب وطنك وايثارك مصلحة قومك . ولكن أترى ان هذا الوطن وهؤلاء القوم يستحقون منك هذه المحبة المستحرة ؟ »[1]

فاكبر انتصار يؤثر لمصطفى كمال هو لا مراء هذا الانتصار الاول على اليأس والرهبة وسوء الظن بالامة . ولو انه يئس لما ليم على يأسه ، أو رهب لما كانت رهبته لغير سبب ، أو أساء الظن بالامة لسوغت ظنه السيء خيانة الخائنين وجهل الجهلاء وخطل السواس وقلة جزاء العاملين ، ولكنه قهر هذه الوساوس في نفسه وأدال منها للعزيمة والرجاء وعلم أنه زعيم ليجعل الامة تستحق لا لأن الامم تستحق كل شيء بغيره ، فكان انتصاره على وساوس الضعف هو البطولة الصادقة وهو الغلبة التي لا تذكر معها غلبته على خصومه في ميدان الحرب والسياسة .

ويحق لنا أن نسمي مصطفى كمالا « دكتاتورا » اذا عنينا أنه صاحب الفضل الاكبر في انقاذ أمته وتفريج أزمات بلاده ، ولكنه ليس بالدكتاتور اذا نظرنا الى نظام حكومته وقواعد دستوره واتصاله الحميم بشعبه .

فانه لم يحكم قط لا في الحرب ولا في السلم بغير هيئة نيابية ، ولم يدع الى انتخاب المجلس الوطني الكبير الا بعد أن صدر امر « وحيد الدين » بحل مجلس

---

(١) راجع مذكرات الغازي مصطفى كمال التي نشرتها الصحف التركية وترجمت نبذ منها الى العربية

المبعوثين ولحقت بانقرة جماعة النواب المؤيدين له في الحركة الوطنية . فاجتمع من هؤلاء ومن النواب الذين نفاهم الانجليز الى مالطة ومن النواب المنتخبين في الاناضول ثلمائة وخمسون نائبا هم قوام الحكومة الكمالية وهم أصحاب السلطان الاعلى في التشريع والتنفيذ وادارة اعمال الحكومة كافة ، فالأمة هي صاحبة السيادة الكاملة والمجلس الوطني الكبير هو ممثل الأمة وهو الذي يوكل عنه الوزراء والولاة بل هو الذي انتدب مصطفى كمالا للقيادة وجددها له فترة بعد فترة ، وكانت مدة المجلس سنتين في ابان الحرب لمتابعة الحوادث ، وتمثيل الامة فيه أثناء التطورات الحربية أصح تمثيل . ثم استقرت الأمور وتعدل الدستور في العشرين من ابريل سنة ١٩٢٤ فزيدت مدة المجلس الى أربع سنوات ونصت المادة السابعة على ان « المجلس يباشر سلطته التنفيذية بواسطة رئيس الجمهورية الذين ينتخبه المجلس وبواسطة الوزراء الذين يختارهم رئيس الجمهورية » ولكن ليس لهذا الرئيس ان يحل المجلس الوطني الكبير ولا أن يرفض القوانين التي أقرها النواب وليس من حقه أن يشترك في المناقشات وان كان يجوز له في حالات خاصة أن يحضر جلسات الوزراء ويجوز للمجلس ان يسقط الوزارة متى شاء .

قالت الكاتبة الانجليزية جراس اليسون في كتابها الحديث « تركيا اليوم »[1] : « ان القدر قد ارتفع به الى أعلى ذروة في بلاده ولكنك لا تلمح عليه انه صاحب مطامع شخصية اوخاضع لاية رغبة في المال او الاسرة او المنصب ، ولو تسنى بقاء السلطان لبقي على عرشه . فقد رجاه هو مرة ان يتقدم بنفسه ليتسلم أزمة الامور ، ولما القى اليه الشعب الشاكر مقاليد السلطنة والخلافة رفضها بتاتا على اخلاص الشعب وجده في اقتراحه » .

وقد جهر مصطفى كمال بامتعاضه من سياسة أحمد زوجو ملك ألبانيا الجديد وأبى أن يعترف به لئلا يكون في اعترافه تشجيع للذين يستخدمون ثقة الأمة لمثل هذه الأغراض . فليس لأمة من الحقوق الدستورية مثل ما للامة التركية في حكومة مصطفى كمال ، واذا أقدم هذا الرجل العظيم اقدام الجسور في اصلاح

---

(1) Turkey to day

قومه فانما يفعل ذلك بشفاعة عن حبهم اياه واعجابهم به ورغبتهم في ارضائه وتسهيل عمله ، وطوبى لامة تجتمع لها حقوق الدستور ونخوة الاعجاب وترزقها العناية رئيسا تثق به ويثق هو بأنها جديرة بين الامم باعلى مقام .

ومصطفى كمال بعد عالم في فنه مطلع واسع الاطلاع على سير القواد والعظماء ، خطيب فصيح وكاتب اديب وسائس موفق السياسة ومصلح بصير بدخائل النفوس ومواقع الاصلاح ورجل اجتماع مستظرف الكياسة وانسان تشرف به الانسانية ويعد في الذروة العليا بين الرجال العاملين .

الى مثل هذه الزعامة تحتاج الامم ، لان الامم لا تطلب الزعماء الا لينهضوا بها فوق ضعف الحرص والضرورة وفوق ضعف الشهوات الباطلة والعروض الزائلة ، ولو كان عمل الزعماء فيها أن يجنبوها كبار الآمال ويوصوها بالحرص على الشهوات القريبة والعروض الميسرة لاستغنت عنهم أيما استغناء ولكان لها الكفاية فوق الكفاية من ذلك الجشع المركب في دخائل النفوس والذي ما وجدت القوانين والاخلاق والاديان والزعامات الا لانه محمود الزوال والخفاء وليس بمحمود البقاء والنماء .

ايطاليا

تنبيه

كتبت عن « الفاشزم » في اوربا وأمريكا عشرات من الكتب ومئات من الرسائل والمقالات أكثرها لا يمكن التعويل عليه لما هو معلوم من سعة الدعوة التي يقوم بها الفاشيون في كل مكان وكثرة الاغراض التي تدور حول الدفاع عن هذا المذهب بين أصحاب أموال يحبون أن تشيع القوانين الصارمة في معاملة الصناع أو محافظين يكرهون الديمقراطية والاشتراكية أو خصوم سياسيين لخصوم موسليني يساعدونه للنكاية بابناء وطنه الآخرين . ويجب الحذر على الاخص مما يكتب عن الفاشية في بلاد الانجليز لان السياسة البريطانية تمالىء موسليني لأسباب منوعة يتعلق بعضها بالتفاهم السري على الشرق واوربا الشرقية ـ والقراء في مصر لا ينسون مسألة جغبوب ـ ويرجع بعضها الى ما يأتي وهو :

(أولا) ان موسليني كان داعية الحرب في صفوف الحلفاء حين وقف الساسة الايطاليون موقف الحياد أو المحاباة السلمية لدولتي اوربا الوسطى عملا بالاتفاق القديم . فمن مصلحة السياسة البريطانية أن تؤ يده في ايطاليا وتخذل خصومه بكل ما تستطيع .

(ثانيا) ان موسليني انشق على الاشتراكيين وأفرط في محاربة الشيوعية وهي

عدو لدود للسياسة البريطانية يهمها أن تؤلب عليه الانصار .

(ثالثا) انه ينافس فرنسا في البحر الابيض فهو قرين موافق للسياسة البريطانية .

(رابعا) ان السياسة البريطانية احتاجت بعد الحرب العظمى الى رد فعل للمبادىء الولسنية والافكار العامة التي اطلقت آمال الشعوب ودفعت بها في وجهة الحرية والديمقراطية ، فهي تجد في الفاشيين حاجتها لكبح تلك الآمال ومحاربة تلك الافكار حيث يروقها أن تحاربها في البلاد الشرقية . ولا سيما وهي تستطيع أن تعمل ذلك دون أن تغضب الامة الانجليزية بل هي تعمله لتملق هذه الامة وتعتبر الحكم الديمقراطي مزية خاصة لها لا تشاركها فيها الامم الاوربية ولا شعوب الشرق من باب أولى .

(خامسا) ان في انجلترا حزبا من المحافظين الجامدين وبعض رجال الدين ـ لسان حاله صحيفة المورننج بوست ـ يكره الديمقراطية كراهة شديدة ويدعو الى سياسة الدم والحديد لانها خير سياسة للامم قاطبة والامم المستعبدة منها على الخصوص . ويقول ان حركات الشعوب كانت دسيسة يهودية لتدمير اوربا وتقويض الحضارة المسيحية واضعاف سلطان الكنيسة الكبرى ! ويعتمد في هذا الكلام على حركات ايطاليا نفسها لانها وجدت العضد الاكبر بين جماعات الماسون وكان اليهود فيها غير قليلين . وأشياع هذا الحزب هم الذين اكتتبوا بمبلغ من المال اشتروا به سيفا في قراب ذهبي أهدوه الى القائد داير صاحب مذبحة امرتسار في الهند .

فالذي يكتب عن الفاشية في الصحف الانجليزية وفي بعض الكتب مشوب باغراض كثيرة لا يسهل استخلاص الحقيقة من بينها ، وقد يخدع به القارىء اذا لم يتخذ لنفسه الحيطة فيبنى عليه حكما بعيداً عن الصواب . وكاتب هذه الرسالة قد عالج مصداق ذلك في نفسه من قراءاته السابقة واللاحقة في هذا الموضوع .

* * *

بعد هذا التنبيه الذي لا بد منه تقول ان الفاشية هي المذهب الوحيد في بلاد الدكتاتورية الذي يدعي أنصاره أنهم يصدرون في حكومتهم عن مبادىء عامة تقابل مبادىء الديمقراطية . وقد أعلنوا هذه المبادىء في مؤتمر عقدوه في شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ وتتلخص في أساس واحد وهو « أن الامة ليست هي مجموعة الافراد الاحياء فحسب ولا هي آلة للاحزاب ولكنها بنية تدخل فيها سلسلة الاجيال التي لا نهاية لها ولا يعد الافراد الا أجزاء عارضة منها ، وهي بعبارة أخرى جملة جميع العناصر المادية وغير المادية التي تنطوي عليها القومية » .

وادراك الامة على هذا النحو ليس بالرأي الجديد ولكن الرأي الجديد فيه هو ما استخرجه « الفاشيون » من هذه الحقيقة وهو أن الحكومة هي كل شيء ولا يصح أن تتألف في الامة هيئة مجتمعة خارجة عن السلطة الحاكمة حزبا كانت هذه الهيئة أو نقابة عمال أو جماعة تتولى العمل للمصلحة العامة ، وواضحٌ ان هذه النتيجة الغريبة مناقضة لادراك الامة على النحو المتقدم لان القول بان الامة « بنية تدخل فيها سلسلة الاجيال التي لا نهاية لها وأنها جملة العناصر المادية وغير المادية التي تنطوي عليها القومية » أحرى ألا يجعل مقاديرها الحاضرة والمستقبلة لعبة في أيدي بضعة أفراد يحكمونها في جيل واحد بغير مناقشة او تعقيب ، وقد شاع أن الفاشية عدو الشيوعية المبالغ في مطاردتها واستئصالها وهو صحيح من حيث الظواهر والعناوين وصحيحٌ مثله أن بعض طوائف الاشتراكيين تحارب الشيوعية كهذه الحرب بل أشد منها نقمة وبغضاء ، ولكن الواقع أن « الفاشية » أخت الشيوعية في الجوهر والاساس وهو محو « الفرد » واستغراق حريته وحقوقه في سلطة الحكومة . فما جهد « كارل ماركس » لشيء جهده لاثبات هذه الفكرة التي يقوم عليها بناء الاشتراكية كله ، فالمنافسة الفردية لا يصح بحال من الاحوال أن تقف في طريق الشيوع الاجماعي ما دام أن الفرد عنصر عارض لا قيمة له في حوادث التاريخ ، وعلى هذا يجب أن تستولي الامة على كل شيء ولا يستأثر الفرد بشيء . ! بيد أن الشيوعيين يقولون ذلك ولا يقطعون الامل على الفرد في المستقبل كما يقطعه عليه الفاشيون ، فهم يمنونه بالحرية التامة في توجيه حياته وتكميل خصائصه متى خف عنه ضغط الفاقة وجهاد المعيشة بمنع الملك

والاستئثار واعفاء المجتمع من حروب الطبقات . اما الفاشيون فلا يفتحون له باب هذا الأمل ولا يبرح الفرد عند حكومتهم مستغرقا في المجتمع الذي لاحق لانسان فيه خارجا عن حق الحكومة الخالدة ! ومن ثم يبدو لنا موضع الخطر الدفين ويتبين لنا أن المسافة بين الشيوعية والفاشية ليست من البعد بحيث توهمنا الخصومة الظاهرة والعداوة العنيفة . تلك الخصومة التي ينشب ما هو أعنف منها بين الاشتراكيين والاشتراكيين والتي قد نشب ما هو أعنف منها فعلا بين البلشفيين والمنشفيين .

هل كان الفاشيون على هذه العقيدة منذ البداية ؟ لا . قال السنيور نيتي في رسالته التاريخية في المجلد الخامس والعشرين من تاريخ المؤرخين : « كان من مقاصد الفاشية في بدايتها انشاء الجمعية الايطالية الدستورية على أن تكون فرعا لجمعية الشعوب الدولية التي ترمي الى تغيير قواعد المجتمع سياسةً واقتصادا والوصول ـ بغير تدرج ـ الى تطور الحضارة واعلان الجمهورية الايطالية مع الحكم الذاتي للاقاليم وسيادة الشعب تتولى تنفيذها هيئات مختصة والغاء مجلس الشيوخ وكل هيئة مصطنعة تحد من اطلاق السيادة الشعبية ، والغاء الرتب المميزة للطبقات والغاء الجندية الاجبارية ونزع السلاح وانشاء معاهد شعبية كبيرة للتسليف الخ الخ مما جعل للفاشية بين سنتي ١٩١٩ و١٩٢٠ نزعة ثورية ونم على أصلها الاشتراكي . الا أن النزاع بينها وبين الاشتراكية ـ وكلاهما له أصل واحد ـ قد صبغها بالصبغة الوطنية ثم بالصبغة المحافظة خلافا لبدايتها الاولى . وقد ساعد على ذلك انتظام كثير من جنود الحرب في صفوفها فلم يبق ذكر لمقاصدها الاولى » .

كذلك نشأت الفاشية في بدايتها ، ثم صارت في سنة ١٩٢١ الى ما رأينا ! فلما جاء دور الحكم كانت تحية موسليني لمجلس الشيوخ كلمة طيبة وتحيته لمجلس النواب انذاراً يشبه انذار كرمويل للبرلمان الانجليزي في اللهجة والزراية ، وأصبح مفروضاً على كل فاشي أن يقسم يمين الولاء للملك كما يفعل الجنود في الجيش .

وليس هذا أول تحول في آراء موسليني أو تناقض بين مبدئه وعمله ، فانه كان ينكر الحرب عامةً وكان أحد الذين قبض عليهم وحوكموا لاثارتهم الشعب والهياج في أيام الغارة الطرابلسية . ثم كان شديد المعارضة لاشتراك ايطاليا في الحرب فكتب في « افانتي » صحيفة الاشتراكيين بتاريخ ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ يرد على صحيفة

« الايديانسونالي » أي الفكرة الوطنية التي كانت تحث على دخول الحرب : « آه ! لقد ظهرتم اخيراً . ان الحرب تدبر لتعزيز جاه البيت المالك والجيش والحكومة . . حسن ! ولكنكم لا تقولون لنا جديداً أيها السادة . فلهذه الاسباب عينها نحن لا نبغي حربا . لان الغاية التي تقصد اليها معكوسة على خط مستقيم ، نحن نقصد الى هدم جاه البيت المالك وجاه الجيش وجاه الحكومة » وكتب في « افانتي » أيضاً يقول : « ان المعاونة على حصر الحرب وتضييقها هي واجب ايطاليا المجيد الذي عليها أن تقوم به ما دام منع الحرب غير مستطاع ، وليس في وسعنا أن نكون خداما ولا ممالئين لالمانيا والنمسا »[١] .

كتب موسليني ذلك لان الجانب الذي كان ينتظر ان تنحاز اليه ايطاليا هو جانب المانيا والنمسا على حسب الاتفاق القديم بين الدول الثلاث، ولم يكن هناك محل للمعارضة في انحياز ايطاليا الى الحلفاء لانها لم ترتبط بعهد يوجب عليها الانحياز اليهم . ومن هنا جاء قوله « ليس في وسعنا أن نكون خداما ولا ممالئين لالمانيا والنمسا » ولم يقل « ليس في وسعنا أن نكون خداماً لانجلترا وفرنسا » اذ أن شيئاً من ذلك لم يقع في الحساب . ولكن ما هي إلا أسابيع بعد شبوب الحرب حتى كان موسليني يدعو الى التأهب للقتال ثم الى مشاركة الحلفاء واذا به ينشق على الاشتراكيين فينشىء ـ مع فقره ـ صحيفة مستقلة لترويج هذه الدعوة ثم يتقدم الى الحرب فيخرج فيها ويعفى بعد ذلك من القتال لمواصلة الدعوة بالقلم واللسان .

ولا جرم يستجيز موسليني كثيراً من هذا فانه يتخذ مكيافلي اماماً وقائداً ويقول : « انني أريد أن أحتفظ بالصلة اللازبة بين مبدأ مكيافلي وحياتي أنا كما عشتها وبين آرائه وآرائي في الناس والحوادث وبين مزاولته ومزاولتي للحكومة »[١] وهو ينظر الى مواطنه الآخر العظيم يوسف ماتسيني نظرة هازئة ويسميه القديس يوسف أو قديس جنوه على سبيل السخرية . وما كان ماتسيني في الحق الا قديساً كريماً من قديسي الانسانية ومثلا فاضلاً في الاخلاص والثبات والفداء .

---

(١) كتاب رجل القدر لفتوريو دي فيوري صديق موسليني .

(١) عدد اكتوبر ١٩٢٤ من الـ « فورتنيتلى رفيو »

ولو أجاب الملك الوزارة الى اعلان الاحكام العرفية حين أراد الفاشيون إجبارها على الاستقالة لتغيرت الاحوال في ايطاليا وجاز ألا يظفر الفاشيون بالحكم كما ظفروا به الآن . ولكن الملك لم يعلن الاحكام العرفية لان الجيش كان يعطف على الفاشية عدو الاشتراكيين الذين كانوا يستخفون بالعسكرية وافرطوا في ذلك بعد خروج ايطاليا من الحرب العظمى بغير عوض يذكر ، ولان الفاشية كانت قد أدت كل ما عليها للملك من الطاعة والولاء وهجر مبادئها الاولى التي كانت تعوقها عن ولاية الحكومة .

وبعد فهل كان للفاشية موجب ؟ وهل كانت هي العلاج الوحيد لما كانت عليه ايطاليا في تلك الايام ؟

اما الفاشيون فيقولون بالبداهة نعم ويتعللون لذلك بكثرة الاضراب والاضطراب في الشؤون الايطالية بعد الحرب العظمى . ويقول توماسو سيلاني احد كتاب موسليني في الرد الرسمي الذي رد به على مقال ولز الكاتب الانجليزي المعروف : « في سنة ١٩١٩ لم تعد لايطاليا مسحة البلاد المتمدنة . فقد اجترف البغض الجماهير واستثارتهم فئة من المهيجين بغير ضمير فاستسلموا لشر ضروب العدوان وأصبح مشايخ الحرب الموقرون يهانون ويضربون والمحاصيل تحرق في الحقول وتركت الماشية تموت وكثرت حوادث الاعتداء على أرواح أصحاب الارض ووكلائهم الامناء ومديري المصانع الذين حاولوا أن يصدوا العمال الشيوعيين عن التخريب . وبلغت الاضرابات لاسباب اقتصادية بحت في تلك السنة ١٦٦٣ اضرابا اشترك فيها ١،٠٤٩،٤٣٣ مضربا وتعطل في أثنائها ١٨،٨٨٧،٩١٧ يوما من أيام العمل . وتوقفت ـ لاسباب سياسية ـ حركة الحياة في شبه الجزيرة كلها وشلت الاعمال العامة والسكك الحديدية والترامات والبريد والتلغراف والتليفون وظلت البواخر بلا حراك في الموانىء . وحدث في أحوال كثيرة أن قُصر توزيع الخبز على أعضاء الجماعات الثورية وبات وجود الشرطي في القطار كافياً لوقفه تواً ولو اتفق ذلك في العراء فلا يسير حتى يُطرد الشرطي الذي يعد مجرد حضوره استفزازاً . فتعاظم سخط الايطاليين الصالحين واشمئزازهم ولا سيما المشايخ الاجلاء والطائفة الناشئة بين المستنيرين واهل الجد من العمال

وكان استياؤهم من الحكومة التي عجزت عن معالجة الحالة على أشده »[1]

هذا مجمل الاسباب الموجبة لقيام الفاشية في رأي ذلك الكاتب الذي هو أحد أعوان بطلها وحملة اقلامه . وقد أتى فتوريو دي فيوري صديق موسليني على أسباب كهذه في كتابه الحديث « رجل القدر » مع بعض التفصيل وطابقها كتاب آخرون معدون في اوربا وامريكا لنشر الدعوة وكلهم يقولون ان الفاشية قامت لتدفع القوة بالقوة وترد الثورة بالثورة وتريح الامة من تلك الفوضى الطارئة التي عجزت عن مكافحتها الحكومة .

أما خصوم الفاشية فيقولون ان أخبار الفوضى الايطالية كانت اشاعات مبالغا فيها جدا في الصحف الاجنبية . بالغ فيها الفاشيون لتسويغ عملهم ووافقت هلع القوم في اوربا يومئذ من خطر الشيوعية فوقعت عندهم ايضا موقع المبالغة والتهويل . والحقيقة أن الايطاليين ما كانوا قط في تاريخهم جادين في الثورة على النظام الاجتماعي ولا كان منظورا لتلك القلاقل التي أعقبت الحرب الا أن تهدأ بعد التجربة الفاشلة وأن يقلع عنها أصحابها عن اقتناع يدوم أثره ويفلح علاجه وليس كعلاج العدوان والعنف الذي يغري بالمقاومة ويضرى بالكراهية ويلقي في روع المقموعين المضطهدين أنهم غلبوا قهرا الى أن تتاح لهم معاودة الكرة واستئناف التجربة .

ويكفي ان تكون في ايطاليا طبقات كثيرة تغضبها الاشتراكية كما يقول الكاتب الفاشي ليدل ذلك على أن الخطر عارض قريب الغور وليس ببعيد القرار في طبيعة الامة بل يكفي ان يكون في البلاد الحزب الكاثوليكي ـ وهو يضم اليه سواد الفلاحين ـ والاحزاب الاخرى التي تؤمن بالتطور ولا تؤمن بالثورة ليكون ذلك عاصما من عموم الفتنة ودوام الفوضى . وقد عرف العمال خطأهم بعد الاستيلاء على المصانع فتخلوا عنها بانفسهم وثابوا الى العمل طائعين في سنة ١٩٢٠ ، وسهلت الحكومة لغلاة الشيوعيين أن يحجوا الى الروسيا غير معارضين ليشهدوا بأعينهم حقيقة الحال فقفلوا من رحلتهم وهم شاكون مترددون بعد الايمان

---

١ عدد مايو سنة ١٩٢٧ من مجلة التاريخ السائر

الاعمى والرغبة الجامحة في تحقيق أحلام الثورة الاجتماعية وتطبيق مبادئها النظرية . . » ودع عنك أن ايطاليا ليست بالبيئة الملائمة للثورة وان الثوار المنظورين لا طاقة لهم بأكثر من التحدث ببركات الشيوعية ولا علم لزعيم من زعمائهم بدخائل التدابير الروسية . فليس في ايطاليا أناس لهم كفاءة الفهم والقدرة الفنية اللازمة للثورة الناجعة غير اتباع توراتي الملقب بابي الاشتراكية الايطالية وهو رجل قد دأب ثلاثين سنة ولاء علّى التحذير من العنف والثورة وعمل ما في وسعه بعد الحرب لكبح جماح المتطرفين . وقد ظهرت استحالة القيام بأية ثورة جدية في ايطاليا ظهوراً لا يقبل المراء في خريف سنة ١٩٢٠ حين تنحى العمال عن المصانع ورجعوا الى أعمالهم مؤمنين بعجزهم عن ادارة عن المصانع ورجعوا الى أعمالهم مؤمنين بعجزهم عن ادارة دولاب الصناعة بغير المال والخبرة الفنية . وقد أذن لهم جيوليتي ببعد نظره الساخر أن يجربوا هذه التجربة العظيمة مؤثراً إياها على اقصائهم بحد السيف والاقبال على مجازفة الحرب الاهلية ، وضربت الاحزاب الثائرة ضربة أخرى حين وافق أتباع توراتي على اقتراحه الانفصال التام من أنصار الاشتراكية المسكوفية المعروفين بالمكسمليين وتقرر ذلك في مؤتمر الاشتراكيين في شهر يناير سنة ١٩٢١ . . على ان المنقذين الحقيقيين لايطاليا هم بلا ريب الشعب نفسه بما بادر من العودة الى العمل منذ تبدد السراب الروسي ورجع وفد الاشتراكيين الايطاليين من رحلة الاستطلاع والمعاينة غير مزودين بوسائق القمح من عند الزميل لنين . وبرهان محسوس على نشاط الشعب وعلى أن الحكومة لم تكن تلك الحكومة العاجزة التي يصورونها أن الدين الاهلي ـ وكان مقداره ثلاثة وعشرين ملياراً بعد الحرب ـ قد هبط الى ثلاثة مليارات قبل أن يتولى السنيور موسليني الوزارة »[1] .

ولقد أطنب الفاشيون في منافع حكومتهم ونسبوا اليها كل فضل في احياء الصناعة الوطنية وروجوا دعوتهم في أوربا وفي مصر فقرأنا لبعض كتابنا كلاما يريدون منه أن يفهم الناس أن الفاشية هي التي استخدمت قوة مساقط الماء

---

(١) بقلم لينا واترفيلد في عدد نوفمبر سنة ١٩٢٤ عن مجلة الفورتنيتلي .

وأصلحت الزراعة والصناعة ، وهو زعم باطل مموه والاحصاءات الرسمية تنبىء عن بطلانه وتدل على أن الصناعة الايطالية في جملتها ولدت ونمت وقطعت شوطها الأبعد في عهد الديمقراطية أو في عهد الحكومة الشعبية التي يسخر منها موسليني وبطانته ومريدوه . ففي الاحصاء الرسمي الذي كتب باسم البحارة الايطاليين وأهدي الى زملائهم في الاسطول الامريكي بيان واف عن تطور الصناعة ننقله هنا بحرفه وهذه ترجمته « في سنة ١٨٧١ استعملت ايطاليا نحو ٨٠٠،٠٠٠ طن من الفحم فزاد ما استعملته في سنة ١٩١٤ على عشرة ملايين لا يدخل في حسابها الترقي العظيم في استخدام القوة المائية التي يقدر ما استخدم منها بقوة تسعمائة الف حصان يدار بها لا أقل من سبعة آلاف عمل . وكان العمال الصناعيون في السنة الاولى بعد سنة ١٨٧٠ أقل من ثلثمائة الف فقاربوا في السنة السابقة للحرب مليوني رجل . . أما من حيث الانتاج فهناك صناعتان تفوقتا على الصناعات الاخرى وهما صناعة التعدين وقد ارتقت من ستة وثلاثين مليون ليرة في سنة ١٨٧١ الى نصف مليار في سنة ١٩١١ ، وصناعة الكيميات التي أنتجت في سنة ١٩١٣ أكثر من مائة وأربعين مليون ليرة وكانت في حكم المعدومة في سنة ١٨٧١ ، وتستحق صناعة النسيج التفاتا خاصا فان ايطاليا قد أنتجت قبل الحرب خمسة آلاف طن أرسل جزء منها خاما الى الخارج ونسج جزء كبير في الانوال الوطنية التي يبلغ عددها نحو عشرين ألفا نصفها على التقريب ميكانيكي .

ويشتغل نحو مائتي ألف عامل بصناعة القطن الذي لا يزرع الا بمقدار قليل في صقلية لحرارة جوها والذي يستورد منه نحو مائتي الف طن من امريكا تغزل وتنسج في ايطاليا على أنوال تبلغ ١٣٠،٠٠٠ معظمها ميكانيكي كما ظهر من احصاء سنة ١٩١٢ ، والصناعة الصوفية التي اشتهرت بها ايطاليا في القرون الوسطى قد سرت فيها روح حياة جديدة فكان لها في سنة ١٩١٣ خمسة عشر الف نول معظمها ميكانيكي واشتغل بها نحو خمسين الف عامل . . ويجب ألا ننسى في صدد المنسوجات صناعات القنب والكتان والجوت لان ايطاليا في مقدمة الامم المنتجة للقنب وهي تصدر جزءاً كبيراً منه خاما وان كانت تستورد كل الجوت على وجه التقريب من الخارج . وقد بلغ عدد المشتغلين بالغزل والنسيج في هذه الصناعات نحو أربعة وأربعين الف عامل في سنة ١٩١٧ وقدر عدد المشتغلين

بصناعات النسيج كلها بنصف مليون ومقدار المال الموظف فيها بنصف مليار ليرة . وصناعات المعادن والآلات لا تقل في القيمة ولا في التطور عن المنسوجات . . فقد بلغ ما انتجته ايطاليا فيها قبيل الحرب مليون طن من الصلب اي عشرة أمثال نتاجها في سنة ١٩١٠ ، ويضاف الى ذلك تلك الاعمال الكبيرة التي أسست لاخراج أصناف خاصة من الصلب تضارع أحسن مثيلاتها في بلاد العالم ، وأنشئت في ليجوريا وفي ترني باومبريا وعلى مقربة من نابلي مؤسسات رائجة تصنع جميع أصناف الآلات للسفن الحربية وتستخدم مائة وخمسين الف عامل زاد عددهم الآن زيادة كبيرة فأضيف اليهم مائتان وخمسون الفاً يعملون في الصناعات الميكانيكية ومنها صناعة السيارات . وقد كانت قيمة ما صدر من دواليب السيارات في سنة ١٩٠٧ مائتي الف ليرة فوصلت بعد خمس سنوات الى ٥٢ مليونا لا يدخل في حسابها ما يشترى داخل البلاد . وهناك أعمال النقل الكهربائي التي تنقل الفحم من سافونا الى قمة جبال « الابنين » وخط الكهرباء على سكك جبال سنيس وسمبلون وجيوفي وكلها من مبدعات المثابرة والعبقرية الايطاليتين ومما يبشر بالتقدم المنتظر في صناعة ايطاليا ريثما يتيسر بعد الحرب المال والعمال ، أما الصناعات التي أنتجت عشرة ملايين قنطار من السماد الكيمي وخمسين الف طن من الكربون المعدن ونحو عشرة ملايين طن من محصولات أخرى فهي تكاد تكون مخلوقة خلقاً من حيث لم يكن لها وجود . وكذلك صناعات الاطعمة وبخاصة السكر والجلود والجبن والمحفوظات قد خطت كلها خطوات محسوسة في خلال العشرين السنة الاخيرة ».

ويقول السنيور نيتي في رسالة نشرت في المجلد الخامس والعشرين من تاريخ المؤرخين : « تستطيع ايطاليا أن تزيد قوتها المائية الى خمسة أضعافها وأن تنشىء في سنوات قليلة مصانع تعطيها تسعة ملايين أو عشرة ملايين « كيلوات » . . والذي يعني ايطاليا بصفة خاصة هو توزيع مائها لانها محاطة في الشمال بسلسلة الجبال الالبية وتتخللها على طولها سلسلة الابنين ، وهي لاحاطة البحر بها من جميع الجوانب ما عدا الشمال كثيرة مساقط الماء في مساحة صغيرة ، وفضلا عن هذا بينما تكون أنهارها الشمالية على أعلاها صيفاً لذوبان الثلج والجليد في جبال

الالب تكون انهار الابنين على أعلاها في الشتاء . فبناء الخزانات التي تسهل اقامتها على طول شبه الجزيرة يساعد على الانتفاع بقوة الماء وعلى تنظيم استعمالها في الصناعة وفي تسيير القطر الكهربائية ».

ولم نذكر السفن ولا خطوط الملاحة ولا المصنوعات الكثيرة التي ابتدعتها ايطاليا الحرة في عهد حكوماتها الشعبية ، لان شرحها يطول في غير جدوى . أما الزراعة فإحصاء البحارة الذي أشرنا اليه آنفا يقول انه « من سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٩٠٦ مُهد للزراعة ما يقرب من ستة ملايين هكتار كانت مهجورة قبل ذاك وتضاعفت هذه المساحة تقريبا في العشر السنوات الاخيرة . . وقد أنشئت وسائل فعالة في بوجليا التي يقل فيها الماء لجلبه اليها خلال قمم الجبال العالية . . ويضاف الى هذه الاعمال الجليلة التي ستمتد وتكبر بعد الحرب اصلاح أساليب الزراعة باستعمال الادوات الميكانيكية في جميع الاقاليم بفضل المدارس العديدة والارشادات النافعة والنقابات الزراعية . . فالمحصولات التي لم تتجاوز قيمتها مليارين من الليرات في نسة ١٨٦٠ قد أصبحت اليوم ثمانية مليارات ويوشك أن تبلغ العشرة في زمن قريب . وسنت القوانين الضرورية لتجديد غرس الغابات في الجبال التي جنت عليها شدة الطمع في الربح فحرمتها الاشجار ».

هذا ما صنعته الديمقراطية في بلاد كايطاليا لا حديد فيها ولا فحم الا النزر القليل ، وليس من السهل اختراق جبالها بالمواصلات البخارية ولا من المتيسر انتاج الخامات اللازمة للصناعة في أرضها . معجزة خارقة صنعتها الديمقراطية في جيل واحد من ايطاليا المفككة المتنازع عليها بين البابوية ودول أربع تحكمها لغير مصلحة أهلها . ولا ننس صعوباتها الجغرافية التي جعلت توزيع الخصوبة والاعمال الصناعية فيها مضطرب التناسب بين الشمال والجنوب ، ولا ننس انها كانت الى زمن قريب عدة ممالك لا وحدة بينها في السياسة ولا في الادارة ولا في المصلحة ولا في الاحوال الاجتماعية ، ولا ننس تزايد سكانها من سبعة وعشرين مليوناً عند استقلالها الى أربعين مليونا في هذه الايام ، ولا ننس مع تزايد السكان الاضطرار الى الهجرة المتوالية حتى ناهز عدد الايطاليين في الخارج سبعة

ملايين وأحصى المهاجرون في السنوات الخمس السابقة للحرب بأكثر من مليونين ونصف ميون ، ولا ننس غير ذلك من العوامل المربكة والمؤثرات المشتبكة التي تحيط بأمة تنتقل هذا الانتقال وتعالج هذه المتناقضات . فكل ما في ايطاليا من تلك الخيرات هو ثمرة الديمقراطية وعلى أساسه يقوم كل أمل في مستقبل الطليان .

وما يقال عن الدعوى التي يدعيها الفاشيون في مسألة الصناعة يقال عن دعواهم في مسألة البطالة . فمرتبات الموظفين تنقص فترة بعد فترة لمداراة الميزانية والبطالة تزداد يوما بعد يوم والاحصاء الذي قدمته الحكومة الفاشية لعصبة الامم يقدر عدد العاطلين في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ب ١٩١،٧٠٩ يقابلهم في فرنسا ١٧،١٧٨ وهي لا تعالج معضلة البطالة بغير الوسائل الدستورية ولا تلجأ الى القمع والارهاب كما يلجأ الفاشيون . أما الآن فربما كان عدد العاطلين ضعف ما كان عليه قبل عامين ، وقد حرم على الصحف تحريما باتا ان تشير الى مسألة البطالة وفرض على كل عامل ان يشترك في نقابات الحكومة وان يبرز شهادة بذلك للمصنع الذي يعمل فيه والا حرّم على المصنع قبوله ، وزيدت ساعات العمل ونقصت الاجور وصار الاشتغال في المصانع ضربا من العسكرية الاجبارية لا حيلة فيه للعامل ولا منفذ له الى الشكوى . فهذه هي العلاجات الفاشية لمعضلة البطالة وهي علاجات طبيب يستر الاعراض ويكم فم المريض ويزعم انه استأصل الداء .

وقل مثل ذلك في مسألة الديون وهي مسألة لم يبق لنا مع تكتّم المصادر الفاشية الا أن نرجع فيها الى مقال السنيور نيتي الذي يتكلم بالارقام في هذا الموضوع . قال « ان الحالة الصناعية وحالة الديون قد ساءت في عهد الفاشية وان كانت صحفهم تردد كل يوم ان الطوالع تبشر بالتحسين ولعل بعض الفاشيين لجهلهم يصدقون ما يقولون . فهناك ٢١،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ليرة من قراطيس الخزانة تستحق السداد في أوقات مختلفة حولتها الحكومة الى دين موحد بخسارة كبيرة لاصحابها وللجمهور وللمصارف . ولما كانت الحكومة تحتاج الى المال ولا يمكنها الرجوع الى قراطيس الخزانة بعد التقصير في السداد فقد عمدت

الى دين موحد جديد . وكانت خطتها في هذا الدين من أهزل المهازل في تاريخ المعاملات المالية لانها اضطرت الجمهور الى ان يشتري بسعر ٨٧،٥ قرضا موحداً كان يمكنه شراؤه في سوق المصارفات بأقل من ثمانين ! فاختبلت أسعار الاسواق وهُدد رجال المصارف بالموت وأذيع بصفة رسمية ان أسماء البائعين ستنشر . . ! وكانت هذه التجربة كما يقول الاقدمون تجربة الصليب التي كشفت عما في نفوس الجمهور الايطالي من قلة الثقة بهذه التصرفات . فقد اتخذت كل وسيلة لارغام الجمهور على الاكتتاب وأكره جميع التجار على اعطاء ضمان من قراطيس الخزانة وامر الموظفون وعمال السكك الحديدية بل أمر الصناع بشراء أوراق القرض الجديد . . ولكن اي فشل ! فان الحكومة لم تجمع بعد كل هذا الاكراه والارغام الا ثلاثة مليارات ! قارن هذا بالقرض الذي عقد بعد كارثة « كابرتو » العسكرية في أشد الظروف حرجا وجمع فيه ستة مليارات يوم كانت قيمة الدولار ٦،٣٤ ليرات . وقد جمع في القرض التالي الذي عقد لمعالجة تضخم العملة ٢١ ملياراً بذلها الناس أحراراً غير مكرهين ولا مأمورين . فالجمهور الايطالي المستنزف اليوم يضمر أسوأ الظن بالحكومة الفاشية ، اذ الحكومة التي تسيطر على كل شيء لا تضمن شيئا . ومن المستحيل على أي انسان ان يستطلع الحقيقة عن الميزانية الآن فانني مع خبرتي الطويلة بالماليات الايطالية لا أقدر على فهمها . فهي محفوفة بأوامر خفية كالامر الذي صدر في ٥ يونية سنة ١٩٢٦ لايجاد ميزانية مصطنعة ولم يدون لنا لا المصروفات العسكرية الحقيقية ولا بيان الحالة المالية الصحيحية »[١]

مع هذه الاساليب الغريبة بل مع شعار الفاشيين الذي يعلنونه وينادون به وهو ان « الامة قاطبة للفاشية قاطبة Tutte il paese a tutte il fascismo لا يجوز لاحد ان يتلقى بالتسليم كل ما يذاع من المصادر الفاشية عن هذه الامور كما أننا نقف موقف الحيدة فلا نتلقى كل ما يقوله خصومها بالتسليم .

على أن الامر الذي يجب أن نلاحظه هنا هو أن الفاشية لا تريد الآن أن تقاس

---

(١) عدد اغسطس سنة ١٩٢٧ من مجلة التاريخ السائر .

بمقياس التحوطات الموقوتة التي تلجيء اليهـا الطـواريء والضرورات كما قد تلجيء الى الاحكام العرفية المحسوب حسابها في كل حكومة ديمقراطية ، ولكنها تريد ان تجعل نفسها مذهبا في الحكم يقابل مذهب الديمقراطية الحرة ويحل في محلها . فعلى هذا الاعتبار لا تكون فوائدها ـ على فرض صحتها ـ شيئا يقام له وزن في جانب اضرارها أو في جانب النكسة التي تُعفّي على كل ما كسبته الامم من تجارب العصور المديدة ومحن المظالم والثورات . فلم يكن عبثا هذا الذي كسبته الانسانية في ألوف السنين من تقرير حرية الفرد واطلاق الحياة البريئة بين أرض الله وسمائه بغير حد من ارادة انسان آخر يدعى لنفسه عليها السلطـان والرقابة والامتثال لفكره وهواه . لم يكن عبثا هذا الذي كسبته الانسانية بل لا يصح أن يقال انها كسبت شيئا قط ان كان هذا المكسب الجليل عرضة للرجعة والنزاع ، ولم يكن عبثا هذا الذي كسبته الامم من تبديل الحكم القديم الذي كان يضطرها الى عمل عنيف كلما اضطرت الى تغيير حكومـة ، والـذي كان الحكام فيه لا يسقطون الا اذا أوقعوا بأمتهم قصارى الشر الذي يطيقـه صبـر الانسان حتى ليؤثر خراب الثورات على احتمال المزيد منه ، والذي كانت الامم فيه كأنما تعيش في ميدان حرب يتعاوره بالارهاب كل فاتح جديد في كل دولة جديدة . كلا لم يكن عبثا هذا الذي كسبته الانسـانية من ضروب المحـن في طوال العصور . فلو ان الفاشية حكمت كما تحكم الاحزاب الغالبة في الامم الديمقراطية لما كان عليها غبار ولوجب لها الشكر على ما منعت من ضر وجلبت من خيـر ، ولكنهـا أبـت الا ان تستأصـل كل حزب غيرهـا بقـوة السـلاح والارهاب ، فهي ديمقراطية ناقصة مشوهة أو هي استبداد ناقص مشـوه لانهـا ليست من الديمقراطية وليست من الاستبداد القديم . وحسبـك ان تعلـم ان السنيور موسليني يتولى في الوقت الحاضر ست وزارات عدا رئاسة الوزارة لتعلم ان الفاشية نظام لا يمكن أن يقوم مقام الديمقراطية لانه محصور في فئة واحدة لا يجد رئيسها ستة رجال يطمئن الى كفاءتهم أو يطمئن الى اخلاصهم ، فهو يتولى وزارة الـداخلية ووزارة الخـارجية ووزارة الحـربية ووزارة البحـرية ووزارة الطيران ووزارة النقابات ولا يعقل أن يفعل ذلك لو كانت له ثقة في رجال حزبه من حيث الكفاءة والاخلاص أو لو كانت الاعمال تسير في تلك الوزارات على

خطة الدقة والنظام ، فالارهاب وحده هو الـذي يداري ما هنـالك من الخلل والاجحاف والشكاوى والسيئات ، وما كانت حكومة من حكومات الاستبداد يعوزها مثل ذلك الارهاب الذي هو اصلح أداة للمداراة وان كان اسـوأ أداة لعلاج العيوب .

ولقد شعر موسليني بقرب الانتخابات التي ستجري في سنة ١٩٢٩ فعـدل طريقة الانتخاب للمرة الثالثة في عهد وزارته وقرر ان تجري الانتخابات المقبلة على طريقة لا مثيل لها في بلاد العالم . فالمجالس الوطنية (وهي مجالس يعين أعضاؤها تعيينا) ستختار تسعمائة اسـم تعرضهـا على مجلس الفـاشية الاعلى فيختار منها ـ أو من غيرها اذا شاء ـ اربعمائة اسم ويسأل الناخبين عنهم فلا يكون لهم الا أن يجيبوا بالموافقة على جميع الاسماء أو رفض جميع الاسماء ، فان جاءت الكثرة بالموافقة فذاك والا تجدد اختيار الاسماء مرة اخرى وتجدد سؤال الناخبين . . والوزارة باقية سواء اكان الجواب بالرفض ام بالقبول . . !

يقول خصوم الفاشيين ان هؤلاء لم يثبوا وثبتهم الى الحكم الا لانهم أنسوا أن الحركة الشيوعية تضمحل وتخمد ويوشك أن تدخل في دور الاستقرار ـ فاشفقوا أن تفلت من أيديهم حجة الوثوب وأن تضيع عليهم فرصة استغلال الخوف من الشيوعية في ايطاليا وفي خارجها فتألبوا مع أنصارهم على احداث ذلك الحدث الخطير في الحياة الايطالية . ويقول خصوم الفاشيين ان هؤلاء ما كانوا يفلحون في وثبتهم لولا أنهم استغلوا ـ الى جانب الشيوعية ـ عاطفة الوطنية الثائـرة في تلك الايام واتخذوا من مسألة فيومي وتوسيع الحدود الايطالية ذريعة لتأليب جميع الاحزاب ، والواقع أن خطر الشيوعية ـ سواء أكان عظيما كما يقول الفاشيون أم كان موهوما كما يقول خصومهم ـ لا يسوّغ القضـاء على النظـام الديمقراطـي الصحيح واستمرار الحكم عدة سنين على الاسلوب الذي يحكم به الفاشيون . فان هذا النظام لم يعجز عن مكافحة الخطر الشيوعي العـظيم في المانيا وهـي صريعة الحرب ولم يعجز عن مكافحته في فرنسا وهي أيضا صريعة الحرب بين المنتصرين . وكل حسنة للفاشية أو كل ضرورة لها تصغر وتتبدد اذا كانت لا تُنال الا بمثل ذلك الثمن الباهظ الثقيل ، فقد حرمت الحياة في ايطاليا على كل

انسان لا يدين بمذهب الفاشية ولا ينتمي الى لجانه ونقاباته ، وحظر على الجامعات أن تدرس فلسفة التاريخ والسياسة إلا على النمط الذي يرضاه الفاشيون وإلا كان نصيب الاساتذة العزل والنفي والارهاق ، والصحف محظور عليها أن تكتب الا ما يروق الوزارة ومحظور على أصحابها أن يختاروا الكتاب إلا من ينتدبهم لها الفاشيون ، ورؤساء الفاشية هناك يصنعون ما بدا لهم غير عابئين بالعرف أو القانون . فمن أمثلة ذلك ما رواه روبرت سنكورت في مجلة التاريخ السائر عن الجنرال بتشيو وزوجته الامريكية وهي واقعة من عدة وقائع تجري على شريعتهم الجديدة : شريعة القوة وقلة المبالاة . قال سنكورت وهو من غير خصوم الفاشية : « تزوج الجنرال بتشيو من أمريكية وولدت له ابنا وقصت شعرها في باريس فضربها الجنرال جهاراً في بعض المطاعم العامة . ثم ذهبت الى إيطاليا في شهر يونيو سنة ١٩٢٤ فحاول أن ينتزع منها ومن وصيفتها الارلندية الطفل الذي حكم القضاء الفرنسي بتسلميه اليها . فلما أرادت الزوجة السفر من إيطاليا أصدر الجنرال أمره بضبط جواز سفرها فهربت الى سردينية لتركب منها البحر الى قورسيقة الفرنسية ، ولكنه علم بذلك فتعقبها بطيارات الحكومة وردها الى روما هي والطفل والوصيفة . ثم أخذ الطفل وسجن الوصيفة في ثكنة وأمر الزوجة بترك البلاد الايطالية ، فرفضت أن تطيع أمره ولاذت بالسفارة الانجليزية فقطعت جهيزة قول كل خطيب » وقس على هذا ما يمكن أن يستبيحه كل فاشي من الكبار أو الصغار الذين يلقنون هذه المبادىء في طفولتهم ويشبون على العنف وقلة المبالاة بالقوانين الى غير ذلك مما تخشى عاقبته على السلم في ايطاليا وفي الامم التي تتصل بسياستها اذا اطردت الاحوال على هذا المنوال ، قال الاستاذ جاجليلمو سلفادوري : « اتفق لموسليني ـ من المصادفة أو الدهاء ـ أن يقيم نفوذه على الذرية التي نشأت جامحة سريعة الانفعال متبطلة في سنوات الحرب أيام كان آباء الصبية في الخنادق وكان أمهاتهم الجازعات مشتغلات باعمال الرجال بعيدات من البيوت ، وكانت المدارس والمصانع فوضى وطوارىء الحرب غذاؤهم كل يوم ولديهم قدوة ماثلة من غارة دانزيو على فيومي يتعلمون منها الاعتساف ـ فهؤلاء الصبية كانوا في مدارج الطفولة يوم نشأت الفاشية وفتحت لهم منفذاً لما ركب فيهم من القلق

والجماح ، وجاء موسليني فأرضى فيهم ولع الطفولة بالمظاهر والغرائب وألبسهم القمصان الزرق على صدورها صور الجماجم أو الشارات الرومانية على الجيوب ».

ان هذه الصرامة في خطط الفاشية وجنودها قد تدل على أي شيء إلا على الضبط والنظام ، فلو أن هناك ضبطا ونظاما على ما يرام لما خفيت المؤامرة التي دبرت لاغتيال ملك البلاد ولما أفلت الجناة بعد انفاذ مؤامرتهم فلم يقف حراس الآمن ولا المحققون لهم على أثر .

موسليني

قال الكاتب الانجليزي الكبير ج . هـ . ويلز . « حسب المرء أن يدرس قليلا من صور موسليني التي بعثرت في انحاء الارض ليدرك أنه محدث مصنوع وليس بأصيل مبتكر ، فهذا الوجه الممتزج فيه الضعف والقوة هو وجه الممثل بجميع أوصافه ، فهو دائب يحملق من وراء كساء يتشبه فيه بالابطال الاقدمين وخوذة منتقاة بعينين خلو من الفكر والذكاء توحيان اليك معنى التحدي الفارغ كأنما يقول : حسن ! ماذا عسى أن تقول عني ؟ انني أنكره . ! هو وجه رجل مغرور أغلظ الغرور يحفل اجفال الخوف من أقل هسيس . وليس ما به خوف الجسد أو الخوف من القاتل الكامن في الظلام ، ولكنه الخوف أقتل الخوف من الحق الذي يمشي في وضح النهار . . ألا فليذهب هؤلاء جميعا . ليذهب نيتي وامندولا وفورني وميسوري وماتيوتي وسالفيني واستورزو وتوراتي . ليذهب جميع هؤلاء الرجال الذين يرقبون وينقدون وينظرون . فماذا تراهم ينتظرون ؟ ما من اسم من اسماء هؤلاء الرجال الذين ضربوا ونفوا أو قتلوا القتل الدنيء الا وهو اسم رجل خير من هذا الممثل الذي يستأثر بالمسرح اليوم في ايطاليا . وأكبر خطيئة تعد لواحد من هؤلاء هي قدرته على كشف المخبأ ونظرته المصمية المثلجة . والحق أن موسليني لم يصنع شيئا لايطاليا وانه هو نفسه صنيعة من صنائعها : صنيعة مشوهة مخدجة . فاذا سأل الايطاليون : ما العمل بغير موسليني ؟ فالجواب : انكم تجدون غيره . فان هذا الذي يدرّب

اليوم وينظم باسم الفاشية كان موجوداً قبله وسيبقى موجوداً بعده ـ فاذا هو قضى نحبه فلن تعاني الفاشية أقل صعوبة في اخلافه من موارد ايطاليا المخصبة ببديل يضارعه في التمثيل والقعقعة الخطابية ، وانما صعوبتها أنها ربما وجدت خلفاء كثيرين بعده ».

وأيا كان مبلغ الصواب في تقدير ولز لموسليني فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أنك لا تقرأ لهذا الرجل كلاما يدل على فكر ثاقب أو درس حصيف أو اطلاع واسع . وهو في كلامه عن نفسه يزرى بالدرس والاطلاع ويقول انه اطلع على كتب أشتات ولكنه لم يعول على غير كتاب واحد هو كتاب الحياة وعلى أستاذ واحد هو أستاذ الاختبار ، ويعجبه كتاب جوستاف لوبون عن أطوار الجماعات وهو الكتاب الوحيد الذي ذكر اسمه من بين قراءاته للآداب الالمانية والانجليزية والايطالية التي تحدث بها في ترجمته المكتوبة بقلمه في مجلة بريطانيا الحديثة . على أنك لا تتبين من كتاباته أثراً للدرس العميق حتى في أصول الاشتراكية التي كان يبشر بها ويتفانى في الدعوة اليها ، فهي عنده مذهب مزاج لا مذهب معرفة واختبار . ورثها عن أبيه وتلقاها في بيته ووجد فيها منزعا لخليقة الهجوم والتحدي والظهور التي فطر عليها وعرف بها من صباه ، وهو يذكر أباه ويصفه بالبطء والاخلاص ولكنه يخص أمه بأحسن اعجابه وحبه ويقول انه استفاد من خلقها أجل الفوائد وأدومها في حياته ،[1] ونظرةٌ الى صورتها وصورته تريك انه قد أخذ منها الخلقة كما أخذ منها الاخلاق فجاء أشبه وأقرب اليها في ملامحه ومزاجه .

كانت أمه معلمة في الزمن الذي كان التعليم فيه قليل العائدة وضيع المقام . وكان أبوه حداداً فقيرا يتشيع الى الاشتراكية والثورة فسماه بنيتو على اسم الثائر المكسيكي بنيتو جوريز المسؤول عن اعدام الامبراطور مكسمليان[2] فهو اشتراكي المولد لا اشتراكي الرأي والعقيدة ، وما كانت العقيدة قط عند موسليني

---

(١) راجع الاعداد الخمسة الاولى في مجلة بريطانيا الصادرة في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ وما يليه (٢) كتاب رجل القدر لفتوريو دي فيوري .

الا القالب الذي يفرغ فيه طبيعة الهجوم والغضب والظهور ، فهي تأتي تالية ويأتي قبلها الغضب والعراك على حسب الدواعي والظروف ، وما وقفت العقيدة قط في طريق موسليني ولا كانت هي صاحبة وحيه ومسدد خطاه . فموسلني الذي انحى على المسيحية وألقى عليها تبعة سقوط الدولة الرومانية يوم كان اشتراكيا غاليا يجوب الآفاق في البلاد السويسرية هو موسليني الذي افتتح وزارته بالصلاة الجامعة يوم نجحت غارته على العاصمة الايطالية ، وموسليني الذي أبى الحرب أشد الاباء هو موسليني الذي دعا اليها أشد الدعاء بعد ذلك بأسابيع معدودات ، وموسليني الذي كان يصب النار على أصحاب الاموال هو موسليني الذي أصبح يصب النار على العمال ، وهو في كل أولئك رجل يريد أن يهجم ويعارك وليأت سبب العراك حيث أتى فلا عبرة عنده بالاسباب وانما العبرة بالواقع الراهن وبما يشاء أن يقوله اليوم لا بما كان يقوله قبل أيام :

وحيثما تجد المتعة العقلية والفكر الراجح والذكاء والالمعية في كتابات نيتي وأصحابه الذين ذكرهم ولز لا تجد في كتابات موسلني الا التطبيل والتهويل والارعاد والابراق . فأنت تفقده اذا بحثت عنه في مجالهم الواسع ولا تعرف مكانه الا اذا بحثت عنه في مجال الحركة والنشاط والمفاجآت ، فليس هو بالسائس المدبر ولكنه هو القامع المرهب الذي لا يبعد بنظره عما هو فيه . وسكينة ايطاليا في الوقت الحاضر ليست بالآية النادرة ولا بالبرهان الصادق على حسن السياسة وصلاح الحكومة . فان السكينة شاملة للروسيا في عهد الشيوعيين وكانت شاملة لمصر في ابان الحرب العظمى فهبت بعدها الثورة بين ليلة ونهار . فما كانت السكينة يوما بالبرهان الصادق على صلاح الحكومة أو رضى المحكومين أو صحة المبادىء التي تدار بها الامور أو ملاءمتها للحالة التي تكون فيها الامة . وانما القدرة السياسية الصادقة هي أن تسود السكينة وتسود الحرية وتسود القوانين ، ولهذا كانت ملكة الحكم قدرة خاصة في الساسة والزعماء لا لأن الغرض الاكبر هو ابتغاء السكينة بأي ثمن وعلى أية حال ، وهذا الذي اراده نيتي وجيوليتي وأصحابهما بالمصابرة والانتظار وأوشكو أن يصلوا اليه على ما يقول العارفون .

ان كان لموسليني فضل على ايطاليا فانها لم تنعم بفضله لان الحكومات التي سبقته كانت تسلك مسلكه وتضطهد خصومها اضطهاده ، كلا ، والا لما بقي موسليني في ايطاليا أو لما بقي في قيد الحياة ، ولكن ايطاليا ظفرت بموسليني لان الحكومات التي سبقته كانت تطلق الحرية لاصحاب المذاهب والافكار ينقحونها بالتجارب ويهتدون الى الرأي الامثل كما اهتدى موسليني من الشيوعية الى الوطنية ومن الفوضى الى النظام .

ولقد احسن موسليني اغتنام الفرصة من سخط الايطاليين الشديد على الشيوعيين وموت عاطفتهم القومية واستخفافهم علانية بالنصر الذي كلف أمتهم ألوف الارواح وملايين الاموال واجترائهم في قوارع الطرقات على الاعلام الوطنية وأنواط الشرف التي كان يلبسها الجنود العائدون من ميدان القتال ، وبلغت الحماسة الوطنية أعلاها حين تحفزت الامة بقيادة الشاعر دانزيو لرد المدن الايطالية التي بقيت في قبضة الدول المجاورة فقامت الفاشية في تلك الايام باسم روما الخالدة تتزيّي بشعارها وتتشبه بتحياتها وتترنم بانغامها ، وطفق موسليني يرفع لابناء وطنه ذلك المثل الاعلى ويسخر من الساسة الذين يغفلون عن حياة هذه العاطفة الكريمة ويشغلون الامم بأحاديث المنافع والدراهم . يقول مؤرخه وزميله فتوريو دي فيوري في الفصل الاخير من كتابه رجل القدر : « وبينما تتلوى روما الصيارفة تحت ضربات لومه وتقريعه يعيش هو في روما الماضي وروما المستقبل : يعيش في روما الخالدة التي لا تتبدل » ويقول في الفصل الثامن : « وعبثا كان جيوليتي يوجه خطابه الى أخس غرائز الجماهير وأسفلها ، الى الخوف من الحرب والموت ، الى الرغبة في المنافع المادية . فان روح ايطاليا التي كانت تنطق بلسان الشاعر والخطيب أبت كل مساومة وعقدت عزيمتها على النضال » .

الخلاصة

والخلاصة أن تاريخ ايطاليا الحديث هو تاريخ نجاح الديمقراطية وليس تاريخ الفشل والافلاس لحكومات الشعوب ، وأن ما يحدث في ايطاليا منذ بضع

سنوات لا ينفي ارادة الشعب وانما هو حالة تعرض لكل حكومة ويحسب حسابها في كل ديمقراطية ، أو هو كما قلنا ديمقراطية ناقصة مشوهة لانها تعترف بارادة الشعب ولا تعترف بحرية أفراده كما يجري احيانا في البلاد الخاضعة للاحكام العسكرية ، والفاشية لم تنكر ارادة الشعب ، لكنها استخدمت ارادة الكثرة الغالبة لارهاق القلة الصغيرة .

اما الذين يترسمون الفاشية في مصرفهم أحرى ألا تنفعهم في كثير ولا قليل ، اذ عليهم ان يذكروا ان الفاشية قوة وطنية وليست بقوة أجنبية وأنها قامت سخطا على المتساهلين للاجانب في المطالب القومية ولم تقم حبا للتساهل في تلك المطالب على الكره من ابناء البلاد ، وأنها تتغذى بحماسة الشباب ولا تتغذى بفضلات فتور الشيوخ ، وأنها تقود الشعب بالمثل الاعلى والنخوة النبيلة ولا تقوده بالتزلف الى اخس غرائز الجماهير ، وأنها لا تفصل في قضية الشعب الكبرى وآماله الباقية وانما تفصل في عروض تتولاها الوزارات ، وعليهم ان يذكروا غير ذلك أن الفاشية نشأت في بلاد كانت مقسمة الى أربع ممالك وست امارات ، وأنها نشأت في بلاد لا تزال مقسمة في أوضاعها الجغرافية الى اقسام تتوزع فيها الصناعة والزراعة توزعا يباعد التفاوت في الاحوال الاقتصادية بين جميع الاقاليم ، وأنها نشأت في بلاد يهجرها عشرات الالوف من ابنائها كل عام ، وأنها نشأت في بلاد تعطلت فيها المصانع فجأة بعد الحرب العظمى وقلت المكاسب وغلت الاسعار ، وأنها نشأت في بلاد هي مقر الرجعية الدينية التي تجدّ الى اليوم لاسترجاع سلطانها المضاع ، وعليهم أن يسألوا انفسهم ماذا كانت تكون خواطر العمال والمعوزين في مصر بعد الحرب العظمى لولا الحماسة الوطنية التي استغرقت فيهم كل عاطفة وصرفتهم عن الشيوعية وحرب الطبقات ، والتي يخمدونها اليوم ما استطاعوا ليتركوا مكانها خلوا لوسواس المصلحة واغواء الدعاة !

بسمارك

ظهرت الدكتاتورية ـ أو ما يسمونه الدكتاتورية ـ في أمم أخرى غير تركيا وايطاليا واسبانيا وفي أصقاع أخرى غير شواطىء البحر الابيض المتوسط. ظهرت في المجر وبولونيا ورومانيا ولكنها لم تتأصل في واحدة من هذه الامم ولم تكن نظاما من أنظمة الحكم أو مذهبا من مذاهب السياسة ، ويقال على الاجمال انها حيث ظهرت كان ظهورها لقلة الديمقراطية لا لكثرتها وكانت تظهر في البلاد التي ابتليت بالتقسيم واختلاف الاجناس قبل الحرب العظمى وبعدها ، فكانت من عقابيل الحكم المطلق وبقايا فساده وسوء تصريفه ولم تكن من جرائر الديمقراطية التي هي ترياق تلك الآفات .

بدأ النزاع الحديث بين الديمقراطية والدكتاتورية (أو الاستبداد) في القرن الماضي يوم كان الايمان بحكم المستبدين ضرباً من الدين وضرباً من الوطنية في وقت واحد : ضرباً من الدين لان المستبدين كانوا يرتفعون بدعواهم الى مشيئة اللّٰه ويزكون أفعالهم بشهادة القساوسة والاحبار ، وضرباً من الوطنية لان مبادىء الحكم الديمقراطي كانت مبادىء الفرنسيين الغالبين وكانت محاربة فرنسا فرضا قوميا على اعدائها المغلوبين ، ومع هذا ـ أي مع مناصرة الدين والوطنية

والعادات والقوة ـ فشل الاستبداد وظفرت الديمقراطية وصار أكبر المستبدين في القرن الغابر هم عبرة هذا النزاع الذي يضرب به المثل وتعرف منه العواقب . ولهذا أردنا أن نتخذ هذه العبرة من تاريخ رجلين هما بغير خلاف أكبر المستبدين في عصرهما ان لم يكونا أكبرهم في جميع العصور . ولد أحدهما يوم أن دالت دولة الآخر وهما بسمارك ونابليون .

كان بسمارك مستبداً بفطرته لانه ولد في أسرة من أسر الريف في الضياع البروسية ، فكان من طفولته معتدا بنسبه متعصبا لطبقته فخورا بأوضاع وطنه ، وكان مدار الخلاف بينه وبين الاحرار أنه يقيم وحدة المانيا على القوة والحرب وكانوا يريدون أن يقيموها على الحرية الشعبية والسلم ؛ وفي هذا الخلاف يطول الاخذ والرد واستعراض الحوادث والاسانيد ، ولكن الامر الذي يتفق عليه الاجماع هو ان الحروب التي اقتحمها بسمارك لتوحيد الممالك الالمانية قد أفردت المانيا بين الدول وجعلتها مخشية محذورة لا يؤمن جانبها ولا يستبعد عليها أن تعتدي على أحد أو تنقض عهداً بينها وبين حليف ، ومصاب المانيا بهذه العقيدة التي ذاعت عنها وانتفع خصومها بترويجها هو المصاب الاكبر في الحرب العظمى وفي المساجلات السياسية التي سبقتها وأفضت اليها .

وفي تاريخ بسمارك حادثة لها أوثق ارتباط بالحرب العظمى ومعقباتها يتبين منها كيف يتغلب الشعور الشخصي على سياسة المستبدين حتى في المسائل التي تتوقف عليها مصائر الامم وجلائل الخطوب . تلك هي حادثة المحالفة الروسية التي تقلبت أدوارها على حسب التقلب في الميول الشخصية بين ساسة الروس وساسة الالمان . فقد كان بسمارك نصيراً لمحالفة الروسيا وكان متفقا مع القيصر على تأييد السياسة الروسية في مؤتمر برلين . ولكن جرشاكوف المندوب الروسي في المؤتمر علم أن بسمارك يسعى لتعيين شوفالوف صديقه وزيرا للقيصر بدلا منه (أي بدلا من جرشاكوف) وحصل على وعد بذلك في مقابلة التأييد الذي اتفق عليه بسمارك مع القيصر . فلما اتصل هذا النبأ بجرشاكوف تعمد الاقلال من المطالب الروسية في المؤتمر فتعذر على بسمارك أن يساعد الروسيا لانه كما قال لا يسعه أن يطلب لها أكثر مما تطلب لنفسها . فانفض المؤتمر وروسيا ناقمة متذمرة

واستطاع جرشاكوف أن يقنع مولاه بان بسمارك قد لعب به واخلف معه وعده ولم يساعده المساعدة التي كان ينتظرها منه . فقال له مولاه : اذن تبقى أنت في مركزك . . ! وكان هذا هو الغرض الذي عبث هذا الرجل من أجله بمصالح بلاده في عالم السياسة الدولية . فلما خاب أمل بسمارك في تعيين صديقه شوفالوف انقلب على الروسيا وحسّن للامبراطور ولهلم الاول أن يعرض عنها ويحالف النمسا مناظرتها . . وراح يتمحل لذلك أعذارا ما كان يعبأ بها من قبل : كقوله ان الروسيا همجية أوتوقراطية والنمسا جرمانية على شيء من حكم الدستور ! مع أنه كان يبغض الدستور والامم الدستورية ! أو كقوله ان الروسيا مستغنية عن المانيا ولكن النمسا محتاجة اليها ، أو كقوله ان مطامع الروسيا كبيرة لا تطاق وان النمسا تقنع من حلفائها بالقليل ، فلم يوافقه ولهلم الاول على رأيه وتشبث بمعارضته على خلاف عادته . لماذا ؟ لاسباب لعل أهمها القرابة بين البلاطين الروسي والبروسي . . أو لعل المنافسة الشخصية بين فينا وبرلين اللتين تقاسمتا العظمة والظهور في أمم الجرمان هي أيضا سبب من أهم هذه الاسباب ، ثم انقضى هذا الدور وجاء ولهلم الثاني واستحكم الشقاق بينه وبين بسمارك ووافق ذلك اوان تجديد المعاهدة الروسية واضطر بسمارك الى الاستقالة قبل تجديدها فاهملت المعاهدة وتغيرت وجهة السياسة الالمانية والسياسة الدولية تبعا لذاك . . فلماذا هذا التغير ؟ لان ولهلم الثاني اطلع على وثيقة سرية يصفة فيها قيصر الروسيا بالخرق والخبل ! ولان هولشتين عدو بسمارك كان يومئذ هو صاحب القول الفصل في السياسة الخارجية ، وهكذا تتقلب مصالح الامم بين أهواء المستبدين حتى حين يكون المستبد رجلا كبسمارك عظيم الوطنية عظيم اللب عظيم الدهاء .

ومن العبر النواطق بالمغزى البعيد أن تسمع رأي ولهلم الثاني في عواقب استبداد بسمارك ! وولهلم الثاني كما تعلم هو خليفة بسمارك في الاستبداد على سياسة الالمان . فهو يعزو هزيمة المانيا الى تقصير سياستها الخارجية ويعزو هذا التقصير الى كراهة بسمارك للمستقلين من مرؤوسيه وانفراده وحده بتدبير كل شيء بغير مشاورة الوزراء والمرؤوسين « فخلت الوزارة والسفارات من الناشئة المدربة وامتلأت بالذين تعودوا الطاعة العمياء والعمل بوحي الرؤساء . فلما

كان مكتب الشؤ ون الخارجية الا مكتبا خاصا للمستشار العظيم يجري فيه العمل بارشاده وأمره . فلا تدريب ولا تخريج هناك للقادرين المستقلين في الآراء ، بخلاف ما كان عليه مكتب القيادة العامة برئاسة مولتكي حيث كان الضباط الحديثون يتربون ويتدربون على التفكير الحر والعمل المستقل على حسب الاصول المصححة ورعايةً للتقاليد مع العناية بما تهدى اليه المستحدثات،. فلم يكن في مكتب الشؤ ون الخارجية الا ادوات منفذة لرأي واحد لا يؤ ذن لها ان تطلع على دخائل الامور التي تعمل فيها ولا قدرة لها من أجل ذلك على الاستقلال بعمل ، فكان البرنس ثمة كالصخرة العظيمة في البطحاء اذا تزحزح من مكانه لم تكد ترى فيه الا زواحف الديدان وميت الجذور »[1]

وأعجب من هذه العبرة أن يعود بسمارك بعد أن كافح الريشستاج جيلا كاملا فيقول وقد رأى عواقب فصل الشعب عن الحكومة وأوجس من المستقبل القريب :« ربما كانت خطتي التي قمت فيها بواجبي هي سبب خلو المانيا من عمود فقارها وكثرة طلاب المناصب وخدام الفرص فيها . . فاجدر الامور بالاهتمام هو تقوية الريشستاج ولا سبيل الى ذلك الا بانتخاب النواب المستقلين . . واذا دام الريشستاج على حالة الضعف الراهنة فالحق ان المستقبل لمظلم . . واعتقادي أن الازمة كلما تأجلت كانت أدهى وأخطر . . وربما خبأ غيب الله لالمانيا عصر ذبول آخر يتلوه عصر مجد جديد ـ ذلك ولا ريب سوف يكون على أساس الحكومة الجمهورية[2] .

---

(١) مذكرات ولهلم الثاني من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٩١٨

(٢) صفحة ٦٣٠ من حياة بسمارك لاميل لدفج .

نابليون بونابرت

تعبت فرنسا من الثورات والفتن والحروب وشعرت باعدائها يناوئونها ويتربصون بها فسهل عليها أن تنقاد لنابليون الذي عوّدها النصر وحسن البلاء .

وشغلها نابليون بالمجد والاعجاب وأحاديث الاخطار والجهاد فنسيت الحرية قليلا ولكنها لم تنسها طويلا ، فرأى آخر الامر أنه لا بد له طوعا أو كرها من الديمقراطية وأنه حين أخذ الحرية وأعطى المجد قد دخل في صفقة لا دوام لها ، لان المجد يغري الشعب بطلب الحرية وهو غير مستطيع أن يعطي الشعب مجدا في كل حين .

ولما عاد من ألبا ومثل بين يديه الوزير الديمقراطي كونستان قال له :

« قل لي ما هي أفكارك ؟ حرية الكلام وحرية الانتخاب ووزراء مسؤ ولون وصحافة حرة ؟ انني موافق على كل ذاك وبخاصة حرية الصحافة . فان محاولة سحقها بعد الآن لسخف . . انني انا رجل الشعب . فاذا كان الشعب يريد الحرية حقا فلا بد لي من اعطائه الحرية . . لست بالفاتح ولا طاقة لي أن أكونه

بعد اليوم . انني أعرف ما يمكن وما لا يمكن وكل قصدي الآن أن أقيم فرنسا مرة أخرى على قدميها وأمنحها دستورا يلائم مزاج شعبها . . انني لا أكره الحرية وان كنت قد بسطت لها مرقداً واسعاً حين وجدتها في طريقي ، وانني لأفهم الحرية وبهذا الطعام اغتذيت . لقد ضاعت جهود خمس عشرة سنة فلو أردت البدء من جديد للزمتني عشرون سنة واحتجت أن أضحي بمليوني رجل . . فأنا أريد السلم ولكني لن أناله الا بنصر ولن أنال النصر الا بتأييد من الشعب . وسيطلب الشعب الحرية ثمناً لتأييده . حسن جداً . سيأخذ الشعب الحرية . . ان موقفي لموقف جديد . فانني أشيخ ، وفي الخامسة والاربعين لا يكون الرجل كما كان في الثلاثين . فسلام الملك الدستوري يلائمني جد الملاءمة ، ويقيني أن هذه الحالة ستلقى الرضى والقبول من ولدي » .

فنابليون بقوانينه واصلاحاته وأكاليل المجد التي على تاجه لم يستطع أن يظل حاكما بأمره في أوائل القرن التاسع عشر ولم يرج النصر الذي يسبغ السلام على مملكته الا برضوان شعبه . وقد شاءت المقادير ان تجزيه واحدة بواحدة فخلع برلماناً وخلعه برلمان ، ولولا أن نواب الشعب دعوه الى اعتزال الملك لما جسرت الدول على طرده لان ملوكها المطلقين كانوا قد عرفوا معنى الحرب التي تقودها ارادة الشعوب

نعم ان فرنسا عادت الى الاستبداد باسم نابليون جديد هو نابليون الثالث ابن أخي نابليون الكبير ، ولكنها عادت اليه للدفاع عن حقوق الشعب لا لاهتضام تلك الحقوق ، فقد كان الرجعيون في البرلمان هم الذين ضيقوا على الشعب وحرموا العمال حق الانتخاب وعطلوا حرية الصحافة وحرية الاجتماع وأسرفوا في الحجر على جميع الحريات في قانونهم المعروف بقانون مارس سنة ١٨٥٠ . فجاء لويس نابليون يلغي ذلك القانون ويعيد الى الشعب جميع تلك الحقوق ، ثم آل أمره الى اعلان الديمقراطية التامة في سنة ١٨٦٩ وتجديد الحكومة النيابية في أوسع نطاق . الا أن دسائس الحكم المطلق بقيت مع جراثيم السنين الماضية لتقضي عليه آخر قضاء . فلما شجر الخلاف على وراثة العرش الاسباني تصدت له الامبراطورة اوجيني ـ وكانت اسبانية لها مطامع خاصة في بلادها ومن رأيها ان

الحرب توطد دعائم عرشها . فعرفت كيف تستميل اليها المعجبين بها من القواد الظرفاء والساسة المتأنقين ، وعرفت كيف تصم مسامع الامبراطور المتردد عن نصائح تيير وأصحابه الاحرار الذين كانوا يذادون عن البلاط ولا يقبلون فيه الا على جفوة وغضاضة . فكانت الحرب مع بروسيا وكانت الهزيمة العاجلة وكانت نكبة فرنسا التي لم ينقذها منها الا تيير وأصحابه الاحرار .

خاتمة

مما تقدم نعلم أن كلمة « بلاد البحر الابيض » كلمة لا معنى لها اذا أريد بها تسويغ الحكم المطلق في البلاد الواقعة على ذلك البحر . لان الحكم المطلق أو الحكم الدكتاتوري ظهر في بلاد كثيرة غير تلك البلاد ، ولان الاسباب التي أفضت الى قيام الدكتاتورية ـ أو ما يسمونه الدكتاتورية ـ في تركيا وايطاليا واسبانيا ليست خاصة بالبحر الابيض ولا بطبيعته الاقليمية أو الجنسية ، اذ هي أسباب يمكن ان توجد في اي بلد وفي ظل أية حكومة ، وواحدة من تلك الامم ـ وهي تركيا ـ أجدر بأن يقال ان الذي حدث فيها هو انشاء الديمقراطية لا انشاء الدكتاتورية ، وان القوانين الحازمة التي يسنونها هناك انما هي القوانين اللازمة لحماية ديمقراطية جديدة لا تزال في دور النشأة والتكوين وفي خطر من نكسة النظام القديم وعوامل التقهقر . فليست هي استبداداً ولا الغرض منها توطيد حكم الاستبداد ، وفي كلام مصطفى كمال مع الكاتبة الانجليزية جراس اليسون عن تحرير المرأة يقول : « كيف يتاح لنا أن نبني ديمقراطية تامة ونصف الأمة في الاصفاد ؟» ويقول مرة أخرى : « ان الرجال الذين يُطلبون في عهد الديمقراطية لا بد لهم من منزل يتربون فيه . والآن وقد خلصنا من الاجنبي في

وسعنا ان نبدأ بتنفيذ الاصلاح » ومصطفى كمال هو الذي جعل شعاره في تحرير الشعب كله : « خير وسيلة لتعليم قوم قيمة الحرية هي أن تطلقهم احراراً » وهو رئيس حزب الشعب ورافع السيادة الشعبية الى حيث لم يرتفع بها دستور في وطن من الاوطان . فمن الظلم والخطأ ان تسمى حركة الرجل العظيم بالحركة الدكتاتورية الا بمعنى واحد فيه الفخر كل الفخر لمصطفى كمال وللشعب التركي على السواء ، وهو أن ذلك الشعب قد أحب مصطفى كمالا واعجب به لانه يستحق حبه واعجابه فأولى حكومته كل ما تحتاج اليه من السلطان لتحريره والنهوض به وترقية شؤونه . وقد علم مصطفى كمال أن شعبه مفتقر الى الاصلاح فلم ينظر اليه نظرة المحتقر ولم يعزل نفسه عنه هو وصحبه ولم يتذرع بذلك الى حرمانه حقاً من حقوقه . لان هناك طريقتين لادراك أدواء الشعوب : احداهما طريقة الوارث الذي يسمع بمرض مورثه فيرتاح الى تصديقه وينقبض لعلامات الصحة التي تبدو على مريضه ويود أن يؤكد كل نذير من نذر العلة ويدحض كل خبر من اخبار الشفاء ، والاخرى طريقة الأب العطوف الذي يسمع بمرض ولده فلا يرتاح الى تصديقه ويستبشر بكل ما يخلف ظنه ويؤمن جد الايمان بحياته ويبذل ما في وسعه لتعجيل شفائه ، وكانت هذه هي طريقة مصطفى كمال في ادراك أدواء الشعب التركي - وهي الطريقة الفذة لعلاج الشعوب - ولم تكن طريقته أن يبحث عن علامات الخطر بحثاً لانه يريدها ويفرح بها ويعلق آماله جميعاً على الوفاة .

ان العدو الاجنبي ليستطيع أن يرى عيوب الامة التي يبغضها ويستعبدها ولكننا لا نحتاج منه الى هذه النظرة وليست حاجتنا الا الى نظرة الوطني المشفق الغيور الذي يستفز في أمته كل ما يستفزه الكائن الحيّ في بنيته من كامن قوةٍ يغالب بها الداء .

أما ايطاليا واسبانيا فقد غُلبت فيهما الديمقراطية ولم تفشل . وفرقٌ بين أن يغلب على أمره وبين أن يتداعى من صميم بنيانه ، فما من نظام حكومة في التاريخ الا وقد غلبته القوة في بعض أزمانه ، ولكن الفشل شيء غير هذا وهو أن يثبت بالتجارب الطبيعية في المواطن المختلفة أن هذا النظام غير صالح للقيام .

ولم يثبت قط أن الديمقراطية كانت فشلا في ايطاليا أو في اسبانيا بل ثبت نقيض ذلك أن آفة إيطاليا واسبانيا معاً هي حكم المستبدين لا حكم الشعوب وأن الذي تشكوان منه هو الموانع التي تمنع شعبيهما أن يكون لهما الرأي النافذ في سياسة البلاد .

ولسنا نريد أن نعرض هنا لخفايا الاسباب التي أحاطت بقيام الدكتاتورية في إيطاليا واسبانيا ، بيد أننا نقرر مالا خلاف فيه وهو أن الدكتاتورية قامت في الأمتين على قوة وطنية معتزة بالشعور الوطني والآمال القومية ولم تقم على قوة أجنبية ولا قامت لاخلاء روح الآمة من كل نخوة حية ومن كل اعجاب سام ومن كل شيء غير التهافت على المنافع المكذوبة والصغائر التي لا تنهض بها همم الشعوب . ولقد عز على نابليون بونابرت أن يحكم اسبانيا قبل مائة سنة ولم يعز ذلك على بريمودي ريفيرا ومن وراءه في هذا العصر وهم أقل جنداً وأقل شأنا وأقل اصلاحا من نابليون ، وهم يحكمون أمة أعلم وأرقى وأكبر من التي أراد أن يحكمها نابليون . وما استعصى زمام اسبانيا على ذلك الجبار القدير وأسلس لبريمودي ريفيرا ومن معه الا لفرق واحد تتضاءل فيه جميع الفروق ، ذلك هو الفرق بين الحكومة الاجنبية والحكومة الوطنية وان عجزت هذه أسوأ العجز واقتدرت تلك أحسن الاقتدار .

وسواء صحت الضرورات التي انتحلت للحكم الدكتاتوري في اسبانيا وايطاليا أو لم تصح فالحقيقة الواضحة أنها ضرورات لا مثيل لها في غير هاتين الامتين من أمم البحر الابيض المتوسط . وأين في غير اسبانيا وايطاليا تلك الملايين المعطلة والحروب التي تقتل فيها عشرات الالوف والقلاقل التي تذهب بالارواح على قوارع الطرقات والديار التي يهجرها مئات الالوف في كل عام والاقاليم التي تهم بالانفصال والسطوة التي يملكها رجال الدين في السر والعلانية والمذاهب الاجتماعية والسياسية التي تضرب في قرار الاساس ؟ أين في غير اسبانيا وايطاليا من أمم البحر المتوسط هذه الاسباب أو هذه الضرورات صحت كلها على علاتها أو كان منها المبالغ فيه وغير الصحيح ؟

على أن الحكومة النيابية في أمم الديمقراطية لم تعيَ قط بمراس أسباب كتلك

الاسباب وضرورات كتلك الضرورات ، بل لم تعي حكومات الديمقراطية حتى في الزمن القديم بعلاجها والاحتياط لها وهي بالقياس الى حكومات اليوم ناقصة النظام ناقصة التمثيل ناقصة الاداة . ففي روما القديمة كان مجلس الشيوخ في أوقات الخطر على الوطن ـ لاحظ في أوقات الخطر على الوطن ـ ينتدب من زعماء الامة « دكتاتوراً » يساعده قائد حربي ويطلق يده في الشؤ ون العامة زمنا أقصاه في العادة ستة أشهر ، وكثيراً ما كان الدكتاتور يعتزل وظيفته باختياره اذا أنجز ما انتدب له قبل الموعد المضروب ، وكان مجلس الشيوخ على كل حال يحتفظ بحقوقه التامة في أثناء ذلك ويشرف يوما يوما على أعمال الدكتاتور وأعوانه الحربيين ، ولم يحدث قط ـ الا عنوة واقتساراً ـ أن يجيء الدكتاتور والسكينة مستقرة والحقوق العامة مصونة فيستبد بالناس وينتهك الحق المصون ويفرّق وحدة الامة المتفقة . . هذا وهو لا يكون دكتاتورا الا بنوع من البطولة المهيبة المحبوبة يغني النفوس بعض الغنى عن الحرية بعزة الوطنية ونخوة الاعجاب ولن يكون دكتاتورا وهو سخيف هزيل لا مظهر له ولا مخبر ولا يصدق أحد من الناس أنه مالك أمره وصاحب القوة التي بها يصول على أبناء وطنه .

ان أحمق المستبدين هو ذاك الذي يهدم الديمقراطية في هذا العصر ليبني على أساسها صرح الاستبداد العتيق . فان الديمقراطية اذا هدمت لم يخلفها في مكانها الا أحد مذهبين : فاما الفوضية واما الشيوعية على نظام من أنظمتها الكثيرة . ذلك أن الفوضيين والشيوعيين يشككون الناس في كل نظام معهود ويقولون ان الحكومة بطبيعتها قائمة على الغصب والاعتداء لخدمة طائفة من الامة هي الطائفة التي تقبض على الزمام . لا فرق في هذه الخلة بين حكومات المستبدين والحكومات النيابية التي يقال انها حكومات الشعوب ، فاذا ساء ظن الناس بالتمثيل النيابي بعد ما جربوا ضروب الحكومات الغابرة ساء ظنهم بادعاء كل حكومة وتهيأت الاذهان لقبول تلك الدعاوى التي يلهج بها الفوضيون والشيوعيون ، وبطل يقينهم بالحكم وثقتهم بالطبيعة البشرية فباتوا في حياة خاوية عميقة لا اخلاص فيها ولا أريحية ولا يقين . فكل مستبد يحارب الديمقراطية اليوم انما يخدم الشيوعية أو الفوضية من حيث يخيل اليه أنه يخدم نفسه ويعود بالناس الى زمن دابر لن يعود .

فليحذر المستبدون من عزل الشعوب عن الحكم أو من شكها في الحكومة الشعبية لانها في هذه الحالة لن تؤمن الا بالحكومة الطائفية ولن يكون من وراء ذلك الا انتصار محقق للشيوعيين ، وليحذر الكتاب الذين يسرفون في نقد الديمقراطية لانها انما تقبل الاصلاح على مبادئها القويمة ولا تقبله على مبادىء اخرى ، أما اذا انقلبت أو بطل الايمان بها فلن يرجى من ذلك خير ولن يخلفها نظام أصلح منها يُظن به أن يدوم أو يطول .

***

على انني لا أحب أن اغفل في ختام هذه الرسالة اعتراضا يصوّب الى الديمقراطية ويلوح عليه بعض الرجحان في باب غير باب الحكومة والسياسة ، ذلك ان الديمقراطية ترجع الامر في الفنون والآداب والمعارف الشائعة الى أذواق الجماهير فيقل الابداع والتفوق ويكثر البهرج والتلفيق ، ورجحان هذا الاعتراض ظاهر ولكنه عرضة للمبالغة وخطأ التقدير . فينبغي أن نذكر أولا ان عهد الديمقراطية الحديثة لم يتجاوز خمسين سنة فلا نطالب هذه السنين الخمسين بان تخرج لنا من مبدعاتها ما يوازن مبدعات العبقرية في جميع العهود ، وانما يحق لنا أن نقابل الخمسين بخمسين مثلها في أي زمان وفي أية حال ، وعندئذ نرى أن الديمقراطية لا تجيء في هذا الميدان متأخرة ان لم نقل انها تجيء متقدمة بين الصفوف .

وينبغي أن نذكر بعد هذا ان اساليب التعبير عن العواطف الانسانية قد تنوعت في أيام الصحافة والصور المتحركة والصور الشمسية فكان لذلك أثر موقوت لا بد أن يحسب حسابه الى أن تزول مفاجأته وتطرد الاذواق الفنية في سياقها الاصيل ، وان الفنان الذي يرزق العبقرية العالية لا يسف بها الى المباراة في سوق التصنع والغرور ، وانه حتى اذا كانت الجماهير تغوي المستضعفين من رجال الفنون باسفاف ذوقها وكثرة تقلبها فليس دواء ذلك أن نقول للجماهير قفي ولا تتعلمي ولا تطلبي الفنون الآداب أو ان نضرب عليها حجراً كذلك الحجر الذي ضربه الهنود على الطبقات فحاقت بهم اللعنة أجمعين . كلا ! وانما دواؤه ان تتعلم

الجماهير وتتعلم وتتعلم حتى تسمو الى مقربة من الذوق السليم ، وأن يتهذب شره المال الذي نخشى غوايته على العبقريين في سوق المنافسة والزحام ، وأن يوكل التهذيب والتنقيح الى اختيار الزمن الذي يضع كل شيء في نصابه حسب ما يحتويه من جراثيم البقاء ، وما دام لنا في الانسانية أمل فهذا المطلب ميسور مطمأن اليه موثوق بفلاحه . أما اذا ضاع الامل في مستقبل الانسانية قاطبة فأهون بضياع الامل في الديمقراطية حينذاك .

عباس محمود

العقاد

الصّهيونيّة العالميّة

دار الكتاب اللبناني - بيروت

بداءة
العقاد والصهيونية
بقلم محمد خليفة التونسي

معظم فصول هذه الرسالة أحاديث أذاعها أديبنا الكبير الأستاذ عباس العقاد بعنوان « الصهيونية العالمية » فكان لها صدى قوي بين مستمعيها ، أوجب تقييدها ، ليتمكن من سمعوها ـ ومن لم يسمعوها أيضاً ـ من الرجوع الى مباحثها القيمة ، حتى يزداد النفع بها بدءاً وعوْداً .

وليس من همنا هنا تلخيصها ، إذ لا حاجة به ولا جدوى منه ، وهي ـ كسائر ما يكتب الأستاذ ـ مستعصية على التلخيص لايجازها وإجمالها ، ولكننا نومىء إلى موضوعها وبعض مضامينها والفكرة الجامعة بينها ومنزع كاتبها فيها ، فالفصول كلها بينة سوية متكاملة يشد بعضها بعضاً .

هذه الدراسة العلمية الموجزة لنشاط « الصهيونية العالمية » في كثير من اتجاهاتها ومجالاتها ـ تشتمل على معلومات وثيقة المصادر مدعمة بالأسانيد ، ونتائج وطيدة تقوم على أسس منها عميقة الجذور ، حتى إن الأذهان المبرأة من الأهواء المريضة ـ لتتأدى من مقدماتها الى نتائجها في ثقة ويسر ، للصلات الوثقى التي تربط بين شتى هذه الأطراف .

هي ليست تاريخاً للصهيونية وإن كانت تبدأ بإلمامة شاملة لنشوء فكرة الصهيونية وأطوارها السياسية المختلفة حتى الآن ، مع البراهين الحاسمة على أنها لم تكن في شتى عصورها الا حركة سياسية البواعث والغايات ، لا سند لها في المراجع التوراتية ، وإن زيفت لها أصول دينية رغبة في رواجها

وتعزيزها في نفوس اليهود وغيرهم ، فانطلت خدعها على الجمهرة بين الفريقين . وهذه إلمامة كافية كي تمهد لموضوعها ، وحسبنا من جديدها أنها تهتك الحجب عن أصول الصهيونية الزائف وتنسفه من أساسه .

وتمضي الفصول في الكشف عن ماهية الصهيونية وخفاياها ، وتزييف أكاذيبها ودعاواها ، ومن أشيعها أكذوبة النبوغ اليهودي ودعوى اضطهاد اليهود بسببه ، فتفضح الرسالة هذه الأكذوبة في التاريخ القديم والحديث بالحجة البينة وتشير إلى معظم أسباب الاضطهاد ، وكلها تنبع من العزلة التي يفرضونها على أنفسهم وموقفهم العدائي من كل أمة يواطنونها أو يجاورونها لما طبعوا عليه من سوء وزعارة وحماقة ، فهم وحدهم المسؤولون عن كل ما يحيق بهم من بلاء ، وهنا تبين الرسالة الأسس النفسية والاجتماعية للصهيونية وعلاقتها بأخلاق اليهود ونزعاتهم المأثورة ، وقيام الصهيونية أخيراً متحالفة مع قوتين : هما قوة المصالح الاستعمارية وقوة التعصب ضد الاسلام ، ولولاهما لانهارت أو قنعت كدأبها بالذلة والخمول .

ثم تكشف الرسالة عن مكايد الصهيونية التي تنفذها على أيدي طوابيرها الخامسة بين الأمم في الميادين الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وتبين أساليبها قديماً وحديثاً ، واستباحتها أبغض الوسائل لتحقيق أغراضها ، فهي حركة جنونية هدامة تسعى جهدها لحرب الأديان والأوطان والأسر ، لتنفرد بسلطان المال على مصاير المجتمع ، وهي لا تخلق حركة اجتماعية ولا قدرة لها على خلقها ، ولكن لا تكاد حركة تنبع في ناحية حتى تسارع هي إلى استغلالها وتوجيهها إلى ما يخدم مصالحها ، ولا سيما الحركات الهدامة وآخرها الشيوعية اليوم ، وهنا الخطر الحق للصهيونية ، ومن أمضى أساليبها الغش والغدر واستطلاع الأسرار المحلية والعالمية وتسخير المال والنساء وتوطيد الصلات بأصحاب النفوذ في كل أمة ، استغلال كل ذلك لمصلحتها ، ولا منفذ لها بغير هذه الوسائل السرية وما يشبهها خفاء وخبثا ، إذ لا يناسب طبيعتها غير تلك الوسائل ، ولا نجاح لها إلا بها ، لأنها حركة هدم لا تعمير .

وثلث الرسالة الأخير يوضح مستقبل الصهيونية ووليدتها إسرائيل ، ويبين

منابع قوتها ومكامن ضعفها ، وما ينتظرها من سوء المصير ،. ويعين أسباب فشلها لضعف ذاعي بقائها أمام عوامل فنائها ، ومرجعها جميعاً إلى تبدل الأحوال العالمية والمحلية ، وكلها تنذر الصهيونية بالتفكك ، وتهدد إسرائيل بالزوال ، فالدسائس الصهيونية متعسرة أو متعذرة مع وضوح العلاقات الدولية اليوم وتشابكها . وتوزع السيطرة السياسية والاقتصادية بين قوى عالمية مختلفة المصالح والنزعات والمطامع ، وإسرائيل دويلة مريضة متناقضة البنية والأسس والمشكلات ، وهناك مقاطعة العرب واقفة لها بالمرصاد ، فلا راحة لها مما قاطعوها ، ولا بقاء لها إذا طالت القطيعة وستطول . هذا إلى قيامها بين دول ناهضة تفوقها عدداً وثروة ، وكلها تمقتها وتتربص بها الدوائر ، جزاء ما أسلفت من عدوان عليها ، ولأن قيامها يهدد أرزاقها بل حياتها بالبوار .

هذه إيحاءات إلى بعض مضامين « الرسالة » وهي قليل مما كتب الأستاذ العقاد في موضوعها ، فنحن لا نجد بين شيوخ أدبائنا وشبيبتهم من هو ألهج منه بالكشف عن خفايا الصهيونية وتزييف مزاعمها والانحاء عليها فيما يكتب ويذيع ويتحدث . وموقفه منها غير مستغرب على من عرف حياته أو آثاره وهي صورة حياته ، ومن يقرأ كتبه ولا سيما عبقرياته وحملاته ضد الحكم المطلق والمبادىء الهدامة - يعرف أنه يدين بالقيم العليا ، ويقيس عظمة الرجال والأعمال بالمقاييس الأخلاقية ، والصهيونية دعوة جنونية بهيمية ضارية ، وحركة هدامة خبيثة الوسائل والأهداف ، فلا جرم تخف في ميزانه وتستحق عنده الجفاء ، إنها عدو البشر تنزع منذ قامت حتى اليوم إلى حرب المجتمع بأخس الوسائل ، وتعمل وسعها على إفساد أخلاقه وتمزيق أواصره وهدم قيمه ومقوماته لكي تتسلط عليه فتسخره في مصالحها وتستأثر بخير العالم دونه ، والعقاد لا تنقصه الغيرة ولا الايمان بالمبادىء الانسانية وهو مطبوع عليهما ، فلا يستغرب منه الغضب على الصهيونية التي تهدرها ، ولا تنقصه الشجاعة فيما يراه حقاً وهو مطبوع على الشهادة ، وان كان يعلم عين اليقين أخطار عداوة الصهيونية ولا يسلم من جرائرها ، ولا يثقل ضميره ولا عقله هوى مريض يقعده عن التصدي لها وإن خطبت رضاه ، فما قلمه الجبار بأضعف من الأقلام الهزيلة التي تحرص الصهيونية على رضاها بكل

ثمن في كل أمة ، ولا تنقصه المعرفة الواسعة العميقة لما ظهر وبطن من وسائلها وغاياتها الحقيقية والمزعومة ، بل قل بين أكثر الساسة والمفكرين من عنده علم قديمها وحديثها مثله ، وهذه هي بواعث العقاد حين يجفوها ، فهو يعافها عن نزعة انسانية رفيعة لا عن ترة شخصية ولا طائفية ، ولا عن تعصب ديني ولا وطني .

وليس من الضروري أن ينحو الانسان نحو أستاذنا العقاد في شعوره وتفكيره ومنزعه ليعاف الصهيونية ويجفوها مثله ، فكل من يحب الخير للناس ـ مهما يكن دينه أو وطنه ـ يجد نفسه مضطراً إلى الاشمئزاز منها وجفوتها مثله ولو لم تنله بسوء ، ومكافحتها كما يكافح كل وباء ولو لم يتهدده بضرر ، فما كانت الصهيونية في جميع العصور إلا وباء يهدد سلامة المجتمع وأمنه وأواصره بالفساد ، أولئك قطاع الطرق حيث كانوا منذ كانوا ، ولن يصمهم أعدى أعدائهم بشر مما وصمتهم به كتبهم المقدسة وهي القدوة والسند ، او مما يصمون به أنفسهم طائعين بل مفاخرين .

أخي القارىء ، ليست هذه مقدمة ، فما أنا بأهل لتقديم العقاد ، ولا حاجة بأحد لذلك ، ولكنها توطئة مما يناجي به الأخ أخاه في البدء ولهذا أود أن تحظى منك هذه « الرسالة » بما تحظى به « الرسائل الأخوية » ولولا ذلك لأمسكت ، أو لكانت التوطئة هي الختام .

محمد خليفة التونسي

١ ـ الصهيونية قبل الميلاد

يغلب على ظن الكثيرين أن الصهيونية حركة دينية قديمة ، وأنها مرتبطة بما ورد من الوعود للخليل إبراهيم عليه السلام .

والواقع أنها ليست بالحركة الدينية ، وليست بالحركة القديمة في بني إسرائيل أنفسهم ، ولكنها حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها في بيت داود .

فغاية ما بلغه إبراهيم عليه السلام تحت قمة صهيون أنه اشترى قبراً هناك بالمال كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين في العهد القديم .

ومضت القرون بعد إبراهيم إلى عهد موسى عليه السلام . ثم مضت القرون بعد موسى والحال على ما كانت عليه ، وبقيت مدينة بيت المقدس في أيدي اليبوسيين ، وجاء في سفر القضاة من العهد القديم أن بني بنيامين كانوا يسكنون مع اليبوسيين ، ولا يدعون معهم حقاً في المدينة ، ثم أغار بنو يهودا عليها فدمروها وأحرقوها ، ولم يخطر لهم أن يتخذوا فيها مقاماً ذا قداسة عندهم أو غير ذي قداسة . وعاد إليها اليبوسيون فجددوها وأقاموا فيها إلى أن تولاها داوود ، وخلفه سليمان فبنى فيها الهيكل المشهور . ولم يتفق اليهود أنفسهم على قداستها بعد قيام الهيكل فيها . فإن الملك « يهواش » ملك اسرائيل أغار عليها ، واستباح هيكلها ، وغنم ما فيه من التحف والآنية ، ثم قفل إلى السامرة ، وجاء في العهد القديم خبر وفاته على الصيغة المرضية فقيل عنه إنه اضطجع مع آبائه ، أي قضى على الأقل غير مغضوب عليه .

وإذا رجعنا إلى كلمة « صهيون » نفسها لم نجد لها أصلا متفقاً عليه في اللغة العبرية . وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير في اللغة الحبشية ، وأنها من مادة الصون والتحصين . وكانت فعلا من حصون الروابي العالية . والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين . وهم الذين أطلقوا على الأرض اسم أرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وقنع وخنع بهذا المعنى في لغتنا العربية الحاضرة .

والكلمة تكتب في العبرية تارة بالسين وتارة بالزاي ، ولم يحرص عليها اليهود بعد دخولها في حوزتهم . بل جاء في سفر صمويل الثاني أن داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب إليه بل مال به إلى بيت عوبية . كذلك كان شأن صهيون قبل سبي بابل . فلما حمل اليهود إلى الأسر أصبح الحنين إلى صهيون رمزاً للحنين إلى عودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الالهية في كتبهم تحولا جديداً مع مصالح السياسة ، فانحصرت في ذرية داوود ـ عليه السلام ـ ليخرج منها غير ذي الذرية من اليهود .

وليس هذا بالتحول الأول عندهم في هذه الوعود على حسب المصالح السياسية . فقد كان الوعد لابراهيم فحولوه إلى إسحاق ليخرجوا منه أبناء إسماعيل . ثم حولوه إلى يعقوب ليحصروه في سلالة إسرائيل . ثم حولوه إلى ذرية داود لينحصر في مملكة الجنوب دون مملكة الشمال . وهكذا كان وعد صهيون (وعداً سياسياً) تابعاً لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذي يقام في جوارها ، فلا شأن له بالعقيدة الدينية التي تشمل جميع سلالة إبراهيم .

وفي الأسر البابلي تعلم اليهود بقايا الديانة القديمة ، وما احتوته من البشائر عن عودة « مردخ » الى الأرض ، وعودة رسول النور كل ألف سنة إليها لاصلاح فسادها . فتعلقت آمالهم بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب . ولم يكن هذا البطل مقصوراً عندهم على ذرية داود ، بل زعموا مرة أنه هو « كورش » الفارسي الذي سمي بالمسيح في الاصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا . ولبثوا دهراً يتخيلون المسيح الموعود ملكاً

صاحب عرش وتاج ، يفتتح بيت المقدس بالسيف ، ويعيد فيها الدولة الداثلة . ثم يئسوا مع الزمن من تجدد المملكة بقوة السلاح فعلقوا الرجاء بالرسول المختار من عالم الروح ، وقيل في وصفه كما جاء في سفر زكريا « انه عادل ومنصور ووديع يركب على حمار ابن أتان » .

ولما بعث المسيح ـ عليه السلام ـ أنكر كهان الهيكل بعثته وآمن به بعض اليهود وبعض أبناء الأمم المقيمين في فلسطين ، واحتج القوم عليه بوعد إبراهيم ، فقال لهم : إن أبناء ابراهيم بالروح هم الموعودون بالخلاص ، فكل من آمن بدينه فهو من أبنائه ، ولا فرق بين اليهودي واليوناني ، لأن رباً واحداً للجميع . كما جاء في الرسالة إلى رومية .

وقد حدث في عصر السيد المسيح أن اليهود تفرقوا في أنحاء الدولة الرومانية ، واتخذوا لهم وطناً في كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتب فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودي يقول في تحديد موقفهم من الدولة « إن اليهود ـ لكثرة عددهم ـ لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون إلى أورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطناً لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم وأجدادهم من قبلهم » .

والكلمة التي عبر بها فيلون عن الحاضرة هي الكلمة اليونانية « متروبوليس Metropolis » أي أم المدن من كلمة « متري » بمعنى أم وبوليس بمعنى مدينة وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين .

فالصهيونية في الزمن القديم لم تكن عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الأمل في نجاحها السياسي ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافي ، وأطلقت في بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد من المعاني الجغرافية ، وذاك حيث يقول صاحب الرسالة إلى العبرانيين من الانجيل « إنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس مضطرم بالنار . . بل أتيتم الى جبل صهيون ، وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية . . وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات وإلى الله ديان الجميع » .

وواضح من تعبير هذه الرسالة أن الصهيونية قد تحولت الى فكرة لا تتعلق

بمكان معين ، ولا تتطلب العودة إلى فلسطين ، ولذلك ناهضها المتدينون من اليهود عند ظهور الدعوة إليها ، واعتبروا هذه الدعوة تجديفاً وإنكاراً للمسيح المنتظر في عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح ـ عليه السلام ـ وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه في آخر الزمان ، فاتفقتا على شيء واحد ، وهو الفصل بين الصهيونية السياسية والفكرة الدينية .

والواقع أن الصهيونية الحديثة كأختها القديمة : كلتاهما وليدة السياسة والسياسيين ، أياً كان السبب الذي تستند إليه .

وجملة أسبابها ـ كما يذكرها المؤرخون لها ـ هي الاضطهاد وظهور الفكرة القومية ومطامع الاستعمار .

لهذا نشأت أول الأمر في أوربا الشرقية وأوربا الوسطى ، حيث بلغ الضغط على اليهود أشده في القرن التاسع عشر ، ثم نشأت مع المسألة الشرقية واستخدمها الساسة لتحقيق مطامعهم في بلاد « الرجل المريض » . . أي الدولة العثمانية كما سماها رواد الاستعمار .

فلما اتجهت أوروبا كلها إلى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال الدولة العثمانية ـ أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة في هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية إعلاناً دعا فيه يهود إفريقية وآسيا إلى موافاة جيشه بمصر ، ليدخلوا معه إلى أورشليم ، وراجت في باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية إلى اغتنام الفرصة ، للاستعانة بفرنسا على تنظيم اعمالهم التجارية بين الوجه البحري في مصر وعكا والبحر الميت وشواطىء البحر الأحمر .

ولم تكد هذه الدعوة تحبط بحبوط حملة نابليون حتى تصدى الايرل أوف شافتسبري الانجليزي سنة ١٨٤٢ لتبنيها واحتضانها ، منعاً لتنفيذها على يد دولة أخرى ، وعلى الخصوص الدولة الروسية ، فوضع مشروعاً سماه مشروع « الأرض بغير شعب للشعب بغير أرض » ويعني بالأرض مكاناً خالياً يصلح للاستعمار الزراعي في أنحاء فلسطين ، ثم انعقد مؤتمر برلين وهذه الفكرة شائعة فيه بين الأروقة يزجيها رجال المال من وراء الستار .

ولما فوتح السلطان عبد الحميد الثاني في هذه المسألة أراد بدهائه المعروف أن يسخرها لغرضين من أغراضه : وهما الحصول على القروض بأيسر الشروط ، واستخدام اليهود في رد حملات التشهير التي كانت تنهال عليه باسم المذابح الأرمنية . وسنرى فيما يلي من الكلام عن أطوار هذه المسألة أنها كانت ـ ولا تزال ـ ألعوبة من ألاعيب السياسة التي تتوارى خلف ستار من الدين ، ولكننا ـ قبل أن ننتقل إلى الصهيونية بعد العصر القديم ـ نود أن نميط الستار عن حقبة أخرى ترتبط بتاريخ الصهيونية ، ويتجاهلها الذين تذرعوا باسم الانسانية لتعليل هذه الحركة الجهنمية .

فهم يقولون ـ ولا يملون تكرار القول ـ إن الاضطهاد هو علة الصهيونية الأولى ، وان قيام الصهيونية يقضي على هذه العلة أو يمنع تجديدها .

والحقيقة التي نريد أن نقررها هي أن الاضطهاد نتيجة لداء مزمن في اليهود سيبقى معهم في دولتهم الجديدة كما كان معهم في دولتهم القديمة .

فمن الذي اضطهد اليهود في مملكة سليمان حتى انقسمت على أهلها ثم انقسم كل شطر من شطريها على أهله .

ومن الذي اضطهدهم يوم تمردوا على كل نبي من أنبيائهم ، وكل قائد من قادتهم ، وهم بعيدون من سلطان غيرهم ؟

إن القرآن الكريم قد وصفهم حقاً حيث قال عنهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . » ولم يصفهم القرآن الكريم إلا بما وصفتهم به كتبهم ورسلهم من أقدم عصورهم الى ما بعد عصر المسيحية .

ففي الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية يقال لهم بلسان الرب : « إني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

وفي الاصحاح التاسع من سفر نحميا إنهم « أعطوا كتفاً معاندة ، وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا » .

وفي الاصحاح السابع عشر من سفر أرميا انهم « قسوا أعناقهم لئلا يسمعوا ولئلا يعقلوا » .

وفي أعمال الرسل أنهم غلاظ الرقاب . وفي غير هذه الكتب اجماع على

غلظ رقابهم ، وشكاستهم ، وامتناع الوفاق بينهم . وهذه هي الافة التي لا تفارقهم في دولتهم الجديدة ، وما فارقتهم قط في دولتهم الغابرة ، حتى قضوا عليها قبل ان يقضي عليها أعداؤها . وقد جروا على انفسهم الاضطهاد في كل بقعة وفي كل عصر وبين كل قبيل ، فليس من المعقول أن تكون العلة في غيرهم ، وليس للأمم من حيلة معهم إلا أن تخضعهم آخر الأمر أو تخضع لهم برمتها ، وإنه لهو المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض ، وإنما آفة القوم الكمينة فيهم أنهم كائن ممسوخ من الوجهة الاجتماعية ، لأنهم جماعة مقتضبة لم تصبح أمة ، ولم ترجع إلى نظام القبيلة البدوية . واشتبكت مع العالم وهي في مرحلة غير نامية وغير صالحة للنمو على حدة ، فكل علاج لها ميؤوس من جدواه ، ما لم يغلبها العالم على طبيعتها ، ويدمجها اضطراراً في طوية أممه ، وسوف يكون ذلك لا محالة ، لأن غيره لن يكون .

٢ ـ الصهيونية

من الميلاد إلى القرن التاسع عشر

منذ القرن الأول للميلاد لم يطرأ على « الصهيونية » شيء جديد قبل القرن التاسع عشر ـ فكل ما عرفه اليهود عن الصهيونية في عصر السيد المسيح بقي كما كان في القرون الوسطى ، وفيما تلاها من قرون النهضة والاصلاح إلى أوائل القرن التاسع عشر ـ أي إلى القرن الذي يصح أن يسمى في وقت واحد بعصر الثورة ، وعصر الاستعمار ، وعصر الصناعة الكبرى ، ولكل صفة من هذه الصفات علاقة باليهودية لا تخفى على النظرة العاجلة ، ولكنها تستحكم وتتغلغل في جميع الجوانب بعد إنعام النظر إليها .

كان اليهود يعيشون في أرجاء الدولة الرومانية بين أناس يخالفونهم في العقيدة ، وكانوا يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم ، وينشئون في أنحاء الدولة مراكز متفرقة للمعاملات التجارية ، وشؤون الصيرفة ، ومبادلة السلع والنقود ـ ولكنها متفقة فيما بينها على قصد وعلى غير قصد لانعزالها في كل بقعة على حدة ، فإذا سافر اليهودي من الاسكندرية إلى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة مماثلة لبيئته ، يذهب إليها ليستعين بها على عمله ، ويشترك معها وبإرشادها في استغلال من حوله . وكان هذا الاستغلال بطبيعته سبباً لنقمة الفقراء والأغنياء في وقت واحد ، فكان اليهود عرضةً لغضب المعوزين كما كانوا عرضة لغضب المدينين وأصحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسعة ، وبخاصة في إبان الأزمات والحروب الخارجية والاهلية ، وقد كانت تتعاقب على كثرة من قُبيل انهيار الدولة الرومانية .

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هذا الشعب المسمى

« اليهود » متفق عليهم ، متفاهم فيما بين أبنائه على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهم ، لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعه في كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين أبنائه في المعسكرات المتقاتلة ، ولا ينظر اليهودي إلى زميله نظرة العداء والمقاطعة ، وإن قطعت الحروب والفتن بين البلدين .

ودانت أمم الغرب بالمسيحية شيئاً فشيئاً فلم تتغير هذه الحالة ، بل جد عليها سبب مفهوم ، للتقاطع بين اليهود والمسيحيين ، وهو عداء اليهود للسيد المسيح ، فعاش اليهود في عزلتهم ، وتعرضوا من جراء هذه العزلة لتهم كثيرة وشبهات أكثر ، حتى شاع عنهم في أيام الوباء أنهم هم الذين يسممون الماء والطعام .

وضاعف الاشتباه فيهم أنهم كانوا ينفردون بمطاعمهم في المدن ، وقلما يؤاكلون أحداً في الريف .

وحدث غير مرة أن اليهود كانوا ينصرون كل مغير على البلد الذي يقيمون فيه ، وحدث غير مرة أنهم كانوا يصاحبون ا الجيشين المتقاتلين لشراء الأسرى ، وبيع المؤنة ، وبذل القروض ، ثم يتقابلون على تفاهم عند « تصفية الأعمال » والمساومة ، فوقر في أخلاد الأمم انهم شعب غريب .

وكان شعورهم نحو بيت المقدس خلال هذه القرون لا يتجاوز شعور الحنين إلى مجد قديم ، وانتظار الوقت الموعود في الزمن الذي يختاره الله ، ولا شأن لها بتقديمه أو تأخيره مع المشيئة الالهية ، وأصبحت الصلوات التي يعيدونها كل يوم أو كل أسبوع طلباً للرضوان الالهي ، ألفاظاً تعاد على الأكثر بغير معنى ، كأنها الدعوات التي يرددها الجهلاء من أتباع كل نحلة ، وهم لا يفقهون معناها .

ويسجل التاريخ الأوروبي على اليهود أنهم كانت لهم مشاركة في كل فتنة ، وكل إغارة . ولكن المؤرخين يختلفون في تعليل هذه المشاركات المتواترة ـ فيعزوها بعضهم إلى المصادفة لوجود اليهود في كل بيئة ، ويعزوها بعضهم إلى شعور النقمة الطبيعي على كل سلطان غاشم يخضع له المحكومون على رغم واضطرار ، ويعزوها بعضهم إلى التدبير المتعمد لهدم المجتمع المسيحي من داخله وتقويض دعائم الدولة والكنيسة في وقت

واحد ، ومما قيل وأصر القائلون عليه أنهم أسسوا جماعة البنائين الذين اشتهروا باسم الماسون ، وقرنوا بين التعاهد على بناء الهيكل وبين هذه التسمية ، وما يتصل بها من المصطلحات والشعائر ، وقيل غير ذلك كثير مما تتشعب فيه الظنون ولا حاجة الى استقصائه ، لأن الظواهر تغني فيه عن الأسرار .

وكان يتفق في بعض السنين أن يتجه اليهود والمسيحيون معاً إلى بيت المقدس ، على أثر الاشاعات « الفلكية » التي يزعمها أناس من المنجمين موعداً لعودة المسيح ـ عليه السلام ـ فتكثر الهجرة إلى المشرق على اعتقاد المهاجرين جميعاً أن الدنيا تنتهي بهذه العودة الموعودة ، وليست فكرة الوطن القومي مما يدخل في هذا الاعتقاد ، بل كان من المسيحيين من يرى أن ارتداد اليهود عن كفرهم بالديانة المسيحية شرط لقيام الساعة ، فلا أمل لهم قبل ذلك في اليوم الموعود .

أما فكرة « الوطن القومي » فلم تنشأ قبل عصر النهضات الوطنية ، ولم يسمع فيه صوت لليهود إلا لأن هذا العصر كان كذلك عصر الصناعة الكبرى وعصر الاستعمار .

فلا يخفى أن الاستعمار قد بدأ بالتجارة ، وأن طريق الهند كان أهم الطرق التجارية في العالم القديم ، ومن ثم كثر الاهتمام بفلسطين ومصر ، وارتفع في المجامع الدولية صوت اليهود لاتصالهم في وقت واحد بالتجارة وبهذه البلاد ، واشتبكت مسألة القروض بمطامع المستعمرين في أقطار الدولة العثمانية ، فلم ينظر الأوربيون إلى مطالب اليهود كأنها مطالب منفصلة تعنيهم وحدهم ويغارون عليها من أجلهم ، ولكنهم جعلوها من الوسائل المعول عليها في خدمة السياسة والاستعمار .

وأثار القرن التاسع عشر مسألتين لا مسألة واحدة فيما يرجع إلى موقف اليهود من العصر الجديد .

أثار مسألة القومية اليهودية ، لأن القومية كانت على كل لسان في البلاد التي يكثر فيها اليهود خاصة كبولونيا ورومانيا وأسبانيا وهولندة ، فخطر لليهود أن يطالبوا بقومية مستقلة ، وأن يطالبوا لهذه القومية بوطن تساعدهم الدول

على احتلاله .

وأثار القرن التاسع عشر مسألة المساواة في الحقوق العامة ، فاعترف بعض الأمم لليهود بالمساواة بينهم وبين غيرهم من أبنائها .

واعترضت أمم أخرى على اعتبار اليهود من الوطنيين ، لأن الوطنية لا تقبل الولاء لوطنين اثنين ، وكان اليهود قد أخذوا في ذلك الوقت ينادون بالوطن القومي على اختلاف بينهم على موقعه : أين يكون وكيف يكون ؟

وفي هذه المرحلة صدر كتاب موريتس هيس Moritz Hess بعنوان رومة أورشليم ، ومداره كله على ضرورة الاعتراف بوطنين للشعب اليهودي ، وعلى اعتبار اورشليم مركزاً لليهودية كما تعتبر رومة مركزاً للكنيسة المسيحية الكبرى .

ومما يؤيد تلفيق الدعوى الدينية في مسألة الصهيونية الحديثة ، أن إمام هذه الصهيونية الأكبر تيودور هرزل لم يفكر فيها إلا بعد سنوات من صيحته الأولى في سبيل « خلاص اليهود » وإنما كانت فكرته الأولى تحويل اليهود إلى المسيحية ، وإنشاء سدرسة في فيينا لابتداء هذه المحاولة ، وإقناع الجاليات اليهودية بين الأمم الأخرى بمحاكاتها ، ثم نظر اليهود فوجدوا لهم « لزوما » في دسائس الاستعمار ومساعيه الخفية الظاهرة ، ووجدوا لهم « لزوما » في عصر الصناعة والطرق التجارية خلال بلاد الدولة العثمانية ، ووجدوا لهم « لزوما » في عصر المسألة الشرقية وتفاهم الدول المستعمرة على تقسيم تركة الرجل المريض ومنها فلسطين ، فجاءت الصهيونية بعد ذلك كله « وليدة » السياسة كما كانت وليدة لها في أقدم عهودها .

وقبل أن تشتبك الصهيونية والمطامع الدولية خطر لليهود أن يصححوا مراكزهم ، ويلائموا بينهم وبين العصر الحديث بوسائل متعددة ـ لم تعرض لهم فكرة « الوطن القومي » إلا في نهاية المطاف .

فأنشأوا جماعة هسكالا أو « شكل » في ألمانيا لتجديد العقيدة ، والتوفيق بين التربية الدينية والتربية العصرية ، وأنشأوا جماعة « حلوقة » على غرار الجماعة القديمة التي كانت تجمع التبرعات من أنحاء الأرض ، لايواء

الشيوخ والعجزة في أورشليم وصفد وطبرية وغيرها من مواقع فلسطين التي يكثر فيها اليهود ، وطمع بعضهم بقيادة موسى مونتفيور في شراء البقاع الواسعة في فلسطين من محمد علي الكبير لتعميرها بالزراع من المهاجرين ، وتألفت في الآستانة جماعة اليهود الروس المعروفين باسم « بيت يعقوب » لتشجيع الهجرة بعد استئذان السلطان .

فلما شعر اليهود بسهولة الطمع في « الوطن القومي » رفضوا هذه المحاولات جميعاً ، واندفعوا الى فكرة « الدولة اليهودية »، ولم يقنعوا بالوطن القومي لمجرد السكنى والتعمير .

ولكنهم ـ حتى في هذه المرحلة ـ لبثوا مترددين في اختيار الموقع بين أوغندة في افريقية ، واقليم من الأقاليم الخالية في الولايات المتحدة ، وبقعة من البقاع على البحر الأسود بين روسيا والبلقان ، وكانت طائفة من أقوى جماعاتهم الدولية وأكبرها ـ وهي طائفة عقودة اسرائيل ـ تعارض فكرة الوطن القومي إلى أيام الحرب العالمية الأولى ، ولم تعدل عن معارضتها الا بعد إعلان وعد بلفور .

وظلت فكرة الوطن القومي ، أو فكرة الدولة اليهودية ، كالسحاب الذي يتشكل على حسب أوهام الناظرين إليه ، حتى أوشك القرن التاسع عشر أن ينتهي دون أن تستقر على وضع محدود ، ثم تبلورت على شكل ثابت في مؤتمر بال بسويسرة سنة ١٨٩٧ ، وتم تشكيلها على الوضع الأخير بوعد بلفور بعد عشرين سنة .

أما مؤتمر بال المسمى بالمؤتمر الصهيوني فقد أصدر في اليوم الثاني من أيام انعقاده قراراً يقول فيه تعريفاً للصهيونية انها حركة ترمي الى إنشاء وطن للشعب اليهودي شرعي معترف به في أرض فلسطين ويرى المؤتمر أن الوسائل الآتية صالحة لتحقيق هذا الغرض وهي :

١ ـ ترقية اليهود المقيمين بفلسطين في أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية .

٢ ـ تأليف اليهود في جميع البلدان جماعات محلية ، او جماعات عامة على

حسب القوانين المرعية في تلك البلدان .

٣ ـ تقوية الوعي اليهودي حيث كان .

٤ ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضروري من الحكومات .

ثم نشبت الحرب العالمية ، فاتصل الصهيونيون بالمعسكرين وساعدتهم ألمانيا والنمسا عند الباب العالي لتحقيق هذا المطمع في فلسطين ، وعلم جمال باشا انهم يمهدون لانتصار دول الغرب على دول أوربا الوسطى فاشتد في مقاومة مشروع التعمير ، واتفق في أثناء ذلك أن أستاذاً كيمائياً في جامعة مانشستر كشف طريقة لاستخراج المواد اللازمة للمفرقعات من بعض الحبوب ، فطلبت الجامعة مكافأته ، وأبى هو أن يطلب شيئاً لنفسه ، قانعاً بوعد من الحكومة البريطانية أن تصغى إلى مطالب قومه .

هذا الأستاذ هو الدكتور حاييم وايزمان الذي اشتهر بعد ذلك في زعامة الحركة الصهيونية ، وشفاعته هذه كانت المقدمة « المرغوب فيها » لاعلان وعد بلفور ، ولكنه لم يعلن يومئذ في البلاد العربية ، بل خطرت الاشارة إليه في الشرق العربي كله إلى ما بعد الهدنة بشهور ، وما كانت شفاعة الدكتور وايزمان الا تعلة لاصدار هذا الوعد الذي كان جزءاً من السياسة البريطانية العامة ومعداً قبل إعلانه لتنفيذه في الوقت المناسب ، وقد كان في طريق التنفيذ بغير هذه الشفاعة ، وإنما أصدرته الحكومة البريطانية ليكون ثمن الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة ، كي تحصل بريطانيا على المساعدات الامريكية التي كانت في حاجة ملحة إليها للمضي في الحرب العالمية الأولى .

٣ ـ الصهيونية منذ وعد بلفور

دخلت الصهيونية في دور العمل السياسي النافذ بعد وعد بلفور ، وانتداب بريطانيا العظمى لادارة فلسطين .

وترجمة هذا الوعد « أن حكومة جلالته تنظر مع الموافقة إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي بفلسطين ، وستبذل أفضل مساعيها لتيسير الوصول الى هذا المطلب ، مع العلم بأنه لن يعمل شيء يمس الحقوق المدنية أو الدينية للطوائف التي تسكن فلسطين الآن من غير اليهود ، أو يمس الوضع السياسي المخول لليهود في أي بلد آخر » .

ويخيل إلى بعضهم من اليهود ومن العرب أن هذا الوعد منتزع أو مغصوب بحكم الضرورات الحربية ، ولكنه في الواقع جزء من سياسة عامة تتناول الشرق الأدنى برمته ومنه فلسطين وسائر البلاد العربية ، فهذا الوعد هو الجزء المقابل لوعود أخرى بذلت للأمراء في بلاد العرب التي خرجت من حكم الدولة العثمانية . ومن سخرية القدر أن نرجع اليوم إلى أقوال زعماء اليهود بعد استقرار الانتداب البريطاني على فلسطين نحو عشر سنين ، فقد كان اللورد ملشت الصهيوني الانجليزي يقول في سنة ١٩٣٦ « إن اقامة ثلاثة ملايين من اليهود في فلسطين سوف يقضي إلى الأبد على احتمال نجاح الثورة التي تهب على دولة الانتداب » . . وكان بن غريون رئيس الوكالة اليهودية يقول « من خان بريطانيا العظمى فقد خان الصهيونية » .

وكان غيره يصرحون بأمثال هذه التصريحات ولا يقتصدون فيها ، ولو اطلع أحد على الغيب في تلك الآونة لقال مع أبي العلاء « وتقدّرون فتضحك الأقدار . . » .

ومن الواجب على الدوام تذكر المناورات السياسية التي أدت إلى قيام الوطن

القومي في فلسطين ، فكل ما كان وليداً لهذه المناورات قد يموت بها في يوم من الأيام ، ولا سيما وليد التلفيق ، أو وليد المفاجآت .

إن الواقع المحقق في مسألة الصهيونية أن اليهود يستغلون الدول ، والدول تستغلهم . وهذا الواقع المحقق وحده هو الذي يقرر لنا أن العامل المهم في بقاء الصهيونية بفلسطين يتوقف على إرادة الأمم العربية في نهاية المطاف ، فلن تدوم الصهيونية في الشرق الأدنى اذا عملت أمم العرب على أن تموت ولا تدوم .

وقد تكون الشعوب بمأمن من تقلبات السياسة لو أنها نشأت نشأة طبيعية على أساس قويم ، أما ان تكون تقلبات السياسة هي مادة وجودها ومادة بقائها - فهي حالة لم تعرف لها سابقة في التاريخ .

عالجت بريطانيا مشكلة الانتداب فلم يسلس مقادها في يديها بعد عشرين سنة من وعد بلفور ، فقسمت فلسطين شطرين بينهما شقة مستقلة في الناصرة وبيت المقدس ، وأبى العرب واليهود هذا التقسيم ، فاقترح العرب حكومة وطنية تراعى فيها مصالح الأقلية ، واقترح اليهود حكومة يهودية تعيش فيها الأكثرية عالة على اليهود مع فتح أبواب الهجرة لهؤلاء بغير قيود ولا حدود ، ثم مضت سنتان وأعلنت دولة الانتداب قيام الحكومة اليهودية على أن تصبح فلسطين بعد عشر سنين حكومة اتحادية ، وسمحت بدخول خمسة وسبعين ألفاً من المهاجرين اليهود خلال السنوات الخمس الأولى بعد سنة ١٩٣٩ ، فكانت لجنة الوصاية بعصبة الأمم أول المعترضين على هذا الحل ، واضطرمت نيران الحرب العالمية الثانية دون أن ينقض أو يوقف عن التنفيذ .

ثم تأسست الجامعة العربية في أعقاب الحرب العالمية ، وتكرر العدوان في أواخر تلك الحرب من عصابات الارهاب الصهيونية وأشهرها عصابة أرجون ، وعصابة شتيرن ، وعرضت حكومة العمال الانجليزية مسألة فلسطين ومسألة الانتداب على هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، فأحيلت هذه المسألة كلها إلى لجنة من لجان الهيئة ، وعادت اللجنة إلى خطة التقسيم مقترحة أن تقسم البلاد إلى حكومتين مستقلتين في غير الشؤون الاقتصادية ، وأن يوضع بيت المقدس تحت الوصاية الدولية .

وماذا كان هذا الاستقلال في غير الشؤون الاقتصادية يعني بالنسبة إلى العرب وإلى الصهيونية ؟

إن ربع قرن مضى في تشجيع اليهود على الهجرة والاستعمار وتنظيم الشركات لم يبق للعرب بقية من الاستقلال في شؤون الاقتصاد ، فإذا استقل العرب وسلموا زمام الاقتصاد إلى الحكومة العامة فمعنى ذلك أنهم يسكنون في حجرات بيت خلا من حجرة الطعام ، وسلم مفتاحها ومطبخها الى الساكن الآخر يعطي منه ما يعطي ويمنع ما يمنع كما يشاء .

وقبل الصهيونيون هذا الحل ببعض التحفظ إلى حين ، واحتج العرب عليه ، واستعصى الأمر على الدولة المنتدبة ، فنظر مجلس الأمن فيه ، وقرر بجلسة الثاني من أبريل سنة ١٩٤٨ احالته إلى هيئة الأمم لاعادة النظر في التقسيم ، وبحث مسألة الانتداب على احتمال اسناد الوصاية الموقوتة إلى هيئة الأمم ، فتركت الهيئة مشروع التقسيم كما كان ، وقررت أن توفد إلى فلسطين رسولا يصلح بين الفريقين ويبسط للهيئة حلا يرضيانه أو ترضاه وتفرضه على الموافقين والمخالفين .

وكانت بريطانيا العظمى قد أعلنت عزمها على الجلاء عن فلسطين ، والتخلي عن مهمة الانتداب ، وعينت للجلاء موعداً في الرابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٨ ، فكأنما كان هذا اليوم موعداً لقيام دولة إسرائيل واعتراف الولايات المتحدة بها قبل انقضاء ساعة من لحظة الاعلان .

ودخلت الجيوش العربية فلسطين ، واجتاحت أمامها عصابات اليهود ، ولأول مرة من تاريخ مجلس الأمن تعمل المادة التاسعة والثلاثون من ميثاق الأمم المتحدة عملها الناجز في وقف القتال حرصاً على سلام العالم . . فكانت الهدنة فرصة لتزويد الدولة اليهودية بالسلاح والعتاد ، وتهديد كل دولة عربية على انفراد للكف عن القتال ، مع الحرمان من كل مدد تستطيع أن تحصل عليه .

وقد تجددت في هذه المرحلة مناورات السياسة من الدول الكبرى التي تسيطر على سياسة العالم ، فاعتقدت كل دولة منها انها آمنة من مساعدة

الصهيونية . لأن الصهيونية في حاجة إليها ، فالولايات المتحدة تعطي القروض وتأوي في بلادها خمسة ملايين من اليهود ، وبريطانيا العظمى صاحبة النفوذ الأكبر في الشرق الأدنى وعلى مقربة من حدود إسرائيل ، وروسيا يسكنها ملايين من اليهود وتدين بالمذهب الذي نشره اليهودي كارل ماركس وتابعه عليه الكثيرون من أبناء جلدته في جميع البلدان .

ثم كان ما هو مذكور من وقف القتال في السابع عشر من شهر يونيو سنة ١٩٤٩ وطغيان اليهود على بلاد فلسطين جميعاً إلى اقصى الجنوب وذهب أبناء البلاد مشردين بالعراء ، محرومين من المأوى والمرتزق في مواطن آبائهم وأجدادهم منذ آلاف السنين ، وشذاذ الآفاق ينعمون بخيرات تلك المواطن ويتدفقون عليها بغير حائل ولا مانع ، حتى بلغ سكان إسرائيل أكثر من مليون وستمائة ألف عند نهاية سنة ١٩٥٢ .

لقد رأينا كيف يتدرج الصهيونيون من طمع إلى طمع كلما أنسوا التشجيع أو الاغضاء من دول الاستعمار . كانوا يقنعون بالسكن حتى وجدوا من يطمعهم في الوطن القومي فطلبوه وزادوا عليه إقامة الدولة في ذلك الوطن المغصوب ، وكانوا يقنعون بالقسمة فهم لا يقنعون اليوم بما دون السيطرة الكاملة على جميع البلاد ، ووضح من تسمية الدولة الناشئة باسم إسرائيل أنهم يتطلعون الى مملكة يهوذا في الجنوب ، ووضح من دعوتهم ودعواهم على ألسنة المتهوسين منهم انهم يطمعون في الدولة التي رسمت حدودها في سفر التكوين « من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . . » والتي رسمت حدودها في كلام يشوع « من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . . والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس » .

وليست دعوة المتهوسين بين هؤلاء القوم غير دعوة العقلاء والحكماء كلما سنحت الفرصة ، وواتاها من الأقوياء تشجيع واغراء . وحسب صهيون من تشجيعهم واغرائهم حتى الساعة أنها لم تحاسب قط على مخالفة ، ولم تحفل قط بقرار يتفق عليه الأقوياء أو يختلفون . وتنقضي الأيام على مصرع رسول الأمم ، وعلى اقتحام بيت المقدس ، وعلى اختراق الحدود ، وإهدار دماء الأبرياء ، وترويع المشردين فوق ما أصابهم من ترويع وتشريد ـ فلا تُدان

صهيون بجريمة من هذه الجرائم ،بل تتجنى على غيرها وتشكوه ، فتنفتح الأذان والصدور لاستماع شكواها ، ثم لا يقال لها أقل ما ينبغي أن يقال في هذا المجال : اذهبي فأطيعي الهيئة التي ترزئينها ثم تستمدين العون منها ، ولعلها ستعان ثم تعان قبل أن تؤمر يوماً بأن تسمع وتطيع .

وفي وسع الدول الكبرى أن تصنع كثيراً لاسرائيل ، إلا شيئاً واحداً لا تستطيعه ، لأنه لا يستطاع .

ليس في وسعها أن تقيمها على قدميها وأن تغنيها عن معونتها ، وهي لا تفتأ تستعين بها على نفقات الدفاع ، ونفقات الايواء والتعمير ، وسداد الديون ، وإن طال صبرها على معونتها فليس في وسعها أن تضمن لها دوام « التقلبات السياسية » في مصلحتها ، ولا أن تقتلع من طباع أبنائها جذور ذلك الداء الذي شكاه أنبياؤها قديماً ، وسيشكوه لا محالة أصبر الساسة من الأقوياء ، والضعفاء : داء الرقبة الغليظة ، وليس له دواء .

أما الأمم العربية فهي في الحق ضعيفة أمام أنصار إسرائيل . ولكنها تحبط ما يعملون بعمل واحد : وهو الاعراض عنها والكف عن معاملتها . وإن دولا أقوى من إسرائيل ، وأسلم منها بناء في موطنها . لتنخذل مع الزمن إذا طالت المسافة بين من تعاملهم ويعاملونها ، ونضبت مواردها عن تعويض منافعها من أقرب الناس إلى مصانعها وأسواقها ، وليس للأمم العربية من خيار إلا هذه المقاطعة ، أو سيطرة إسرائيل عليها بما تأخذه من خيراتها وتستفيده من جهودها .

ومن خيرته الحوادث بين هذين فقد وضح الطريق أمام عينيه .

٤ ـ الصهيونية العالمية

الصهيونية العالمية حقيقة واقعة .

هي قوة موجودة باعمالها وآثارها ، موجودة بدعايتها وأخبارها ، موجودة بمقاصدها وغاياتها ، ولا حاجة بها إلى وجود في صورة أخرى ما دامت موجودة بالأعمال والدعاية والغايات .

ظهرت في القرن الماضي مجموعة من الوثائق السرية سميت بمحاضر مشيخة إسرائيل ، وانتشرت من روسيا حيث ظهرت أولاً إلى فرنسا وإنجلترا ثم سائر الأقطار الأوربية ، وخلاصتها أنها تجمع المحاضر التي تسجل قرارات المشيخة الصهيونية ، وأن هذه المشيخة تلتقي من حين إلى آخر للنظر في شؤون العالم ، واتخاذ الخطط المرسومة لتوجيه السياسة الدولية وإثارة الفتن والقلاقل في أمم الحضارة ، سعياً وراء غاية واحدة : وهي تخريب العالم وهدم دعائم الأخلاق والأديان والقضاء على كل سيادة روحية أو دنيوية فيه ، لتمكين الصهيونية من السيطرة عليه ، وتسليمه للصيارفة والسماسرة وأشباههم من خدام المال المستترين وراء كل شبكة مالية واسعة النطاق ، ومعظمهم من الصهيونيين .

والملاحظ على هذه الوثائق أنها لا تظهر في لغة من اللغات الا اختفت على أثر ذلك ، وأنها تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد ، وهذه هي الشبهة القوية التي أقنعت بعض المشتغلين بالنشر والصحافة الكبرى بصحة الوثائق ، واهتمام الصهيونيين باخفائها ومنع تداولها .

ونحن على بغضنا للصهيونية لا نريد أن نعطي هذه الوثائق فوق حقها ، فنحن لا نجزم بنفيها ولكننا كذلك لا نجزم بصحتها ، ولا نرى أن الدلائل

التاريخية كافية لاثباتها والتعويل عليها .

بل نحن نميل إلى الشك فيها كثيراً ، لأننا نستكثر على الصهيونية أن يكون لهم خلق الطاعة والولاء ، وأن يتعودوا الاخلاص في خدمة هيئة علنية او سرية . فلم يعرف في تاريخ هؤلاء القوم قط أنهم يخلصون في طاعة هيئة دنيوية أو دينية ، وليس في تاريخهم كله عشر سنوات متواليات خلت من الفتنة والعصيان والتمرد على الرئاسة من أبناء جلدتهم ومن غير أبناء جلدتهم ، ولا فرق بين رئاسة دينية أو دنيوية في هذه العاهة المزمنة بين هؤلاء القوم .

بل هم لم يخلصوا في طاعة نبي قط من عهد ابراهيم الخليل إلى عهد موسى ، إلى ما بعد انقضاء عهد النبوات لاسرائيلية وظهور السيد المسيح ، وقد وصفهم القرآن الكريم أصدق وصف في قوله تعالى : « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وهذا وصف إلهي صادق عليهم في جميع العصور ، ولكننا لا نحب ان ندينهم بكتاب لا يؤمن به أنصارهم من الغربيين ، وفي كتبهم المعتمدة كفاية وفوقالكفاية لتوكيد هذا الخلق الذي نسميه عاهة مزمنة فيهم ، ما زالت ولن تزال .

ففي التوراة من سفر الخروج « قال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » .

وفي السفر نفسه بلسان الإله : أني لا أصعد في وسطك ، لأنك شعب صلب الرقبة لئلا أفنيك في الطريق .

وفي سفر التثنية يقول لهم موسى عليه السلام : « إني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

وفي سفر التثنية أيضاً يقول لهم : « ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها ، لأنك شعب غليظ الرقبة » .

وليس في العهد القديم سفر واحد خلا من وصف كهذا الوصف بمعناه أو بما هو أشد من معناه ، ولم تتغير طباعهم بمضي الزمن إلى أيام السيد

المسيح . فإن السيد المسيح هو الذي يخاطب أورشليم قائلا : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ، ولم تريدي » .

وبعد السيد المسيح كان بولس الرسول يقول لهم : « يا قساة الرقاب ، يا غير المطهرين بالقلوب والآذان ، انتم تقاومون الروح في كل حين » .

فالصهيونيون لم يعرفوا في تاريخهم شيئاً يسمى الولاء والاخلاص في الطاعة لمن يتولى شؤونهم . وكل ما عرفوه وعرفوا به في تاريخهم الطويل طبيعة التمرد والشكاسة والالتواء والعصيان ، وليس هؤلاء بالذين يخلصون في طاعة هيئة خفية أو ظاهرة ، ولكنهم لا يحتاجون إلى ذلك لتحقيق مآرب الصهيونية العالمية ، فانهم في غنى عن هذه الهيئة بما لديهم من الوسائل الأخرى ، وهي كثيرة غير قليلة في العصر الحاضر .

فهم موجودون في أوطان متعددة ـ ولهم ـ باصطلاح العصر الحديث ـ طابور خامس في كل دولة ، ولهم وسائلهم التي لا تتورع عن شيء من ضروب الرشوة ، وارضاء الأهواء والشهوات .

وهم متعصبون متحزبون في كل مكان ، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ، ولكن تجمعهم كراهية الآخرين كما يجمعهم الحقد على العالم ، لأنهم استثاروه في كل بلد وفي كل زمن ، واستثاروا في نفوس ابنائه سوء الظن بهم وشدة النفور منهم ، فهم بغضاء اليه يعلمون أنهم مبغضون ، وحسبهم هذا ليعملوا مع متعصبين متحزبين .

وقد قيل إن عشرة متفقين أقوى من ألف متفرقين ، لأنهم في هذه الحالة عشرة أمام واحد ، ويتكرر هذا الموقف في كل بيئة على تباعد الديار بينهم فتجتمع منهم حلقة مفرغة ، تحيط بكل من يحاربون او يطمعون منه في معونة ، فتتوافر لهم بذلك قوة متآمرة مستمرة ، لا حاجة بها إلى رئاسة خفية تسيطر عليها في جوانب الكرة الأرضية .

ومع هذا كله لا نعتقد آن قوتهم هذه كافية ـ وحدها ـ لبلوغ ما بلغوه في فلسطين .

إن نفاذ الصهيونية الى فلسطين يرجع ، ولا شك ، إلى قوة الصهيونية العالمية . ولكن هذه الصهيونية العالمية لا تعمل وحدها في هذا الميدان ، بل تعمل معها قوتان أخريان أكبر منها ، وهما : قوة المصالح الاستعمارية ، والتعصب الشديد على الاسلام .

إن الغربيين الذين يساعدون الصهيونية العالمية لا يساعدونها حباً لها ، فما في الناس أحد يحب الصهيونية ، والصهيونيون أنفسهم لا يحب بعضهم بعضاً حتى في فلسطين . وإنما المسألة هنا خدمة للمصالح الاستعمارية ، وعداوة للاسلام وليست محبة للصهيونية .

إن الحالة الواحدة لتطرأ على إسرائيل وتطرأ على بلد من بلاد الاسلام ، فينظرون إليها في المغرب بعينين مختلفتين .

كل من الباكستان واسرائيل دولة قامت على أساس العقيدة الدينية ، وكل منهما تأخر وضع الدستور فيه لاختلاف الآراء على التوفيق بين الأحكام الدستورية والأحكام الدينية . ولكنك تقرأ في كلام الغربيين أن أمة الباكستان أمة متأخرة لأنها قائمة على أساس دينها ، ومتأخرة لأنها لم تتم بعد دستورها[1] ، ولا تقرأ شيئاً من هذا القبيل بتة عن الصهيونيين ودولة إسرائيل ، بل تقرأ عنهم كل ما شاءوا من أوصاف التقدم والحضارة .

هي إذن ثلاث قوى تعمل في قضية فلسطين : قوة الصهيونية العالمية ، وقوة المصالح الاستعمارية ، وقوة التعصب على الاسلام ، ولهذا نقول إن الصهيونية العالمية لا حاجة بها إلى مشيخة اسرائيل ، فحسبها الطابور الخامس المنتشر في كل مكان ، ومعه الطوابير الأخرى التي تجتمع على البغضاء وإن لم تجتمع على المودة والولاء .

---

(١) تم دستورها بعد كتابة هذا الكلام وصدر في شهر مارس سنة ١٩٥٦ (التونسي) .

٥ ـ الصهيونية العالمية

جنايتهم على أنفسهم

الصهيونية منسوبة إلى صهيون في بيت المقدس .

ولكننا حين نتكلم عن الصهيونية العالمية ، نعني بها شيئاً أقدم من هذه النسبة ، وأقدم من وصول العبريين إلى أرض فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

نعني بها ذلك الخلق الذميم الذي تأصل في طائفة من العبريين منذ أقدم العصور ، وجعلهم بغضاء منبوذين في كل مكان أقاموا فيه أو دخلوه .

نعني به خلق العدوان والادعاء والانانية ، وهو داء قديم في هؤلاء القوم : لم يفارقهم قط في عهد من عهودهم التاريخية ، ولا شك أنه كان ملازماً لهم زمناً طويلا قبل ظهورهم على مسرح التاريخ .

هذه الصهيونية بغيضة إلى كل الناس ، بغيضة من كل بلد ، بغيضة في كل زمن ، بغيضة في الزمن الحديث ، لا يحبها ولا يعطف عليها أحد بلا استثناء لانصارها المستعمرين والمتعصبين .

ولقد كان الصهيونيون يعرفون أنهم مبغضون ولا يستغربون ، وكان خصومهم يعرفون أنهم يبغضونهم ولا يستغربون : كان هؤلاء وهؤلاء لا يستغربون بغض الصهيونية لأنهم يعرفون أسبابه في زمانهم ، وإن اختلفوا فيمن هو على حق وفيمن هو على باطل .

أما العصور الحديثة فقد اختلط فيها الأمر على بعض الباحثين فخلطوا بينه وبين التعصب الديني على اليهود ، وهما شيئان منفصلان .

وأرادوا أن يطلقوا على بغض الصهيونية اسماً جديداً فسموه كراهية الساميين Anti -Semitism لظنها أنها من عدواة الأجناس .

ثم ظهرت مباحث علم النفس الحديث ـ ولا يخفى أن الكثيرين من دعاته يهود ـ فراح الباحثون في علل الظواهر الاجتماعية يبحثون عن علة نفسانية لكراهية الساميين ، وحاول بعضهم أن يجعلها علة دخيلة تصيب الأمم والجماعات كما تصيب المخبولين من آحاد الناس ، فخبطوا في ذلك خبطا ذريعاً ، وجانبوا الصواب في كل ما زعموه ، لأن المحاولة من أولها قائمة على ضلال ، أو على غرض يسوق إلى الضلال .

قال بعضهم : إن كراهة الساميين مرض اجتماعي يظهر في الأمم التي تصاب بمركب النقص ، وتشعر بأنها محتقرة بين الشعوب ، أو متخلفة عنها .

وقال بعضهم : إن كراهة الساميين مرض يصيب الأمم التي يتسلط عليها الخوف ، فتتهم من تستطيع اتهامه ، وتجد اليهود بينهم منعزلين متميزين ، فتخصهم بذلك الاتهام .

وقال بعضهم : إن كراهة الساميين داء تبتلى به الأمم المتكبرة التي توالت عليها الهزائم ، فهي تتشفى وتنتقم ممن تقدر عليه ، كما فعل النازيون .

وقال آخرون : إن الأمم الفقيرة تصاب بداء الحسد ، وتنتقم من الأجانب والغرباء عنها إذا اعتقدت فيهم الثراء والنجاح .

وكل هذا لغو وخرافة ، لأن الأمم كلها لا تصاب بالأدواء النفسية ويسلم منها الصهيونيون دون سواهم . وإذا كان الصهيونيون مكروهين من قديم الزمن فالبحث العلمي المنزه عن الغرض يتجه إليهم أولا ، قبل أن يتجه إلى الآخرين .

والواقع أن الصهيونيين لم يألفوا أحداً ولم يألفهم أحد ، منذ عرف اسم العبريين في التاريخ .

إن هؤلاء القوم من سلالة سامية نشأت في جزيرة العرب مهد الشعوب السامية ، على أرجح الآراء

فشجر النزاع بينهم وبين جيرانهم وهاجروا الى العراق في الجنوب ، ثم هاجروا من جنوبي العراق الى شماليه في عصر يقارب عصر إبراهيم الخليل ، ثم هاجروا من العراق الشمالي إلى الصحراء السورية فدخلوا أرض كنعان ، وهناك كان يسكن الأدرميون والمؤابيون والعمالقة وعشائر مختلفة من الآراميين والكنعانيين ، وبدأ التاريخ يسمع بأنباء القتال بين هؤلاء جميعاً بعد دخول العبريين إلى ارضهم ، وبدأ التاريخ يسمع النزاع بين أتباع إبراهيم الخليل أنفسهم فانقسموا الى شطرين .

ومنذ تلك الحقبة لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووئام مع جيرانهم ، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون ، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون ، وقامت لهم دولة في عهد النبي داود فشغلتهم بالاغارة على جيرانهم واتقاء الغارة من أولئك الجيران . ثم جاء سليمان الحكيم فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه لأنه فرض عليهم الاتاوات لبنائه وبناء قصره ، ثم انقسموا بعده قسمين : إلى الشمال والى الجنوب ، وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين ، وما قاله الجنوبيون في الشماليين ، فإذا هو أشد وأشنع مما قاله أعداء الساميين فيهم أجمعين ، من أقدمين ومحدثين .

ثم سباهم البابليون وحملوهم إلى أرض بابل ، فلم تنعقد الألفة بينهم وبين جيرانهم هناك ، وسرحهم « كورش » عاهل الفرس بعد حين ـ نفيا في حقيقة الأمر ، وعفوا عنهم في ظاهر الأمر كما قالوا وكما قال .

وجملة تاريخهم بعد العودة من السبي تكرار لهذا التاريخ ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل حدث لهم في كل بلد ما حدث في البلد الآخر : نفور وقتال وكراهية للساميين بالتعبير الحديث .

ولا حاجة إلى بيان ما حدث لهم بعد ذلك . فإنه ماثل في جميع الأذهان ، وهو من المواضيع التي لا تنقطع الكتابة عنها والكلام فيها بين الغربيين والشرقيين ، وبخاصة بعد اقتحامهم لأرض فلسطين ، متواطئين مع ساداتهم المستعمرين ونصرائهم من المتعصبين .

أفكل العالم مريض والصهيونيون دون سواهم هم المبرؤون من العلل والأمراض ؟!

إن ذلك لهو اللغو بعينه كما أسلفنا في هذا الحديث ، وكفى أن تبرئة الصهيونيين من الاثم والملامة تلقي التهمة على أمم العالم جمعاء . . كفى ذلك لنعلم أنه اتهام باطل ينطوي على الغرض كما ينطوي على الضلال . .

لكن الواقع أن أعراض المرض النفساني ظاهرة محققة في الصهيونيين على نحو لا يقبل المراء .

إنهم مصابون بالبارانويا Paranoia بكل عرض من أعراضها التي يحصيها الأطباء النفسانيون .

إن أعراض البارانويا هي غرور الأنانية والانفصام عن الوسط الذي يعيش فيه المريض ، والوهم المتسلط والشعور بالاضطهاد ، والتوجس الدائم من الأعداء .

أي عرض من هذه الأعراض لا يظهر جليا واضحاً في هؤلاء الصهيونيين ؟

إنهم يسمون ربّ العالم « رب إسرائيل » ويحسبون أنه خلقهم وحدهم لعبادته وخلق الأمم جميعاً لخدمتهم الى آخر الزمان .

انهم مصابون بالانفصام فيعزلون في كل مكان دخلوا فيه مجتمعين او متفرقين .

إنهم يتوقعون الاضطهاد ويستثيرونه بوقوفهم موقف المقاومة له ، سواء تعرضوا له أو حرضوه بالعزلة والتآمر على استغلال الآخرين .

إنهم يجمعون كل أعراض البارانويا والشيزوفرانيا كما يحصيها الأطباء النفسانيون .

وكراهة الساميين إذن ليست مرضاً في الأمم الانسانية قاطبة باستثناء الصهيونيين ، ولكنها مرض في الصهيونيين يلازمهم في كل مكان وفي كل زمن ، ويثير في النفس « رد الفعل » الطبيعي له من كل إنسان سليم الطباع .

إنهم لهم الجناة على انفسهم ، وإنهم لقوم « لا يعقلون » كما وصفهم القرآن الكريم .

٦ ـ الصهيونية العالمية

دعوى الاضطهاد

حديثنا هنا موضوعه دعوى الاضطهاد .

ونحن لا نسميها « دعوى الاضطهاد » لأن الاضهاد غير موجود أو لم يوجد في الأزمنة الماضية ، ولكننا نتكلم عن هذه « الدعوى » من جوانبها التي تخفيها الصهيونية ، ويعاونها على إخفائها أذنابها المنتشرون في بلاد العالم ، ومنهم السافرون والمتسترون .

نريد أن نقول « أولا » إن الصهيونية هي المسؤولة عن كل اضطهاد تجره على نفسها وعلى أبناء دينها .

وأن نقول « ثانياً » إن الصهيونيين أشد الناس اضطهاداً لغيرهم إذا ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية .

وأن نقول « ثالثاً » إن الصهيونيين يستغلون دعوى الاضطهاد ، ويتخذونها وسيلة لتخير الأمم باسم الانسانية والغيرة على الحرية .

إن الصهيونية مسؤولة عن كل فاصل تقيمه بينها وبين أمم العالم . لأنها من قديم الزمن تقسم العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله لغير سبب إلا أنهم أبناء إسرائيل ، وقسم آخر يسمونه قسم الأمم أو « الجوييم » ويشملون به جميع الناس من جميع الأقوام والأجناس .

وفي كتب التلمود المعتبرة عندهم وصايا كثيرة عن المعاملة التي يستبيحونها مع غيرهم ولا يستبيحونها مع أحد من ملتهم ، ويكفي منها مثلان أو ثلاثة من تلمود شلقان عراقShulchan Araq الذي لا يزال متداولا بينهم ،

ففي هذا التلمود يقال لهم : « إذا خدع يهودي أحداً من الأمم وجاء يهودي آخر واختلس من الأممي بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التي أرسلها إليهما يهواه » وهو اسم الاله في التوراة .

ويقال لهم في هذا التلمود « إنه وإن لم يكن من المفروض على اليهودي أن يقتل أممياً يعيش معه بسلام ، إلا أنه لا يجوز له في حال من الأحوال أن ينقذ حياة أحد من الأمميين » .

وقد ينكر بعض الصهيونيين اتباعهم لهذا التلمود ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا انهم يستبيحون اليوم ما أبيح لهم قديماً في التوراة ، وقد جاء في كتاب الخروج من الاصحاح الحادي عشر أن شعب اسرائيل أمر « بان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . . وأن الرب أعطى نعمته للشعب في عيون المصريين » فأخذوا الأمتعة وهم على نية الرحيل من الديار .

ومعاملتهم لأعدائهم من باب أولى لا تعرف الحدود ، ومنها استباحة قتل الأطفال والنساء واحراق الحرث والنسل وتدمير المدن بما فيها من مساكن وحصون .

وليست عداوة الأمم داء قديماً عفى عليه الزمن كما يقول اليوم بعض الدعاة الصهيونيين ، فهي باقية على أشدها حتى اليوم ، وهي باقية حتى في شعور الصهيونيين نحو المنقذين لهم والقادمين لنصرتهم ، وقد ذكر كمشى Kimche داعية الصهيونية المشهور أن المحققين هالهم ما وجدوه من شعور المعتقلين بالعداوة نحو المسيحيين في سنة ١٩٤٦ وأن واحداً من اليهود مزق الجواز الذي يبيح له السفر إلى الولايات المتحدة لأنه لا يطمئن إلى احد من المسيحيين » .

قال كمشى في الصفحة الثالثة والثمانين من كتابه الطرق الخفية : « إن عداوة الأمم ـ Anti -Goyism ـ ذلك السرطان القديم في الحياة اليهودية قد جدد أخيراً أجله في الحياة ، وأنه مع الصهيونية يكهرب معسكرات اليهود في

القارة الاوروبية ».

وكمشي هذا هو صاحب صحيفة « جويش أوبزرف » وصاحب المؤلفات المشهورة في الدعاية الصهيونية ، ولا يزال قائماً بهذه الدعاية الى الآن .

فالدعوة المعروفة بعداوة السامية أو عداوة اليهود حركة مشكوك فيها قابلة للاختلاف على بواعثها ، ولكن الدعوة التي لا شك فيها هي عداوة الأمم التي طبع عليها الصهيونيون المعاصرون ، أو عداوة الجوييم ، أو الـ Anti-Goyism كما يسميها الصهيونيون المعاصرون جمهرة ولا يتكلفون لمداراتها وتلبيسها ، ثقة منهم بالضمائر المعروضة في سوق الخداع والتضليل ، وثقة منهم فوق ذلك بغفلة الغافلين ، وفرط العداوة في نفوس بعض الناس للاسلام ، فهم يحاربونه ولا يجهلون مساوىء الصهيونيين .

فإذا كان هذا هو شعور الصهيونية نحو الأمم فلا غرابة في شعور الأمم نحوهم بفواصل التفرقة والانقسام ، ويتمم هذا الشعور أن الصهيونيين من أيام اسلافهم متوارثون خلائق العناد والشراسة ، ويصفهم أنبياؤهم بصلابة الرقاب ، ويقول موسى عليه السلام نفسه : إلى متى يغفر الرب لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة ؟

أما أن الصهيونيين معروفون باضطهاد المخالفين لهم كلما استطاعوا فلا حاجة إلى الشواهد على ذلك من التاريخ القديم ، وهو مشحون بهذه الشواهد منذ أربعة آلاف سنة بل حسبنا شهادة واحد منهم وداعية من أكبر دعاتهم ، وذلك هو صاحب « نيويورك تيمس » الذي ينشر لهم أباطيلهم في الولايات المتحدة . فإنه يقول إنه « ينفر من أساليب الاكراه التي يعمد إليها الصهيونيون في أمريكا إذ يستخدمون الأسلحة الاقتصادية لاسكات من يخالفونهم ، وانه هو نفسه ـ وهو أمريكي يدين باليهودية ـ قد يتعرض للمتاعب من جراء هذه الشكوى ».

إن هذه الشكوى مما أشار اليه دوجلاس ريد في الصفحة المائة والتسعين من كتابه « الدخان والخنق ». . وزاد عليها أنه يستطيع أن يعززها بما يملأ كتاباً كاملا عما يلقاه المخالفون للصهيونية من ضروب الاضطهاد .

فليس من حق صهيوني أن يشكو الاضطهاد إذا تعرض له بسوء نيته وسوء خلقه وسوء فعله ، فإنما الذنب فيه ذنبه قبل غيره ، وليس من شأن سوء النية وسوء الخلق وسوء الفعل أن يجر إلى المودة والشكر والثناء .

والأعجوبة الكبرى في دعوى الاضطهاد أن الصهيونيين يستخدمونها لاقناع الناس بمطالبهم ، ولا يتورعون عن أكذوبة قط في سبيل مطلب مقصود .

هل يخطر على بال أحد أن هجرة اليهود من ألمانيا كانت باتفاق مع هتلر ؟ وأن حركة الاضطهاد كانت تنظم على علم من الدعاة الصهيونيين في القارة الأوربية ؟

هل يخطر على بال أحد أن الصهيونية كان لها مكتب معترف به في برلين ، وأنها كانت على اتصال دائم « « بالجستابو » عن طريق هذا المكتب وفروعه في البلاد الألمانية ؟

نعم . كان لها مكتب معلوم في العمارة رقم (١٠) من شارع مين كستراس Maine Chestrasse يديره اثنان أحدهما يدعى بينو Pino والآخر يدعى بار جلعاد Bar Gilad وكلاهما من زعماء الحركة الظاهرين في أنحاء القارة الأوربية . . وكلاهما مذكور بالفخار في كتاب كمشي ـ الذي سبقت الاشارة اليه .

وكان هذا المكتب ينظم الهجرة الصهيونية سراً إلى فلسطين ، في الوقت الذي تثار فيه الثائرة على الجستابو وفظائعه المسلطة على اليهود . . ! .

ولما أعلن الجنرال مورجان ، بعد هزيمة ألمانيا ، أنه لم ير أحداً من اليهود المهاجرين في حالة سيئة ، وأنهم جميعاً يهاجرون ووجوههم مشرقة ، وجيوبهم منتفخة بالأموال ـ هبت عليه الأقلام المأجورة من أنحاء العالم تتهمه بالنازية والتواطؤ مع الأعداء ، وتلح على حكومته بوجوب تجريده من ألقابه ومن كسوته العسكرية ، جزاء له على كشف القناع عما وراء الستار .

هذه هي « دعوى الاضطهاد » في جوانبها التي تخفيها الصهيونية ، وهي

تدين المضطهدين قبل أن تدين المضطهدين ، وتبرىء العالم كله من إثم الصهيونية ، لأنها لو وجدت في عالم من الملائكة لما كان لها فيه نصيب أكرم من هذا النصيب ، بل لعلها كانت في عالم الملائكة لا تنال من الرغد والنجاح ما تناله بالرشوة وخدمة الشهوات في ميادين السياسة الدولية ، كما ابتلى بها العالم الآن .

٧ ـ الصهيونية العالمية

والنبوغ

من الحقائق المتواترة ، بل من المشاهدات العيانية الثابتة ، أن الصهيونيين ـ كما قدمنا ـ مكروهون في كل مكان وفي كل زمن ، وأنهم يعرفون ذلك ولا يجهلونه ، ويعترفون به ولا ينكرونه . . لأنه أظهر من أن يجوز فيه المراء .

يعرف الصهيونيون أنهم مكروهون ، ويعترفون بذلك لأنه ظاهر متواتر ، ولكنهم لا يعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بل يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعواهم كلها قائمة على شكوى الظلم والاضطهاد ، وعلى الحاجة الملحة إلى الانصاف .

يعرفون أنهم مكروهون ، ويحاولون في الزمن الحديث أن يفسروا ذلك تفسيراً يبرئهم من العلة ، ويرجع بالعلة كلها إلى أمم العالم دونهم ، فلا يفلحون !! .

على أنهم في الزمن الأخير يسلمون أن العلة منهم ، ولكنها علة تشرفهم ولا تعيبهم ، وإنما تعيب غيرهم من أعداء الساميين .

العلة في زعمهم أنهم قوم محسودون ، لأنهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الأمم . . فهم ناجحون في ميادين الأعمال ؛ ناجحون في ميادين العلوم والفنون ، وخليق بهذه الكفايات النادرة ، خليق بهذا النجاح الملحوظ أنه يجلب عليهم الحسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه !!

وهذا هو الوهم الباطل بحذافيره !

هذه هي الاشاعة الكاذبة من الألف إلى الياء !

هذه هي الأكذوبة التي يقوم الدليل عليها بالحساب والأرقام ، والنظر إلى الواقع الذي نراه بيننا ، ولا يذهب بنا إلى بعيد .

في مصر كثير من الجاليات التي تعمل في ميادين الحياة العامة غير الصهيونيين .

فيها جاليات من اليونان ، ومن الأرمن ، ومن إخواننا أبناء الأمم العربية الشرقية .

ونظرة سريعة إلى الناجحين من كل جالية ، ترينا بالحساب والأرقام انهم لا يقلون عن الناجحين من الصهيونيين .

ويبقى بعد ذلك فارقان عظيمان : الفارق الأول ان الناجحين من هذه الأمم ينجحون في التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وأن الصهيونيين ـ على خلاف ذلك ـ قلما ينجحون في عمل غير السمسرة والتجارة .

والفارق الآخر أن الجاليات الأخرى تعمل وحدها ولا تستند إلى عصبة عالمية من أبناء قومها منتشرة في أرجاء العالم ، وليس منها طوابير خامسة مبثوثة في كل بقعة تعاونها سراً وجهراً ، وتحارب من ينافسونها ويزاحمونها ، كما يفعل الصهيونيون .

فالصهيونيون ـ مع هذا التعاون بينهم وبين طوابيرهم الخامسة في أنحاء العالم ـ لم يبلغوا من النجاح مبلغاً يفوقون به غيرهم ، ولم يبلغوا نجاحاً إلا في ميدان واحد دون سائر الميادين .

ندع هذا ونعود إلى دعوى النبوغ في العلوم والفنون ، فلا نرى أن الصهيونية أنشأت لها ثقافة مستقلة قط في زمن من الأزمان : وإنما يستفيد الصهيوني الألماني من ثقافة ألمانيا ، ويستفيد الصهيوني الانجليزي من ثقافة إنجلترا ، ويستفيد الصهيوني الأمريكي من ثقافة أمريكا . ويقال مثل ذلك عن الصهيونيين في إيطاليا وسويسرة وهولندة والبلجيك ، فهم

يستفيدون من ثقافات هذه الأمم ، وينبغي لذلك ان يكون الناجحون منهم في العلوم والفنون أضعاف الناجحين من جميع الأمم بالنسبة لعددها ، ولكنهم بالنسبة إلى عددهم ، وبالنسبُة إلى استفاداتهم من جميع الأمم - أقل من غيرهم في عدد النابغين بكثير .

وإذا ذكرنا الطوابير الخامسة في ميادين الأعمال الاقتصادية ، فلنذكر هذه الطوابير الخامسة في ميادين العلوم والفنون ، ولنذكر أن الصهيونيين يتدخلون في شركات الصحف وشركات الاعلان ، وشركات النشر والطباعة ، وأنهم يتعصبون ويتألبون ويتحزبون ، فينال الكاتب الصهيوني من الشهرة فوق ما يستحقه ، ويبدو ذلك جلياً من شهرة أناس من أمثال لدفيج ، وموروا ، وزفايج ، وكافكا ، وريلكة ، وبروست وسارتر ، وآخرين وآخرين . . فإنهم أقل من نظرائهم في بلادهم ، ولكنهم يشتهرون بفعل الدعاية والتآمر عليها ، لأنهم صهيونيون آباء وأمهات ، أو لأنهم أبناء أمهات من الصهيونيين .

إن المقياس الصحيح لنبوغ الصهيونيين في العلوم والفنون هو تاريخهم القديم .

إن تاريخهم المستقل بثقافته ودراساته هو المقياس الصحيح لتلك العقول ، أو لتلك الكفايات !

وقد كانت في الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات في الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التي احترقت في بعض الحروب عنواناً لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت فيها محفوظات من تآليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكم كتاب كانت فيها من تآليف الصهيونيين الأقدمين ؟ كم أثراً من آثارهم في علوم الفلك أو الجغرافية أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟

لا كتاب ! ولا أثر ! ولا ثمرة . . وهذا هو المقياس الصحيح لتلك العقول وتلك الكفايات .

ولقد كان أذكياء اليهود يخجلون من هذه السبة ، وكان أذكياء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل ابيان Appian حيث وجه السؤال بصددها إلى المؤرخ اليهودي يوسفيوس ، فبماذا أجابه يوسفيوس ؟

إنه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار ، وإنما اعترف بها واعتذر منها كما قال بحروفه : « إننا نسكن بلداً بعيداً من البحر ، ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات ، فهل من العجب أن أمة كهذه الأمة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة ـ تظل مجهولة بين غيرها ؟» .

وقد أورد فولتير هذه العبارة ، فعلق عليها قائلا ـ على فرض أن كتب العهد القديم تعد من كتب الصهيونية : « لا بد أن نلاحظ أن اثنين وعشرين كتاباً صغيراً ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا إلى آكام الكتب التي كانت محفوظة في مكتبة الاسكندرية . . ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا قليلا ، وأنهم كانوا على جهل مطبق في علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعيات ، وأنهم لم يفقهوا شيئاً من تواريخ الأمم الاخرى ، ولم يبدأوا بالتعلم إلا في الاسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف ، وما كانت لغتهم إلا خليطاً بربرياً من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة في تصريفات الأفعال ، فقيرة في أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها . .

ومن السهل أن يقال عن فولتير كل شيء إلا أنه كان من أعداء الساميين ، ولو كان من أعدائهم لما قدح ذلك في كلامه عنهم ، لأنه لم يقرر كلمة واحدة في غير الواقع الملموس .

تلك حقيقة الدعوى التي يروجها الصهيونيون عن النبوغ المحسود ، وعن الكراهية التي يثيرها في النفوس امتيازهم بالكفايات والملكات ، فهم في الثقافة عالة على كل أمة يستمدون منها التعليم ، وهم في ميادين الأعمال دون غيرهم من الأمم التي لا تستعين بالطوابير الخامسة كما يستعينون بها ، وآية ذلك ظاهرة من المقارنة بينهم وبين الجاليات الأخرى من الديار المصرية .

وتلك الطوابير الخامسة هي مصدر القوة الصهيونية العالمية ، وهي التي نشرحها فيما يلي من الفصول .

٨ ـ الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في ميادين السياسة والاقتصاد

الطوابير الخامسة إذن هي مصدر القوة الكبرى للصهيونية العالمية ، لأنها منتشرة في كل بلد ، متفقة على الحقد والضغينة ، وإن لم تتفق على المحبة والخير ، مطلعة على أسرار الدول وأسرار الشركات وأسرار المجتمعات . ولا توجد قوة في العالم تنتشر هذا الانتشار ، وتتفق على الحقد والضغينة هذا الاتفاق ، وتطلع على الأسرار وعلى وسائل استغلالها هذا الاطلاع .

لقد وُجدت في العالم دول قوية نشرت جواسيسها في كل بلد ، واستأجرت الدعاة لترويج مقاصدها وتمهيد الأذهان لقبول سياستها ، ولكنها لم تبلغ في القوة مبلغ الصهيونية العالمية . لأن الدولة القوية تناهضها دولة قوية مثلها ، وتستثير عليها الأوطان التي تحكمها ، ولأن الجاسوس الذي يعمل لدولة غريبة أو قريبة ـ غير الجاسوس الذي يعمل لنفسه ولجنسه ويصدر في عمله عن الحقد المتغلغل بين جوانحه ، والموروث من أبيه وجده ، ويعتقد أن إلَهه يبارك حقده وشره ، ويتكفل له بالنصر على أعدائه ، وقلما يتمكن الجاسوس في بلد من البلدان كما يتمكن منه الصهيوني المقيم فيه ، المرتبط بمعاملاته وعلاقاته ، وقلما يتجاوز جواسيس الدول الألوف الى الملايين . . أما طوابير الصهيونية فهم يتجاوزون الملايين ، من الظاهرين غير المستترين .

نعم من الظاهرين غير المستترين ، لأن الغالب على الكثيرين أن يحصروا الصهيونين فلا يحسبون منهم إلا المقيمين على ديانتهم المعترفين بنسبتهم إلى أبناء جلدتهم ، ولكنهم لا يحسبون الصهيونيين الذين أظهروا التحول عن دينهم ، ليكون هذا التحول أعون لهم على الدسيسة ، وأخفى

لأغراضهم عن الرقباء ، وأدنى بهم إلى مكامن الأسرار وبواطن النيات .

وهناك غير الصهيونيين المقيمين على دينهم ، وغير الصهيونيين المتحولين عنه إلى دين آخر ، طوائف من الصهيونيين بالمصاهرة والمقاربة في الشعور ـ لا يقلون في الغيرة على قضية الصهيونية عن زملائهم الآخرين .

هناك الصهيونيون من الأمهات الصهيونيات ، وقد ترقى بعضهم إلى مراكز الوزارة في أكبر الدول ، وتربوا من المهد على خدمة الصهيونية ، كما يتربى الطفل على حب أمه ، وهو لا يلتمس لذلك الحب علة ولا برهاناً غير العاطفة التي لا تحتاج إلى تعليم ولا تلقين .

فالصهيونيون أكثر من ملايينهم الظاهرين ، وهم ـ مع هذه الكثرة ـ يطلعون على أسرار الدول والمعاملات المالية بحكم صناعتهم ، إذ كانت الصناعة الأولى التي توارثوها هي صناعة الصيرفة والسمسرة المالية ، وهي أحوج الصناعات إلى الاطلاع على الأسرار . لأن سراً واحداً عن الحرب والصلح قد يعمر الخزائن بالملايين ، وقد يخرب الخزائن ذات الملايين .

وهذا عدا أسرار المضاربات في الأسواق بمعزل عن أخبار الحرب والسلام . . فربما ارتفعت أسهم وهبطت أسهم من جراء سر يعرفه المضارب قبل الأوان ، وربما حل الدمار بقطر واسع من عواقب هذا الارتفاع وهذا الهبوط .

وليست الأعمال المالية ـ أعمال الصيرفة والسمسرة ـ وقفاً على الصهيونيين ، فهناك صيارفة كبار من غير صهيون ، وهناك البيوت المالية في جميع الأمم والقارات ، ولكن الشبكة العالمية وقف على الصهيونية العالمية ، فلا توجد شبكة مثلها للصيرفة والسمسرة تضارعها في الانتشار .

يوجد في العالم أفراد من ملوك المال أمثال مورجان وروكفلر ، ولكن لا يوجد فيه ملوك مال من قبيل الأخوة روتشيلد : روتشيلد بريطاني في لندن ، وروتشيلد فرنسي في باريس ـ وروتشيلد الماني في برلين ، وروتشيلد نمسوي في فيينا ، وحولهم شبكة محكمة ، في السر والعلانية ، تحيط بالأسواق ودواوين الحكومات .

قال الكاتب الانجليزي شسترتون الذي ننقل عنه هذه الملاحظة من كتاب : فاجعة السامية وعداوتها . « إن سفينة خرجت من ميناء في أمريكا اللاتينية أثناء الحرب العالمية ، وأرادت الدولة البريطانية أن تردها فلجأت إلى من ؟ . . الى بيوت روتشيلد ، فوقفت السفينة حيث شاءت » واستطاع المال في هذا الحادث ما لم تستطعه القوة . لأن القوة تخشى عواقب المناورات السياسية ، وتتقيد بالقانون الدولي ، وتخاف من سوء السمعة ، ولكن المال يفعل فعله سراً دون أن يعلم أحد بمن عمل ولماذا عمل . وقد يكون في عمله الرضى للمخدوعين غير العارفين ، وللمنتفعين بتدبيره من العارفين .

ومضى شسترتون A. KCheserton يقول في الكتاب نفسه في الصفحة الثمانين : « والأمر أعمق من ذلك وأخفى . فقد حدث قبل الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات ، أن أوغنده عرضت على الصهيونيين فرفضوها ، لأنهم علموا أن حرباً عالمية في الطريق ، وأن فلسطين في خلال تلك الحرب تنتقل على سبيل الهبة إلى أيدي البريطان » .

قال شسترتون بعد ذلك : « إن يهوديا بريطانيا معروفاً تحدث إلى وليام هيكي Hickey عن مشروعات يتممها بعد الحرب ، أي قبل أن تشتعل الحرب العالمية الثانية بسنتين .

وفي الصفحة الخامسة والثمانين من هذا الكتاب بعينه يروي شسترتون قصة الكتاب الأبيض الذي صدر من وزارة الخارجية البريطانية عن ثورة روسيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وأن هذا الكتاب الأبيض جمع من الأيدي بعد صدوره ، وتغيرت بعض عباراته ، ولم يكن ما تغير منه إلا عبارات تشير إلى المساعي الصهيونية ، ثم صدر الكتاب كما هو بعد هذا التغيير .

وينقل الكاتب كلاماً كثيراً من الصحيفة اليهودية الرسمية التي تسمى جويش كرونيكل Jewish Chronicle لا يخطر على البال إلا إذا اطلع القارىء على نصوصه التي لا شك فيها ، ومنها أن السير ستيوارت صمويل - كما جاء في عدد السابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ - قد أنبأ عن تولي مستر

شرشل لوزارة الداخلية في الوزارة القادمة ، وأنه سيؤيد القوانين التي ترضي النزلاء اليهود ولا يتيسر تأييدها في الوقت الحاضر .

وقد نشرت صحيفة مانشستر جارديان في عدد الحادي والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٠٨ أن مستر شرشل أرضى اليهود بأجوبته عن بعض الأسئلة ، وأنهم فضلوه بتأييدهم وقدموه على اليهودي الصراح جوينسون هيكس Joynson Hicks . . . ولولا ذلك لما كان على المنبر الذي ارتقاه ذلك اليوم . . » .

ومستر شرشل كما يعلم حضرات القراء هو الذي كان يقول ولا يداري خبيئة صدره « إنه صهيوني » . . وهو الذي نقلت عنه الديلي تلغراف في التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٢٦ انه قال : « إني في كل حياتي السياسية كنت على صلة حسنة بالمواطنين اليهود » . . . وبعد هذا وذاك ، لا يخفى أن الرجل ينتمي من جهة أمه إلى سلالة يهودية !

***

هذا طابور من الطوابير الصهيونية الخامسة التي تعمل للسيطرة العالمية ، وهو طابور الصيارفة والسماسرة ، وله من الوسائل ـ كما رأينا ـ ما يطلع به على أسرار الحروب المقبلة ، وما يجري فيها لمصلحة الصهيونية ، وله من الوسائل ما يتسلل به إلى مراكز الوزارات والمجالس النيابية ، وله من الوسائل ما لخصه روتشيلد في كلمة واحدة حيث قال :

« مكنّي من إصدار النقد والاشراف عليه في أمة من الأمم ولا أبالي بعد ذلك من يشرع لها القوانين » .

وإن هذا الطابور الخامس لواحد من طوابير كثيرة ، فإن كان في الأمر عجب فليس هو العجب لنفوذ الصهيونية في العالم ، بل العجب ألا يكون لها في العالم نفوذ أكبر من هذا النفوذ . . .

٩ ـ الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة من ميادين الثقافة

حسب الصهيونية العالمية سلاحاً ماضياً في جميع الميادين ـ طابورها الخامس في ميدان المال والاقتصاد .

إن هذا الطابور الخامس متغلغل في كل ميدان ، في كل بلد ، في كل حركة عالمية ، في كل دولة من الدول الكبرى على الخصوص .

وحسب الصهيونية العالمية أن يكون لها هذا الطابور الخامس ، لتملك به وسائل السيطرة في كل ميدان من ميادين الحضارة الحديثة ، وفي مقدمتها ميدان الثقافة والدعاية العالمية .

لكن الصهيونية العالمية لا تكتفي بالطابور الخامس في ميدان المال والاقتصاد ، ولا تكتفي بأثره القوي في شؤون الدعاية وما يتصل بها من شؤون الثقافة وشؤون الآداب والفنون على الجملة ، وإن كان في هذا الأثر الكفاية .

لا تكتفي بسلاح المال والاقتصاد عامة وإن كان فيه الكفاية . بل تعمل للسيطرة على الثقافة العالمية مباشرة في ميدانها الأصيل ، ولا تقنع منه بسيطرة الماليين والصيارفة وأصحاب الشركات والمشروعات في ميدانهم الكبير .

تتوسل الصهيونية العالمية إلى السيطرة على الثقافة والفنون بوسائل كثيرة ، نتكلم في هذا الفصل عن بعضها لأنها أظهرها وأعمها ، ولا نحصرها جميعاً لأنها بطبيعتها متشعبة في كل طريق ، ويوشك أن تتشعب إلى كل مركز من مراكز الثقافة والدعاية من بعيد ، او من دورة ملفوفة لا تفطن لها الأنظار .

وسائلها الظاهرة للسيطرة على ثقافة العالم هذه الوسائل الأربع :

(أولا) وسيلة الصحافة العالمية .

(ثانيا) وسيلة الشركات التي لها اتصال وثيق بالصحافة ولا سيما شركات الاعلان .

(ثالثا) شركات النشر والتوزيع .

(رابعاً) هيئات الثقافة العالمية .

وهذه الوسائل الأربع كافية ـ مع التضامن والتألب ـ لتمكين الصهيونية العالمية من السيطرة على الكتاب والقراء لا تتيسر لقوة عالمية أخرى .

تتمكن الصهيونية العالمية من الصحافة بالمساهمة في رؤوس الأموال ، والمساهمة في التحرير و المراسلة ، وبالمساهمة في السبق إلى الأخبار والأسرار .

ولكن الوسيلة النافذة هي الوسيلة الثانية ، وهي شركات الاعلان .

فالصحف التي تطبع الملايين في البلاد الغربية لا تستغني عن الاعلانات ، ولا يتأتى لها تعويض النفقات الكثيرة بثمن البيع أو الاشتراكات السنوية . فإن ثمن الصحيفة أقل من ثمن الورق الذي تطبع عليه ، فضلا عن تكاليف التحرير والادارة والطباعة والتوزيع ، وكلما اشتدت المنافسة بين الصحف عملت على نقص ثمن النسخة وازداد تعويلها على الاعلان ، حتى بلغ ثمن الصحيفة المؤلفة من عشرين صفحة بنساً واحداً ، وبلغت أجور الاعلان خمسة أضعافها في الربع الأول من القرن العشرين .

والصحيفة التي تجازف بالموت هي الصحيفة التي تهاجم الصهيونية العالمية ، أو تناهضها في دسيسة من دسائسها ، فإن المساهمين في رأس مالها يهددونها ويحرجونها في مجالس الادارة ، فإن لم تكن للصهيونيين حصة كبيرة من رأس مالها ، ولم يكن لهم دخل في تحريرها وادارتها ، فهناك الاعلانات التي تعول عليها ولا تستغني عنها ، فإنها تنقطع عنها فجأة ، وتتركها عرضة للافلاس . ولا تزال عرضة للافلاس والتعطيل حتى

تتوقف فعلا عن الصدور ، أو تدركها شركة جديدة ، بمعونة جديدة ، معلقة على قبول السياسة التي تملى عليها ، بأسلوب صريح أو غير صريح .

وليس كل الكتاب في الغرب من كتاب الصحافة الذين يعملـون لهـا في التحرير والمراسلة واصطياد الأخبار والأسرار ، بل هنـاك كتـاب الأدب وكتاب الاجتماع وكتاب المذاهب الفكرية والفنية على التعميم . وهؤلاء لا تتركهم الصهيونية العالمية بمأمن من وسائل تأثيرها وطغيانها في كثير من الأحوال . . ووسائل النشر والتوزيع والنقد بعض أدواتها الفعالة في عالـم التأليف والتفكير .

وليس بالقليل بين دور النشر ما يملكه الصهيونيون منفردين بتمويلـه وادارته ، وأكثر من ذلك دور النشر التي يساهمون فيها بالحصص والأسهم ، أو الادارة والاشراف ، وكل هذه الدور لا تستغني عن الدعـاية الصـحفية وغيرها من أساليب الدعاية في العصر الحديث .

وتأتي الهيئات العالمية بعد هذه الهيئات المشتغلة بالصحافة او النشـر أو الاعلان والدعاية .

تأتي بعد ذلك هيآت عالمية لا تخطر على البال لأول وهلة ، لأنها مفروض فيها أن تعمل لخدمة الأمم الانسانية جميعاً ، ولكنها لا تعمل لخدمة أحد كما تعمل لخدمة الصهيونية العالمية .

خذوا لذلك مثلا تلك الهيئة المعروفة باسم « اليونسكو » . . والتي يقـال إنها مجعولة لخدمة الثقافة الانسانية في ارجاء العالم ، والتي تتقاضى المال من كل أحد غير الصهيونيين .

فهذه الهيئة العالمية ـ الانسانية ـ ينتشر في دواوينها الصهيونيون بين أمناء السـر ، ورؤسـاء المكاتـب ، ومـديري الحسابـات ، وزمـرة المحـررين والمسجلين ، ولم تعمل حتى اليوم عملا أظهر وأجهر من أعمالها في خدمة الصـهيونية ومحاربـة أعدائهـا ، وبخاصـة أعدائهـا المعـروفين بكراهــة الساميين .

وبين أيدينا الآن نحو عشرين رسالة في موضوع العنصر والسلالة ، تدور

كلها من بعيد أو قريب على محور واحد ، وهو الدفاع عن الصهيونية ، وتسفيه آراء الناقمين عليها والمشهرين بها ، والقائلين بالفوارق الجنسية التي تمسها وتغيبها في نظر الأمم الأخرى .

وظاهر هذه الدعوة أنها انسانية عامة ، وبعض المشتركين فيها يكتبون لها على هذا الاعتبار ، ولكن الاهتمام بها في الواقع إنما هو اهتمام بالسامية دون غيرها ، لأنها هي مسألة العنصر المعروضة هناك على الأسماع والأبصار ، وعلى العواطف والعقول ، ولا يوجد انسان تبلغ به البلاهة أن يتصور « اليونسكو » عاملة على محاربة الولايات المتحدة مثلا في قضية الزنوج السود ، ولا عاملة على خدمة الصهيونية دون غيرها : تبذل فيها أموال الأمم ، وتسخر لها الهيئة العالمية الدولية ، باسم العلم والانسانية .

ولا يحسبن أحد في الشرق أننا نحن الشرقيين بمنجاة من هذه الشبكة العالمية في قضايانا مع الصهيونية ، فإن الدعاية التي يسيطر عليها الصهيونيون لا تنسى الانتقام من أعدائها ، ولا تنسى مكافأة اصدقائها ، وبين حين وحين نسمع تلك الدعاية الخارجية ـ التي لا تعرف حرفاً واحداً من العربية ـ تهلل لبعض الأعوان ولا تعرف لهم عملا إلا أنهم أغضبوا الاسلام ولم يغضبوا الصهيونية بفعل أو كلام .

ولنا أن نتخذها قاعدة عامة في الدعاية العالمية التي تتولاها الصهيونية . تلك القاعدة العامة أنها لا تشيد بذكر كاتب من الأوروبيين او الامريكيين ، لا يعمل طوع بنانها في ترويج دعوتها الظاهرة أو الخفية ، ومن دعوتها الخفية هدم العقائد والأخلاق وتحطيم الأديان والأوطان ، وليس على حضرات القراء عناء كبير للتحقق من هذه القاعدة ، فحسبهم أن يلتقطوا خمسة أسماء أو ستة من أصحاب الحظوة في الدعاية العالمية ، فلن يجدوا منهم واحداً يعادي الصهيونيين ، وقد يجدونهم جميعاً خداماً للصهيونيين السافرين أو المقنعين .

١ ـ الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في المجالس النيابية

حديثنا هنا عن الطوابير الصهيونية الخامسة في المجالس النيابية .

والصهيونية العالمية تهتم بالوصول الى المجالس النيابية أحياناً ، ولكنها لا تهتم بالوصول اليها في جميع الأحيان ، لانها تختصر الطريق فتصل الى الحكومة مباشرة ، فتعطل ما تعطل من القوانين الصادرة ، ومن التشريعات المنتظرة ، أو توجه السياسة عملا إلى غير وجهتها التي لا ترضى عنها .

ولقد حدث في بلاد المجر أن الصهيونية التهمت ثروة الفلاح الصغير ، وملكت زمام الفلاح الكبير ، بالديون واشتباك المعاملات مع الشركات والمصارف ، وساعدها على ذلك أن اليهود ـ منذ القدم ـ كثيرون في أوربة الوسطى وأوربة الشرقية ، وأنهم ازدادوا كثرة بعد قيام النازية في ألمانيا ، فهاجروا آحاداً وجماعات من ألمانيا إلى المجر وانتشروا في العواصم والأقاليم ، وأصبحت بلاد المجر معروفة في ذلك العهد باسم « فردوس إسرائيل » لأن زمام الثروة فيها تجمع بين أيدي اليهود الأصلاء واليهود المهاجرين .

فلما تفاقم الخطر وثار الشعب الجائع على المرابين والمستغلين ـ لم يكن في وسع الهيئة التشريعية أن تصم آذانها عن هذا النذير العاجل ، وتقدمت إليها مشروعات متعددة لانقاذ ضحايا الربا الفاحش والاستغلال الذريع ، ونصت القوانين على تحديد حصة اليهود في كل شركة أو كل عمل مالي بستة في المائة ، وذهب بعضها إلى تنظيم المصادرة على آجال متتابعة ، وصدر بعض هذه القوانين فعلا ، وظل بعضها الآخر معروضاً للبحث والمناقشة بين

التأجيل والاهمال .

من هذه القوانين ما توقف عند الوصي على العرش فأسقطه بحق « الفيتو » أو حق التعطيل .

ومنها ما صدر من البرلمان ومن ديوان الوصي على العرش ، ولم ينفذ ولم يسمع له بعد ذلك خبر .

ومنها ما بقي في لجان البرلمان يدرس ويعاد درسه ، ويؤجل ويعاد تأجيله ، إلى أن طواه النسيان .

فالصهيونية لا تهتم بالوصول في كل حين إلى المجالس النيابية ، أو هي لا تهتم بها إذا أمكنها أن تسيطر على الحكومة بوسيلة من الوسائل . فأما إذا تعذر عليها أن تسيطر على الحكومة واحتاجت إلى صوت مرفوع في المجالس النيابية لتأييد قضية من القضايا العزيزة عليها ، فهي لا تعيا إذن بالوسائل التي تمكنها من التأثير في المجالس النيابية ـ ولو بعض التأثير ـ وأهم هذه الوسال الدعاية العامة « أولا » ثم استغلال الأحزاب التي تحتاج إلى المال في ابان الانتخابات ، وقل أن تستغني خزائن الأحزاب عن المال الكثير في ابان المعركة الانتخابية ، لأنها تنفق المال جهرة وخفية على الحملات الصحفية ، ومنشورات الدعاية ، وتأمينات المرشحين ، ولجان الدوائر وما إليها من الأعوان الحزبيين .

وقد تنبهت الأمم الديمقراطية إلى هذه المساومات الوبيلة ، فأصدرت التشريعات التي تحدد المقدار المسموح بانفاقه في الحملة الانتخابية ، أو التي تقضي باعلان مصادر الأموال في خزانة الحزب ، أو التي تشدد العقاب على اعطاء الرشوة وقبولها أثناء الترشيح ، ولكن هذه القوانين لا تنفذ إلا قليلا ، لأن الادانة فيها تمس الغالب والمغلوب .

وفي إنجلترا ـ مثلا ـ يكفي أن يقدم المرشح سيجارة إلى الناخب ليكون ذلك حجة للطعن في انتخابه ، ولكن الناخبين احرار في الدعوة لمرشحهم ، فما لا يفعله المرشح يفعله الناخبون .

وقد اهتم الصهيونيون بالوصول إلى مجلس النواب الانجليزي بعد الحرب

العالمية الثانية ، لأنهم اعتقدوا أن قضية فلسطين تحتاج إلى صوت مسموع في ذلك المجلس ، فوصل إليه نحو سبعين منهم ، كما جاء في كلام البريجادير مكسون Brigadier Mackeson المثبت في سجلات هنسارد Hansard الرسمية ، وهو عدد يزيد على عشرة أضعاف النسبة التي يقدرها لهم قانون الانتخاب .

ولم يكن هؤلاء السبعون جميعاً متدينين باليهودية علانية ، بل كان منهم ثمانية وعشرون يهوديا ثابتون على دينهم ، وكان سائرهم يهوداً متحولين الى المسيحية لتلبيس المقاصد الصهيونية على جمهرة الناس .

قال دوجلاس ريد Douglas Reed في كتابه « من الدخان إلى الخنق » .

« إن عدد النواب اليهود في برلمان سنة ١٩٤٥ من العسير تقديره فيما يلوح لي . فإن الصحف اليهودية تقدرهم بثمانية وعشرين ، ولكنها إذا أرادت بذلك عدد اليهود غير المعترفين بدينهم فالصورة بعيدة جداً من الصحة ، وقد حدث بعد المناقشة التي دارت بالمجلس في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ عقب اقتناص اثنين من الجنود البريطانيين في فلسطين ثم شنق الصهيونيين لهما أن النائب البريجادير مكسون وقف كما جاء في سجل هنسارد فأشار اليهم قائلا : هنا نحو ستين أو سبعين عضواً محترماً من اليهود يؤيدون الصهيونية .» .

ثم استطرد المؤلف إلى الكلام على الحملة العنيفة التي شنها الصهيونيون على بريطانيا ، لأنها لم تتوسع في مطاردة العرب مرضاة لاسرائيل .

يحدث هذا في انجلترا ، أعرق البلاد البرلمانية ، فلا حاجة الى الكلام عما يحدث في غيرها من البلاد التي لم تتمكن فيها بعد تقاليد الانتخاب .

والواضح أن السياسة العالمية كلها قد تأثرت بهذه المناورات الصهيونية ، فإن الدولة البريطانية علمت أنها هدف لحملات الدعاية الصهيو نية في العالم ، وأن الصهيونيين يهددونها بالعزلة في الحرب العالمية التالية ، وقد كانت الدولة البريطانية تخشاهم خلال كل حرب عالمية ، لعلمها بنفوذهم في الولايات المتحدة ، وقدرتهم على توجيه الرأي العام هناك ـ ولو بعض

التوجيه ـ الى اعتزال الحرب والوقوف على الحياد . . وكانت ـ أي الدولة البريطانية ـ مطمئنة الى كراهة اليهود لألمانيا ، وسعيهم الى تأليب الدول عليها ، ولكنها لا تدري كيف يكون الموقف خلال المنازعات الدولية التالية ، فقد تقف الصهيونية بأسرها في وجه إنجلترا لتعزلها وتبذل جهدها في إثارة الامريكيين عليها ، وقد تقف انجلترا يومئذ وحيدة في الميدان بتدبير المؤامرة الصهيونية ولهذا كانت تحتمل منهم في فلسطين اهانات ولطمات لم تصبر على مثلها في بلد آخر ، ولهذا اشتبك الدهاء البريطاني والدهاء الصهيوني في صراع الجبابرة استعداداً للنزال في المستقبل ، وما زال الدهاء البريطاني يحتال احتياله حتى أصبحت « بريطانيا العظمى » أقل الدول اليوم خوفاً من المؤامرات الصهيونية العالمية خلال الحرب المقبلة ، لأن الولايات المتحدة هي صاحبة الشأن الأول فيها ، فإذا حاربها الصهيونيون وانضموا إلى أعدائها هدموا بيتهم على رأسهم عامدين أو غير عامدين .

وما أكثر ما يقال عن دسائس الصهيونية في المجالس النيابية لو اتسع المقال .

١١ ـ الصهيونية العالمية

وطوابيرها الخامسة في السياسة الشرقية

كان نابليون الكبير من الخبراء الحذاق بصناعة الحكم ، وكان على علم بديهي بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ في الرأي العام ، وكان من أجل هذا عظيم العناية بعوامل النفوذ الصهيوني في البلاد الفرنسية وفي البلاد التي يتطلع اليها بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية .

كان في سنة ١٨٠٦ سيد القارة الأوربية غير مدافع ، هزم النمسا وبروسيا ، وتغلب على وليام بت في ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه في تلك السنة كان يرفع يديه دهشاً ويسأل من حوله قائلا : « بأية معجزة اصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مرتهنة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفاً ؟» .

لا جرم يفكر نابليون في الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق ، ويساوم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة ، فهم يعودون إلى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهو يستفيد من أموالهم ودعايتهم في تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ السياسي ، أو المالي ، الذي يعترضها ويعوق حركاتها .

ففي سنة ١٧٩٩ نشرت صحيفة جازيت ناسيونال Gazette Nationale الرسمية بياناً لنابليون يدعو فيه يهود آسيا وأفريقية أن يهرعوا إلى رايته ليدخلوا تحت ظلالها إلى أورشليم ، ويقول إنه قد جند منهم فرقاً تزحف على حلب .

وقبل هذا البيان بسنة واحدة نشر اليهود في باريس دعوة للاجتماع بها ، والاتفاق مع الحكومة الفرنسية على رد الصهيونية الى وطنها ، وذكروا أن ذلك الوطن يشمل الوجه البحري من القطر المصري ، مضافاً إليه إقليم يحده خط من عكا إلى البحر الميت ، وخط من جنوب البحر الميت إلى البحر الأحمر ، وأنهم باستيلائهم على هذه المملكة يسيطرون على تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقية الشرقية وأفريقية الجنوبية ، وأن مجاورة هذه المملكة لحلب ودمشق تيسر لهم سبل التجارة مع البلاد الفارسية ، وتفتح لهم من طريق البحر الأبيض المتوسط أسواق أسبانيا وفرنسا وسائر أنحاء القارة الأوربية ، وتصبح هذه المملكة من مركزها في وسط العالم مستودع المحاصيل العالمية فتمنح فرنسا ـ في مقابلة المعونة على رد اليهود إلى وطنهم وحمايتهم فيه ـ جزاء مالياً وافياً ، وحصة كبيرة من التجارة وأرباحها .

وجاء في الدعوة اليهودية أن المقترحات التي عرضت في الوقت نفسه على الدولة العثمانية ستظل في طي الكتمان ، وأن المعول فيها على حكمة المجلس المشرف على هذه الدعوة ، وعلى حسن النية من جانب الأمة الفرنسية .

هذه الدعوة نشرت بنصها في كتاب سوكولوف Sokolow عن تاريخ الصهيونية من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٩١٨ ، ونشر فيه كذلك بيان نابليون وبعض التعليقات التي تكشف القناع عن دخائل المناورة وحواشيها .

وواضح من خطة نابليون أنه لم يكن يريد المعونة العسكرية من الصهيونيين ، وان الفرق المزعومة التي قال إنها تهدد مدينة « حلب » لم يكن لها وجود ، وإنما أراد بها معونة الأيدي الخفية في مراكز السياسة العليا ، كما أراد معونة المال اذا ضنت به خزانة الدولة .

هذا مثل من الأمثلة على أساليب الصهيونية في علاقتها بالسياسة الشرقية ، وأخصها سياسة فلسطين والديار المصرية .

تستطلع الأسرار ، وتحس بوادر الخطط الخفية قبل تنفيذها ، وتحاول أن تساوم عليها ، فلا تعدم من يقبل هذه المساومة مخلصاً او غير مخلص في مقصده ، وتجعل المصلحة المتبادلة ضماناً بعد ذلك لدوام المنعة بين

الطرفين .

فقبل حملة نابليون بسنة كانت الصهيونية على علم بموعدها ، وكان سفراؤها في باريس يساومون عليها ، ولا ينسون السفارة عند السلطان العثماني ، متكتمين طبيعة تلك المساومة ، ولكنها ظاهرة من قرائنها ، ولا بد فيها من عنصر الرشوة وعنصر الحريم .

وبعد قرن على التقريب ، بدأت طلائع الحملة الانجليزية ، وعملت فيها الصهيونية عملها الظاهر والخفي على نحو من هذه الأساليب ،

كان الخديو اسماعيل يبحث عن القروض فلا يجد من يقرضه ، ويرى بين يديه أسهم قناة السويس وهي قريبة من نصف الأسهم ، فتلح عليه الحاجة العاجلة وتضطره الى عرضها للبيع سراً ، لخوفه من مناورات الهبوط والصعود في الأسواق المالية ، وخوفه قبل ذلك من مناورات السياسة الفرنسية والانجليزية ، وهما تتناظران ولا تكفان عن النزاع في شؤون القضية المصرية .

وهنا تنبري الصهيونية للعمل ويتدخل بيت روتشيلد بواسطة الدوق ديكاز Dicaze لتحذير البيوت الفرنسية من شراء الأسهم المعروضة عليها ، وتمكين بيكنسفيلد رئيس الوزارة البريطانية الاسرائيلي ـ من شراء الأسهم بالثمن المطلوب .

كيف تذلل هذه العقبة ؟

بل كيف تذلل هاتان العقبتان : عقبة السياسة الفرنسية ، وعقبة السياسة البريطانية ؟

هنا تفعل الصهيونية العالمية أفاعيلها التي يعجز عنها الساسة ، ولا تحيط بها المجالس النيابية .

فرنسا عدوة مناظرة لبريطانيا العظمى ، فكيف تترك لها هذه الغنيمة الشهية ؟

تتركها لأن بيت روتشيلد موزع بين باريس ولندن وبرلين ، ولأن بسمارك

يهدد فرنسا بعد حرب السبعين ويعزلها في سياسة القارة الأوربية ، فإذا تدخل بيت روتشيلد لاقناع فرنسا بارضاء بريطانيا ، وللتقريب بين السياستين الفرنسية والبريطانية في القارة الأوربية ، وللتعاون بين الدولتين معاً على مناهضة بسمارك او مناهضة الدولة الالمانية الناشئة - فهي صفقة رابحة تأتي في أوانها ، ويقوم بها سمسار قادر عليها ، لأنه يملك نفوذ المال في باريس ولندن وبرلين . .

وربما سبق إلى الظن أن العقبة في بريطانيا أهون من هذه العقبة ، لأنها تشتري وتستفيد ، ولا حاجة بها الى اقناع للحصول على هذه الفائدة . إلا أن الواقعَ أن عقبة بريطانيا كانت أصعب من عقبة فرنسا ! وأحوج منها إلى التدبير والتواطؤ مع الصهيونية العالمية .

أولا : لأن البرلمان كان في اجازة .

ثانياً : لأن المحافظين كانوا يخشون معارضة الأحرار في كل أمر يتعلق بالمسألة الشرقية .

وكان المبلغ اللازم أربعة ملايين جنيه ، وليس من السهل صرف هذا المبلغ ولا أقل منه بغير إذن البرلمان .

ولكن بيكنسفيلد صهيوني ، وروتشيلد صهيوني ، وصاحب المصرف مستعد للمجازفة بالمال في جميع الأحوال ، فانحلت العقدة ، وزال الاشكال ، ولم يبال بيكنسفيلد ان يعلن بعد ذلك :

« أن الصفقة مالية وسياسية وأنها لازمة لتمكين الامبراطورية » .

ودارت الأيام دورتها وجاءت الحرب العالمية الأولى وصدر وعد بلفور المشهور موجهاً إلى اللورد روتشيلد كأنه - وهو رعية بريطانية - نائب دولة أجنبية أخرى . وتطايرت الاشاعات عن الباعث على وعد بلفور ، فقيل إنه كان مكافأة على اختراع كيماوي للصهيوني « وايزمان » افاد الحلفاء في صناعة المتفجرات ، وما هذه الاشاعات عن الباعث المزعوم إلا تلفيقاً من الدعاية الصهيونية والدعاية البريطانية لا يثبت على المراجعة والتمحيص . . ففي الثاني والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ نشرت صحيفة « المانشستر

جارديان » مقالا صريحاً ربطت فيه بين انتصار الحلفاء وقيام الصهيونية في أرض فلسطين ، وقبل ذلك كان فلاديمير جابوتنسكيJabotinsky في القاهرة يؤلف فرقة النقل الصهيوني ، ويشكو من القائد سير مارك سايكسSykes لأنه لا يؤيد الصهيونيين ، ولم يتأخز اعلان الوعد ـ وعد بلفور ـ الا لمصلحة هؤلاء الصهيونيين ، إذ كانوا ينتظرون النصر الحاسم في جانب الحلفاء قبل أن يجهروا بتأييدهم ، محافظة على حبل الاتصال بين الجانبين .

هذه هي أساليب الصهيونية العالمية في السياسة الشرقية لا نظنها من تدبير هيئة مسيطرة قائمة في جميع الأوقات ، ولكنها أسرار تعرف في أوقاتها ، وفرص تغتنم من القادرين عليها ، ولا حاجة بالصهيونية العالمية الى تدبير أثبت من هذا التدبير .

١٢ ـ الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (١)

تختلف أساليب الصهيونية بين عصر وعصر على حسب اختلاف الحوادث والأفكار والمناسبات واختلاف وسائل الاقناع والدعاية والتأثير . ولكنها في جوهرها شيء واحد ، تتلخص في استطلاع الأسرار والخفايا ، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها .

وينبغي قبل البدء ببيان هذه الأساليب ، أن نعلم انها بطبيعتها أساليب هدم ومقاومة ، وأساليب غش وتضليل ، ولا مناص لها من ذلك إلا إذا خرجت على طبيعتها وتخلت عن وجودها . لأنها لا تستطيع البناء والتعمير ، ولا تستطيع الأمانة والعمل الصريح .

إنما تستطيع الصهيونية البناء إذا استطاعت أن تقيم دعواها على عقيدة تنشرها وتدعو الأمم إلى الايمان بها ، ولكنها إذا فعلت ذلك نقضت دعواها الأولى والأخيرة ، وهي احتكار الإلٓه لنفسها ، والايمان بأنه إلٓه إسرائيل كما يدعونه في الصلوات ، وليس للأمم الأخرى حظ من رضاه .

فالصهيونيون الذين يزعمون أن الله لهم وحدهم ، وأنهم شعب الله المختار ، دون غيرهم ، لن يقبلوا مشاركة أحد لهم في هذا الاحتكار ، ولن تراهم قط مبشرين بدين يدعون الناس إلى الدخول فيه ، خلافاً لأصحاب الأديان أجمعين .

إنهم كأصحاب الميراث الذين لا يقبلون شريكاً فيه ، أو كأصحاب الشركة التي ينفردون بها ولا يوزعون على أحد سهماً من أرباحها ، فليس في

استطاعتهم أن يقيموا سلطانهم على عقيدة عامة تشاركهم فيها الامم ، وليس في استطاعتهم أن يقنعوا الناس صراحة بقبول هذه الفكرة النابية . وكل ما في وسعهم أن يهدموا عقائد الناس وأخلاقهم ودعائم افكارهم وشرائعهم ، ثم لا يخلفوها بعقيدة أخرى تقف لهم في الطريق .

كذلك لا تستطيع الصهيونية العالمية أن تسود بغير الخداع والتضليل ، لأنها لا تعمل بسلطان القوة الظاهرة أو بسلطان الملك والسلاح . وإنما تعمل بسلطان المطامع والمنافع والشهوات من وراء ستار . فلا بد لها على الحالين من أساليب الهدم وأساليب الخداع .

لهذا تبادر الصهيونية إلى استغلال نفوذها في اثارة الفتن والقلاقل ، وتظفر الفتنة بتأييدها كلما توقعت منها الامعان في الهدم والفوضى . لأنها لا تنجح في عالم فيه ايمان بالخلق او بالوطن او بالدين ، وإنما تنظر إلى الأخلاق والأوطان والأديان كأنها حصون تحمي منها فرائسها وضحاياها . ولا تطلق أيديها بالعمل كما تشاء حيث تشاء .

أما إذا أصبح المسلم غير مسلم ، وأصبح المسيحي غير مسيحي ، وأصبح الوطني لا يبالي بوطنه ، وأصبح الضمير الانساني ولا موضع فيه للحلال والحرام ـ فهي على الأقل في ميدان لا موانع فيه ولا عقبات ، إن لم يكن فيه أعوان وأذناب .

وقد اشتركت الصهيونية في كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، وآخر ما اشتركت فيه ـ ولا تزال مشتركة فيه ـ حركة الشيوعية في العصر الحديث .

ربما كان الصهيوني من أصحاب الملايين ، ولكنه يحرص على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ، ويواليها بالدسائس والمؤامرات في مجتمع السياسة الدولية .

ولا حاجة إلى أكثر من سرد الأسماء لاظهار الأيدي الخفية من وراء هذه الحركة في إبانها ، وليست هذه الأيدي الخفية إلا أيدي الصهيونية العالمية في كل مكان .

كان رئيس الدولية الشيوعية الأولى في العالم كله زينوفييف ، واسمه

الصهيو ني أبفلبوم Apfelbaum ، وكان رئيس البوليس السياسي ياجودا أو يهودا وكان وزير الخارجية ليتفينوف واسمه الصهيوني فنكلشتين Finkelstein.

وكان أهم سفير في الخارج مارسل روزنبرج ، لأنه كان يعمل في أسبانيا لتوطيد الشيوعية بعد الجمهورية ، وكان تروتسكي وكانيف وتومسكي وريكوف وكاجانوفتش على رأس الدولة السوفيتية ، ولم يكن فيها من الزعماء الكبار غير لنين وستالين من الروس الذين لا يدينون باليهودية ، ولكن « لنين » كان نصف يهودي يسمى إيليانوفتش ، وستالين كان صهراً لكاجانوفتش الصهيوني . . وهذا كل ما استطاعوه لادخاله في زمرة الصهيونيين .

ولقد أعلن جاكوب شيف Jacob Schiff الصهيوني صاحب الملايين ، أنه أمد تروتسكي بالمال لاقامة الدولة الشيوعية ، وثبت أن صاحب الملايين « ماكس وورburg » في ستوكهلم كان هو الواسطة القريبة لتزويد « تروتسكي » بالمال كلما احتاج إليه .

وإنها لضربة من ضربات القدر طاحت بهذه الدولة الصهيونية قبل استقرارها على قواعدها العلنية المعترف بها في العالم كله ، فقد تغلب ستالين على تورتسكي ، وأحس الغدر من عصابة الصهيونيين فعجل بها قبل أن تعجل به ، وتمكن من الغلبة على منافسه في مبدأ الأمر بمعونة فريق من العصابة ، لأنه كان ـ كما تقدم ـ زوجاً ليهودية وصهراً لكاجانوفتش.« أبيه في الحساب » كما يقولون .

أمصادفات هذه في عرض الطريق ؟

كلا . لا يمكن أن تتفق المصادفات كل هذا الاتفاق ، ولا يمكن أن تسري هذه المصادفات في كل مكان ، فيتولى زعامة الشيوعية في المجر « بيلا كوهين » ويتولاها في النمسا فريتز أولر ، وأوشك أن يتولاها في المانيا ليبكنخت ورُوز الكسمبرج ، لو لم تعاجلها الأقدار بما خيب الآمال .

ومن المعلوم ، قبل هذا كله ، أن إمام الشيوعية الأول هو « كارل ماركس »

اليهودي ، وأن منافسه في ألمانيا لاسال من سلالة اليهود .

ولقد تأسست حكومة إسرائيل في فلسطين وهم لا ييأسون من تسخير الشيوعية لتأييدها في المجامع الدولية ، وتسخيرها من جهة أخرى لتخويف دول الغرب ، وتهديدها بالتحول إلى جانب الكتلة الشرقية . إن لم تسعفها بالمال والسلاح والمعونة الدولية . . وكانت الكتلة الشرقية ترجو أن تبسط يديها على اسرائيل من وراء المهاجرين الشيوعيين . فلم تلبث أن عرفت غلطتها ، وأدركت ان الصهيوني يحترف الشيوعية . ويتسمى باسم المسيحية ، ويعلن الالحاد جهراً ، أو يدين به سراً . ولكنه صهيوني من الصهيونيين مهما تختلف الأسماء والآراء .

ولم تكن هزيمة تروتسكي وشيعته نهاية الحلف القديم بين كارل ماركس وأبناء ملته . فإن الصراع بين ستالين وتروتسكي لا يتكرر في كل بلد على هذه الصورة ، وإذا تكرر فحسب الصهيونية كسباً أن تتهدم أركان الوطنية والدين ، وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب ، فتستريح من هذه العوائق في طريقها ، وتتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب .

* * *

إن بعض المؤرخين قد هالهم هذا الامتزاج بين الشيوعية والصهيونية فاعتقدوا أن الصهيونية قد خلقت هذه الثورة خلقاً ، وصاغتها على يديها بمحض مشيئتها . بيد أنه غلو في تقدير قوة الصهيونية لا نترهم عليه . وأنها على تشعب مساعيها واتساع ميادينها لأهون شأناً من أن تخلق ثورة لم تخلقها أسبابها ولم تسبقها مقدماتها . وإنما شأنها كله ان تستطلع الأسرار الخفية ، وأن تغتنم الفرصة السانحة ، وأن تتسلل من الثغرة المفتوحة . وأن مثل الشيوعية لواحد من أمثلة كثير على أساليبها في استغلال الحركات الاجتماعية ، والاتجاه بها إلى وجهتها في العصر الحديث .

١٣ ـ الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (٢)

من أساليب الصهيونية العالمية استغلال الحركات الاجتماعية والاتجاه بها إلى الوجهة التي تريدها ، وأحب هذه الحركات إليها من كان كفيلا بهدم القيم والأخلاق وتفكيك أوصال المجتمع وتلويث العرف الشائع بين أهله ، ولهذا ظفرت الحركة الشيوعية منها في العصر الحاضر بكل تشجيع وترويج ، كما أسلفنا في الفصل الماضي .

ومع استغلال الحركات الاجتماعية تعنى الصهيونية في كل وقت باستغلال المراكز العالمية والعلاقات الشخصية بأصحاب النفوذ من حكومات العالم جميعاً ، وحكومات العالم الكبرى قبل سواها .

فما من رئيس ذي سلطان في السياسة الدولية ، وفي سياسة قومه ـ يتركه الصهيونيون بغير رقابة منهم على القرب ، تحيط به وتنفذ إلى أسراره ونياته ، وتبذل له الخدمة التي يتعودها ، ويتوهم مع الزمن أنه لا يستغني عنها ، فلا يزال معولا عليها في كل عمل يفكر فيه أو يقدم عليه .

وقد لوحظ في إبان المشكلات العالمية ـ وفي إبان الحروب خاصة ـ أن الحاشية التي تحيط بالعظماء من قبل الصهيونيين تحكم حلقاتها ، وتشدد رقابتها ، وتتطوع للقيام بالمهام التي تؤثر في مجرى الأمور ، وقد تخلقها أحياناً لتقوم بها وتستجمع أزمة الأمور بين أيديها .

لوحظ ذلك في الحرب العالمية الثانية ، ولوحظ قبل ذلك في الحرب العالمية الأولى ، فأحاط الصهيونيون بويلسون ولويد جورج كما أحاطوا بروزفلت وتشرشل وعملوا جهرة وخفية كل عمل ينفع الصهيونية ويعجل

بتنفيذ مآربها .

ما من رئيس ذي خطر إلا يحيط به صهيونيون وصهيونيات ، ولكل من الفريقين عمله وميدانه الذي يعمل فيه .

وهؤلاء الصهيونيون ذوو حرص ودهاء ، يخفون أنفسهم ما استطاعوا عن الأنظار والأسماع ، ولكنهم تغلبهم سكرة القوة أحياناً فيفخرون بها ويكشفون سرها ؛ أو لعلهم يفعلون ذلك متعمدين غير مغلوبين على أمرهم ، كلما احتاجوا إلى الارهاب وفت الأعضاد وايقاع اليأس في نفوس الخصوم .

من ذلك أن وايزمان هدد بريطانيا العظمى قبل الحرب العالمية باقامة القيامة عليها في جنيف .

وتساءل المتسائلون : ما هي القوة التي يعتمد عليها وايزمان في هذا التهديد ؟ ومن أين له السلطان الذي يمكنه من اللعب بجنيف وعصبة الأمم فيها ، ويتيح له ان يقيم القيامة هناك على من يشاء ؟

ومن ذلك أن مستر « باروخ » صديق روزفلت الحميم تحدث عن نفسه في انجلترا يوماً فقال « إنه أخطر رجل في أمريكا » . . وتحدثت إلى فكتور لاسكي مرة فقال . « إنه هنا في انجلترا يحمل العصا للأولاد الكبار لكيلا يفسدوا عليه مشروعات السلام » .

وأذاع مراسلو الصحف المتحدة هذا الحديث ، فبدا للمستر باروخ بعد هذا أن يكف من نشره فكان له ما أراد .

وتساءل المتسائلون هنا أيضاً : « من هو باروخ هذا ؟ وما هي العصا التي يخوف بها الأولاد الكبار ؟ ومن الذي خوله هذه السلطة التي يعامل بها أقطاب الدول كأنهم أولاد كبار ؟

وقد كان جاكوب شيف Jacob H .Schiff الصهيوني يتولى الرئاسة في جماعة صهيونية تسمى بجماعة الأمم الحرة ، ويشاركه فيها خمسة من أصحاب المصارف اليهود ، وكان على اتصال دائم بكل رئيس ذي خطر في

الولايات المتحدة ، وأولهم الرئيس ويلسون صاحب الوصايا المشهورة . . فما هو إلا أن علم أن الرئيس ويلسون يتردد في إقرار مسائل التعويضات حتى ادركه برسالة برقية غيرت موقفه على الأثر من مسألة السار ومسألة سليزيا العليا ومسألة دانزيج وفيومي ، لأنها كلها من المسائل التي ترتبط بأموال التعويضات والمصانع العظمى ، وكلها بطبيعة الحال من المسائل التي ترتبط بمارب الصهيونيين .

ونشرت التيمس أسماء المدعوين إلى القصر الأبيض لتكريم مستر أتلي Attlee في سنة ١٩٤٥ فكان منهم القاضي فرانكفورتر عضو المحكمة العليا ، والشيوخ فوليت Follette وكونالليConally ووارين أوستن Waren Austin وسول بلوم Sol Bloom وشارل إيتون Charles Eaton ووليام جرين William Green رئيس اتحاد العمال واريك جونسون Eric Johnson رئيس الغرفة التجارية ومستر جون لويس (Lewis) رئيس عمال المناجم ، ومستر ايراموشر Ira Mosher عضو اتحاد الصناعات ومستر برنارد باروخ Baruch ومستر هربرت سووبSwobe الصحفي والناشر ، ومستر اويجين ماير Egene Meyer من أصحاب واشنطن بوست ، ومستر جوزيف دافيز Joseph Davies السفير السابق عند الكرملين .

وما من عنصر امريكي مثل في تلك الوليمة الفخمة كما مثل فيها الصهيونيون .

ولقد نشرت هذه المعلومات جميعاً بين الصفحة المائتين والصفحة المائتين والعاشرة من كتاب مأساة العداوة السامية The Tragedy Anti Semitism و جاء بها مؤلفو الكتاب على سبيل التحدي للكاتب الصهيوني الذي تولى الدفاع عن أبناء قومه ، فلم يكن له من جواب سائغ على خبر من هذه الأخبار ، ولم يستطع أن ينقض الوقائع وان غالط في التفسير والتأويل .

وليس علينا ان نبحث طويلا للعثور على الأدلة القديمة أو الحديثة التي تثبت هذه الخطة الصهيونية أو هذا الأسلوب الصهيوني في استغلال العلاقات الشخصية ، فان كتب اليهود التي يتعبدون بها طافحة بأخبار الرجال والنساء الذين يجدون النعمة « او اللائي يجدن النعمة في أعين »

الملوك والرؤساء ، ولا شك أن المستور أكثر وأغرب من المنشور والمشهور .

* * *

هذا أسلوب من الأساليب الصهيونية القديمة الحديثة ، التي عهدت منهم قبل ثلاثة آلاف سنة ، وتعهد اليوم على نمط يو افق الزمن ومطالبه . فلا يتورع الصهيونيون عن استغلال العلاقات الشخصية والانتفاع بنفوذ الرؤساء واصحاب السطوة والجاه كلما احتاجوا إلى استغلالها ، ولا يختلف بين أمس واليوم إلا نوع الخدمة ونوع الوظيفة ونوع المهمة السياسية ، وإنما الأسلوب الحديث هو الأسلوب القديم سواء عمل فيه الصحفي ورئيس الشركة وعضو المجلس النيابي ، أو عمل فيه الكاهن والصراف ومندوب الجالية المختار !! .

وفي كل حالة من هذه الحالات يضطر الصهيوني الى الغش والافساد ، لأنه لا يقدر على الصراحة والاستقامة . إذ لا سبيل الى الصراحة والاستقامة إلا إذا قام العمل على الاقناع والمساواة ، وما من أحد يمكن أن يقتنع بتسخير الله لعباده اجمعين في خدمة الصهيونيين ، وما من مساواة بين الناس عند إله يسمونه « رب اسرائيل » ويعادي الأمم جميعاً حباً لأمة واحدة هي أمة صهيون !

وهكذا فرضت طبيعة الصهيونية على قومها أن يعملوا للهدم والخداع سواء عملوا في استغلال الحركات الاجتماعية ، أو عملوا في استغلال العلاقات بذوي الجاه والرئاسة .

١٤ ـ الصهيونية العالمية

أساليبها في العصر الحاضر (٣)

كل جهود الصهيونية العالمية في الوقت الحاضر تنحصر في غاية واحدة ، وهي إنقاذ « إسرائيل » من قضائها الذي تخشاه .

ولا سبيل إلى ذلك في تقدير الصهيونية ـ وفي الواقع الذي يراه غيرها كما تراه ـ إلا بوسيلتين :

أولاهما الصلح مع العرب .

والأخرى استبقاء نفوذها في البلاد الأمريكية .

فالواقع أن إسرائيل هالكة لا محالة إذا استمرت مقاطعة العرب لها « سياسياً واقتصادياً » بضع سنوات أخرى .

ولهذا يتعمدون خلق المشكلات بين إسرائيل والبلاد العربية ، عسى أن يؤدي البحث في المشكلات إلى البحث في الصلح ، وعسى ان يؤدي البحث في الصلح إلى فك الحصار السياسي والاقتصادي عن الدويلة القائمة على غير أساس .

وقد تحدث رؤساء العصابة التي تسمي نفسها حكومة إسرائيل عن مشكلات الحدود الفلسطينية ، فقالوا : إنها عمل من أعمال القصاص ، وإن إسرائيل لا تلجأ إليها بأختيارها ، وإنا نضطر إليها اضطراراً لكف العدوان على حدودها .

لكن الصهيونيين أنفسهم يكذبون هذه الدعوى ، ويصرحون بما ينقصها في كلامهم الذي ينشرونه بين الأمريكيين ، ويعلنون أن خلق هذه

المشكلات على الحدود إنما هو خطة مدبرة لاكراه العرب على الصلح ، وإنقاذ اسرائيل من الخطر المحتوم الذي تهددها به المقاطعة .

نشر أحدهم موشي برليانت Moshe Brilliant في عدد شهر مارس ١٩٥٤ من مجلة هاربر Harper's Magazine مقالا بعنوان « سياسة القصاص الاسرائيلية » كتب له على رأس المقال خلاصة قال فيها : « إن حوادث الحدود الدموية قلما تكون عرضية . . وإنما هي من بعض جوانبها قصاص وأخذ بالثأر ، ومن الجانب الآخر خطة مدبرة لسوق العرب كرهاً إلى مائدة الصلح ، ومن الناس من يصفها بالواقعية ، ومنهم من يصفها بالخبث ، ولكنها تؤذن بأن تنجح وتفيد » .

ومضى موشي برليانت يقول : « إن هذه الخطة جلبت على الحكومة اليهودية لوم مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة ، وجرت عليها تأنيب لجنة الهدنة المشتركة في الشرق الأوسط ، وبعض التقريعات الدبلوماسية من واشنطون ولندن وباريس ، بل أوشكت أن تحول عن الدولة اليهودية عطف أبناء دينها في الولايات المتحدة ، فقل الاقبال على تلبية النداء الموجه إليهم بطلب الاعانة من جماعة اليهود المتحدة ، ولوحظت هذه القلة على الدوام عقب حوادث القصاص على الحدود » .

وراح الكاتب يعدد المواقف التي أفادت فيها هذه الخطة المدبرة ، فذكر منها الموقف الأول وهو إكراه العرب على وقف القتال ، وذكر منها الموقف الثاني وهو إكراههم على عقد الهدنة ، وقال : إن هذه الخطة بعينها ستكرههم على الموقف الأخير وهو قبول الصلح مرغمين ، ولم يبال هذا الكاتب الصفيق أن يقول : إن إسرائيل كانت تختلق المعاذير والتعلات لقتل من تقتلهم باسم الثأر على سنة العين بالعين ، ولكنه استطرد قائلا : « إنه أمام هذه السوابق تولد في إسرائيل شعور بأن الوسيلة الوحيدة لسوق العرب كرها إلى مائدة الصلح إنما هو العلم بأن حالة الهدنة ضارة بهم غير موافقة لمصلحتهم . وهذا ضرب من التفكير يخالف مزاج الأكثرين من الأمريكيين ، ولكنه منطق من الصعب مقاومته ، فضلا عن تعزيزه بمجرى الحوادث منذ سنة ١٩٤٩ » .

فهؤلاء الناس لا يخجلون من المناداة بتدبير الاجرام وانتحال أسباب القتل والعدوان لتنفيذ خطة مرسومة بالدم البارد كما يقولون ، لاكراه العرب على مصالحتهم واضطرارهم الى قبول استغلالهم وتسخيرهم لمطامعهم ، ويحسبون أن الرأي العام الذي يخاطبونه بهذه الصراحة لا يؤاخذهم على اجرامهم وعدوانهم ، لأنه يريد لهم النجاح بكل وسيلة مستطاعة ، ولا يبالي ما يصيب العرب إذا كان في هذا المصاب تحقيق مطامع إسرائيل .

إن هذه الصراحة في الاعتراف بالاجرام لدليل على كثير ، وأدل ما تدل عليه انهم يعتقدون أن اللائمين لهم إنما يلومونهم على سوء السياسة ، وعلى التورط في الأخطاء التي تعزى إلى الرعونة وقصر النظر . فأما إذا كان العدوان تدبيراً محكماً فلا لوم عليهم في التصريح به علانية ، ولا ضير في اتخاذ كل وسيلة لاكراه العرب على الاذعان لاسرائيل .

على أن الشواهد المتوالية تخيب ظن الصهيونيين في هذا التقدير . لأن هؤلاء الصهيونيين قد جاوزوا الحد في الاعتماد على عطف المؤيدين وغفلة الغافلين ، وقد بدأت بوادر السآمة بين الأكثرين في الغرب من هذه اللجاجة التي لا تعرف الحياء ، وضاق الناس ذرعاً بما تكلفهم عصابة إسرائيل من ثمن ثقيل لا يؤدونه اليوم حتى تعود فتكلفهم بثمن جديد ، ومن هؤلاء الذين ضاقوا ذرعاً بمشكلات العصابة الصهيونية أناس من اليهود أنفسهم ، كما قال موشى برليانت في المقال الذي أشرنا إليه .

ولقد أخذ الكثيرون من الأمريكيين يحسون أنهم يحتملون من أجل إسرائيل فوق الطاقة على غير جدوى وإلى غير نهاية .

وقد ظهر هذا الاحساس في مواطن كثيرة ، وأشفق الصهيونيون من عقباه فهداهم ذلك الطبع الأعوج الذي فطروا عليه إلى الخطة التي جربوها مع الانجليز بفلسطين ، واعتقدوا أنها صالحة للتنفيذ في كل موضع وفي كل آونة ، وهي خطة الارهاب والتهديد .

غرهم أنهم قتلوا « برنادوت » رسول الأمم المتحدة ولم يصبهم شيء من جراء قتله ، فأنشأوا في البلاد الأمريكية جماعة ارهابية من قبيل الجماعات

التي اشتهرت بفلسطين ، وكأنهم يئسوا من دوام نفوذهم القديم بغير الارهاب ، فاستعدوا بالارهاب لطوارىء الزمن وتقلب الأحداث ، وخيل إليهم ان استبقاء نفوذهم في البلاد الامريكية ضرورة لا غنى عنها بكل ثمن وبكل حيلة ، لأنها مسألة الحياة والموت في هذه المرحلة من حياة الصهيونية العالمية ، فهم يستميتون في سبيلها ، وينسون أن الاستماتة قد تميت .

إن اليهود في الولايات المتحدة يبلغون خمسة ملايين ، نحسب منهم من تتوسط بهم السن فوق الخامسة عشرة ودون الأربعين فنكاد نقول إنهم كلهم مشتركون في منظمة الارهاب ، لأن اعضاءها يعدون بمئات الألوف ، وربما كان المساعدون على الأرهاب أكثر من العاملين به ، بل ربما كان اليهود المخالفون لخطة الارهاب عرضة للتهديد والانتقام قبل غيرهم من المخالفين . فلا مبالغة في القول بأن «الارهاب» هناك خطة خمسة ملايين ، وليس بالخطة المقصورة على عشرات الألوف أو مئات الألوف .

إن هؤلاء الارهابيين يكتفون اليوم بالتهديد الاقتصادي ، وتهديد حملات التشهير والدعاية والفضائح الاجتماعية وقد يضغطون بالرؤساء على المرؤوسين الذين يعارضونهم ولا يتواطئون معهم على مساعيهم ودسائسهم طواعية بغير مقاومة ، ولكنهم ـ أي هؤلاء الارهابيين ـ سيندفعون ويتهجمون كلما اشتدت المقاومة واشتد الخطر على نفوذ الصهيونية ، وسيندفعون ويتهجمون كلما اغتروا بالقوة وأمعنوا في هذه الصناعة التي تشبه رذيلة الادمان في الاغراء بالمزيد ، كلما استحكمت العادة ومردت عليها النفس المنكوبة بشرها . وفي تاريخ الارهاب من عهد شيخ الجبل ـ او عهد حسن بن الصباح ـ أمثلة على البداية والنهاية في هذا الطريق ، فقد بلغ الخطر أشده حين أحس به الجميع ، فلما أحس به الجميع قضى عليه وجنى على نفسه كما جنى على ضحاياه .

حياة الصهيونية العالمية في الصلح مع العرب ، وفي استبقاء نفوذها بالبلاد الأمريكية ، وكل جهودها في العصر الحديث ضائعة إن لم تحقق هاتين الغايتين » .

١٥ ـ عصبية الصهيونية

في ميدان الثقافة والسياسة

عصبية الصهيونية الحمقاء داء قديم متأصل في نفوس القوم لا يسلم منه كبير فيهم ولا صغير ، ولا تخفى شواهده عمن تنزه عن الغرض ، سواء نظر الى تاريخهم القديم أو تاريخهم الحديث .

وقد أشرنا في هذه الفصول إلى هذا الداء الوبيل ، وأتينا على بعض شواهده .

ونشير هنا إلى بعض آثار هذه العصبية وتبشيرها بالدعوات والحركات المضللة في ميادين الثقافة والعلم والسياسة ، فتمضي أكاذيبها بين الكثيرين من المستنيرين وكأنها حقائق لا تقبل الشك ، أو آراء جديدة تقابل بالجد والاهتمام .

وإنهم ليستعدون لترويجها والدعوة لها بمن يجندون من صفوفهم أو من حملة الأقلام المأجورة لخدمتهم ، ويظهر منها ما يظهر ، ويختفي ما يختفي ، مقدراً على حسب الأجواء المهيأة له ، وكل ذلك يجري في غفلة عن بواعثه الخفية والدسائس اليهودية .

وما أشد ما تتردد الدعايات الحماسية المحمومة في الكتب والصحف والمعارض ودور الصور المتحركة لما يبتدعون أو يبتدع غيرهم من المدارس والمذاهب الأدبية والفنية العلمية والفلسفية التي تتجه إلى الهدم خدمة للصهيونية ، كما تتردد هذه الدعايات المجموعة من أجل هذا الغرض لتعلي شأن البارزين والبارزات من اليهود حتى تطغى شهرتهم على من هم أولى منهم بالتقدير والشهرة ، أو لتغض من أقدار النابغين من غيرهم دون

جناية لأحد من هؤلاء المظلومين إلا أنه ليس من اليهود ولا صنائعهم وأوليائهم ، أو ممن قال فيهم يوماً كلمة حق تغضبهم ، فاستحق من أهلها المقت واللعنة من رضوانهم ورضوان أذنابهم في كل ميدان .

وأمامنا الحركات الفكرية والاجتماعية والسياسية في الغرب ، وأصداؤها هنا وهناك ، فإن دراستها على حقيقتها دون عناوينها تدل على عبث الصهيونية بأقدس القيم ، وتسخيرها كل حركة ـ ما استطاعت ـ لافساد العقول والأخلاق .

وقد كان من رأينا أن مثل هذه الحركات ينبغي أن تفهم مع فهم بواعثها في نفوس أصحابها والقائمين بها ، وأنه لا سبيل إلى فهمها بغير ذلك .

وهكذا ينبغي أن تفهم الحركات الحديثة في الغرب ، وتفهم معها العوامل الصهيونية التي تحركها سراً وعلانية ، ليتبين ما فيها من حق وباطل ، تنكشف بواعثها وأغراضها الحميدة والذميمة .

وقد قلنا منذ سنوات في مقال عن الوجودية : « لن تفهم المدارس الحديثة في أوربة ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي أن اصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية ، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الانسان في جميع الأزمان . فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان . واليهودي دركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب ، واليهودي ـ أو نصف اليهودي ـ سارتروراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات السقوط والانحلال .

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع في أوربة مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود » .

وهناك أمثلة على هذه العصبية من نوع آخر ، تعزز كل ما قدمنا ، وتؤكد لنا أن هذا الداء العياء لم يسلم منه أحد بينهم حتى العلماء « المستقلين » .

من ذلك فرويد صاحب المذهب المشهور في الطب النفساني ، وإن كان ليقال فيه ما قلنا عن ماركس ودركايم وسارتر ، إنه كان من وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والاداب الدينية والخلقية والفنية والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية ، ويحاول أن ينسخ قداستها ويخجل الانسان منها ، ويسلبه الايمان بسموها وسمو مصدرها حين يردها إلى أدنى ما يرى هو في نفسه ، وبهذا تتمزق صلاته بأسرته ومجتمعه والكون وما وراءه .

ويبدو فرويد « مستقلا » بعلمه عن « يهوديته » ولكنه كان في الحقيقة لا يطمئن إلى أحد في عمله إلا أن يكون من « اليهود » ولا يثق بعمل مساعد له من غير ملته في المستشفى والمعمل ومعهد التطبيب .

وكان من المولعين بالعقد النفسية ، وكنا ولا نزال نرى أن الولع بهذه العقد قد يكون إحدى العقد النفسية ، وأن المكثرين من الحديث عنها قلما يسلمون من مركبات النقص وما إليها ، وكذلك عاش فرويد .

وكان الدكتور إرنست جونس أكبر تلاميذه الأحياء قد أصدر الجزء الثاني من ترجمة أستاذه ، وجاء فيه بشواهد كثيرة تعزز هذه الملاحظة ، ولم يقصد برواياتها غير تقرير الحقائق ، لأنه من المعجبين بالأستاذ إعجاب التقدير والوفاء . من تلك الشواهد الكثيرة أن فرويد كان يتبع أوراقه فيحرقها قبل أن يتمكن أحد من الاطلاع عليها .

ومنها انه كان إذا نوى السفر ذهب إلى المحطة قبل وصول القطار بنحو ساعة .

ومنها أنه كان شديد القلق يعمد على الدوام إلى تهدئة أعصابه بالافراط في تدخين التبغ اللاذع ، وتعزى إلى ذلك إصابته بالسرطان في فمه .

ومنها أنه كان يحيط نفسه بأعوان من اليهود ، ويندر أن يعمل مع أحد من غير دينه .

وترد الصحف الغربية بأنباء الاحتفال بمرور مائة سنة على مولد فرويد فنرى أعجوبة من أعاجيب التذكار لهذه المناسبة ، لأن العرف قد جرى على الاشادة بمآثر المحتفى به من أمثال هذه الذكريات ، ولكن الأطباء

النفسانيين الذين اجتمعوا لاحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو ـ وعدتهم نحو أربعة آلاف ـ قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسؤول في مركزه العلمي والرسمي ، وهو الدكتور برسفال بيلي Bailey مدير معهد النفسانيات بولاية النواز ، وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الانسانية ، لأنه يرتد بالانسان إلى الباطن ، ويهمل جانبه المنطقي الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتذوق الموسيقى ، ولا يحس جلال العقيدة .

وإنه لمن العجب أن يكون الدكتور إرنست جونس تلميذه الوحيد من غير اليهود ثم ينساق في تقديره مع الوعظ التبشيري باسم العلم والثقافة .

ونحسب أن فرويد لم يعمل عبثاً إذا كان العالم قد استطاع بعد أقل من عشرين سنة من وفاته أن يضعه على المشرحة التي كان يضع عليها مرضاه . ويذكرني هذا بقصة التلميذ اليوناني وأستاذه في علم الجدل والسفسطة ، فإن التلميذ أنكر حق الأستاذ في الاجر المتفق عليه بعد انتهاء الدروس التي حضرها عليه ، وقال له انه سيناقشه في هذا الحق فإن أقنعه بأنه لا يستحقه فلا أجر له عنده ، وإن لم يقنعه فلا أجر له عنده كذلك ، لأنه لم يعلمه كيف يقيم البرهان على دعواه .

قال الأستاذ : بل أستحق الأجر مرتين لأني علمتك أن تغلب أستاذك !

وعلى هذا النحو يستطيع فرويد أن يهدأ في قبره ، لأنه علم الناس كيف يضعونه على المشرحة ليطبقوا مذهبه عليه .

ومثل آخر هو ألبرت أينشتين صاحب نظرية النسبية ، وأكبر ما في « يهوديته » أن الكثيرين يحسبونه « مستقلا » منقطع الصلة بها لأنه يعيش أيامه كلها على اتصال بمعاهد العلم والعلماء .

ولكنه كان ينادي بالعصبية الصهيونية حين لا يضطره أحد إلى هذا النداء .

وقد نشرت بعد وفاته مجموعة من الرسائل والخطب في طبعة جديدة ، وقيل إنه أقر اختيارها وتنسيقها في هذا الكتاب .

ويجهر اينشتين في جملة من هذه الرسائل « بعصبية الصهيونية » ويؤمن باسرائيل كأنها عالم البعث للحياة اليهودية ، وليست مجرد وطن أو « مأوى » للمضطهدين من المهاجرين .

ويعتقد العالم « المستقل » برابطة الوحدة التي لا تنفصم بين الصهيونيين ثم يزعم أن موقف العالم من اليهود هو الذي يربط بينهم بهذا الرباط الوثيق ، ولا يذكر أن موقف اليهود من « الجوييم » سابق لكل موقف من مواقف الأمم الأخرى في المشرق والمغرب نحو هذه السلالة التي تعزل نفسها ولا تكتم عزلتها وانفصالها بين الأمم بالنسب والعقيدة والمصلحة والسيادة الموعودة على أبناء آدم وحواء .

فهو يقلب الحقائق رأساً على عقب ليسوغ « العصبية اليهودية » ويلقي تبعتها على « الجوييم » وما كان للجوييم هؤلاء من وجود في غير شعائر اليهود ، ونصوص الترجوم والتلمود .

ومثل آخر من علمائهم ولكنه من طراز عجيب هو العالم الطبيب ماكس نوردو الذي ترى من نظرة واحدة إلى معارف وجهه ولمحات عينيه ذلك الحبر العبري القويم الذي لم تغير من قسماته ولا خصاله مئات السنين التي قضاها أسلافه بين ربوع أوربة ، وقد شغف طول حياته بالهدم أشد من شغفه بالبناء .

ومن أعاجيب نوردو ان كاد يقسم الأخلاق إلى إسرائيلية وغير إسرائيلية ، وأنه كان شديد الغيرة للدعوة الصهيونية ، حريصاً على التبشير بها مع تطرفه في الالحاد ، كأنه كان يستخرج من الحاده فخراً صهيونياً ، فإن نهاية الالحاد أن ينفي كل ما وراء المادة ، وفي ذلك شاهد على جودة الطبع اليهودي عنده لأنه سبق إلى هذه النهاية ، إذ لم تنظر الديانة الموسوية فيما وراء المادة مطمعاً للانسان . وكان طول حياته يبشر بدين المنفعة ، ونسميه ديناً على عمد لأنه في الحقيقة دين يذب عنه بكل ما يكون لدين هكذا من الغيرة واصرار العقيدة . فهو يؤمن بدين المنفعة ولا يعرف للأشياء غاية تعدوها ، ولا يثنى على خلق إلا إذا استطاع أن يبين نفعاً ظاهراً في هذه الأشياء المحسوسة .

بل لو رجعنا إلى مواهب نوردو وعادات تفكيره لوجدنا أبرزها عادة ملكت نفسه وغلبت على هواه ايما غلب ، وهي فيما نرى مفتاحه الذي نستعين به على تقدير أحكامه ومعرفة اتجاهاته ، وهذه العادة هي « الاسرائيلية » التي يكاد لا ينساها في جميع آرائه ، ولا يعدو أن يكون مدافعاً عنها في كل مبحث من مباحثه ولو بعدت الشقة بينه وبين الاسرائيلية والاسرائيليين .

فإذا رجعت إلى الصفات التي يثنى عنها وينوه برجحانها ويتخذها مثلا للفطرة السليمة وعنواناً على الصلاح في الحياة وجدتها هي صفات اليهود التي تفوقوا فيها على غيرهم أو اشتهروا بها بين الأمم ، وعلى نقيض ذلك نرى الصفات التي عرف اليهود بالتخلف فيها أو التجرد منها عرضة لتهكمه وتهجينه ، او معدودة عنده في المراتب المرجوحة التي لا تميز أمة على أخرى ، ولا تتفاضل بها معادن الرجال ، وكثيراً ما يحسبها من الصفات الكمالية أو الهمجية الصائرة إلى الضعف مع تقدم المدنية ، وتارة أخرى يتجاهلها في نقده أو يعتدها عرضاً من أعراض النكسة والاضمحلال ، وربما بدر ذلك منه عفواً في بعض الأحيان ، ولكني لا أظن إلا أنه قد كان يقصده أحياناً ويتحراه ويترفق في دفع شبهته عن قلمه ، وكأنما شك الرجل في اليهودية بفكره وبقي على اعتقادها بوجدانه ، فرجع عن قولهم إن اليهود شعب اللهّ المختار ، ليقول إنهم هم شعب الطبيعة المختار .

وخلاصة ما اعتمده نوردو من الرأي في الفصل بين الأخلاق والآداب هو قسمتها إلى ذينك الشطرين فما كان منها من صفات قومه فهو الصالح المطلوب ، وما لم يكن من صفاتهم أو كان نصيبهم منه قليلا أو ملتبساً فذلك هو النافلة الذي لا غناء به ولا معول في الحياة عليه ، وهو لم يكن يدفع عن قومه فحسب بإعلاء دين المنفعة ، بل كان يدفع عن نفسه كذلك ، فقد كان كما قدمنا يدين بدين المنفعة دون غيره .

فهو ـ من حيث أراد ومن حيث لم يرد ـ صهيوني غارق في الصهيونية ، متعصب لها أشد التعصب بمزاجه وأخلاقه ومولده (إذ هو ابن كاهن) وبأحوال عصره ، فلما ظهرت الحركة الصهيونية كان من أعوانها الكبار وأعوانها المعدودين ، فشن الغارة على الكنيسة الكاثوليكية ، واتهمها

بالتحريض على ذبح اليهود في فرنسا ، وظل إلى آخر أيامه غيوراً على نشر الدعوة الصهيونية لا يني كاتباً أو خاطباً في تأييدها وشد أزرها ، فلما صرح اللورد بلفور تصريحه المعروف شخص هو إلى لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية في تفاصيل إنشاء الوطن اليهودي بفلسطين . وهناك قال قولة تروى عنه وهي ان الانجليز لا يساعدون اليهود حباً في سواد عيونهم ولكن طمعاً في الدفاع عن قناة السويس ، وأنه على هذه القاعدة من تبادل النفع يجب أن يبنى الاتفاق بين شعب إسرائيل والحكومة الانجليزية .

وهذه الكلمة مفتاح كل كتب نوردو ، وخلاصة جميع آرائه فيها ، لأنه لم يكن يؤمن بغاية للفرد والنوع غير النفع المادي المحسوس في هذه الدنيا وهو في هذا يجري على اساس أسلافه وعشيرته . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وطرد من فرنسا رحل إلى أمريكا لخدمة الدعوة الصهيونية بمقالاته وخطبه ومحاضراته .

وقد يستغرب من العلماء الماديين أن يلقوا بأنفسهم في غمار الحركات الدينية ويتشيعوا لها أشد التشيع كما كان يفعل نوردو ، ولكن هذا الذي يستغرب من سائر العلماء لا يجوز أن يستغرب من عالم إسرائيلي لما هو معلوم من أن اليهودية وطن للاسرائيليين وجامعة نفعية لا دين ولا نحلة فحسب ، ومن أجل هذا ولأسباب أخرى صار نضال الرجل منهم عن نحلته صورة أخرى من نضاله عن نفسه ومصلحته وكرامة شخصه ، ولهذا لا نرى غرابة ما في تصدي طائفة من العلماء كلهم ملحدون لقيادة الدعوة الصهيونية .

وينبغي ألا تنسى هنا الحملة الشعواء التي شنها نوردو في كتابه « الاضمحلال » أو « الانحطاط » على النابهين من أدباء عصره وغيرهم ممن وقع في طريقه ، فقضى عليهم جميعاً بالمسخ والخداج وانتكاس الأذواق والعقول ، وأضرم ناراً من النقد الجائر كنيران محكمة التفتيش فجعل يلقي فيها ما يلقي من كتبهم ودواوينهم باسم العلم في هذه المرة لا باسم الدين .

وقد أنحى فيه على طائفة كبيرة من أعلام المفكرين وفحول الشعراء والأدباء الذين اشتهر ذكرهم في عصره والعصر الذى قبله وقسم أدباءه أو قل

مرضاه ـ إلى طبقتين : طبقة عالية تخفي فيها أغراض المسخ بعض الخفاء وأخرى واطئة لا تمتاز في شيء من سائر المعتوهين والأمساخ ، واستخرج من معاني أشعارهم ومضامين سطورهم دلائله التي خالها أعراضاً شاهدة عليهم جميعاً بالمسخ وفسولة الطبع ، فمنهم ـ فيما زعم ـ مجانين الأنانية ، ومنهم أسرى الشهوات والمصابون بالاضطرابات المخية والنخاعية ، ومنهم البله والسوداويون ، والمعذبون بالصرع والوسواس ، والمتهوسون في الدين او العصبية ، والمتقشفون الموكلون بتعذيب أنفسهم وتنغيص لذاتهم ، والناشزون على العرف والآداب ، وكثير من أمثال هذه الآراء التي أرسلها في صفحاته بسخاء من ذلك القلم المنغمس في كتابة التفسيرات وأوراق الأدوية ! .

وقد تتلخص كل أعراضه في ظاهرتين اثنتين : هما العجز عن حصر الذهن وسوء نقل الحواس والأعصاب عن مؤثرات البيئة أو عدم الاحساس بالأشياء على حقيقتها .

ولتعليل إعجاب قراء العصر بأولئك الأدباء والمفكرين رمى نوردو الطبقات القارئة كلها وبعضاً من الطبقات الأخرى بالضعف واختبال الحس ثم مضى يعلل لهذه الأوهام ليدين عصره كله بالخلل والفساد .

وحملة أخرى شنها نوردو في كتابه « الأكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة » ، ولكن حملته هنا على المجتمع لا على الأدباء ، وقد فضح كل ما ظهر له من أكاذيب الحضارة الأوربية ، وسمى ما لم يرقه بالأكاذيب ، ومما سماه أكذوبة الدين وأكذوبة الحكم المطلق وأكذوبة الزواج والأكذوبة السياسية والأكذوبة الاقتصادية وما إلى ذلك ، وهو في نقده لما سماه الأكاذيب متقحم متسرع ، وقد أملى له في تهجمه فوق ما قدمنا يقين الشباب واقبال التفاؤل ولولا هذا اليقين وجرأة في نوردو صحبته طول حياته لكان الاولى به ان يسمى « الحقائق في سبيل التطبيق » بدلا من « الاكاذيب المقررة » لأن كثيراً من الأكاذيب التي أوردها إنما هي حقائق يخالطها الزغل عند التجربة ـ كالديمقراطية مثلا ـ وأين هي الحقائق الاجتماعية التي تتركها التجربة على صفائها ؟ أليس من الحقائق الرياضية ـ وناهيك بدقتها ـ ما

يختلف بين الأوراق والأعمال ؟؟ .

وإذا كان هذا مبلغ العصبية الصهيونية عند العلماء المستقلين حتى الملحدين وانغماسهم في غمراتها الى هذا القرار فكيف بمن ليسوا علماء ولا مستقلين ولا سيما المتدينين ؟ وإذا كان هذا مبلغ الغلو في العصبية عند من ينبغي لهم سترها أو الاعتدال فيها وهم قادرون عليه ولا ضرورة تمنعهم دونه ـ فكيف بالمجاهدين المؤمنين الذين لا ينتظر منهم ستر ولا اعتدال ولا قدرة لهم عليه ولا مفر لهم منه .

ونختم حديثنا عن عبث الصهيونيين بالمذاهب والحركات الفكرية ـ بالاشارة الى أن كثيراً من صنائعهم ، والببغاوات من أدعياء الثقافة بيننا يتلقفون هذه الدعوات المعرضة في عالم الأدب والفن والفلسفة وغيرها ، ويبشرون بها باسم التقدم أو التحرر أو التجديد او الاصلاح وما إلى ذلك من الأسماء كأنها هي دعوات هداية وبناء من قادة منزهين عن المرض والغرض . وان إلمامة خفيفة بما ينشر في الصحف والمجلات والكتب بيننا للتبشير بتلك الدعوات والتنويه بشأن البارزين من الصهيونيين وأعوانهم ، واللغط الفارغ بتاريخهم وأعمالهم سواء كانوا من العلماء والأدباء والزعماء أو من فتيات المسرح ودور الصور المتحركة وعارضات الأزياء ـ إن إلمامة خفيفة بذلك لتدل على أننا نعاني محنة في المروءة والأخلاق فضلا عن محنتنا في العقول والأذواق .

ونحن لا نلوم « العلماء المستقلين » خدام الحقيقة المطلقة لأنهم يتعصبون للملة اليهودية .

ولكننا نلوم من ينسى مروءته بيننا من أجل كلمات يتلقفها ويسميها علماً ينفصل بصاحبه عن بني قومه في معترك العصبيات والأخطار ، وإنهم لأحوج الأمم الى عون العارف والجاهل في عزلتهم أمام الصهيونية والاستعمار ودسائس الأعداء والطامعين من كل قبيل .

وندعو تلك الطائفة من أدباء العربية وعلمائها المستذلين للأذلاء لنقول لهم : من كان منكم أعلم من فرويد وأينشتين وغيرهما ممن ذكرنا فله أن يقيس أدبه وعلمه على غير قياس ، وأن يتصل به أو ينفصل عمن يشاء من

الناس .

ومن كان منكم يحسب أن الصهيونية أحوج من قومه إلى الأعوان فليبخل بعونه على هؤلاء القوم « الأغنياء » .

أما الخذلان ولا غنى عن الغوث فإن أهون وصماته ليخزي من لا يخزيه شيء .

وننتقل إلى بيان شواهد من عصبية الصهيونيين في ميادين السياسة ، وهي أغلظ وأظهر ، وإن أعمالهم التي تدفعهم إليها حماقتهم لتوبقهم وتغني في القضاء عليهم لولا أن خصومهم يلقونهم أحياناً بمثل ما عندهم من الحماقة .

ومن أحدث الشواهد التي تدل على الارتباط الشديد بين مسائل العالم في العصر الحاضر حملتهم الخفية على إيدن رئيس الوزارة البريطانية في يناير هذا العام ، وهي حملة تهدد مركزه كما يقولون من جراء حوادث الشرق الأدنى .

ويتألب عليه في هذه الحملة فريق صغير من المحافظين وفريق كبير من العمال وتدير الحملة كلها من وراء الستار أيدي الصهيونية البريطانية تؤيدها الصهيونية العالمية من بعيد .

ولا عجب في انضمام فريق من المحافظين إلى الحملة إذا تذكرنا أن رئيس الحزب في الواقع هو الاستعماري الصهيوني العتيق ونستون تشرشل ، وهو يصرح بانتمائه إلى الصهيونية وإن كان لا يصرح بالسبب . فإنما السبب الحقيقي أنه ينتمي من جانب أمه إلى سلالة إسرائيل .

أما العمال فلا عجب أيضاً من دخولهم في الحملة أو قيادتهم لها جهاراً ، لأن خزانة الحزب تخوى من المال إن فقدت معونة المرشحين الصهيونيين بارزين ومستترين .

ورئيس الوزارة البريطانية لم يفعل شيئاً يجحف باسرائيل ليستحق من الصهيونية هذه العداوة .

ولكن الدنيا تجهل إسرائيل وتجهل الصهيونية كلها إن لم تعلم أن القوم حمقى في الغاية القصوى من الحماقة ، ومن حماقتهم هذه الأنانية المريضة التي تخيل إليهم انهم وحدهم شعب الله ، وأن الله إلههم وحدهم بغير شريك ، وأن الساسة في العالم كله مطالبون بخدمتهم ومحاباتهم والتعصب لهم مائة في المائة ، وإلا فهم أعداء مغضوب عليهم بغير عذر ولا هوادة .

ونحن والله نود لو ينجحون في حملتهم على رئيس الوزارة البريطانية ، لأن هذا النجاح سيكشف الحقيقة لأعين الناس ، ويخرجها من حيز المناورات البرلمانية وراء الستار ، ويومئذ ترجع الصهيونية إلى وكرها مسحوقة الرأس والذنب ، ليستريح العالم من شرورها الجهنمية إلى أن يشاء الله .

إن القوم حمقى في الغاية من الحماقة . ولكنهم يسلمون من جرائر حماقتهم بحماقة مثلها في بعض الخصوم الذين ينهضون لمكافحتهم والقضاء عليهم فينفعونهم ويضمون إليهم الأعوان والأشياع .

عاداهم كما قدمنا جماعة الكوكلكس كلان في الولايات المتحدة وبلغ عددهم أربعة ملايين كعدة اليهود جميعاً في تلك الولايات ، ولكن حماقة هذه الجماعة سولت لها أن تعادى الصهيونية وتعادي معها الكنيسة الكاثوليكية وحركة التحرير التي ترمي إلى إنصاف السود والملونين ، فاجتمع عليها من الأعداء أكثر مما تطيق .

وعاداهم في إنجلترا جماعة « المستميتين » في المحافظة إذ كان لسان حالهم صحيفة المورننج بوست ، ثم عاداهم موزلي وأصحابه من أنصار الفاشية والنازية ، فانتفع الصهيونيون بعداوة هؤلاء لأنهم جمعوا معهم الأحرار والعمال والمحافظين المتوسطين .

ويعاديهم اليوم في فرنسا حزب « بوجاد » ولكنه لحماقته يحاربهم ويحارب الجمهورية ويريد أن يرجع بالاستعمار مائة سنة الى الوراء ليحكم الشعوب الشرقية حكم السادة للعبيد .

حماقة خصومهم هي التي تنقذهم من حماقتهم ، ولكن الله سخر لهم

دويلة إسرائيل لتكشف عنهم كل مستور ، وتثبت للعالم أنهم ـ كما وصفهم القرآن الكريم ـ « قوم لا يعقلون » فلا يريحون ولا يستريحون ، ولن يزال العالم كله في خطر ما داموا يقبضون بأيدهم على زمام الدسيسة والغرور .

فإذا انقطع هذا الزمام فهم شر على أنفسهم وذويهم ، والعالم منهم في أمان .

ولا شك عندنا في حقيقة الحملة التي ترامت أخبارها من البلاد الانجليزية ، فإن الأسباب الظاهرة واهية لا تستر ما وراءها ، وكلها تدور على غلاء المعيشة كأنه من المستحدثات في الأشهر الأخيرة ، وقد كان قبل شهر يونيو في العام الماضي (١٩٥٥) حين اجتمع برلمانهم الجديد ـ أشد مما هو اليوم .

والبركة في إسرائيل والعياذ بالله من هذه البركة .

إن إسرائيل هي القضاء المبرم على إسرائيل وعلى الصهيونية بعدها بأمد قصير .

١٦ ـ مصير الصهيونية العالمية والأسباب الدولية

تكلمنا في هذه الفصول عن الصهيونية العالمية ، وعن المرض النفساني الذي تنطوي عليه ، وعن الطوابير الخامسة التي تعمل بها في البلاد المختلفة ، وعن العوامل المجملة التي تستمد منها نفوذها ، وعن أساليبها في استغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية ، وعن اضطرارها ـ بحكم طبيعتها ـ إلى الغش والافساد في كل أسلوب تعول عليه .

وننظر بعد ذلك في هذا الفصل وما يليه إلى مصيرها الذي تنبئنا عنه الوقائع الحاضرة ، ونستطيع أن نقول في كلمة موجزة : إن الصهيونية العالمية قوة مولية ، وان عوامل الزوال التي تحدق بها أكبر من عوامل الثبات .

ولذلك أسباب متعددة ، نتناول منها في هذا الفصل جملة الأسباب الدولية كما تبدو لنا الآن ، وكما تؤول إليه مع التطور الواقعي في المستقبل القريب .

إن الصهيونية هيئة عالمية ، ولا مهرب لها من التأثر بأطوار الشؤون العالمية في هذا الزمن خاصة ، لأ زمن تتداخل فيه شؤون الأمم في كثير من المصالح والعلاقات .

لقد كانت الصهيونية هي الهيئة العالمية الوحيدة التي تعمل طوابيرها الخامسة دون التفات إليها في القرون الخالية .

كانت كل أمة تحس بالصهيونية في حدود بلادها ، وكان الاحساس بها مقصوراً على الشؤون الاقتصادية كلما ثقلت على الناس وطأة الديون ، ونشبت في أعناقهم مخالب المرابين والمستغلين . أما الاهتمام بالصهيونية

من الوجهة السياسية فلم يكن مما يشغل بال أحد . لأن السياسة « أولا » لم تكن شغلا شاغلا لأذهان الجماهير ، ولأن الصهيونية « ثانياً » كانت حريصة على التستر والعمل في السياسة من وراء حجاب ، فكانت مساعيها العالمية مجهولة بين كل أمة ، وكانت كل أمة لا تحس بها في غير شؤونها التي تعنيها داخل حدودها ، وكانت هذه الشؤون مقصورة كما تقدم على أزمات الديون والربا المضاعف والاستغلال .

أما اليوم فالعلاقات الدولية ظاهرة في أهم الشؤون العامة ، وليس في وسع الصهيونية العالمية أن تعمل من وراء حجاب . فلا بد لها من العمل الظاهر ، ولا بد لها مع العمل الظاهر من التحدي المكشوف . . وتلك ولا ريب فاتحة الدمار . لأن الهيئة التي تتحدى العالم كله ـ منهزمة في النهاية بغير مراء .

ومما تغير في الأحوال العالمية أن السيطرة الاقتصادية كانت فيما مضى سراً من أسرار المكاتب ، وعملا من أعمال السمسرة الخفية وراء الأسواق . وكان في وسع الصهيونية بالألاعيب المكتبية ، أو بحبائل السمسرة ـ أن تتلاعب بالأسواق والأسعار وهي آمنة وراء جدرانها .

أما اليوم فالسيطرة الاقتصادية مسألة متشعبة ترتبط بالأحوال الاجتماعية ، والحقوق الوطنية ، وأنظمة الزراعة والصناعة في جميع القارات ، وليس في طاقة هيئة عالمية ـ مختلسة ـ أن تقبض بأيديها على أزمة هذه الشؤون وأن تسخر لمشيئتها جميع العاملين في هذه الميادين .

وقد تفعل السمسرة فعلها في مبادلات العملة ومقادير الواردات والصادرات ، ولكن الألاعيب التي تقدر عليها السمسرة الخفية تقف اضطراراً إذا اصطدمت بسياسة تحسب حساب الثورات والقلاقل ، ولا تجازف بالاخطار وتهديد عوامل الاستقرار ، ومهما يكن من نفوذ الصهيونية في دولة من الدول فهو نفوذ مصطنع ، يتمرد عليه الساسة حتما كلما بلغ حد المخاطرة ، ودفع بهم إلى تجاهل الواقع في مشاكل الأطوار العالمية ، وتدخل فيها مصالح كثيرة في الشرق والغرب ، لا ينقاد زمامها للصهيونية العالمية ، ولا لهيئة من الهيئات على انفراد .

ومن أهم الأسباب التي زعزعت قوة الصهيونية في سياسة الأمم هذا التغيير الكبير الذي طرأ على مراكز الدول العظمى ، وهذه الضرورات العالمية التي أخرجت الولايات المتحدة من عزلتها ، وجعلتها طرفاً مهما في كل نزاع بين المعسكرين المتناظرين .

كانت بريطانيا العظمى تقود أحد المعسكرين في كل حرب عالمية ، أوكل حرب عامة تشترك فيها دول كثيرة .

وكان دور الصهيونية العالمية عظيما جداً في الحروب والأزمات الكبرى من أجل ذلك ، اي من أجل قيام بريطانيا العظمى على قيادة أحد المعسكرين ، في كل حرب عالمية .

ومن أيام حروب نابليون ، كانت بريطانيا العظمى تستعين بالصهيونية العالمية لتضييق الخناق على أعدائها ، وضرب الحصار الاقتصادي المحكم على المعسكر الآخر ومن يعاملونه في أسواق التجارة .

واستفادت الصهيونية كثيراً من اللعب بالنفوذ بين الدول ، ولم تكن متبرعة في الحقيقة بمساعدتها لبريطانيا العظمى ، لأن بريطانيا العظمى كانت مركز الصناعة والتجارة وميزان الأسواق .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وتلتها الحرب العالمية الثانية ، فتعاظم شأن الصهيونية في السياسة الدولية ، وراحت تساوم على الوساطة والدعاية وتملي الشروط ، وتغلو في المطالب ، واستخدمت نفوذها في الولايات المتحدة لتهديد الانجليز بالعزلة في ميادين القتال ، فإن لم يستجيبوا لها في كل ما تطلب أثارت عليهم الدعاية في الولايات المتحدة في أحرج الأوقات ، وحاولت جهدها ـ وهو جهد غير قليل ـ أن تبقى الدولة الامريكية بعيدة من الميدان ، وأن تحرم الانجليز من معونتها المالية والحربية ، او تؤخرها الى ما بعد الأوان .

بهذا التهديد نجحت الصهيونية فحصلت على وعد بلفور بالوطن اليهودي في فلسطين ، وكل ما يقال عن تعليل الحصول عليه بقصة وايزمان ، واختراعه الكيماوي النافع في صناعة المتفجرات ، فهو من خرافات العجائز

ولحاديث الأطفال ، إذ ليس بالمعقول أن تتحمل بريطانيا أعباء الوطن اليهودي لتكافىء مخترعاً يعمل في مصانعها وجامعاتها ، ولا يستطيع أن يمنعها حق الانتفاع بذلك الاختراع ! فما كان الاختراع إلا علالة قصد بها التمويه لاخفاء الأسباب الحقيقية لهذا الوعد .

إنما نجح الصهيونيون في انتزاع وعد بلفور لانهم جعلوه ثمناً للدعاية الأمريكية .

ثم أرادوا أن ينجحوا مثل هذا النجاح في الحرب العالمية الثانية فأخطأهم التوفيق ، لأن الصهيونية لا تستطيع أن تعزل بريطانيا في حرب مع هتلر والنازية ، وإن فعلت ذلك فإنما تدور الدائرة عليها .

إلا أن هزيمة هتلر قد أطلقت أيدي الصهيونيين في التهديد وإملاء الشروط على الدولة البريطانية ، فاستكانت لهم هذه الدولة استكانة لم تقبلها من أحد ، وطغى الأذلاء الذين صبروا على مظالم الطغاة مئات السنين ، فأنفوا أن يعاقب الانجليز مذنباً منهم تثبت عليه جريمة الفتك والعدوان ، وقبضوا على جند الحكومة ليقتصوا منهم بالجلد والقتل إذا نفذ العقاب في الصهيوني المحكوم عليه ، فأذعن الحاكمون إذعاناً مخجلا لهذه الغطرسة من هؤلاء الأذلاء . ولولا خوف الدولة البريطانية من دعاية الصهيونية بين الأمريكيين لأتت على تل أبيب نسفاً وهدماً في لمحة عين .

وتغير الموقف الآن كل التغيير من وجهة السياسة الدولية . فليس في مقدور الصهيونية أن تعزل بريطانيا العظمى لأن قيادة المعسكر الغربي انتقلت إلى الولايات المتحدة ، وليس في مقدورهم أن يعزلوا الولايات المتحدة ، لأن سياسة العزلة ذهبت في خبر كان . ولو حاول الصهيونيون محاولة من هذا القبيل في إبان حرب من الحروب لكانت هي القاضية عليهم في تلك البلاد .

وتم التغيير في الموقف الدولي بعد أن أصبحت للصهيونيين دويلة تسمى إسرائيل .

إن الصهيونيين كانوا يلعبون بالسياسة الدولية ويملكون وقت اللعب فلا

يخسرون أو لا يصبرون طويلا على الخسارة .

كانوا يلعبون بالسياسة الدولية فأصبحوا في بعض المواقف على الأقل لعبة للسياسة الدولية ، وأصبحوا هدفاً ظاهراً لمن يهددهم بالانتقام ، فما عليه إلا أن يضرب إسرائيل فإذا بالصهيونية كلها مضروبة من وراء إسرائيل .

إن التغيير الذي طرأ على السياسة الدولية لا يجري مع المآرب الصهيونية في مجرى واحد ، وهذا التغيير في السياسة الدولية سبب من الأسباب التي تولي غداً بالصهيونية العالمية وتنذرها بما تستحق من مصير .

١٧ ـ مصير الصهيونية العالمية ونفوذها المهدد

من الحكمة ألا يستصغر المرء قوة عدوه .

، ومثله في الحكمة ألا يستعظم قوة عدوه وألا يبالغ في استعظامها من باب أولى . لأنه إذا استعظمها ضيع في الحذر منها جهوداً يضره أن تضيع ، وينتفع العدو بضياعها عليه .

والصهيونية العالمية قوة كبيرة ، تملك وسائلها التي تؤذي بها خصومها وتنفع أعوانها وأذنابها ، ولكننا نعدو بها طورها ونجاوز بها حدها إذا قلنا مع القائلين : إنها تخلق الثورات وتدبر الانقلابات وتثل العروش وتهدم الممالك . فإنها لأهون شأناً من ذلك كما قدمنا في بعض الفصول الماضية ، وإنما شأنها أن تنتفع بالأسرار التي تعلمها وتغتنم الفرصة في حينها .

والحق أن الصهيونية العالمية أضعف مما ينبغي لمثلها ، وأنها كانت خليقة أن تفعل أضعاف ما فعلته لخدمة مآربها وإنجاح دسائسها ، بالقياس إلى قدم عهدها وانتشار طوابيرها الخامسة في أجزاء المعمورة ، مع غفلة الغافلين عنها وتواطؤ أعداء الاسلام على مساعدتها . ولكنها تفقد الشيء الكثير بحماقتها واندفاعها مع هوس العصبية الطائفية ، فإن الصهيونيين ـ ولا ننسى وصف القرآن الكريم لهم ـ قوم لا يعقلون .

ومن المعلوم ان التنظيم والاتفاق في الغرض يجعلان العشرة أقوى من المائة ويجعلان المائة أقوى من الآلاف .

والصهيونية العالمية قوة منظمة في الولايات المتجدة ، ويسمي الساخرون مدينة نيويورك من أجل ذلك بمدينة « جيويورك » Jew York . . أي :

« مدينة اليهود » لأنهم يزيدون فيها على المليون ويتعاونون قصداً وعلى غير قصد في ترويج مصالحهم والنكاية بأعدائهم . . ويتصلون بمثل الشبكة المحكمة بالملايين الثلاثة الأخرى الموزعين في أنحاء البلاد الأمريكية ، ولكنهم ـ على كثرة العدد واتفاق الغرض ـ لم يبلغ من نفوذهم أن يصنعوا ما صنعته جماعة منع المسكرات في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن أعضاء هذه الجماعة يزيدون على بضعة آلاف يؤيدهم أناس من رجال الدين . وكانوا يفرضون على الشعب قانوناً لا يريده ، ويحاربون مصالح المعامل التي تصنع الخمور والشركات التي تبيعها ، ويعرضون تعديلا للدستور هو التعديل الذي اشتهر باسم التعديل الثاني عشر ، وتسنى لهم بفضل التنظيم والمثابرة على غرض واحد أن يعدلوا الدستور ، وأن يصدروا قانون تحريم المسكرات من مجلس الشيوخ ، ثم من مجلس النواب ، وأن يتغلبوا على الرئيس ويلسون الذي رفض القانون بحق النقض ، فأعادوه إليه وعبأوا الرأي العام في وجهه ، فأمضاه مضطراً حسب نصوص الدستور .

هذه الجماعة « جماعة منع المسكرات » لا تذكر إلى جانب الصهيونية العالمية التي تستعين بكثرة العدد وقوة المال وتغلغل الأعوان والأذناب في كل مكان ، وقد كانت الصهيونية نفسها تقاوم هذا القانون في الولايات المتحدة فانهزمت مع المنهزمين أمام « جماعة منع المسكرات » .

ومما لا نشك فيه أن جماعة منظمة تكافح الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة تستطيع أن تقهرها وتمحو أثرها ولو لم تبلغ مليوناً واحداً يحاربون خمسة ملايين . لأن الحقيقة المفهومة أن الصهيونية بغيضة جداً إلى جمهرة الأمريكيين ، وأنهم صبروا عليها طويلا ، واستعدت نفوسهم للتمرد على سلطانها الخبيث ، لو وجدت الجماعة التي تتولى تنظيم المكافحة وتحصرها في غرض واحد لا تتشعب عليه المطالب والجهود .

ولقد وجدت الجماعة التي تكافح الصهيونية فعلا اثناء الحرب العالمية الاولى ـ وهي الجماعة التي اطلقت على نفسها اسم « كوكلكس كلان KuKlux Klane وعاشت بضع سنوات فوصل عدد الاعضاء فيها على تقدير الخبير الاحصائي ستانلي فروست Stanly Frost اربعة ملايين ونصف مليون .

إلا أن هذه الجماعة القوية وسعت حملتها وشنت الغارة على أعداء أربعة بدلا من عدو واحد . فجعلت في همها محاربة الزنوج ، ومحاربة التابعين للكنيسة الرومانية ، ومحاربة الاشتراكيين والشيوعيين ، ومحاربة اليهود ، وافتضحت لها أمور معيبة مكنت خصومها من إحباطها وتفريق شملها وتتبع العورات التي تنسب اليها ، ولو أنها قصرت محاربتها على الصهيونية لقضت عليها عنوة في سنوات معدودات .

لقد كان حظ الصهيونية أن « الكوكلكس كلان » أخطأت هذا الخطأ ، وانفضحت تلك الفضيحة ، ولكن حماقة الصهيونية توازن حظها الحسن وتربي عليه ، ومن حماقتها أنها تتهوس الآن في الدعاية لاسرائيل ، وتزج بالدولة الأمريكية في مآزق لا تؤمن عقباها من ورطة بعد ورطة ، واقحام بعد إقحام ، وأنها لتوغر الصدور عليها كرهاً بالصلف الذي لا يطاق ، ولا بد أن يغضب عليها من تستغضبهم ولا تبالي عاقبة غضبهم ، فينفضوا عن كواهلهم ذلك العبء الثقيل الذي يسخرهم كل هذا التسخير لصهيون اسرائيل .

ومن بوادر الانقلاب على النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة أن الصهيونيين يخافونه ويدركون خطره ، وأن الخطر يذهلهم عن الصواب ويخرجهم عن السداد ، فيحشدون اليوم جماعات الارهاب للايقاع بالخصوم والمعارضين ، ويعملون بأيديهم على مقابلة الارهاب بمثله ، فلا تعود لهم جماعة « الكوكلكس كلان » هذه المرة بالحملة الموزعة عليهم ، وعلى الزنوج ، والاشتراكيين ، وأتباع الكنيسة الرومانية ، ولا تكسبهم الأنصار من هؤلاء الشركاء في النقمة والبغضاء ، بل تعود لهم ومعها أنصار متألبون ممن تجمع بينهم عداوة الساميين .

إن الأمم قد تصبر على التسخير الذي تجهله ولا تعرف اضراره ، ولكنها لا تصبر على التسخير المكشوف الذي يلج به التحدي والغرور ، فيركب رأسه غير حافل بما يثيره من السخط والنفور . وقد أوشكت الصهيونية أن تواجه الشعب الأمريكي بمثل هذا الصلف في قضية إسرائيل ، وفي قضايا السياسة الدولية ، وأوشك هذا الصلف أن يستدعي المقاومة المنظمة لمقابلة الارهاب بالارهاب ، وتعددت فضائح الصهيونيين في مسائل الجاسوسية

وأسرار القذائف الذرية ، فلن يطول الأمد على مثل هذه الحالة حتى تتكشف العداوة الصراح ، ولن يفعل الصهيونيون يومئذ إلا ما يضرم النار ويفسد الجوار .

وفي الولايات المتحدة اليوم أكثر من مائة ألف عربي ومسلم ، ومنهم في نيويورك نحو خمسة آلاف مسلم . بين بولونيين وشراكسة وهنود ويمانيين ومصريين ، ومنهم في دترويت Detroit نحو عشرين ألفاً بين لبنانيين وسوريين وألبانيين ، وكل من في الولات المتحدة من المسلمين أو العرب المسيحيين ذوو همة ودأب وغيرة على القضية العربية ، ولا يطلب من مائة ألف أن يقاوموا خمسة ملايين متأصلين في البلاد ، متشعبين في ميادين الأعمال ، ولكنهم عدد لا يهمل في حساب الفريقين ، والاستماع لهم أيسر من الاستماع لأناس يفرضون لهم سيادة على البلد ، ويسومون الدولة كل يوم أن تزج بنفسها ـ لحسابهم ـ في مأزق بعد مأزق على غير جدوى وإلى غير نهاية . وهكذا يفعل الصهيونيون في الولايات المتحدة ، ويعلم الايقاظ من أبناء البلاد أنهم يفعلون .

قلت في فصل مضى إن الصهيونية العالمية قوة مولية في ميادين السياسة الدولية ، ولم نسمع من صهيوني متفائل مبالغ في خداع نفسه أنه يطمئن إلى مصير النفوذ الصهيوني بين الأمريكيين ، فقد برح الخفاء ، وتكشفت الدسائس ، وعرف العامة ما لم يكن يعرفه إلا الخواص والأخصاء المقربون ، فإذا جرى الصهيونيون على عاداتهم من صلف الذليل ، ورعونة المغرور ، فتذرعوا ذرائع الارهاب لاستبقاء النفوذ المهدد بالزوال ـ فتلك علامة أخرى من علامات الادبار ، وما من إقبال يرجى لمدرع بالليل إذا طلع النهار .

١٨ ـ مصير الصهيونية العالمية

وبنيتها المتناقضة

من علامات الفناء في الصهيونية أنها بنية متناقضة ، يصلحها من ناحية ما يفسدها من ناحية أخرى ، ولا مفر لها من النقيضين ، وليس من اليسير عليها أن تجمع بينهما ، ولا أن تطمئن معهما إلى طول البقاء .

وأكبر جراثيم الفناء في هذه البنية أن الخلاف شديد بين الصهيونيين على عقيدة الصهيونية .

فما هذه العقيدة في أساسها ؟

إنها في أساسها عقيدة دينية تقوم على الأمل في ظهور ملك من بيت داد ، يبني عرشه بمعجزاته وكراماته في بيت المقدس ، وينشىء فيها مملكة أورشليم التي بها اختص إلّه إسرائيل شعبه دون سائر الشعوب ، وليست هذه المملكة من عمل الشعب اليهودي ؛ ولا من عمل أحد من الناس ، ولكنها العمل الذي يتولاه رب إسرائيل بعد تكفير الشعب عن خطاياه : بالتشريد ، واحتمال العذاب والاضطهاد .

هذا هو أصل العقيدة الدينية التي آمن بها الصهيونيون إلى القرن السابع عشر . ثم تحررت العقول وظهرت بين اليهود حركات عقلية في القرن الثامن عشر ترتاب في هذه العقيدة ، وتعددت المذاهب التي تناقضها بين جماعة الهاسقالا Haskala ، وجماعة الأحرار ، وجماعة العصريين المحدثين ، وغيرهم من الجماعات ، وتخلصت هذه الحركات أخيراً في دعوة إسحاق ماير وايز Issac Mayer Wise الذي عقد مؤتمر فلادليفيا سنة ١٨٦٩ ، وأعلن بالقول الصريح ان رسالة اليهودية لا ترمي إلى تجديد ملك

إسرائيل على يد ملك من ذرية داود ، وأنها لا تعني أن يعود اليهود إلى انفصال جديد بينهم وبين أمم العالم ، ولكنها ترمي إلى قيادة الأمم الانسانية في طريق الخلاص على سنة الاخاء ، وتكوين عالم جديد يضم جميع الشعوب بهداية روح إسرائيل ، وهو العالم الذي يشتمل يومئذ على مملكة أورشليم الموعودة التي تبقى إلى آخر الزمان .

وظهرت مع هذه الحركة المجددة حركة أخرى تخالفها في أسلوب التجديد وهي الحركة التي تأثرت بالهيئات القومية في القارة الأوروبية ، فقام زعماؤها يقلدون دعاة الوطنية وينادون بقومية صهيونية ، تعمل لانشاء وطن قومي يؤسسه اليهود بمجهوداتهم العالمية ولا ينتظرون الملك السماوي الموعود من بيت داود ، لتأسيس الوطن المنشود بمعجزات السماء .

ونشطت هذه الحركة بزعامة هيس Hess الألماني وسمولنسكن Smolenskin اللتواني ، وكان هيس من دعاة الاشتراكية : يزعم أنه يريد وطناً يهودياً في فلسطين ، ليجعله نموذجاً للمجتمع الاشتراكي الذي تقتدي به مجتمعات العالم ، وتلك في رأيه هي رسالة إسرائيل .

هذان مذهبان منشقان في الحقيقة عن العقيدة الصهيونية الدينية ، أحدهما يلغي الفواصل بين اليهود وبين أمم العالم خلافاً لعقيدة الشعب المختار ، والآخر يجعل الصهيونية وطناً قائماً بغير العرش الموعود في بيت داود .

فلما صدر وعد بلفور وتغلبت الفكرة القومية على الفكرة الدينية وعلى الفكرة العالمية ، برز الدعاة القوميون في الميدان وأسكتوا من عداهم من أصحاب المذاهب بين اليهود ، وانتصروا على المعارضين ولا يزالون منتصرين عليهم بقوة النجاح الموقوت .

ولكنه نجاح لا يدوم .

بل هو في الواقع نجاح مشؤوم .

فاليهود الذين أوشكوا أن يحطموا الحواجز بينهم وبين أمم العالم قد عادوا بفعل ذلك النجاح المشؤوم إلى عزلة جديدة تنقلب مع الزمن شراً عليهم من عزلتهم الأولى .

وهؤلاء الذين نجحوا اليوم بإنشاء دويلة إسرائيل قد أثاروا في نفوس أبناء دينهم عصبية لا طاقة لهم باشباعها ، ولا طاقة لهم بالاستغناء عنهـا ، ولا مناص لها من الاصطدام بالواقع في زمن غير قريب .

هل في وسع إسرائيل أن تصبح وطناً لجميع اليهود المتفرقين في أنحـاء العالم ؟

هل في وسع اليهود أن يعيشوا في أنحاء العالم بعصبية قومية سافرة بين الأوطان التي يدينون لها بالولاء ؟

إذا كانت العزلة قد جرت عليهم عداوة الأمم في الماضي فهي لا تنجيهم من تلك العداوة بعد شيوع أمرها ، وانتباه الناس لمؤامرتها ودسائسها .

وإذا كان نجاح الصهيونيين في إنشاء الوطن القومي بفلسطين ـ قد نصرهم على معارضيهم من أبناء دينهم ، فلا غنى لهم عن دوام هذا النجاح لدوام هذا الانتصار..

ومن نقائض الدويلة الصهيونية أنها لا تنجح مع اضطهاد اليهود في العالم ولا تنجح إذا انتهى ذلك الاضطهاد وسلم اليهود من بلواه .

فالوطن الفلسطيني لا يتسع للهاربين من الاضطهاد جميعاً ، ولا يستطيع أن يغلق الأبواب في وجوههم كما تغلقها الأوطان الغربية ، وإلا سقطت كل دعواه .

أما إذا زال الاضطهاد فقد زالت الدعوى من جذورها ، وخمدت النار التي يلهبون بها الغيرة في صدور أبناء دينهم ، ويثيرون بها العطف عليهـم في صدور الغرباء .

إن هذه الحركة القومية لا بد أن تعيش لكي تتغلـب في المستقبـل علـى العقيدة الدينية ، وعلى مذاهب الاصلاح العالمية ، كما تغلبت عليهـا في هذه السنوات .

وقـد تعيش سنـوات معـدودات من المعونـة الخـارجية التـي يجـود بهـا الاستعمار ، أو يجود أبناء دينهم مؤمنين مقتنعين ، أو متورطين خاضـعين.

للتهديد .

ولكنها لن تعيش على المعونة الخارجية مدى السنين ، ولن تعيش طويلا إلا إذا قامت على قدميها واستقلت بمواردها ، وهذه هي النقيضة الكبرى التي تصير بها من نقيض إلى نقيض .

لن تعيش إسرائيل الا بصناعة ، ولن تعيش صناعتها إلا بخامات وأسواق ، والبضاعة الناشئة تحتاج إلى القصد الكبير في النفقات والتكاليف ، ولا سبيل إلى القصد الكبير في نفقاتها وتكاليفها مع الأجور العالية التي تفرضها أحزاب الصناع ، ولا تبالي أن تزيد بها على أجور المهندسين والأطباء وغيرهم من الفنيين الممتازين .

وتحتاج الصناعة الناشئة إلى الخامات الرخيصة وإلى الأسواق التي لا مزاحمة فيها .

فإذا لجأت إسرائيل إلى شراء الخامات من بلاد بعيدة زادت خسارتها على أرباحها ، وإذا أرسلت مصنوعاتها الى الأسواق البعيدة لم تجد من يشتريها بأثمانها الغالية ، مع اشتداد المزاحمة في تلك الأسواق .

لهذا تتهافت إسرائيل على مصالحة الأمم العربية ، وفك الحصار الذي تضربه تلك الأمم عليها ، ولا يكفيها أن ترغم الأمم العربية على مصالحتها وفتح أسواها لمصنوعاتها ، بل يلزمها أشد اللزوم أن ترغم العرب جميعاً على البقاء - مدى السنين - بغير صناعة تنافس الصناعة الصهيونية ، وتستأثر بالخامات لمعاملها وأبنائها ، وهذه هي النقيضة التي تضاف إلى غيرها من النقائض ولا تختمها على كثرتها .

ان نجاح اسرائيل نكبة على الصهيونية لانه نجاح مشؤوم ونجاح لا يدوم .

كان اليهود يشفقون من عزلتهم بين أمم العالم ، ويفكرون في تحطيم حواجزها ، وتقريب الفوارق بينهم وبين الأمم الانسانية على سنة الاخاء والروابط الوطنية في كل أمة ينتمون إليها .

فلما نجحت إسرائيل ، وأقامت لها وطناً قومياً في فلسطين - لم يكن

لنجاحها غير معنى واحد لا تسلم من جريرته ، وذلك هو العزلة الدائمة ، والعصبية التي تخضع العالم كله لدسائسها ومؤامراتها أبداً ، أو تخضع للعالم كله في النهاية خضوع المقهور .

وإن الصهيونية لتسير مع الزمن إذا كان الزمن يؤيدها في الانفصال الدائم من أمم العالم ، والسيادة الدائمة عليها ، والغفلة الدائمة في هذا العالم الذي تسوده وتتحداه .

فاذا ابى عليها الزمن ذلك ـ وسيأباه لا محالة ـ فنصيبها من أمسها الذي تفر منه أهون من نصيبها عند الغد المجهول ، بل الغد المعلوم .

١٩ ـ الصهيونية العالمية

مصيرهم في أعينهم

من المفيد ـ ونحن ننظر إلى مصير الصهيونية العالمية ـ أن نلم بأمثلة من نظرات الصهيونيين وأعوانهم إلى ذلك المصير .

ومن الأمور ذات المغزى أن البحث في هذا المصير متعاقب متواتر بعد الحرب العالمية الثانية ، فهم من صهيونيين وأعوان للصهيونيين متفقون على أن الوطن اليهودي في فلسطين لا يحل مشكلة الصهيونية ، وليس هو على اليقين بالحل الأخير .

وهؤلاء الصهيونيون عصابة عاملة لا يعوزها النشاط في نشر الدعوة ، واستدراج الأعوان والأنصار الى المشاركة فيها ، وهم على كثرة نشراتهم منذ الحرب العالمية لم يغيروا شيئاً في جملة الآراء التي يرونها في مصيرهم : يبدئون فيها ثم يعيدون ، كرة بعد كرة ، منذ الحرب العالمية الثانية ، الى إعلان قيام الدويلة الاسرائيلية ، إلى هذه الأيام التي يعلقون فيها أكبر الآمال على مصيرهم مع جيران فلسطين .

فتارة يؤلفون فيه الكتب ، وتارة ينشرون فيه الكراسات والفصول ، وتارة يستكتبون فيه المقالات من اليهود وغير اليهود ، ليوسعوا العناية به جهدهم ، ويجتذبوا إليه القراء الذين لا يقبلون على دعاية ينفرد بها دعاة صهيون .

إحدى هذه المجاميع اشتملت على ستة عشر رأياً بعنوان « مستقبل اليهود » واشترك فيها طائفة من المؤرخين والصحفيين وأساتذة الجامعات وأعضاء المجالس النيابية ، بعضهم من اليهود وبعضهم من المسيحيين ، ومنهم الألمان والانجليز والروسيون والبلجيكيون .

ولا يخفى أن أصحاب هذه الآراء من غير اليهود ـ قد استجابوا للرجاء والالحاح ، أو استجابوا لداعي المنفعة والهوى ممن يعنيهم جمع الآراء في هذا الموضوع .

وهذه أمثلة من نظرات الصهيونيين إلى مصيرهم نبدأ بها في هذا الفصل ، ونتبعها بفصل آخر عن آراء الأعوان والمجاملين من غير الصهيونيين .

أحد المساهمين في هذه المجموعة أستاذ روسي يسمى شتينبرج Steinberg عمل في تدريس الفلسفة بجامعة لنينجراد ، واشترك في تأليف الموسوعة اليهودية الكبرى التي تصدر في باريس ، ورأيه أن العداوة السامية لم تختف من روسيا بعد اختفاء القياصرة ، وأن الجيل الجديد من الناشئة الشيوعية يضمر الكراهية لليهود كما كان يضمرها آباؤهم المتدينون ، وأن الكاتب الروسي مكسيم جوركي قد يئس من إزالة هذه العداوة بتدبير الحكومة وسلطان الشريعة ، وأشار باصطناع الصبر في علاجها حتى تزول بالتربية والايحاء في برامج التعليم ، فإن السلاح القديم قد تثلم ولكنه لم ينكسر ، ولا يزال حاضراً في أيدي حامليه ، والقول الفصل عند شتينبرج في مصير اليهود : « إن الشعب اليهودي في أصل تكوينه هيئة عالمية أو دولية ، وأن ستالين قد أصاب حين استبعد حل المشكلة اليهودية في وطن واحد ، ولا غنى لها عن عدة أوطان » .

ومن كتاب هذه المجموعة ريجنالد سورنسن Sorensen عضو مجلس النواب الانجليزي عن دائرة ليتون الغربية ، ورأيه أنه « من الصواب أن تخصص أقاليم منعزلة في القارة الأوربية لاقامة اليهود فيها ، وأن هذه التجربة لم تفلح في روسيا ، وقد تخفق في غيرها . ولكنها جديرة بالتكرار حتى تنتظم شؤون الوصاية على الأقليات ، على نحو يضمن السلامة للأقليات اليهودية » .

ومن كتاب هذه المجموعة هايمان ليفي Hymen Levy أستاذ الرياضيات بجامعة لندن وغيرها من الجامعات البريطانية ، ورأيه أن فلسطين برمتها لا تعدو أن تكون أقلية صغيرة في قلب العالم العربي الكبير ، وأنه من الخطأ أن يتوهم أحد أن الوطن اليهودي في فلسطين ـ وهو لا يضم إلا القليل من

الشعب اليهودي كله ـ يحل المشكلة ويختتم البحث فيها ، ويستطرد فيقول : « ما من أحد ـ إلا أن يكون أعمى البصيرة ـ يخفى عليه أن الدور المقبل من أدوار التاريخ الانساني منتقل بالنظام الاقتصادي في الدنيا بأسرها إلى الاشتراكية الأممية ، وفي مثل هذا النظام تمحى القضية اليهودية كما يمحى الكابوس الثقيل . . وليس العقل السليم وحده بالذي يوحي إلى اليهود أن ينخرطوا في حركة التقدم الانساني الشامل ، بل يوحيه إليهم طلب السلامة والحرص على البقاء » .

ويبحث غير واحد من كتاب المجموعة في حل المشكلة برجعة اليهود المهاجرين من ألمانيا إلى أوطانهم الأولى بعد انهزام النازية ، ومن هؤلاء الباحثين « أوتوليهمان روسفلدت Otto Lehman Russfueldt المولود في ألمانيا والعضو في الجماعة التي تألفت فيها باسم « عصبة الحريات المدنية » . . وفحوى كلامه أن الرجعة إلى الوطن الألماني مستحبة بعد اتخاذ الحيطة لحماية اليهود من خطر الاضطهاد ، وتخويف الأمة الألمانية بالقصاص إذا تكرر ذلك الخطر على أيدي الحكومات التي تخلف حكومة النازيين قال : « إنني ـ وأنا ألماني ووطني عالمي ـ أنظر إلى الأثر الأدبي الذي نجم من عمل اليهود في الاسكندرية ايام الدولة الرومانية ، والأثر الأدبي الذي نجم بعد ذلك من عملهم في أسبانيا وهولندة ، وعلى مثال أوضح من ذلك في ألمانيا نفسها ، فيطيب لي أن أهنىء العائدين وغيرهم من اليهود المنتمين إلى الوطن العالمي من هذا الطراز إذا وجدوا سبيلهم إلى الديار الألمانية » .

والمصير كله معلق على مركز اليهودي بين الأمم في رأي الدكتور ليفي زلمانوفتز Levy Zelmanovitz ، أكبر زعماء الصهيونيين في بلاد التشك ، وسكرتير الحزب اليهودي في بلده ، ثم رئيس المجلس اليهودي في العاصمة الانكليزية منذ نشوب الحرب العالمية الثانية . فهذا الزعيم الصهيوني يقترح لحل مشكلة اليهود في اوروبا ان يتساوى اليهودي وغيره في جميع الحقوق السياسية ، وان تعتبر الطائفة اليهودية حيث كانت « اقلية » قومية تحميها منظمة الأمم المتحدة ، ويحق لها بطبيعة الحال أن ترجع الى تلك المنظمة لتحكم بينها وبين « الأكثرية » في وطنها كلما شجر بينهما خلاف على تطبيق

الحقوق .

ومتى تقرر لليهودي حق مساو لكل حق مفروض لغيره من أبناء الوطن الواحد ، وتقرر للطائفة اليهودية حق في تكوين الاقليات تحميه الدول الكبرى ، فقد هانت مشكلة اليهود في العالم ، وأصبحت قابلة للرقابة والاشراف .

وخلاصة هذا الحل أن شعوب العالم مطالبة بالغاء كل فارق بينها وبين اليهود ، ولكن اليهودي غير مطالب بإلغاء الفارق الذي يقيمه بينه وبين شعوب العالم ، وغير مطالب بالنزول عن عقيدة الشعب المختار الذي ميزه بها « يهوه » على شعوب العالمين أجمعين ، وأن دول العالم الكبرى التي تدير منظمات الأمم المتحدة مطالبة بالتدخل في شؤون الأوطان الداخلية لتمكن اليهود من الاحتفاظ بعزلتهم وامتيازهم في نظر أنفسهم ، وتحقيق الشكايات التي تدعيها « الأقليات » اليهودية ، وتنتظر الانصاف فيها من الدول الكبرى ، ووراء هذه الدول نفوذ الصهيونية العالمية كما هو معلوم .

ولم يكتم المؤلف الذي جمع هذه الآراء طبيعة المشكلة المعروضة على ذوي الآراء لحلها والنظر إلى مصيرها ، بل قال في المقدمة : « إن مسألة مصير اليهود عولجت في هذه الصفحات على القاعدة التي توجب إشراك اليهود إشراكاً تاماً في أوطان الشعوب المتحضرة وحلفاء الأمم المتحدة ، وهي لا تنحصر في عرض قضية الوطن القومي ، بل تجاوزه إلى احتمال إنشاء أوطان قومية أخرى غير فلسطين .

ثم قال في ختام المقدمة : « وسواء تعلق الأمل بأرض الموعد فلسطين أو بهيئة عالمية تتمثل فيها حقوق اليهود ويتقرر بها مركزهم فمستقبل اليهود بعيد من أن ينظر إليه كأنه مصير مبشر مأمول » .

والخلاصة في كلمتين أن هؤلاء القوم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون ـ لم يصنعوا بالوطن القومي في فلسطين إلا أنهم جروا بأيديهم عداوة حامية كانوا مستريحين منها ، وخلقوا للدول الكبرى مشكلة كانت في غنى عنها ، وعادوا مرة أخرى يبحثون عن أوطان ، ويحارون فيما ينتظرهم من مصير » .

٢٠ ـ مصير الصهيونية العالمية

في أعين أصدقائهم

لخصنا في الفصل الماضي أمثلة من نظرات الصهيونيين إلى مصيرهم كما بدا لهم منذ الحرب العالمية الثانية ، ومؤداها جميعاً أن مشكلة اليهود في العالم لا تحل باقامة الوطن القومي في فلسطين ، وأنهم ينظرون إلى أوطان أخرى في القارة الأوربية ، وإلى حلول أخرى لمشكلة اليهود الفردية في كل بلد من بلدان الحضارة .

ونلخص في هذا الحديث أمثلة من نظرات الأصدقاء المجاملين ، وهم رجال ونساء مشتغلون بالمسائل العامة ، سألهم الصهيونيون أن يصرحوا بآرائهم في مسألتهم ، فصرحوا بها على مناهج شتى : من مجاملة النفاق ، أو مجاملة التحفظ والاعتدال .

فمنهم من كان كالمعزّي الذي أراد أن يسبق أهل الميت في العويل والصياح ، فكان في آماله لأصدقائه صهيونياً أكثر من الصهيونيين .

ومنهم من تذكر أمانة الفكر وتبعة النصيحة العامة ، فقال ما لا يغضب الحقيقة .

ومنهم من لجأ إلى روغان كروغان الساسة ، فجاء بكلام لا يربط قائله ، ولا يمنعه أن يفسره بما يشاء .

فمن المجاملين الذين سبقوا أهل الميت في العويل والصياح كاميل هويسمان Camille Huysmans الفلمنكي ، الذي كان أستاذاً بجامعة بروكسل ، ووزيراً للعلوم والفنون ، ورئيساً لمجلس النواب ، فهذا المجامل الذي جاوز حدود دوره على المسرح حماسة وغيرة ـ يقول : إن

حل قضية العرب لا يتوقف على العرب ، بل يتوقف على البريطان والأمريكيين ، وعلى اليهود . ويخيل إليه أنه يقسم الأرزاق للشعوب باسم هؤلاء الذين يتوقف عليهم مصير العرب ، فيقول : إن العرب على كل حال لا يحق لهم الشكوى من نصيبهم في الدنيا . . لأنه على وفاق هذا الرأي نصيب قد ارتضاه لهم البريطان والأمريكيون واليهود ويمضي فيقول : إن الصهيونية تستند إلى الضرورة ، وإلى السلطان النافذ ، وإلى المنطق ، ويؤيدها نصير أوربي من غير أهلها أراد أن ينفذ إلى لبابها ، وقد نظرت إلى الصهيونية بعين وطني فلمنكي يعيش في بلاد البلجيك وربما استطعت من اجل هذا أن أفهمها بهذه السهولة ، وقد اضطر البلجيكيون أيضاً إلى النضال لخلق دولتهم وتقرير مركزها ، وثابروا على النضال عدة قرون إلى سنة ١٨٣٠ ، ثم ثابر الفلمنكيون ـ وهم على الأقل نصف السكان ـ على نضالهم للاعتراف بحقوقهم الثقافية ، فبلغوا به الغاية الموفقة من تجاوز العنصرين واللغتين .

وعند هذا المؤرخ العلامة أن قضية العرب واليهود في فلسطين تشبه قضية البلجيكيين والفلمنكيين ، وأن إقامة دولة يهودية في محيط الكمنولث البريطاني ضمان لسلم الصهيونية ، وسلم القارة الأوربية ، وحاجز أمان الى جوار قناة السويس .

ومن المجاملين المعتدلين كاتب من محبي السلام ، منحته لجنة نوبل جائزتها سنة ١٩٣٣ ، وهو نورمان أنجل Angell صاحب كتاب « الوهم الأعظم » المشهور بالدعوة إلى الاخاء ، واحترام الحياة الروحية التي أوشكت أن تفقد احترامها في العصر الحديث .

فهذا الكاتب يترك مسألة الوطن القومي في فلسطين جانباً ، ويوجه التفاته كله إلى مسألة الهجرة ، وتيسيرها للمضطهدين من اليهود ومن الشعوب الأخرى التي تضيق بها أوطانها بين الكثرة المتغلبة عليها ، ويشير الكاتب إلى المستعمرات البريطانية التي تتقبل الوافدين إليها من الخارج ، ولكنها تقيد الهجرة بقيود ثقيلة تكاد أن تمنعها ، فيقول : إن المستعمرات حكومات مستقلة بشؤونها الداخلية ، ولكننا في انجلترا نستطيع أن نتقدمها بالقدوة

الصالحة ، فتعدل عن بعض تلك القيود ، ولا تقدم على العدول إذا استفادت من جهود المهاجرين إليها .

وتوماس مان كاتب آخر من حملة جائزة نوبل ، ومن المتصدرين بين جماعات الدعوة إلى السلام والاجتماع على التسليم ، وأصله من سلالة يهودية ألمانية ، ولكنه يتجنب الاندفاع في التعصب لقومه ، ويحاول أن يصبغ عليهم صبغة العطف على الضعفاء المضطهدين من كل ملة . ومقالته في هذه المجموعة تخلو من ذكر الوطن القومي في فلسطين ، وتدور بالأمل كله في مدار الهجرة الميسرة ، والتسوية بين اليهودي وغيره في حقوق الوطن والوظائف السياسية ، وإذا تعرض لبقاء الصهيونية قال إنها ستبقى في المستقبل لا كما بقيت في الماضي ، وإن مصائب التشريد والاضطهاد لا تدوم على حالة واحدة ثم يختم كلامه عن الهجرة بملاحظة عملية يحث بها الأمم الديمقراطية على تقدير الظروف الاستثنائية في تطبيق قوانين الهجرة ، لأن هذه القوانين لا تقدر في الوقت الحاضر أحوال الاضطهاد التي تسوق المئات والألوف إلى مغادرة أوطانهم في آونة واحدة . ثم يقول : عسى أن يفيض المعنيون بمصير اليهود بموجات من العطف والغضب والثبات على المعونة تبلغ إلى السفاحين الذين يزهقون الحقوق والفضائل الانسانية فيخيفهم ، ويكون لها فوق ذلك أثرها الفعال في حث القادرين على المساعدة وتخفيف الآلام .

ومن الذين كتبوا بلغة السياسة في هذه المسألة سيدة انجليزية اشتهرت في حركة المطالبة بحق المرأة في الانتخاب والنيابة ، وهي السيدة كوربت آشبي Corbett Ashby التي نابت عن بريطانيا العظمى بين سنتي ١٩٣١و١٩٣٥ في مؤتمر نزع السلاح ، وقد أيدت الدعوة الصهيونية كل التأييد كأنها ملاذ « احتياطي » لمن يضطرون إلى الهجرة من أوطانهم ، وأتبعت ذلك بالتحفظ السياسي الذي تؤكد فيه ضرورة إنصاف العرب إذا أريد منهم أن يتقبلوا الوطن الصهيوني طواعية بحسن نية وبغير إكراه أو مخادعة ، وأن ينال العربي جميع الحقوق التي ينالها اليهودي في الدولة الصهيونية .

ويشبه السيدة آشبي في لهجتها السياسية إدوارد هلتون Hulton مؤسس

البكشر بوست Picture Post وغيرها من الصحف العصرية ، وهو لا يدين بمذهب حزب من الأحزاب ولا يتقيد بخطة معينة في السياسة البريطانية ، وقد ذكر في مقدمة كلامه أن المسلمين تسامحوا في معاملة اليهود خلال القرون الوسطى ، وأن اليهود يتعرضون للنفور والجفاء لعزلتهم الدينية والقومية ، وأن عداوة الساميين موجودة اليوم في البلاد الانجليزية ، وتزداد بعد الحرب العالمية ، ولكنها قد تهدأ بعد هزيمة النازيين ، وتبطل الفائدة منها كلما استغنى الحكام المستبدون عن هدف يحولون إليه حماسة الجماهير ، ويثيرون به شعور البغضاء الذي يعتمدون عليه في التقرب إلى رعاياهم المخدوعين ثم انتهى قائلا : وبعد كل هذا ينبغي أن نعلم أن العرب موجودون في فلسطين ، وأنها واقعة لا تبطل بالجدل والمناقشة ، ومن المشكوك فيه أن يتحقق انصاف قوم باغتصاب آخرين ولا سيما القوم الذين هم طرف ثالث في المشكلة ، ولا ذنب لهم فيما وقع على اليهود من إجحاف .

***

هذه أمثلة من نظرات الأصدقاء المجاملين الى مصير الصهيونية ، تكاد في جملتها أن تنتهي بنا إلى نتيجة واضحة لا تختلف باختلاف الباحثين ما داموا من الباحثين المسؤولين الذين يدركون تبعاتهم ، ويحاسبون أنفسهم على آرائهم . فما لم يكن الكاتب مأجوراً رخيص الضمير فهو شديد التحفظ في مؤازرة الصهيونية ، ومجاراتها على شهوات العصبية التي تزين لها الهيام الأحمق باغتصاب فلسطين ، واعتبار المقام فيها باسم الوطن القومي ـ حلا لمشكلة اليهود ، يحسم المشكلة ، ويريح الأمم والحكومات من هوس الصهيونيين وأخطارهم التي يجرونها على أنفسهم وعلى سائر الشعوب .

وإذا كانت الدويلة الصهيونية تأتي بنكبات جديدة ، ولا تدفع نكبة واحدة ـ فالمشكلة باقية ما بقيت الصهيونية العالمية ، وسلامة العالم أن تقلع الصهيونية العالمية عن هوسها ، وأن يقلع المؤيدون لها عن تشجيع ذلك الهوس الوبيل ، فإنه لا دوام له مع انقطاع التشجيع والتأييد ، وانكشاف السر « العالمي » في عصر لا تحتجب فيه هذه الأسرار .

٢١ ـ مصير الصهيونية العالمية

ومقاطعة العرب

إذا كان هناك شيء يتفق عليه العرب والصهيونيون ، ويتفق عليه من يكتبون لمصلحة القضية العربية ومن يكتبون لمصلحة الصهيونية ـ فذلك هو الحقيقة التي تبدو لأول نظرة ثم تبدو مؤكدة مرددة بعد مائة نظرة : أن اسرائيل لا تحتمل البقاء مع مقاطعة العرب لها ، فإذا قاطعها العرب وثابروا على مقاطعتها فليس في الأرض قوة تنصرها عليهم ، وليس بالعرب من حاجة إلى سلاح يدفعون به خطرها أمضى من هذا السلاح .

إن الحقائق البينة التي يجترىء الصهيونيون على إنكارها كثيرة لا تحصى إلا هذه الحقيقة التي لا تقبل المراء والمغالطة ، فإنهم يسلمونها ويعلنونها ، ويسلمها معهم أناس يبحثون قضية فلسطين بحث العالم المجرد عن الهوى ، وأناس لا يفوهون بحرف في هذه القضية إلا لخدمة إسرائيل أو خدمة صهيون .

نشرت مجلة الشرق الأدنى في عدد الخريف سنة ١٩٥٤ بحثاً مفصلا بعنوان « اقتصاد إسرائيل المشوه » ذكرت فيه العوائق التي تشوه هذا الاقتصاد أو تمزقه فقالت : (أولا) مقاطعة العرب ، ومنها إغلاق قناة السويس ، فإنها تحرمها مورداً رخيصاً من موارد الخامات وسوقاً سهلة لتصريف البضائع المصنوعة ، و(ثانياً) اضطرارها إلى إبقاء جيش قائم وإلى تقرير التجنيد العام مما يكلفها نصف موارد الميزانية العادية ، و(ثالثاً) قطع أنابيب البترول من العراق إلى حيفا ، وهو أمر لا يقصر عمل المصنع الخاص بالتكرير على خمس طاقته وكفى ، بل يضطر إسرائيل إلى دفع عملة أجنبية ثمناً للبترول بلغت في سنة ١٩٥٣ نحو خمسة وأربعين مليون ريال ، وكان

في ميسورها ـ لولا المقاطعة ـ أن تشتريه بالعملة الوطنية .

وكتب خبير عسكري في الديلي تلغراف ـ هو الجنرال هـ . ج مارتن H. G. Martin فقال : « إن إسرائيل مضطرة إلى الاستعداد ببارودها الجاف في كل وقت »ـ وهو تعبير يراد به الاستعداد لتجريد السلاح بغير إمهال ، فإن حدودها تبلغ ستمائة ميل ، وليس لها عمق كبير لانها تضيق حتى تنقص عن سبعة أميال ، وتتسع فلا تزيد على عشرين ميلا .

ولهذا تنوء بأعباء التجنيد العام ، وتفرض الجندية سواء على الرجال والنساء من سن مبكرة ، تبتدىء في فرق الشباب في الرابعة عشرة ، ونظامها الزراعي نفسه قائم على هذه الضرورة الحربية ، لأن الخلايا الزراعية الموزعة على الحدود ، أو بجوارها ـ لا بد أن تقوم في الوقت نفسه بأعمال الاستطلاع وأعمال الطلائع كأنها في الميدان .

وفي حديث جرى بين مندوب نيوزويك Neusweek الأمريكية في شهر مايو سنة ١٩٥٤ صرح وزراء إسرائيل بالخسائر التي توقعها بهم مقاطعة العرب ، وقالوا : إنهم يضطرون إلى جلب البترول من فنزويلا في أمريكا ، وإن خسارة البترول وحدها تكلفهم أربعين مليون ريال ، وهو مقدار يساوي الاعانة التي حصلوا عليها هذه السنة من الولايات المتحدة . . . ومضت الصحيفة فقالت : « إن مقاطعة العرب قد تعرض إسرائيل لنكبة جديدة غير نكباتها الماضية ، فربما تدفق على أرضها نحو خمسمائة ألف من يهود مراكش والجزائر وتونس الذين يحسون بوطأة المقاطعة العربية في تلك البلاد . » .

فالحقيقة التي تواجه الصهيونية في مقاطعة العرب أشد عليهم وأوضح أمامهم وأمام غيرهم من أن يكتموها وأن يغالطوا أنفسهم فيها .

ولكن العلة الأصيلة في إسرائيل أنها مخلوق متناقض ، يعتمد في بقائه على النقيضين ، فهو يعادي العرب ، ويقتحم عليهم ديارهم ، ويستغل مواردهم . . ثم يطمع منهم في المعونة التي يقدمونها بأيديهم لتمكينهم من الاقتحام والاستغلال .

وقد تبلغ القحة والصفاقة بهم وبأنصارهم أن يصرحوا بالأمرين في وقت واحد . فمن أعجب ما قرأناه ، بل من أعجب ما يروى على طول الزمن ، أن يقول قائل منهم : إن إسرائيل حربة طاعنة في جنب العالم الاسلامي ، ثم يعود فيقول : إن الأمل معقود بأن تعيش إسرائيل بين العرب معيشة الجيران والعشراء .

قبل عامين أوفدت « السنداي تيمس » مندوباً يسمى تريفور روبر T.Roper ليدرس أحوال إسرائيل ، ويكتب لها عن موقفها ومصيرها كما يشير إليه ذلك الموقف ، فقال في عدد الرابع من شهر أبريل : « إن إسرائيل واغلة في قلب العالم الاسلامي وإنها تلوح لهذا العالم الاسلامي كرأس الحربة الممتدة من حضارة أجنبية مهددة ، وقد تكون فاتحة متوسعة » ، ثم يقول : « إن الفاتحين السابقين قد فرضوا على العرب طبقة حاكمة موقوتة ، أما اليهود فانهم بهجرتهم جماعات جماعات قد أصبحوا مجتمعاً كاملا لا يبقى إلى جانبه موضعاً لسكان آخرين » .

يقول هذا في عدد الرابع من أبريل ، ثم يقول في العدد الذي يليه - أي عدد الحادي عشر من أبريل - إن هذه الحربة في جنب العالم الاسلامي قد تعيش في جوفه معيشة الجيران فتقوى على البقاء والتعمير .

وقال : « إنه لا مناص لاسرائيل مع مقاطعة العرب في الوقت الحاضر من البحث عن أسواق بعيدة ، تبيع فيها حاصلاتها ومصنوعاتها . ولكن هذه المقاطعة إذا انتهت وقبلت الحكومات العربية حكومة إسرائيل لتعيش إلى جانبها معيشة الجيران - فيومئذ تنظر فترى إسرائيل كأنها بلجيكا أخرى أو كأنها ألستر أخرى في المشرق . . » .

وعلينا نحن العرب الطيبين الذين يقبلون الحربة جاراً مقيما في أبدانهم ، أن نفهم ماذا يعني هذا الصهيوني الأريب بالمثل الذي ضربه عن بلجيكا أو عن ألستر دون غيرهما من البلدان .

فبلجيكا حربة في جنب ألمانيا ، وألستر حربة في جنب أيرلندة ، وكلتاهما تقيم في مكانها لأن العدو ملاصق لحدودها .

ومن العدو هنا غير الأمم العربية ؟ ومن المطلوب منه أن يثبت هذه الحربة في جنبه غير الأمم العربية ؟ ومن الذي يقبل هذه الغفلة في ظن هذا الصهيوني وأمثاله غير الأمم العربية ؟

إن غفلة الأمم العربية وخيانتها لنفسها مطلوبتان لراحة إسرائيل وتخفيف متاعبها . فلم لا تتغفل الأمم العربية نفسها باختيارها أو على الرغم منها ؟ ولم لا تخون قضيتها وتبيع حاضرها ومستقبلها إذا كان ذلك لازماً لراحة إسرائيل ، وتخفيف المتاعب عن إسرائيل ؟
عجب لا مثيل له في العجب .

وأقوال تقال ولا يدري قائلوها أن العربي لن يعقل منها غير معنى واحد أوضح امامه من الشمس في ضحاها ، فلولا عداوة جهنمية ـ والعياذ بالله ـ لهذه الأمم العربية لما خطر لهؤلاء الناس أن اللفظ الذي يهذرون به كلام يقال ويجوز على العقول .
إن الأمم العربية يطلب منها أن تعجز باختيارها عن مقاومة إسرائيل في ميدان المعاملات ، ويطلب منها أن تنظر إلى الخنجر في يد صهيون فتفتح له صدرها ، أو تأخذه من يدها لتغمده في تلك الصدور الخاوية .

وكل هذه الأعاجيب التي لا تخطر على البال لو لم تنظر بالأعين وتسمع بالآذان ، إنما هي في الواقع من أعاجيب هذا المخلوق المشوه المتناقض المسمى إسرائيل ، فإن بقاءه يتوقف على النقيضين ، ولا بقاء لمخلوق يقوم على نقيضين ، فهو عدو العرب ومصيره بأيدي العرب ، ولا حيلة للعرب في الأمر لأنهم مخيرون بين مقاطعة هذا العدو ، وبين إحيائه بالوسيلة التي لا حياة لها بغيرها ، وهي استغلال البلاد العربية وتوطينها النفس على البقاء إلى الأبد رهينة بذلك الاستغلال ، فإنها لا يكفي منها لابقاء إسرائيل أن ترفع الحصار عنها ، بل يجب على كل أمة عربية بعد ذلك أن تظل مفتقرة إلى الصناعة لتشتري من إسرائيل ولا تشترى من صناعتها ، وأن تظل رخيصة الخامات لتأخذ منها إسرائيل ما تأخذه بالثمن البخس الذي تجود به عليها ، ونكاد نقول : إنّ العرب لو أرادوا ذلك لما استطاعوا ، ولهذا ينكشف المصير المحتوم أمام الصهيونية في إسرائيل ، مصير يتوقف على المستحيل .

٢٢ ـ الاستعمار الصهيوني

حديثنا هنا عن الصهيونية المستعمرة .

واليهودية كلها لم تقم لها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرنا ، فلم تكن قط في عداد المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها ، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستتر وراءه ، وتمهّد له ، وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب .

ولكنها دخلت في عداد المستعمرين منذ ابتليت فلسطين بتلك العصابة التي تسمى دولة إسرائيل ، فلا وجود لها ـ ولا يتأتى أن تبقى في الوجود ـ إلا إذا عاشت على استغلال الشعوب من حولها ،. وليس من حولها شعوب تطمع في استغلالها غير الشعوب العربية .

إننا نسمع عن التوازن بين إسرائيل والعرب ، ونعلم أن هذا التوازن يقضي بحرمان العرب من كل قوة حربية تزيد على قوة إسرائيل ، أي يقضي بحرمان خمسين مليونا أن تزيد قوتهم على قوة مليونين اثنين على أكبر تقدير .

وإذا تساوى العرب وإسرائيل في القوة الحربية ـ فمعنى ذلك أن إسرائيل أقوى من العرب جميعاً . لأنها تتصرف في قوة واحدة بارادة واحدة ، ولها بذلك فرصة أسرع على الأقل من فرص العرب مجتمعين .

لكن الواقع أن الموازنة الحربية ليست كل ما هنالك ، وأن الموازنة الحربية لا تهم إسرائيل بمقدار ما تهمها القوة الصناعية والاقتصادية ، وهي التي تجعلها قوة مستعمرة أخطر من جميع المستعمرين ، لأنها لا تعيش بغير الاستعمار ، ولا تجد لها مجالا للاستعمار غير البلاد العربية .

إن الموازنة الحربية لا تهم إسرائيل ، ولا تعتقد هي أن بقاءها متوقف عليها . لأن في العالم أمما كثيرة لم تعتمد على الأسلحة الحربية في البقاء ، وإسرائيل بضفة خاصة تعتقد أن الذين خلقوها سيبادرون إلى نصرتها ومعونتها إذا تعرضت للهزيمة في ميدان القتال ، وقد تعرضت لها قبل بضع سنوات فلم تنج من الهزيمة بفضل سلاحها وجندها ، بل بفضل الدولة المتألبة لحمايتها وخذلان العرب في ميدان القتال ، وفي ميدان السياسة .

فالموازنة الحربية بين إسرائيل والعرب معناها رجحان إسرائيل على العرب مجتمعين ـ ولكنها ـ أي الموازنة الحربية ـ مع ذلك لا تهم إسرائيل كما تهمها قوة الصناعة والاقتصاد ، لأنها تعيش بغير موازنة في السلاح ، ولن تعيش بمواردها زمنا طويلا إلا إذا تفوقت على العرب في ميادين الصناعة والاقتصاد .

إن إسرائيل لن تعيش الا بوسيلة من وسيلتين : فإما أن تظل عالة على التبرعات والمعونة الخارجية بغير انقطاع ، ولا تستطيع دولة أن تعتمد على هذا المورد في تدبير وسائل البقاء الطويل .

والوسيلة الاخرى أن تعيش بمواردها في صناعتها ومرافقها التجارية والاقتصادية ، وليس في استطاعتها ان تعيش بمواردها الصناعية وثروتها الاقتصادية حين يتقدم العرب في الصناعة ، وحين تصبح لهم تجارة تناسب هذا التقدم في إخراج المصنوعات .

إذا عاشت إسرائيل فلا بد لها من الحصول على مواد الخامات بأثمان رخيصة ، وهي لا تحصل على هذه المواد بالثمن الذي تقدر عليه حين تتقدم الصناعة في البلاد العربية ، وحين تصبح مساوية للصناعة الكبرى أو الصناعة الصغرى في إسرائيل . فإن الأمة العربية التي تتقدم في صناعتها تستفيد بخاماتها ، ولا تفرط فيها ليأخذها المنافسون لها في إخراج المصنوعات وبيع السلع ورخص الأثمان .

وإذا أرادت إسرائيل أن تعيش بمصنوعاتها فلا غنى لها عن بيعها في الأسواق القريبة منها .

وإنها إذا أرسلتها ألى الأسواق البعيدة تضاعف ثمنها وعجزت عن منافسة الصناعة الأوربية والأمريكية .

إما إذا أرسلتها إلى الأسواق القريبة فهي أسواق البلاد العربية ، وهي لن تضمن الرواج في هذه الأسواق إلا إذا كانت تلك البلاد العربية بغير صناعة وبغير مصنوعات .

فتعجيز البلاد العربية ـ إلى الأبد ـ شرط لازم لبقاء إسرائيل معتمدة على مواردها ، غير معتمدة إلى غير نهاية على صدقات المتبرعين ومعونة الحماة والنصراء من الدول الاجنبية .

ينبغي أن تظل البلاد العربية عاجزة عن التقدم الصناعي ، فريسة للمستغلين من الصهيونيين ، لتعيش إسرائيل بثروتها وموارد صناعتها .

ينبغي أن يضرب الحجر الأبدي على بلاد العرب ، فلا تكون لها قوة تزيد على قوة إسرائيل في ميدان القتال ، ولا تكون لها صناعة تعول عليها وتستغني بها عن الصناعة الصهيونية في أيام السلام .

ولا حاجة إلى كشف الأسرار ولا هدم الجدار للنفاذ إلى ما وراءه من الأغراض والأوطار .

فالمسألة بديهية ملموسة لا يختلف فيها قولان ، ولا تقبل التصديق إن اختلف فيها المكابرون والمغالطون .

إذا كان رجحان الصهيونيين في عدة الحرب واجباً متفقاً عليه ، وخطة مقررة في عرف حماة الصهيونية ـ فليس من المعقول أن يسمح للعرب بالرجحان في عدة الصناعة وموارد الثروة والمال ، ولا حاجة إلى قراءة الضمائر الخفية للعلم بالمقاصد المبيتة لبلاد العرب جمعاء ، فلن تقف تلك المقاصد دون تعجيز العرب في ميدان الحياة العصرية ، وتقييد نهضاتهم وبرامج الاصلاح في اوطانهم ـ كلما عملوا على تدبير ثروتهم ، وتوفير مصنوعاتهم ، والانتفاع بخاماتهم ، والاستغناء بها عن السادة المتحكمين ، او السادة المستغلين في اسرائيل .

وهذه هي الصهيونية المستعمرة .

وهذا هو الاستعمار الصهيوني الذي لا يدانيه في الخطر استعمار قديم ولا حديث ، لأنه يوصد طريق التقدم ـ من جميع جهاته ـ أمام خمسين مليونا ليستغلهم مليونان ، ولا ينتهي هذا الاستغلال بعد حين قصير أو طويل ، بل يزداد ويتفاقم مع الزمن ، وتتواطأ عليه القوى البارزة والمستترة ، ممن يسمون هذا المسخ الأبدي توازناً في الاستعداد والعدة بين العالم العربي وعصابة صهيون .

ومن خفي عليه الأمر في مبدئه ، فقد برح الخفاء أمام عينيه عاماً بعد عام ، فلا عذر له إن لم يفهم معنى وجود إسرائيل ، وعاقبة وجودها بين العرب على تعاقب الأعوام .

إنها لم توجد لتعيش بمواردها .

إنها لم توجد لتعتمد على نفسها .

ولكنها وجدت لتخنق الحياة العربية من حولها ، وتتقدم وحدها بصناعتها بين بلاد لا صناعة لها ، ولا فائدة لها في العالم الانساني غير امتصاص دمها لإحياء بنية طفيلية شاذة ، تعطيها من فضلات الرزق ما تجود به عليها ، كي تستبقي في عروقها بقية من الدم تمتصه وتعيش عليه .

موازنة في السلاح . .

كلا ! لا موازنة في السلاح إذا تساوت إسرائيل وبلاد العرب في القوة الحربية ، لأن إسرائيل تملك فرصتها منفردة بمشيئتها ، وليست قوة في يد واحدة كقوة موزعة بين الأيدي ، وإن تكن على أتم وفاق .

إلا أن الخطب هين في هذه الموازنة بالقياس إلى موازنة أخرى أهمّ وألزم لاسرائيل من موازنة السلاح .

إن تعجيز العرب أجمعين عن مجاراة إسرائيل وحدها في ميدان الصناعة والتقدم أفدح خطوب الاستعمار منذ وجد الاستعمار . وهذا هو استعمار الصهيونية الذي يراد ، ولا يستتر فيه المراد .
وإن ربك لبالمرصاد .

٢٣ ـ الصهيونية والمستقبل

تترجح دويلة إسرائيل بين الكفتين : كفة التمكن والبقاء وكفة التداعي والفناء . وفي كل من الكفتين عواملها وأسبابها . ولكن عاملا واحداً إذا بقي في كفة التداعي والفناء كانت له الغلبة في النهاية لا محالة ، وهو عامل المقاومة العربية . أول عوامل التمكن والبقاء هو العامل الطبيعي الذي يسيطر على كل حي في هذا العالم وهو حب البقاء . فالدويلة الصهيونية تحب أن تبقى وتتوسل إلى البقاء بكل وسيلة في مقدورها وميسورها ، ومنها وسائل العلم والصناعة ونشر الدعوة في العالم الخارجي ، ومنها معونة الدول الكبرى بالمال والسلاح . وفي سبيل البقاء تعمل هذه الدويلة على ري صحراء النقب ، ونشر المحلات الزراعية التي ظاهرها حرث وغرث وحصاد ، وباطنها حصون ومعاقل استطلاع . وفي سبيل البقاء تستعد بقوة عسكرية أكبر من كل قوة في الأمم الأخرى بالنسبة إلى عدد سكانها ، ولكن هذه العوامل كلها تقابلها على الكفة الأخرى عوامل مثلها وأشد منها ، وهي عوامل طبيعية غير مصطنعة كمعظم العوامل التي تساعد على بقاء إسرائيل .

إن ثروة إسرائيل مثقلة بالتفاوت الكبير بين صادراتها ووارداتها . . فوارداتها خمسة أضعاف صادراتها ، وما دامت المقاومة العربية محيطة بها من جميع جوانبها فهي مضطرة إلى جلب الخامات من بلاد بعيدة ، وارسال المصنوعات إلى أسواق بعيدة لا تستطيع المزاحمة بتكاليف صناعتها الغالية . ويضاعف هذه التكاليف الصناعية أن جماعة « هستدروت » تصر على رفع الأجور ، حتى بلغ أجر العامل في إسرائيل ضعف اجره في البلاد الانجليزية ، ونجمت من ذلك مشكلة داخلية بين العمال المتفرنجين والعمال الشرقيين الذين يقنعون بالأجور المعتدلة ، فإن جماعة

« هسندروت » تسعى إلى تقييد الهجرة إلى إسرائيل من البلاد الشرقية منعاً لهذه المزاحمة ، وقد أصبح العمل في الدويلة الصهيونية شبه احتكار للمتفرنجين المترفعين عن إخوانهم في الدين ، وهم يزدادون تشبثاً باحتكارهم كلما أحسوا بانفرادهم في الميدان ، لأن عدد المهاجرين من إسرائيل إلى خارجها يكاد يساوي في الوقت الحاضر عدد المهاجرين من خارج إسرائيل إليها . وقد كانت الزراعة فيما مضى معهودة إلى طوائف الكبوتيين ، وهي طوائف اشتراكية تملك الأرض وتزرعها بالاشتراك بينها في العمل والمعيشة ، فلما فترت الدفعة الأولى من دفعات الحماسة والعصبية قل الاقبال على الملكية المشتركة ، وغلبت عليها طوائف الموشوية ، او طوائف الملكية الفردية ، وبين الفريقين اليوم من التنافس والتناظر ما ينذر الزراعة بأزمة الصناعة ، أو أعسر وأبقى .

ولا ننس الباعث النفساني الذي كان يسوق اليهود إلى فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد كان باعثاً فعالا يغذيه الأمل من جهة ، ويغذيه الاضطهاد من جهة أخرى ، فلما فتر الأمل وزال اضطهاد النازية والفاشية - ضعف الباعث النفساني الذي كان يوماً من الأيام (رأس مال) الحركة كلها ، وأصبح الصهيونيون يستغيثون بأبناء ملتهم ليعودوا إلى تلك الحماسة ، ويتساندوا على التضحية في سبيل القضية العظمى ، فلا يسمعون لهذه الاستغاثة صداها الذي تعودوه ، لأن الحماسة المصطنعة لن تغني غناء الحماسة المطبوعة بغير كلفة او تدبير . وقد تقدم أن الاستعداد الحربي في إسرائيل أقوى من كل استعداد في الأمم الأخرى بالنسبة إلى عدد سكانها ، وهذه ضرورة لا محيد لها عنها ، وعبء فادح لا يتأتى لها أن تخفف منه ما دامت البلاد العربية تقاومها وتقاطعها ، فإن حدودها البرية تزيد عن ستمائة ميل لا بد لها من الحراسة الدائمة وخطوط الدفاع المستمرة ، ومهما تصنع من ضروب الحيطة فالأعباء أكبر من الطاقة ، وهي اليوم أعباء تكلفها الكثير وتلجئها إلى نظام من التجنيد ثقيل الوطأة على مواردها البشرية والاقتصادية . فمن الرابعة عشرة ينتظم الذكور في فرقة الشباب إلى الثامنة عشرة ثم يدعى الذكور والاناث في الثامنة عشرة إلى التجنيد للخدمة العامة ، ومنها الخدمة في الطيران ، ويظل النساء بعد انتهاء الخدمة العامة أربع عشرة سنة رديفاً

تحت الطلب ، وتتضاعف هذه المدة بالنسبة للذكور ، فيدعون خلالها شهراً كل سنة للتدريب .

هذا الاستعداد فيه من عوامل الضعف بمقدار ما فيه من عوامل القوة ، وإذا انهزم جيش كهذا في القتال فهي هزيمة الأمة كلها وفناؤها بالعدد والعدة ، وهي نكبة لا يتعرض العرب لمثلها ، لأنهم يزيدون على أربعين مليونا .

ويستطيعون أن يخصصوا للتجنيد جيشاً في عدة إسرائيل كلها برجالها ونسائها وأطفالها ، ثم يخلفوه بغيره وبغيره دون أن يستنفدوا ما عندهم من وسائل المقاومة والثبات .

إن التناقض يضرب بمعوله في كيان إسرائيل من أساسه ، فإنها قد أنشئت لتكون وطناً قومياً لليهود ، فهل هي كذلك الآن ؟ وكيف يمكن أن تكون وطنا قوميا لهم بأي معنى من معاني الوطنية ؟

إنها لا تسع يهود العالم ، ولا يهود العالم يرغبون جميعاً في الانتقال إليها . قد صدف عنها من رحلوا إليها ، وتبين للكثيرين منهم أن مقامهم في الديار الأجنبية أنفع لهم من محاولتهم العقيمة في البلاد التي يزعمون أنها وطنهم المختار . وإذا طال بإسرائيل عمرها وجاء اليوم الذي يتكرر فيه اضطهاد النازية والفاشية فليس من البعيد ان تصد اسرائيل سيول الهجرة اليها كما تصدها الامم الاخرى ، لانها لا تستطيع ان تؤويهم ، بل لا تريد إيواءهم باختيارها ، سواء قصدوا اليها للاقامة الدائمة او للاقامة الموقوتة .

ومع هذا التناقض صعوبات أخرى ، لم يتغلب عليها اليهود قط ولن يتغلبوا عليها ، وهي الصعوبات التي تخلقها بينهم شكاستهم المعهودة منذ كانوا قبل أربعة آلاف سنة في جزيرة العرب ، إلى أن أخرجتهم شكاستهم منها ، ثم أخرجتهم من العراق ، ثم أخرجتهم من كنعان ، ثم أخرجتهم من مصر ، ثم أخرجتهم من فلسطين ، ثم عرضتهم للعدوان والبغضاء في كل وطن وبين كل أمة . ولولا أن الخطب في المرحلة الأخيرة أكبر من طاقتهم - لظهرت شكاستهم هذه على عادتها بين طوائفهم المختلفة التي برزت حتى الآن في الدويلة الصغيرة ، وعندهم منها حزب الرجعة وحزب الفرنجة ، وعندهم منها الماليون والشيوعيون ، والشرقيون والغربيون ، وفي وسعهم -

على الرغم منهم ـ أن يخلقوا للشكاسة أسبابا لا تخطر على بالهم ولا على بال أحد . فلن يزالوا كما وصفهم القرآن الكريم مع حلفائهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » لأنهم لا يعقلون .

وتعود بنا صفتهم بأنهم لا يعقلون إلى وهم شاع عنهم بين من يعتقدون أنهم شعب ممتاز بالذكاء والنبوغ ، وقد عرضنا لهذا الوهم مرة ، ورجعنا إلى حقيقته فكانت الحقيقة أنهم عالة على ثقافات الأمم . فإن فضل كل أمة راجع إلى ثقافاتها التي أنشأتها ، ولكنهم هم يعيشون بين كل أمة ويأخذون من كل ثقافة ، وإذا نظرنا إلى النجاح في عالم المال فلا امتياز فيه لليهود على طائفة أخرى تنتفع بالفرصة التي ينتفعون بها ، وشاهدنا على ذلك عدد الأثرياء في مصر بين طوائف الأرمن والاغريق وأمثالهم من أمم البحر الأبيض المتوسط . فانهم قد يزيدون على أثرياء اليهود او يساوونهم في العدد وقديزيدون عليهمكذلك أو يساوونهم في مقدار الثراء وتنوع مصادر الاثراء ، وقلما يرجع نجاح الاغريقي أو الأرمني إلى تضامن بينه وبين أبناء جلدته كما يتضامن يهود العالم .

وعلينا ـ بعد ـ أن نقدرهم ونسبر غورهم ، ولكن بالمقياس الصحيح الذي لا مبالغة فيه من ناحية القوة ، ولا من ناحية الضعف ، ولنذكر أسباب بقائهم في دويلتهم كما نذكر أسباب تداعيهم وانحلالهم ، ولا ننس أن الدول الكبرى تعينهم تعصباً على الاسلام والعرب وإن لم يكن تعصباً لهم ، ولكن البنية لا تستمد الحياة من معونة غيرها إن لم يكن فيها قوام الحياة ، ولن تحيا إسرائيل إذا بقيت مقاومة العرب راصدة لها في كفة انحلالها وفنائها ولو دامت لها معونة الثقلين ، وهي لا تدوم . .

٢٤ ـ الصهيونية العالمية
في الختام

شركة تبحث عن رأس مالها القديم ، فتعلم أن الكثير منه قد تبدد ، وأن ما بقي منه يوشك أن يضيع .

تلك هي الصهيونية في العصر الحاضر ، أو في المرحلة المتوسطة بين ماض عاشت فيه على استغلال الاضطهاد واللعب بأعمال الصيرفة والمضاربات وتسخير الطوابير الخامسة في المؤامرات الخفية ، وبين مستقبل يجورُ على كل حصة من هذه الحصص التي تجمع منها رأس مالها ، ويوشك أن يكشف حسابها جميعاً ، إن لم يأت على بقية منها بعد بقية ، وعلى رصيد منها بعد رصيد .

فكل ما بحثوا فيه من أمر المصير وأشرنا إليه في الفصول السابقة . .

وكل ما يعلنونه أو يسرونه اليوم من الشكايات الحقة أو الشكايات المفتعلة ، فإنما هو بحث عن رأس المال المهدد بالضياع .

قيل إن الصهيونيين الانجليز اتصلوا بالوفد الروسي المسيحي ، في العاصمة الانجليزية ، وبحثوا معه في أحوال اليهود المقيمين بالبلاد الروسية .

وقيل إن عمال اليهود الأمريكيين طلبوا من الرئيس أيزنهاور أن يفاتح مندوبي الروس إلى مؤتمر « جنيف » في أمر السماح لليهود الروسيين بالهجرة إلى إسرائيل .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان أصحاب هذه المباحث وهذه المطالب

يقصدون إلى الدعاية ، ولا يقصدون إلى الجد فيما يذيعونه من شكايات اليهود الروسيين واقناع الحكومة الروسية بالترخيص لهم في الهجرة إلى إسرائيل .

فليس من اليسير أن تعترف حكومة « الكرملين » على نفسها باضطهاد رعاياها وهي تذهب إلى جنيف لاعلان مناياها الحكومية ورعايتها لحقوق المحكومين .

وليس من اليسير إذا اعترفت حكومة الكرملين باضطهاد اليهود أن ينتقل خمسهم ولا عشرهم إلى إسرائيل ، وعدة اليهود في روسيا تزيد على خمسة ملايين .

وليس من اليسير أن تستوعبهم إسرائيل وهي تضيق بمن فيها وتتوالى الأنباء بعزم الكثيرين منهم على العودة من حيث أتوا ، وتردد الكثيرين منهم في التحول من جنسيتهم إلى جنسية إسرائيل .

وإنما هي بضاعة الاضطهاد يشعرون بالحاجة إلى استغلالها في الآونة الحاضرة ، لأن رصيدهم القديم منها يقارب النفاد .

كانوا يستغلون اضطهاد النازيين اليهود في البلاد الالمانية ، وكان لهم مكتب في برلين يتواطأ مع النازيين على تنظيم الاضطهاد وتنظيم الهجرة من جرائه إلى إسرائيل ، وكان لهم رئيسان معروفان يديران ذلك المكتب لحساب الصهيونية العالمية ، وهما ـ كما ذكر في فصل سابق ـ رئيس يدعى بينو ورئيس يدعى بارجلعاد .

ولا يعنينا هنا أن الاضطهاد يقع أو لا يقع ، ولا يعنينا أنه يروى على حقيقته أو يروى مبالغاً فيه ، ولكن الواقع في جميع الأحوال انه بضاعة نفسية تستغلها الصهيونية العالمية ، وتمزج فيها بين استغلال العطف الانسانى واستغلال الخوف من الأعداء .

فالنازية كانت العدو المخيف لأمم الغرب قبل منتصف القرن العشرين ، فمن الأرباح النافعة التي تستفيدها الصهيونية العالمية أن تثير العطف على ضحاياها وأن تثير البغضاء على العدو المخيف ، وأن تكون ضحية

الأعداء الألداء التي تستحق العون من الساخطين علىٰ النازية ، والمتوجسين من مطامع النازيين .

والشيوعية اليوم هي العدو المخيف لأمم الغرب التي كانت بالأمس تحارب النازية في ميدان السياسة وميدان القتال .

فالصهيونيون إذن هم ضحايا الاضطهاد في بلاد الشيوعية ، ومن الواجب أن تثار الدعاية حول هذا الاضطهاد في هذه الآونة على التخصيص ، لأن فضائح الجاسوسية في الولايات المتحدة قد كشفت عن علاقة وثيقة بين الجواسيس الصهيونيين وبين الدولة الحمراء ، وقد ذكرت الأمريكيين بأن الشيوعية كلها قامت قبل أربعين سنة على أيدي العشرات من دعاة صهيون .

رأس مال يتجدد لأنه قارب على النفاد ، ودليل جديد على أن الصهيونية العالمية تعيش اليوم على رأس مال مهدد بالضياع .

ويصيح سفير إسرائيل في الولايات المتحدة محتجا على تفتيش السفن التي تعبر قناة السويس إلى إسرائيل ، ومتعجباً من إصرار العرب على مقاطعة الدويلة التي يحسب أنها شوكة في جنوب الأمم العربية ، ومنكراً على هذه الأمم أنها ـ كما يزعم ـ تبني الآمال الكبار على خذلان أمريكا للصهيونيين ، ومؤكداً أن الحوادث العارضة لن تكدر صفو العلاقة الأمريكية الصهيونية ، وأن آيات الصداقة والحب لا تنقطع في الوقت الحاضر ولا في وقت من الأوقات .

رأس مال آخر مهدد بالضياع .

وكلام لا تثبت منه إلا حقيقة واحدة ، وهي أن إسرائيل محرومة من عوامل البقاء بغير المعونة الأمريكية ، وأن الأمم العربية تعرف ذلك كما يعرفه الصهيونيون .

فالمطلوب على هذا من الأمم العربية أن تعدل عن المقاطعة ، لأن معونة أمريكا لاسرائيل باقية ، ومقاطعة العرب في هذه الحالة لا تفيد .

وينسى السياسي الصهيوني أن هذه الصفحة يمكن أن تقلب عليه أو أنها قد

تقرأ من اليمين إلى الشمال كما تقرأ من الشمال إلى اليمين .

قد يقال مثلا : إن أمريكا ستعلم أن مقاطعة العرب دائمة ، وأن معونتها لاسرائيل في هذه الحالة لا تفيد .

وقد يقال مثلا إن عداوة العرب والعالم الاسلامي كله مشكلة خطيرة في السياسة الدولية ، وأن عداوة الصهيونية لأمريكا لن تكون مشكلة خطيرة يحفل بها الشعب الأمريكي أو الدولة الأمريكية . لأن الصهيونية عالة على القوم لا قبل لها بمحاربتهم كما كانت تحارب البريطان والألمان .

والمسألة في جوهرها أكبر من مسألة الخلاف الحاضر بين العرب وإسرائيل .

فإنما هي مسألة الموازنة بين نتيجتين لا معدى عن إحداهما على تعاقب الأيام .

فإما أن تذهب إسرائيل من حيث أتت ، وإما أن تبقى الأمم العربية فريسة لاسرائيل تأكل من لحمها ودمها وتحول بينها وبين التقدم ، لكي تأمن مزاحمتها اليوم وغداً وإلى آخر الزمان في ميدان الصناعة والتجارة والارتقاء على الاجمال .

وذهاب إسرائيل من حيث أتت أهون النتيجتين وأدناهما إلى المعقول .

وذهابها من حيث أتت نتيجة محتومة في مصير صهيون .

إن صهيون عاشت من قبل على طوابيرها الخامسة في جميع الأقطار ، وليس من طبيعة الطوابير الخامسة أن تعمر طويلا إذا تفتحت عليها الأنظار .

إن صهيون عاشت من قبل على اللعب من وراء الستار بأعمال الصيرفة وأسواق المضاربات ، وليس في مقدورها اليوم أن تعيش بهذا اللعب المكشوف ، لأن شؤون الثروة ترتبط في العصر الحاضر بأطوار الاجتماع وثورات الأمم وحقوق الطوائف والطبقات ، ولا يسهل العبث بها وراء الأبواب وبين الجدران .

إن صهيون قد عاشت من قبل بالبضاعة التي تسميها « الاضطهاد » وتتجر

بها بين اليهود وغير اليهود ، فإذا وقع الاضطهاد في العصر الحاضر فهو مشكلة لدويلة إسرائيل قبل أن يكون مشكلة للدول التي تضطهد اليهود ، أو تحاول إنقاذهم من الاضطهاد .

فإذا هي فتحت أبوابها للمضطهدين فهي مختنقة بالزحام ، عاجزة عن إيواء المزدحمين على الأبواب .

وإذا هي أغلقت بابا من تلك الأبواب فقد هدمت دعواها بيديها ، وبذرت بذور الفتنة بين رعاياها وبين اللاجئين إليها والمقيمين في غير بلادها .

وسيأتي اليوم الذي يعلم فيه الصهيونيون ـ كما يعلم غير الصهيونيين ـ أن قيام إسرائيل نكبة عليهم ونكسة بهم إلى عزلتهم الأولى وعصبيتهم الباطلة التي يعاديهم الناس من أجلها ويعادون من أجلها كل إنسان لا يحسبونه من خلق الله المرضي عنهم ولا يدخلونه في عداد « شعب الله المختار » .

ومتى وقفت صهيون في جانب من عزلتها وعصبيتها ، ووقف العالم كله على سعته في جانب الحذر منها ـ فذلك هو المصير الذي لا مراء فيه ، وذلك هو الختام .

عباس محمود العقاد

تعقيب

برتوكولات حكماء صهيون

يشاء الله أن نلتقي في « تعقيب » بعد الفراغ من قراءة فصول « الصهيونية العالمية » لأستاذنا العقاد كما التقينا في « بداءة » قبلها ، وهذا فضل آخر يسديه الينا الأستاذ الجليل ، وإنا لنتلقى فضله بما هو أهله من الغبطة والشكر .

وقد رئي أن يكون « التعقيب » تلخيص كتاب خطير أشار إليه الأستاذ العقاد في مستهل الفصل الرابع هنا ، وما هو بغريب عن « الصهيونية العالمية » موضوع هذه الفصول ولا هو بضعيف القرابة منها ، بل هو من صميم موضوعها ، وإنه ليتناولها من الوجهة التي تتناولها منها هذه الفصول ، فالكتاب يتضمن مجموعة من الوثائق السرية كتبت في أخريات القرن الماضي ، وطبعت لأول مرة في روسيا سنة ١٩٠٢ ، ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الاوربية بلغات عدة ، ولوحظ ـ كما أشار الأستاذ ـ « أنها لا تظهر في لغة من اللغات الا اختفت على أثر ذلك ، وأنها تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد » وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور ، لأنه يفضح مؤامرة من مؤامرات « الصهيونية العالمية » .

ونضيف اليها ملاحظة اخرى للمؤرخ المعاصر الاستاذ دجلاس ريد Douglas Reed في كتابه فن الحركات السرية في العصر الحاضر ، هي انه لم يجرؤ طابع ولا ناشر في أوربا وأمريكا على طبع هذه الوثائق منذ سنة ١٩٢١ ، وذلك أمر بالغ في دلالته على سعة نفوذ « الصهيونية العالمية » على

وسائل الطبع والنشر هناك ، لأن هذه الوثائق تفضح مؤامرة اليهود لغزو العالم والتسلط على حكمه وخيراته ، وهم حريصون على ان تبقى مؤامرتهم نافذة دون أن يفطن إليها احد غيرهم ، بل دون أن يلمحها أحد بينهم عدا أكابر زعمائهم الذين يشاركون في تدبيرها وتنفيذها في الخفاء ، فهكذا قدروا للوثائق ، وهكذا يصادرونها في كل مكان .

١ ـ عنوان الوثائق « بروتوكولات حكماء صهيون Protocols of The Learned Elders of Zion وقد اضيف اليه في الترجمة الانجليزية عنوان اخر تستحقه هو « الخطر اليهودي » Jewish Peril وبهذين العنوانين معاً سمينا ترجمتنا ، وهي اول ترجمة كاملة لها بالعربية ، والعنوان الاول هو الاشهر في مختلف اللغات .

٢ ـ معنى بروتوكولات هنا محاضر جلسات ، وهذه التسمية لا تطابق محتويات الوثائق تماماً ، فإنها ليست بالضبط محاضر جلسات بل تقريراً مسهباً وضعه زعيم قوي النفوذ في مؤتمر يهودي سري فحاز الموافقة ، وقد قسمه أقساماً لا تطرد اطراداً منطقياً على الدوام ، ورسم فيه خطط مؤامرة يهوديه جهنمية تنتظم جميع العالم وتمتد إلى مختلف نواحي نشاطه ، وتسعى إلى تنغيص أمنه ورغده.، حتى يتم اخضاعه لليهود ، وقراءة البروتوكولات تشعرنا بأنها جزء من مؤامرة أخري أخطر وأوسع ، وإذا كانت هذه المؤامرة الأخرى لم تنكشف حتى اليوم فإنها تعبر عن نفسها في هذا الجزء تعبيراً قوياً واضحاً .

٣ ـ وإذا تأملنا محتوياتها بدت كأنها حقائق مسلمة مألوفة كثيراً أو قليلا ، وإن عبر عنها بحدة وبغضاء لا تصاحبان في العادة الحقائق المألوفة ، فبين سطورها تتأجج بغضاء دينية عنصرية متغطرسة عميقة الجذور ، قد خبئت بنجاح أمداً طويلا ، وإن كانت في الواقع لتجيش وتفيض من إناء طافح بالنقمة والسخط ، مدرك تمام الادراك أن نصره النهائي أقرب .

٤ ـ تسعى المؤامرة لزعزعة كل مقومات المجتمع الحاضر ونظمه ، وتركز طليعة ضرباتها وأعنفها على الأمم المسيحية ، لأن المسيحيين أوسع الأديان انتشاراً ، وأممها أقوى الأمم وأوسعها نفوذاً ، ولها الزعامة والتوجيه

العالمي ، وإذا أمكن القضاء عليها كانت هزيمة بقية الأمم والأديان أيسر وأسرع ، ولا تبقى حينئذ الا الديانة والقومية اليهودية ، ولا بد لذلك من تسلط اليهود على الأمميين أو الجوييم[1] .

٥ ـ هدف المؤامرة تمكين اليهود من الاستئثار بحكم العالم وثمراته ، لأنهم شعب الله المختار لزعامة الجنس البشري ، فما خلق العالم إلا ليكونوا هم سادته وأوصياءه ، ومن حقهم وحدهم استعباده وستخيره بكل الوسائل ، واحتكار كل سلطة ومنفعة فيه ، وليس لمن عداهم من الأمم إلا السمع والطاعة ، واحتمال الخسف والهوان ، والرضا بأحط الأعمال ، والقناعة بما يجود به اليهود من فضلات الرزق .

٦ ـ تتحقق سيادة اليهود على الأمميين باقامة مملكة يهودية استبدادية تحكم العالم كله ، يكون مقرها أورشليم (القدس) أولا ، ثم تستقر في رومة[2] إلى الأبد ، ويتعاقب على عرشها حكام من ذرية ملكهم ومسيحهم داود ، وكل حاكم من هؤلاء يربى تربية خاصة على أيدي زمرة مختارة من حكماء صهيون ، ولا يصل إلى العرش إلا إذا اجتمعت له كفايات خاصة ، فإذا توج كانت ذاته مقدسة لا تمس .

لأنه سيكون بطريرك العالم وملكه معاً ، وسيكون مستشاره طائفة من أعظم الساسة الموهوبين ، ولا يجوز له ان يملك شيئاً خاصاً به ، لأنه وحده يملك كل شيء في العالم ويتصرف فيه كما يشاء .

٧ ـ ترى المؤامرة ان جميع نظم الحكم الحاضرة فاسدة ، ومن واجبها زيادة افسادها في تدرج حتى تسقط في الوقت المناسب لقيام المملكة اليهودية العالمية لا قبله ولا بعده ، وان الأخيار بين الناس قلة نادرة ، وسائرهم أشرار ، فالقوة وحدها هي الوسيلة الناجحة في السياسة ، وأن حقوق الشعوب افكار لخداعها لا حقائق تقبل التنفيذ ، وأن السياسة ليست من عمل الشعوب ولا عمل العباقرة الذين لم يخلقوا لها من الأمميين ، وإنما السياسة أو الحكم صناعة سرية سامية مقدسة لا يحسنها الا نخبة ممتازة موهوبة من اليهود ، دربوا عليها تدريباً تقليدياً ، وكشفت لهم أسرارها التي

---

(١) يسمي اليهود من عداهم (الجويسم) ومعناها الكفرة والانجاس والوثنيين والبهائم .
(٢) يلاحظ انها عاصمة الرومان قديماً والكثلكة حديثاً .

استنبطها حكماء صهيون من تجارب التاريخ وعبره خلال قرون طويلة ، وهم يتناقلونها في الخفاء ، وعليها يربون ملوكهم ومن يحيطون بهم من المستشارين .

٨ ـ ترى أنه ينبغي أن يساس الناس كما تساس قطعان البهائم بل الوحوش أي بالعنف ؛ وأن كل الأمميين حتى الزعماء الممتازين فيهم إنما هم قطع شطرنج في أيدي اليهود ، ومن اليسير إغراؤهم وتسخيرهم بالارهاب أو الرشوة . . . ؛ وان قيام حكومتهم العالمية يجب أن يسبقه تمزيق الأوطان والقوميات ، وهدم الأديان ولا سيما المسيحية ؛ وافساد أنظمة الحكم في كل الأقطار وإزالة الحكومات ولا سيما الملكية ، وأن يتوسل لذلك بشتى الوسائل المناسبة : ومنها إغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب ، وإغراء الشعوب بالتمرد على سلطة الحكام والقوانين والعرف والتقاليد ، وذلك بنشر مبادىء الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤذي الجانبين ؛ وبمحاولة إبقاء كل من قوة الحكومة وقوة الشعب في حالة عداء مستمر للأخرى . وتوجس وخوف دائم منها . . ومن هذه الوسائل إفساد حكام الشعوب وزعمائها . والتسلط عليهم ؛ ومحاربة كل نبوغ يظهر بين الأمميين مع الاستعانة في ذلك كله بالمال والنساء والدسائس والمناصب ونحوها . بل القتل في الخفاء إذا لم تنجح وسيلة غيره .

٩ ـ ترى أنه ينبغي لها إثارة حروب عالمية وأهلية بالقاء بذور الخلاف والبغضاء بين الأمم عن طريق الجماعات والأندية السرية والعلنية من كل لون . ومنها السياسية والدينية والفنية الثقافية والرياضية . . والمحافل الماسونية وغيرها ونقل الدول من حالة التسامح إلى التطرف الديني و السياسي فالاشتراكية فالاباحية فالفوضوية ، مع استحالة تطبيق مبادىء الحرية والمساواة ؛ وكل هذا مع المحافظة على وحدة الأمة اليهودية ، وحمايتها من كل التعاليم والاتجاهات الضارة . ويلاحظ في الحروب أن تكون ضارة بالغالب والمغلوب ؛ وألا تعقب تغييرات اقليمية حتى يستمر النزاع الاقتصادى بين المعسكرات المتناحرة ، ولا يستفيد من ذلك إلا اليهود الذين يتاجرون مع المعسكرات جميعاً ؛ ويساعدونها على الاستمرار في الحروب حتى تخر لاهثة منزوفة القوة .

١٠ ـ ينبغي لليهود ـ لأنهم المحتكرون للذهب ـ أن يسيطروا على كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والمعاهد الثقافية والمسارح وشركات السينما ودورها ، وعلى العلوم والقوانين والمضاربات وغيرها في كل أقطار العالم ، وإن الذهب الذي يحتكرونه هو أمضى الأسلحة لاثارة الرأي العام والاضرابات والانقلابات وافساد الشبان ، والقضاء على الأخلاق وفضح مساوىء الأديان والقوميات ونظام الأسرة وسائر القيم الانسانية ، وإغراء الناس بالشهوات واشاعة الخلاعة والانحلال حتى تستنزف قوى الاممين فلا يجدوا مفراً من أن يركعوا تحت أقدام اليهود . ويجب أن يكون لهم وكلاء وأنصار بين كل الهيئات والطبقات من أكبر الملوك والزعماء والبرلمانيين في قمة القيادة إلى أحط المربيات والخدم في البيوت والأندية للتجسس على الأسرار ومعاونة اليهود على تنفيذ ما يريدون . ويختار الوكلاء من ذوي المخازي التي لا يعرفها الا اليهود ، فيظلون خاضعين لسلطان الخوف من التشهير .

١١ ـ ترى أنه ينبغي وضع أسس الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود . لا على اساس قوة العمل والثروات الأخرى ، مع إحداث الأزمات العالمية على الدوام ، عن طريق استطلاع أسرار الحكومات والهيئات المالية والمضاربات في المصافق حتى يحيط الخراب بالجماعات والأمم ، فتضطر إلى الاستعانة باليهود لانقاذها من عثراتها ، وترضى بسلطانهم العالمي صاغرة مغتبطة .

١٢ ـ نشر الاشاعات المتناقضة ، وترويج المذاهب والنظريات المبهرجة المتضاربة عن طريق الصحافة والكتيبات واستغلال الأسماء الضخمة ، في كل مجالات النشاط الانساني ولا سيما المجالات الفكرية ، حتى تتسلط الفوضى على العقول ، وتختلط عليها الأفكار . فلا تميز خطأ من صواب ، وتغرق في بحرانٍ من البلبلة والاضطرابات . وتعمى عليها الاتجاهات فتصاب بالمسخ والعقم ، فإما أن تشل ارادتها فتموت ، وإما أن تطلب الخلاص من محنتها ، ولن تجده إلا في الخضوع المطلق للاستبداد اليهودي العالمي ، وإذا شعرت أمة بالدوار فعلى اليهود خنقها قبل أن تستعيد أنفاسها . ثم استعبادها الى الأبد بأعنف الوسائل .

١٣ ـ اليهود شعب الله المختار مشتتون في كل أقطار العالم ، وهذا التشتيت ضعف في ظاهره ، ولكنه في الحق مصدر قوتهم العظمى ، وهو الذي وصل بهم إلى أعتاب السلطة العالمية ؛ فمن خلال تشتتهم تمكنوا من أن يتسللوا الى كل جهاز في كيان الأمم ، ويمتصوا دماءها ، ويتعاونوا متفرقين على تسخيرها واستنزاف قواها ، ولن تتمكن أمة من التخلص منهم مهما قاست من شرورهم إلا بالقضاء على كيانها كله في الوقت نفسه ، وهذا ما يجعل الأمم حريصة على رضاهم طوعاً وكرهاً .

١٤ ـ ينبغي لليهود توطيد سلطانهم في أوربا اولا . فإذا تمردت عليهم فلهم أن يؤدبوها بأمريكا أو الصين واليابان . ولهذا يجب أن يكون نفوذهم في هذه البلاد قويا مرهوباً .

هذه بعض مضامين البروتوكولات ولا أدعي انها خلاصة لها ، وإذا كان هناك موجب للاعتذار عمن اختارني لهذا التلخيص فبعض معاذيره أني كنت المترجم الوحيد للبروتوكولات كاملة إلى العربية ، وأعترف بأني هممت أن أعتذر عن التعقيب بتلخيصها مع معرفتي بفضله وتقديري إياه قدره ، ولكني لم أفعل ، ولعله خير ، ومما جعلني أهم بالاعتذار أني أضيق بكل خلاصة لا تغني عن أصلها ، والبروتوكولات من هذا الطراز ، وحسبنا هنا الاشارة إلى أنني حين ترجمتها قد اضطررت كي أقربها إلى أذهان قرائها بالعربية إلى أن أضيف إليها مقدمة وهوامش عدة في معظم الصفحات ، فجاءت الاضافة أطول من النص كله ، وهذا مع الحرص على تجنب الفضول محافظة على تماسكها مسلسلة .

وآفة الخلاصات أنها تغل العقل ، وتمنعه الاستقلال والاجتهاد ، وتحرمه متعة الجهد ومنفعته ، والجهد في رأيي اساس الاجتهاد لغة وعملا ، فمن لم يجهد لم يجتهد ، ومن حرم الاجتهاد حرم فرديته وخسر نفسه . وقد أصل هذه العادة في نفسي كثرة قراءاتي وتنوعها بين المطولات وخلاصاتها بأمهر الأقلام . حتى صرت لا أكتفي بأمهر الخلاصات لأي تأليف ما اتسع عقلي ومالي ووقتي لاستيعاب الأصل بكل دقائقه ، وقد دلتني تجاربي على أني كنت الأربح في كل حال ، وزاد هذه العادة تأصلا في أغوار نفسي كثرة

تجاربي وتنوعها خلال اشتغالي الطويل بالتعليم ولا سيما تعليم الأدب وأطيافه من جوهر كالنور . غاية في الخفاء والظهور فقد تكون الدقائق أعون على الفهم من الجلائل حتى صرت اعتقد أنه لا سبيل بغير الالمام بالدقائق في كل ما له اتصال بالنفس الانسانية ـ الى تصور حقيقة أو ظاهرة نفسية ؛ وفهمها وتذوقها والحكم عليها حكماً صواباً أو قريباً من الصواب . إلا أن يكون الأمر رمية من غير رام ؛ وقد يصيب غيرُ الرماة ويخطىء الرماة ولكن هذا ليس بحجة على تعلم الرمي بل هو من موجباته . وإني لأومن إيماناً راسخاً عميقاً بأن أطول المسافات في المعرفة وقراءة الكتب المحكمة هي أقصر المسافات وهذا نقيض ما يبدو للنظرة العاجلة أو السطحية ؛ وأرى أن العقاد كان حكيماً ملهماً يقرر حقيقة علمية واقعية ؛ لا شاعراً يفيض خياله بصورة شعرية فحسب ـ حين قال :

ليست خلاصة كل شيء غنية
عنه ؛ وإن كانت خلاصة ماهر
فالشهد ـ وهو خلاصة الأزهار لا
يغنى العيون عن الربيع الزاهر

وبهذا الاعتذار الذي لم أجد مناصاً من الاستطراد اليه في هذه « الرسالة الأخوية » مصارحاً إياك بما أصارح به نفسي كما تقضي الأخوة ـ استودعك الله متمنياً لك خير ما يتمنى خلصاء الأخوة من البدء إلى الختام .

محمد خليفة التونسي

عباس محمود

العقاد

النازية والأديان

دار الكتاب اللبناني - بيروت

النازية والاديان

هذه سلسلة من ثلاث محاضرات اذاعها من محطة الاذاعة المصرية الكاتب الكبير والنائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد ، وقال في مستهلها ان الذي اوحى اليه باذاعتها قراءته رسالة لطيفة الحجم عنوانها « الاسلام والنازية » للدكتور فؤاد حسنين علي مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية .

والاستاذ العقاد اذا تناول موضوعا قتله بحثا واستقصاء وألم به جملة وتفصيلا ، ودعم رأيه باسانيد قوية تحمل القارىء على قبولها في غير تردد . والاستاذ موفق دائما من هذه الناحية اكبر التوفيق . وفي المحاضرات الثلاث التي تطالع القارىء في هذه الكراسة الصغيرة الحجم ، مثل رائع على المام الاستاذ العقاد بالموضوع الذي يتناوله بالبحث المام المدقق الخبير ، وعلى وضوحه في بيان ما يقصد الى بيانه للناس ، وعلى قوة تدليله وسلامة منطقة .

خص الاستاذ العقاد المحاضرة الأولى بالكلام في نظرة النازي الى الآديان عموما فكان قوى الحجة فيما بين من أن القوم يعالجون الدين كما يعالجون قوة سياسية تحول بينهم وبين اغراضهم فالمسألة عندهم « ليست مسألة فلسفة ولا بحث عن الحقائق العليا في الوجود وليست مسألة آراء تثبت على التمحيص والاستقرار كما يريدون أن يوهموا اتباعهم المخدوعين »

وكان أول دليل قدمه الاستاذ العقاد على هذه الحقيقة هو من عمل هتلر نفسه ، فهو عندما كان يرى أن نجاحه السياسي متوقف على التزلف للاديان تزلف ا للاديان ، ذلك أن انصار هتلر كانوا يرشحونه منافسا في زعامة الحركة النازية للقائد الكبير لدندورف وكان هذا القائد مكروها لدى رجال الدين لما اشتهر به من التطرف في الالحاد ، لهذا لم يتردد هتلر في ان يقول في كتابه « كفاحي » ان الحركة النازية لا ترمي الى القيام بدعوة اصلاح أو انقلاب في الدين ، ولكنها

ترمي الى اعادة تنظيم شعبنا من الوجهة السياسية وتنظر الى المذهبين الدينيين معا . (البروتستانية والكاثوليكية) نظرتها الى ركنين قيمين ينبنى عليهما وجود شعبنا . ومن ثم تشهر الحرب على جميع تلك الاحزاب التي تغض من شأن هذا الاساس الذي تستقر عليه أخلاق الشعب وعقائده .

هذا ما كان يقوله هتلر قبل ان تقبض النازية على عنان الدولة فلما قبضوا عليه اصبح الاساس الذي كانوا يقولون ان اخلاق الامة وعقائدها قائمة عليه خطرا شديدا ينبغي ان يزول .

والواقع ان القوم بعد أن زال الخطر الذي كانوا يخشونه على زعيمهم من منافسه القوى ، بدأوا يتوقعون الخطر الشديد يجيئهم من ناحية العقائد الدينية التي تتناقض التناقض التام مع تعاليم النازية القائمة على القوة الوحشية والتجرد من جميع العواطف الانسانية .

بمثل هذا التدليل القوى الرزين يقدم الاستاذ العقاد آراءه الى الناس فلا تلبث ان تدخل الى عقولهم في غير استئذان .

وتكلم الاستاذ العقاد في المحاضرة الثانية على النازية والمسيحية فبين بطريقته المنطقية و الواضحة العوامل التي يلاحظها النازي في كره المسيحية فحصرها في ثلاث نقط : موقفهم من صاحب الرسالة المسيحية وموقفهم من الآداب التي جاء بها الدين المسيحي ومن الأخلاق التي بشر بها السيد المسيح وتابعوه الى هذا الزمان .

وبين الاستاذ ان سبب بغض النازية السيد المسيح انه منسوب الى السلالة السامية وهم يشهرون بالساميين ويجردونهم من جميع الفضائل ، فلا يستقيم في المنطق ان يشهروا بالسامية وان يدينوا بدين جاء به رسول من سلالة الساميين . وقد أشار الاستاذ الى ان بعض الكتاب الذين لم يعيبوا المسيحة ذهبوا في تبرير موقفهم الى الزعم بان السيد المسيح من سلالة آرية .

وعلل الاستاذ كره النازيين الكنيسة بانهم يريدون ان يخضعوها لنفوذهم واطماعهم وهي تأبى عليهم ذلك لآن لها اتباعا من الأمم الأخرى ولا ضمان لديها على بقاء النازية . ولو ان الكنيسة خضعت للنازية ونفذت اغراضها لما اعلنت

عليها الحرب ولاستعملت أداة للطغيان كغيرها من الادوات .

وعلل الاستاذ العقاد كراهة النازيين الآداب التي جاء بها السيد المسيح والاخلاق التي أوصى بها بان اخص هذه الاخلاق هي الرحمة والحكم النازي قائم على القسوة والوحشية . ولا يطيق النازيون الرحمة لانهم يأمرون ناشئتهم وزعانفهم بقتل الخصوم جزافا بغير حساب

ومن الادلة القوية التي برهن بها الاستاذ العقاد على هذه الحقيقة انه لما كان سير نيفل هندرسون سفيرا لبريطانيا في برلين القى خطابا في الجماعة الجرمانية الانجليزية التي انشئت اذ ذاك لتحسين العلاقات السياسية بين الدولتين ، فنشرت الصحف الالمانية خطابه برمته في اليوم الثاني الا مقطوعة واحدة من قصيدة اميركية راجت ايام المعركة الانتخابية التي حمى وطيسها في أيام الرئيس ولسون وهي المقطوعة التي يقول فيها الشاعر على لسان احدى الآمهات :

« من ذا الذي يضع البندقية على كتف وليدي ليقتل بها عزيز ام غيري ؟» فقد حذف الرقيب هذه القطعة ، وظهر من أسباب حذفها أن النازيين يخشون الرحمة خشيتهم العدو المبين .

اليس هذه دليلا قاطعا حقا على أن النازيين قوم وحشية قلوبهم وانهم أعداء الرحمة الالداء .

وبمثل هذا التدليل المستقيم دلل الاستاذ العقاد في محاضرته الثالثة على العوامل التي تدفع النازيين لكره الاسلام ومقته اشد المقت . اذ الاسلام عندهم لا يعدو ان يكون ثمرة من ثمرات السلالة السامية التي يشهرون بها وينكرون فضائلها ، واذا كانوا قد انكروا المسيحية التي هي دين وطنهم ـ لانهم نسبوها الى المصادر السامية ـ فالاسلام اولى بانكارهم لهذا السبب قبل غيره من الاسباب .

وفي الجملة قد حوت هذه المحاضرات الثلاث من الادلة على كره النازية الاديان ما لا سبيل الى التشكيك فيه . فهي على صغر حجمها رسالة وافية بالغرض الذي وضعت له . كفيلة بانارة الطريق امام اعين هؤلاء الذين تخدعهم الدعاوة النازية باكاذيبها ووسائل تضليلها ، حتى اذا خدرت اعصابهم وحملتهم على الاستكانة اليها ، سطت عليهم فافترستهم افتراس الذئاب الجائعة .

فليقرأ الناس هذه الرسالة وليعوا ما حوت من براهين منطقية واضحة ومن حجج دامغة تقطع الشك باليقين .

النازية والاديان
للنائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد
-١-

حضرات السادة والسيدات :ـ قرأت للدكتور فؤاد حسنين علي مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية ـ رسالة لطيفة الحجم عنوانها « الاسلام والنازية » يرد بها على الداعية الألماني فون رولف بيك Von Rolf Bekh الذي أوسع الأسلام والمسلمين طعنا وثلبا في مقالته عن الاسلام ، وهي احدى مقالات يعني باذاعتها هؤلاء المبشرون بما يسمونه « العقيدة الجرمانية الجديدة » . كأنما العقائد في عرف هؤلاء القوم شيء يرتبط بالحدود الجغرافية والهيئات الدولية ، ويتلون بألوان الخرائط ورسوم البلدان .

ففي رسالة هذا الداعية الألماني أن الاسلام دين ذلة وخنوع ، وأنه ثمرة من ثمرات العقل السامي الذي يحتقره النازيون ويلصقون به أقبح العيوب ، وأنه قد ضلل العالم منذ قرون ، ولا يزال خطرا على العالم في مقبل الآيام ، إذا لم تبادره العقيدة الجرامانية الآرية بما يصده ويكف أذاه .

وهذا الذي يقوله النازيون عن الاسلام مثل من الحملات المتوالية التي يحملونها على الآديان كافة ، ولا سيما المسيحية واليهودية ، فهما أيضا دينان ساميان ، الا فيما يزعمه بعضهم عن أصل المسيح وبولس الرسول ، وأنهما من غير السلالة السامية كسائر العظماء الذين نبغوا في أرجاء العالم كله ، وان ولدوا في الشرق أو الجنوب .

ويسأل السائل : لماذا هذه الكراهية للاديان عند النازيين ؟ ولماذا هذه الحملة على الاسلام وغير الاسلام ؟

فيجب أن نذكر دائما ان المسألة عند هؤلاء القوم ليست مسألة فلسفة ولا بحث

عن الحقائق العليا في الوجود ، وأنها ليست مسألة آراء تثبت على التمحيص والاستقرار كما يريدون أن يوهموا أتباعهم المخدوعين . ولكنهم في الحقيقة يعاملون الأديان معاملتهم لقوة سياسية تحول بينهم وبين أغراضهم السياسية ، وطريقتهم في معاملتها طريقة المناورات الحزبية أو طريقة المراوغة والهجوم بين الخصوم والخصوم فيكتبون عن الاسلام والمسيحية كما يكتبون عن فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا والولايات المتحدة ، ويتبعون في مجاملتهم للدين أو حملتهم عليه أساليبهم في الدعوة الى مسألة دانزيج أو مسألة المستعمرات ، وأساليبهم في بلاغات التكذيب أو بلاغات التوكيد .

فلهذا تختلف كتابتهم عن الدين بين زمن وزمن على حسب اختلاف مركزهم من النفوذ والسطوة والأمل في كسب الآنصار وفرصة النكاية بالخصوم .

فيقول هتلر في كتابه « كفاحي » ان الحركة النازية لا ترمي الى القيام بدعوة اصلاح أو أنقلاب في الدين ، ولكنها ترمي الى اعادة تنظيم شعبنا من الوجهة السياسية ، وتنظر الى المذهبين الدينيين معا نظرتها الى ركنين قيمين ينبنى عليهما وجود شعبنا . ومن ثم تشهر الحرب على جميع تلك الاحزاب التي تغض من شأن هذا الأساس الذي تستقر عليه أخلاق الشعب وعقائده . .

كان هتلر وأصحابه يقولون هذا يوم كانوا ضعافا يطمعون في كسب الآنصار من رجال الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانية ، ويوم كانوا على الخصوص يرشحون هتلر منافسا في زعامة الحركة النازية للقائد الكبير لدندورف ، لان هذا القائد الكبير كان مكروها بين رجال الدين لما اشتهر به من التطرف في الالحاد .

فلما قبض النازيون على عنان الدولة أصبح الأساس الذي كانوا يقولون أن أخلاق الأمة وعقائدها قائمة عليه ، خطرا شديدا ينبغي أن يزول ، وراح زعماؤهم من أمثال أمرلاهن Ammrelahn وليوالد Lewald وجروس Gross ينادون بوجوب سحق الأديان والاكتفاء بما يسمونه عقيدة الجرمان ، ولم يزل هتلر بعد هذا على طريقة المداورة وانتهاز الفرص ومعاملة الدين معاملته لدولة من الدول او لقوة من قوى الخصوم السياسيين ، فقال في حديثه مع راوشننج Rawchning أن جميع الأديان سواء كائنا ما كان الاسم الذي تنتحله لنفسها ، وكلها لا مستقبل لها ولا سيما بين الجرمان خاصة على التحقيق . وربما لجأت

الفاشية الايطالية الى مصالحة الكنيسة اذا طاب لها ذلك ، وهكذا أفعل أنا لامراء . ولم لا ؟ مصالحة الكنيسة لن تمنعني ان استأصل المسيحية جذورا وفروعا والقضاء عليها في البلاد الالمانية » .

تلك هي الحقيقة الكبرى في موقف النازيين من الأديان كافة ، ولا اكتراث لما وراء ذلك من عناوين الفلسفات والمذاهب والبحوث ، فما كان شيء من ذلك ليوجد أو لتسمح به السيطرة النازية لوكانت العقائد الدينية مؤاتية لاغراضهم السياسية التي يسعون اليها ، ومطالبهم الفكرية التي يفرضونها على الأمة ، فانما هي فرص ومناورات يدورون فيها كما يدورون بين الدول والأحزاب .

وليست العقيدة الجرامانية الآرية التي يلغطون بها الا مسألة فرص ومناورات من هذا القبيل ، فالبلاد التي يصبغونها بالصبغة الآرية هي البلاد التي فيها الحديد والموارد الصناعية والزراعية التي يحتاجون اليها ، مضافا الى ذلك مواقع الحرب وخطط الهجوم والدفاع وهكذا اشتملت الآرية الجرمانية على السويد والنرويج والدنمرك والبلجيك وهولنده وفرنسا الشمالية والدولة النمسوية القديمة ، وتجاوزت ذلك مع مناجم الحديد والمعادن الآخرى في بلاد التشك والبولونيين والاكرانيين وليسوا بالآريين . ولكنهم ينفعونهم بما عندهم من الخيرات والموارد الطبيعية ، ووجب من أجل ذلك أن يكون الآريون سادة العالم ليأخذوا الآقطار الآريه باسم القرابه ويأخذوا الأقطار الاخرى بحجه السيادة ويصبح الدين الجديد دين حق ودين فلسفة معقولة ، وما هو في لبابه الا دين المصلحة والمطامع التي تجمع بين السطوة والثروة في برنامج واحد .

وقد اخترع النازيون الدين الجديد لانهم لا يستطيعون أن يعملوا عملهم الا اذا تركوا ضمائر الناس في أيد غير أيديهم ، وتركوا عقائد الناس توافقهم تارة وتخالفهم تارة أخرى ، فلا غنى لهم عن شعب يطيعهم في سره وجهره وفي تفكيره وهواجس ضميره . وليس أدل على سوء عمل النازيين من حاجتهم الى تكبيل ضمائر الشعب وتخسيرها لهم فيما يسوقونها اليه . فهم يريدون سفك الدماء وسلب الأمم والفتك بالخصوم واستباحة الأرواح والحقوق ، فلا بد لهم من دين غير هذه الآديان القائمة جميعا ، لانها على اختلافها ، لا تختلف بينها في تحريم هذه الاوزار واستنكار هذا العدوان . ومن هنا أصبح الدين الجديد كانما هو ديوان من دواوين

الدولة أو جزء من أموال خزانتها وأسلحة دفاعها ومجومها أو أصبح كما أسلفنا مساحة من الارض يمكن أن تصبغ على الخرائط بلون من الألوان .

وقد كان ذلك شأن الاستبداد البروسي من أقدم عصوره الى احدثها في أبان الثورة الفرنسية وما بعدها ، فكان المستبدون البروسيون حريصين في كل عصر من العصور على تكبيل الضمائر واتخاذ عقيدة الاستبداد عقيدة للجسم والروح على السواء ، وغاية الفرق بينهم وبين النازيين أن آل هوهنزلرن لم يكن في استطاعتهم أن يهدموا الكنيسة لان نظام الدولة ونظام المجتمع معها كانا قائمين على أساسها . فلما شاعت الافكار الحديثة بين المثقفين والمتعلمين أرادوا أن يكبلوها ويستغلوها من طريق الفلسفة والتاريخ ، بعد أن أعياهم تكبيلها واستغلالها من طريق الكنيسة . فظهرت في رعايتهم وتحت اكنافهم مذاهب الفلاسفة الذين يقدسون الدولة ويجعلونها قوام الحق والخلق السليم ، وراجت على أيديهم ديانة فكرية يوشك أن تقيم الحكام في مقام الأرباب المعصومين .

فهي شنشنة قديمة في المستبدين البروسيين ، وليس الدين النازي الجديد الا الطبعة العصرية من فلسفة آل هوهنزلرن او فلسفة الدعاة الذين ظفروا منهم بالحظوة دون سائر الدعاة من الباحثين والأدباء .

وربما سأل سائل . . لماذا لم يصنع النازيون ما قد صنعه المستبدون الأقدمون ؟ لماذا لم يعقدوا بينهم وبين رجال الدين محالفة تجري على تبادل المنافع وتبادل التأييد والتمكين كما فعل بعض الطغاة في عصور الظلام ؟

وجواب ذلك أن النازيين لا يتسنى لهم ذلك « أولا » لآن المعارف الحديثة والعلوم التجريبية تأبى على العقول أن يحتكرها رجال الدين في تفسير مشيئة الله وما هو من إرادته في أسرار خلقه وقوانين وجوده . « وثانياً »لآن الأديان بطبيعتها عامة بين الأمم الانسانية والنازيون يعملون لعصبية وطنية خاصة لا تشترك فيها شعوب أخرى . وقد صرح بهذه العلة بعض دعاتهم النابهين فقال رينولدكروس (Rninhold Krause) أن المسيحية عالمية في شعورها . ومن المستحيل أن توفق بين اعترافك بالريخ الثالث وقولك إن طاعة الله مقدمة على طاعة الانسان .

وهو يعني بذلك أن الجرماني الذي يعترف بالريخ الثالث ينبغي أن يطيع هتلر

ولا يطيع الله إذا تعارضت الارادتان .

ولست اخال أن أحدا يعسر عليه تعليل هذا الولع الشديد من المستبدين بتكبيل الضمائر أو بمحاربة الأديان اذا حالت بينهم وبين تكبيلها على ما يحبون ، فان المستبد الذي لا يطاع ليس بمستبد ولا قادر على الاستبداد ، والرعايا الذين يسمعون وحي العقيدة يعصون من يامرهم بغيرها . فلا اتفاق ولا مصلحة بين الاستبداد وبين استقلال الضمير .

وفي هذه الخلة يتناقض الاستبداد والديموقراطية كما يتناقض القطبان المتقابلان . فمن مصلحة الاستبداد أن يموت الضمير ، ومن مصلحة الديموقراطية أن يبلغ أقصى مداه من الحياة والاستقلال . ولا خسارة على الديموقراطية في اطلاق الضمائر وتخويلها من الحرية ما ترضاه حتى في أوقات الهول والفزع وأزمات الفتن والحروب . فقد بلغ من حرمة الضمير في انجلترا أن يبيح صاحبه الامتناع عن القتال ، ولم تكن هذه الحرمة المقدسة حائلا بين الأمة وبين تمام الأهبة في أحرج الأوقات .

وجملة القول أن النازيين ينكرون الأديان لسبب واحد . . وهو أنهم يريدون تكبيل الضمير وتسخير الشعب الألماني فيما يأباه كل دين وتعافه كل عقيدة . وتلك علة موقفهم من الأديان على اختلافها ما دامت لهم مآرب لا تلائم مصالح الانسانية قاطبة ، وفي الحديثين التاليين نعرض للكلام عن موقفهم من الاسلام والمسيحية بشيء من التفصيل .

- ٢ -

حضرات السادة والسيدات :ـ حديثنا الليلة عن النازية والمسيحية من سلسلة الأحاديث الثلاثة عن النازية والأديان .

وقد قلنا في الحديث السابق أن موقف النازية من الأديان عامة هو موقف المناورات الحزبية والاجراءات الحكومية وانهم لا يعارضون الدين من الأديان أو يحملون عليه وعلى رجاله لانهم يبحثون عن الحقائق العليا والاسرار الكونية ، ولكنهم يعارضون كل دين بمقدار ما يعرقل مطامعهم السياسية ، كأنهم يعارضون دولة من الدول أو حزبا من الأحزاب ، أو كأنهم يعالجون مسألة من مسائل السياسة التي يتناولها السفراء والوزراء .

هذا هو موقفهم من المسيحية والاسرائيلية ، وهذا هو موقفهم من الاسلام عقيدة وأمة . ولن يكون لهم موقف غيره مع دين من الأديان .

أما المسيحية ـ وهي موضوع حديثنا الليلة ـ فهم يلاحظون في كراهتها ومقاومتها ثلاثة امور :ـ

الاول ـ موقفهم من صاحب الرسالة المسيحية عليه السلام .
والثاني ـ موقفهم من الكنيسة وهيئاتها .
والثالث ـ موقفهم من الآداب التي جاء بها الدين المسيحي ، ومن الاخلاق التي بشر بها السيد المسيح وتابعوه الى هذا الزمان .

وهذه المواقف الثلاثة تقتضيهم أن يحاربوا المسيحية كما يحاربون خصومهم السياسيين .

فهم اذا نظروا الى شخص السيد المسيح وجدوا أمامهم رسولا منسوباً

السلالة السامية التي يشهرون بها ويجردونها من الفضائل العالية ، فلا يسعهم أن يجمعوا بين التشهير بالساميين وتعظيم السيد المسيح وما جاء به من الأدب والرسالة ، ولا يستقيم لهم أن يدينوا بالعقيدة المسيحية وينكروا كل ما صدر عن الامم السامية من العقائد والثقافات والافكار .

لهذا يعيبون المسيحية من أصلها ومعدنها . ومن لم يعبها من كتابهم ودعاتهم ذهب في نسبة السيد المسيح مذهبا أعجب وأشد ايغالا في الانكار والجحود . فزعم أن السيد المسيح من سلالة الآريين ، وان الاوصاف التي وصف بها وجهه وشعره ولون بشرته تدل على انه من بعض الجرمانيين الذين نقلتهم الدولة الرومانية الى فلسطين . وكلا القولين لا يرضى المؤمنين .

أما موقفهم من الكنيسة فهو موقف الذي يريد أن يخضعها لنفوذه ويسخرها لأطماعه . فأما والكنيسة مضطرة الى رفض الخضوع للنازيين لأنها غير متوقفة عليهم ، ولها اتباع من الأمم الأخرى ، وليس لديها ضمان بدوام النازية في بلادها ـ فالنازيون اذن يعلنونها الحرب كما يعلنون الحرب على العقيدة التي تستمد منها الكنيسة سلطانها وحجتها في الولاية الدينية .

وشأنهم مع الكنيسة الكاثوليكية التي هي خارج بلادهم ، كشأنهم مع الكنيسة الانجيلية التي تقوم بين ظهرانيهم : ـ تسخير في المطامع السياسية والمناورات الحكومية ، أو حرب وعداء في الجهر والخفاء .

وقد عارضهم كثير من القسيسين الانجيليين الذين لا ينتمون الى كنيسة روما ولا الى مرجع في البلاد الخارجية . لأنهم رفضوا ان يجعلوا الزعامة الهتلرية عنصرا من عناصر الايمان وركنا من أركان الحياة الرومية .

وقضية القس نيمولر Niemoeller لا تزال عالقة بالاذهان ، فقد أهانوه وحاكموه لأنه أبى أن يكره ضميره وضمائر اتباعه على الأيمان بما يملونه عليهم املاءهم للأوامر العسكرية ، وكانت لقضيته ضجة في العالم وفي المانيا نفسها أثارت أناسا من كبار القواد والسراة حتى بين المشايعين للمطامح الجرمانية .

وربما خيل الى بعض الناس أن نيمولر هذا ناسك من النساك المتبتلين الذين يعارضون الحكومات لأنهم يعكفون على الروحانيات فينسون في سبيلها

مقتضيات الحكم وخفايا السياسة .

فمن تخيل هذا فليعلم أن نيمولر قس على الطريقة الجرمانية التي قلما نرى لها مثيلا في الامم الأخرى .

فانه كان قائداً لغواصة في الحرب العظمى الماضية ، وبلغ من نخوته الوطنية أن قواد السفن الحربية الألمانية قبلوا تسليم سفنهم للانجليز وذهبوا بها الى « سكابافلو » لايداعها هناك في انتظار الفصل في مصيرها ولكنه هو رفض أن يذهب بغواصته لتسليمها واصر على رفضه وانتهى باعتزال الخدمة في الأسطول . ثم اشتغل بأعمال المصارف وما اليها ، حتى اتجهت نيته الى دراسة العلوم الدينية فدرسها وخرج من الكلية اللاهوتية قساً لضاحية داهلم Dahelm في برلين .

فالرجل لم يعارض النازيين لأنه جاهل بشؤ ون الدولة أو لأنه ضعيف النخوة الوطنية ، فانه في الحقيقة أصدق نخوة وطنية من هتلر وجوبلز وجورنج الذين يتخذونها تجارة ويعبثون بالوطن كما يعبثون بالدين ولكنه عارض النازيين لأنهم يفرضون على الضمائر ما ليس يقبله رجل له ضمير ، ويحسبون كل فضيلة انسانية أو عقيدة نفسية العوبة في أيدي الحكام ومناورة من مناورات الاحزاب .

تلك هي علة موقفهم من السيد المسيح ومن الكنيسة المسيحية سواء منها الآجنبية والوطنية ، والكاثوليكية أو الانجيلية .

أما موقفهم من الآداب التي جاء بها السيد المسيح والاخلاق التي أوصى بها الناس فذلك هو الأساس الذي تبنى عليه كراهتهم لدينه ، وكراهتهم لكل دين يأمر بالعدل والاحسان .

فالرحمة هي أخص الآخلاق التي اشتهر بها عيسى عليه السلام واوصى بها مريديه وأتباعه . والرحمة هي الحائل الأول بين النازيين وبين ما يريدون من الفتك والغيلة واستباحة الدماء والحرمات .

وكيف يطيقون الرحمة وهم يريدون ان يأمروا ناشئتهم وزعانفهم بقتل الخصوم جزافا بغير حساب ، اوكيف يطيقون الرحمة وهم يدبرون الخطط لاذلال الضعفاء وسلب الأوطان ؟ أو كيف يطيقون الرحمة وهم لا يعترفون بحق الحياة

لمن يقف لهم في طريق .

فأكبر ذنب للأدب المسيحي عندهم أنه يوصى بالرحمة والاحسان وفي زعمهم أن « الشرف » هو الفضيلة التي يعارضون بها الرحمة كأنهما نقيضان لا يتفقان . مع أن الرحمة زينة الرجل الشريف ، وليس من شرف أرفع من شرف الرجل الذي ينهاه شرفه أن يدوس الضعفاء ويستبيح من ليس له نصير .

وليس معنى مناداتهم بالشرف أنهم شرفاء ، ولكن مناداتهم بانكار الرحمة معناها انهم غلاظ القلوب ، وأنهم لجأوا الى كلمة الشرف ليقولوا أنهم بذلوا فضيلة بفضيلة ولم يأتوا بدينهم الجرماني الجديد خلوا من جميع فضائل الانسان .

حدث لما كان السير نيفيل هندرسون ـ المعروف بين المصريين ـ سفيراً لانجلترا في برلين أنه ألقى خطابا في الجماعة الجرمانية الانجليزية التي أنشئت يومئذ لتحسين العلاقات السياسية بين الدولتين ، فنشرت الصحف الألمانية خطابه برمته في اليوم التالي تحية له ومجاملة لقومه ، إلا مقطوعة واحدة من قصيدة أمريكية راجت أيام المعركة الانتخابية التي حمى وطيسها في أيام الرئيس ولسن . وهي المقطوعة التي يقول فيها الشاعر على لسان احدى الامهات : من هذا الذي يضع البندقية على كتف وليدي ليقتل بها عزيز ام غيري ؟

فقد حذف الرقيب هذه المقطوعة التي استشهد بها السفير لاستمالة قلوب الأمهات والنساء عامة الى الدعوة السلبية ، وظهر من أسباب حذفها أن النازيين يخشون الرحمة خشيتهم للعدو المبين وأنهم يستكثرون حتى على الامهات أن يرحمن أعزاء الامهات .

ومثل هذه المقطوعة قد راج بين الناطقين بالانجليزية فلم يخشوا منها خطرا على شجاعة أبنائهم ولا على حمية الجند الاميركيين والانجليز في حماية الذمار ، فان الرحمة لاتمنع الانفة ولكنها تمنع العدوان والحيلة التي يريدها النازيون .

انما ينكر النازيون أدب الرحمة والاحسان . لانهم قد بيتوا النية على الفظاظة والاجرام ، ولم يكفهم أن يجعلوا النازية حزبا سياسياً فجعلوها عقيدة جديدة تكفل لهم غاية ما يشتهونه من الغدر والقسوة وإنقياد الاتباع بغير ندم ولا تبكيت

صمير ، لانها عقيدة تصيب الضمائر بالشلل فلا تقوى على المخالفة والاباء .

قال بول شنابل Paul Schnabel أحد أساتذتهم في جامعة هال Halle إن النازية ضرب من الدين لانها لا تنتظر من أتباعها أن يقتنعوا بهـا بل تطلـب منهـم أن يعتقدوها » .

وقال الدكتور فرانك Frank أحد وزراء العدل النازيين « ان هتلـر متفـرد . كذلك الله . فهتلر والله شبيهان » . وقـال الـواز سبـانيل Alois Spunill زعيم النازيين في وادي السار . . « إن هتلر مسيح جديد . . أعظم وأقدر من عيسى بن مريم !» . وقال كرل kerrl القس المسخر للنـازيّة . . أدولف هو روح القـدس الصحيح » .

وهذه أمثلة من مئات الاقوال التـي تفيض بهـا الكتـب والخطـب والمقـالات الصحفية بين النازيين ، وهي أمثلة نفهم منها لماذا احتاجوا الى محاربة الاديان . فليس بين هذه الاديان دين يمهد لهم طريق البغي الذي سلـكوه ، ولـولا ذلك لتركوها وشأنها وساروا في طريقهم سياسيين وطنيين غير محتاجين الى اختلاق دين جديد .

فحملتهم على المسيحية أشبه شيء باحتيال اللصوص على اخلاء الطريق أولا من الحراس والرقباء ، ثم الانقضاض على الفريسة في أمان !! وليست نظرتهم الى الاسلام بأسلم من نظرتهم الى المسيحية فكلتاهما نظرة احتيال وتدبير اغتيال ، وموعدنا ببيان ذلك حديث تال » .

-٣-

حضرات السادة والسيدات :- في حديثنا الاول عن النازية والأديان قلنا ما فحواه أن مسألة الأديان عند النازيين مسألة مناورات سياسية وليست مسألة بحث عن الحقائق الكونية .

وفي حديثنا الثاني وصفنا موقفهم من الدين المسيحي : سواء في نظرتهم الى صاحب الرسالة المسيحية او الى الكنيسة ورجال الدين عامة أو الى الآداب والأخلاق التي بشر بها السيد المسيح ، وخلاصة هذا الموقف من جميع جهتاته أنهم يحاربون المسيحية كما يحاربون عقبة من العقبات الدولية ، أو خطة من خطط الأحزاب .

وفي حديثنا الليلة نتكلم عن موقفهم من الاسلام ، وهو في لبابه لا يختلف مما تقدم ، مناورات وفرص وأحوال تتحول على حسب المطامع والنزوات .

ولموقفهم من هذا الدين وأصحابه ثلاثة جوانب تتلاقى في الاساس والغاية ،ونريد بها الى جانب النظر الى الاسلام من حيث هو عقيدة نفسية وقرائن اجتماعية ، وجانب النظر الى المسلمين من حيث هم شعوب وحكومات يعاملها النازيون أو يرجون أن يعاملوها . ثم جانب النظر الى الاسلام والمسلمين كما يمثلونه في بلادهم للأمة الالمانية عامة او للطائفة النازية على التخصيص .

فالاسلام من حيث هو عقيدة نفسية ليس بالتنزيل الآلهي في رأى النازيين ، والا لآمنوا وأوجبوا على أنفسهم أحكامه وعباداته .

فهو اذن عندهم ثمره من ثمرات السلالة السامية التي يشهرون بها وينكرون فضائلها . وحكمها عندهم كحكم كل عقيدة صادرة من بلاد الساميين بلا استثناء واذا كانوا قد أنكروا المسيحية - التي هي دين وطنهم - لانهم نسبوها الى المصادر

السامية . فالاسلام أولى بانكارهم لهذا السبب قبل غيره من الاسباب . بل هم قد استطاعوا أن يرجعوا بنسب السيد المسيح الى الجرمان على عادتهم في نسبة كل عمل عظيم الى الآريين ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحملوا مثل هذه الاوهام في نسب محمد عليه السلام لأنه نسب عربي صريح من أبويه ، لا موضع فيه لتشكيك أو التباس .

فالاسلام على هذا ما أن يكون تنزيلا سماويا في رأي النازيين ، وهم يكذبون اذا وصفوه بهذه الصفة وهم لا يؤمنون به ولا يوجبون أحكامه وعباداته .

واما أن يكون عملا من أعمال البشر ، وحينئذ ينعتونه بكل ما نعتوا به الافكار السامية وكل ما أنكروه على جميع الساميين .

قال هتلر في الفصل الحادي عشر من كتابه « كفاحي » بعنوان السلالة والشعب : الآرى وحده هو صاحب المرتبة الاولى من بني الانسان اذا قسمناهم الى ثلاث مراتب : مرتبة الذين ينشئون الثقافة ، ومرتبة الذين ينقلونها ، ومرتبة الذين يهدمونها . فهو دون غيره الذي أقام الاسس ورفع الجدران لكل بناء من أبنية الثقافة الانسانية ، وانما مظهر البناء وطلاؤه هو كل ما يعزى الى مختلف الشعوب الاخرى .

ثم لاح له أن نهضة اليابان القوية قد تناقض ما يقرره من هذا الرأي الشامل فقال . . وليس بحق - كما يبدو لبعض الناس - ان اليابانيين قد أخذوا الاداء الفني من أوربا فأضافوه الى ثقافتهم الاصلية ولكن الحق أن الصناعة الاوربية والثقافة الاوربية معا قد صبغتا هناك بصبغة الحضارة اليابانية . وليس أساس المعيشة اليومية في اليابان الحديثة تراثا وطنيا على ما يتراءى من الملامح الخارجية التي تبده أنظار الاوربيين لما بينها وبيننا من التباعد . انما أساس معيشتهم اليومية ، أي جهود الآريين فاذا اتفق من اليوم أن انقطع أثر الآريين في حياة اليابان ، أو فرضنا انهيار كل من أوربا وأمريكا ، فقد يلبث التقدم الصناعي والعلمي في اليابان فترة اخرى ، بيد أن المعين سينضب في خلال عشرات قلائل من السنين » . .

وهذا حكم الزعيم النازي الأكبر على كفاءة العقل الياباني لأنه يخالف العقول

الآرية . فليس للساميين نصيب أكرم من هذا النصيب بين النازيين ، وهم كما تعلم لا يبلغون من القوة السياسية والنهضة العلمية في العصر الحاضر مبلغ أهل اليابان .

والعبرة في حكم هتلر على أهل اليابان عبرتان : احداهما هذا الرياء الذي لا يمنع هتلر ان يعامل الأمم كل يوم بميزان ، وتستوي في ذلك جميع الآجناس .

والعبرة الأخرى أنه يحصر المزايا الانسانية والحقوق الأدبية في سلالة الآريين ، ويجرد من عداها من أشرف المزايا والحقوق . فلا أمل لأمة في الكرامة الانسانية على يديه .

***

أما الجانب الذي ينظر فيه النازيون الى المسلمين فهم خادعون فيه لا محالة . وأخدع ما يكونون حين يظهرون الاشفاق على المسلمين من الظلم والسيطرة الأجنبية ، لأن النازيين يحرمون الشعب الالماني من الحرية السياسية فكيف يسمحون بها للمسلمين الساميين ؟ ولأن النازيين يستكثرون على أقطار أوربا التي يحكمونها أن تكون لها صناعات كبرى وثروات مستقلة ، فاذا حكموا الشرق فكيف يبذلون له ما يضنون به على القارة الأوربية ؟؟

هذا خداع لا نطيل في تنفيده وتبيين خفاياه . فكل اطالة في هذا الصدد سوء ظن بالعقول .

على أن سوابق هتلر والنازيين عامة تجيز لنا أن نقول . . أن قضية فلسطين كانت أوفر القضايا الشرقية حظا من لغط النازيين ومن دعواهم الغيرة على المسلمين ، ومع هذا لا نستبعد على النازيين إن كتب لهم النصر أن يصالحوا اليهود على الخروج من المانيا لاحتلال فلسطين وما جاورها فليس هذا باعجب من مصالحتهم الشيوعيين بعد أن وسموهم بأنهم حثالة المجرمين ، ولا بأعجب من مشاركتهم اليابان في بناء النظام العالمي الجديد بعد أن قال فيهم الزعيم النازي انهم عالة على حضارة الأوربيين والامريكيين ولا بأعجب من اثارته اليابان اليوم على الولايات المتحدة وهي دعامة الثقافة الانسانية التي تقتبسها الاجناس

الصفراء ، ولا تحسن الاقتبّاس !

***

وبينا ينادي النازيون المسلمين أنهم في خطر ، وأنهم قادمون اليهم لانقاذهم من جميع الأخطار ، اذا بهم يتحدثون بينهم عن المسلمين فيقولون إنهم هم الخطر على الحضارة الأوربية ، وأن اليقظة الاسلامية يجب أن تقبر في مهدها قبل ان يستفحل امرها ويتفاقم شرها ، وقبل أن يتسنى للمصلحين في تركيا وايران ومصر والبلاد العربية أن ينفضوا غبار الركود عن ذلك الدين القديم !

وتلك هي خلاصة الرسالة التي ادرنا على موضوعها هذه الاحاديث الثلاثة ، هي رسالةالداهية النازي « رولف بك » عن الاسلام .

ومن المعقول أن يكون للنازيين كلامان ـ لا كلام واحد ـ عن المسلمين والاسلام .

فالكلام الذي يقولونه للمسلمين هو كلام تعليق وخداع واستغفال وفيه شيء من معنى الثناء أو توخي الرضاء .

أما الكلام الذي يقولونه لأتباعهم وتلامذتهم عن المسلمين ، فينبغي أن يكون علي نقيض ذلك . . ينبغي أن يكون قدحا في آداب المسلمين لانهم بغير ذلك لا يقنعون أتباعهم وتلامذتهم أن بلاد الاسلام غنيمة مباحة للآريين ، وان فتح الآريين اياها نعمة على الشرقيين والغربيين ، وان تركها في أيدي أبنائها خطر على العالم الآوربي في المستقبل كالخطر الذي استهدف له فيما مضى ، وان ابناء تلك البلاد لا يستحقون ما يفيض فيها من الخيرات . فانها خيرات ضائعة او معكوسة ما لم يتداركها ابناء الشمال وهي لهم مال حلال !

***

وعبث أن نناقش الآراء التي في رسالة « رولف بك » مناقشة النقد والاستدلال بالحجة والبرهان . فهذه الرسائل وأمثالها لا تكتب في المانيا لتمحيص رأي أو للبحث عن حقيقة . وغاية ما يقصدونه بها غرض موقوت يتقلب مع الاحوال .

الا اننا نتخذ منها مثلا من الأمثلة للدلالة على مبلغ السخف في أساليب هؤلاء النازيين الفكريه ، او على قدرتهم احيانا على تضليل أنفسهم في فهم اخلاق الشعوب ، وقد يتوقف على فهمها الصحيح نجاحهم في ميادين الحرب والسياسة .

فرسالة « رولف بك » مفتتحة بصورة بدوي ساجد على الرمال الى جانب جمله في الصحراء وهي عنده مثل الذل والضراعة وتمريغ الكرامة الادمية في العبادة ، ومن أجل ذلك لا يستغرب المؤلف ان يمرغ المسلم وجهه بين يدي الأجنبي المستعمر كما يمرغه في سجدة الصلاة .

وهنا السخف كله في استنباط الأمور والفياس عليها . اذ الواقع ان هذه المسافة الشاسعة بين الخالق وهي التي تجعل المسلم عزوفا عن افناء نفسه في طاعة مخلوق مثله ، وعلى نقيض ذلك دين الآرية الجديدة ـ دين النازيين ـ الذي يسول لابنائه عبادة هتلر وعبادة كل زعيم فمن دان بعبادة الانسان فمن السهل ان يعبد انسانا من فاتحي بلاده ، كما يعبد أنسانا من صميم الجرمان .

وعلى هذا يقاس سائر ما في مثيلاتها من السخف والزيغ والاستخفاف بالحق والعقل والضمير . بل يقاس على مواقفهم في شؤن السياسة . فان الذين يسخرون المقدسات لاغراضهم أو يخترعون المقدسات اختراعاً ـ لن يقولوا في السياسة قولا يسلم من الغرض المتقلب ويحسن الاطمئنان اليه .

عباس محمود
العقاد

هتلر في الميزان

دار الكتاب اللبناني - بيروت



هتلر يوضح نفسه

مقدمة

فى هذا الكتاب ما أنا بقاض ، ولا يسرنى أن أكونه

لأننى لا أحسن التسوية بين الخصمين فى قضية الطغيان والحرية الانسانية .

وأحمد الله أننى خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة ، أى فى السن التى يراع فيها بعض الناس بمظاهر السطوة والاقتحام ، والتى يخيل إليهم فيها أن الشجاعة والبغى شىء واحد ، وأن العزة هى إذلال الآخرين ، وأن بعد الذكر هو حسب الانسان من المجد ، ولو كان ذكراً بالفتك والشر والايذاء

فمنذ نيف وثلاثين سنة كان لى شرف الخصومة فى هذه القضية الخالدة ، وكنت أبحث فى أعماق نفسى فلا أحس فيها غير المقت والازدراء لأولئك الذين سموهم عظماء التاريخ لأنهم طلبوا المجد والشهرة من طريق الغزوات والفتوح ، وقاسوا عظمتهم بمقدار احتقارهم « للانسان » .

وقد صدرت فى مصر كتب ومجالات أشاد أصحابها يومئذ بتمجيد هؤلاء العظماء وفى طليعتهم نابليون الأول ، فكتبت [1] أقول :

« . . . يعظم مثل نابليون فى عيون الهمل بقدر استهانته بأرواح الناس ، وتكبر قيمة حياته بمقدار استصغاره لحياتهم ، وليس هو من قبيل أولئك العظماء الذين يكبرون وزان ما لهم من المقدرة على تهذيب الناس واصلاح شئونهم ، وليس فى طاقة العامى أن يتصور كيف أن رجلا يميت الألوف لا يكون أهلا للاجلال والتبجيل

---

(١) الجريدة فى السابع من شهر يوليو سنة ١٩١٢

« . . . نابليون رجل من مجانين المطامع ، أولئك الذين تملك عليهم الأثرة عقولهم فلا تدع فيها موضعاً لغير أطماعهم وشهواتهم . لا يدور بخلدهم إحساس لغيرهم أو أمل غير أملهم ، فلا يحسبون أن فى الوجود أرواحاً تجب صيانتها غير أرواحهم ، أو أن لسواهم أملا يحرص عليه كما أن لهم أمانى وآمالا

« . . . . لقد جعلوا نابليون مثالا لقوة الارادة ، ويظهر أنها أقل صفات نابليون قبولا للمنازعة فى رأى الناس . على أنى لا أظن رجلا يأتى مثل هذه الأعمال مطلق الارادة أو مختاراً بأتم معنى الاختيار

« فالارادة عند جماعة السيكولوجيين قوتان : قوة دافعة تغرى صاحبها بالاقدام وتهون عليه العوائق ، وتكون هذه القوة على نهايتها عند المجنون الذى لايكاديهم بأمر إلا فعله ، ولا يتضح له نهج إلا سلكه ، غير متدبر فى العواقب ولا حاسب حساب العوائق

« وقوة مانعة تقعد بالنفس عن كل ماتهم به فلا يكاد صاحبها يقدم على أمر لفرط توجسه وكثرة ما يمثل له وسواسه من أسباب الفشل والخيبة ، وهى عند الممرورين الموسوسين على أشد ما تكون

« والارادة الصادقة هى الموازنة بين هاتين القوتين ، والمداورة بينهما آناً إلى هذه وآناً إلى تلك ، كما تقضى به الحال ، وأتم أشكالها حسن الترجيح بين الدواعى والموانع ، وتقديم عامل الاقدام فى موطن الاقدام ، أو عامل الاحجام فى موضع الاحجام .

« وما كان نابليون قوى الارادة بهذا المعنى ، ولكنه كان رجلا قوي طموح الأمل شديد اندفاع المطامع ، حتى لقد ينسى وهو ناهض إلى أمله ما لاينبغى أن ينساه المجرب الحكيم ؛ ولولا ذلك ما صرعته مطامعه صرعات ، آخرها تلك الصرعة التى أوقعته فى يد هدسن لو »

ثم ختمت ذلك الفصل قائلا :

« إن من طبع المرأة الضعيفة والولد الصغير أن يستكينا إلى القوة حيث كانت وهما اللذان يعجبان بالقوي ولا يطيقان أن ينظرا أثر قوته فى نفع النوع الانسانى والاضرار به . أما الناقد الاجتماعى فيجب أن يكون أبعد من ذلك نظراً وأصدق حكما .

« وما أشبه أخلاق الجمهور باخلاق المرأة والطفل . فانه لينتظر من يتأله عليه فيعبده ، وقد كان ذلك شأنه مع نابليون

« كان هـذا الرجل يسبح فى لجة من الدم والناس تنظر إليه فلا يعنيهم من أمره إلا أن يشاهدوا براعته فى السباحة .

« كان يهدم المدن ويدمر الأقاليم و يدك الممالك وهم ينظرون من كل ذلك إلى خبرته بصف المربعات العسكرية ، ودربته على تنظيم المواقع واطلاق النيران

« لقد مضى زمان تلك العظمة . وحق على الكتاب فى هذا العصر أن يعودوا الناس إكبار العظمة التى يجمل بهم اكبارها . . »

* * *

هذا ونابليون هو نابليون .

والفرق بينه و بين طغاة الحرب الحاضرة كالفرق بين المارد والأقزام .

والخطر منه وهو فى حوزة التاريخ ممتنع كل الامتناع ، إلا أن يكون خطر القدوة والايحاء .

فاليوم والخطر قريب ، والعالم قد مضى عليه مائة ونيف وعشرون سنة بعد حروب نابليون ، والناس يحق لهم أن يربحوا ولا يخسروا من تجارب هذه السنين ، لا يطيب لى أن أقضى اليوم حيث خاصمت بالأمس ، ولا أرى من واجب الكاتب أن يحكم و يقول : هذه أسباب الحكم ، بل أرى واجبه الذى لا واجب

له غيره أن يخاصم ويقول : هـذه أسباب الخصومة ، وأن يتحرى الصدق فى خصومته والاستقراء الصحيح فى بيانه ، لأن الخصم الصادق فى قضية الطغيان والحرية الانسانية أعدل من القاضى الذى لا يميل هنا أو هناك فى هـذه القضية

والخصومة الصادقة هي التى أعد بها القارىء فى هذه الصفحات .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

مخلوق الظَّرُوف والمصَادَفات

تمهيد

كثيرا ما يكون النظر فى حركة عالمية أو حرب عالمية ، بمثابة النظر فى حياة رجل واحد هو الرجل الذى ابتعث تلك الحرب أو اقترنت باسمه تلك الحركة ، كما هى الحال فى اقتران اسم هتلر بالحرب العالمية الحاضرة

وهنا الصعوبة الأولى !

فما هو المقياس الذى نرجع اليه فى تقدير رجل من رجال الحوادث أو رجال التاريخ ؟

تختلف المقاييس هنا أشد اختلاف ، ولكن ما من خلاف قط فى أن المقياس الذى يعتمد عليه الذهن العامى أو يعتمد عليه جماهير الدهماء من الناس — هو أبعد المقاييس قاطبة عن الصواب وعن الانصاف

لأنهم يعظمون الرجل بمقدار السيطرة التى فى يديه ، أو بمقدار الضجة التى يثيرها من حوله

والخطأ ظاهر فى كلا المقياسين

إذ الوصول إلى السيطرة مما يتاح ، فى أيام القلاقل خاصة ، لأناس لا خطر لهم فى سائر الأيام ، وليست لهم قيمة انسانية رفيعة إذا وزنوا بميزان الأخلاق والفضائل التى يعتز بها « بنو الانسان »

وقد وصل « باچى سقا » وهو ابن سقاء قاطع طريق إلى كرسى الامارة فى بلاد الأفغان ، ووصل قاطع طريق آخر يجهل القراءة والكتابة إلى رئاسة الدولة فى بلاد المكسيك وهو فرانسيسكو بانشو (١٨٧٧ — ١٩٢٣) الذى اشتهر باسم فيفافيلا [1] وشغل العالم الجديد فى أيامه عن كل بطل وكل كوكب من كواكب الشهرة السياسية أو الفنية

وعلينا أن نذكر أن الكفاءة الضرورية للوصول إلى السيطرة لاتقاس بحجم الدولة التى يسيطر عليها الرجل . فالروسيا ، مثلا ، عدتها وعدة البلاد الخاضعة لها زهاء مائة وثمانين مليونا من النفوس الآدمية ، ولا يلزم مع هذا أن يكون ستالين أقدر من مصطفى كمال بضع عشرة مرة . . . لأن الترك أقل عددا من الروس بهذا المقدار

بل يتفق كثيرا أن يكون الوصول إلى السيطرة فى البلاد الصغيرة أصعب من الوصول اليها فى الدول الضخام ، كما يتفق كثيرا أن تكون قيادة الزورق الصغير أصعب من قيادة السفن « الراسيات فى البحر كالأعلام »

ومتى وصل الرجل إلى السيطرة فى دولة كبيرة فما أسهل مايشغل العالم ويثير الضجيج ويملأ الاسماع ! وما أعسر التغلب عليه واجلاءه عن مقعد الحكم ومرجع التصريف والتدبير !

ان الذى يحارب به يومئذ ليحارب الدولة بأسرها ، وانه ليحتاج إلى ثورة جائحة لاتندفع اليها الشعوب فى كل لحظة ، ولا تجازف بها إلا فى حالة القنوط . وربما بلغت الشعوب حد القنوط بعد أن يكون حاكمها المسيطر عليها قدفارق الحياة

فلا ضخامه الحوادث إذن ولا ضخامة الدولة ولا اتساع مدى السلطان بالمقياس الصحيح لكفاءات الرجال

---

(1) Francisco Pancho , Viva Villa

وانما المقياس الصحيح أن نفصل بين فعل الرجل وفعل الظروف التى لافضل له فى خلقها ولا يد له فى توجيهها ، وان ننقله من ظروفه لنعرف ماهو مستطيع أن يعمل وهو بعيد عنها

أو المقياس الصحيح هو أن نقيس ظل الرجل بعد نزوله من رأس القمة التى هو واقف عليها . فلعله لو وقف على الأرض ولم يقف على رأس تلك القمة لماألقى من الظل بعض مايلقيه سائر الناس

وما نعرف أحدا من الحاكين بأمرهم فى عصرنا هذا قد أفادته «الظروف» مثل ماأفادت أدولف هتلر زعيم النازيين على التخصيص

فهو بحق مخلوق « الظروف » والمصادفات : لو انتقل من بيئته أو من زمانه أو من جيله لما تخيلت له شأنا كهذا الشأن الذى انتهى اليه

فلو رجعنا إلى موازين الدهماء لما كان مصطفى كمال شيئا إلى جانب أدولف هتلر . قياساً إلى الفارق العظيم بين مايقدر عليه حاكم الألمان ومايقدر عليه حاكم الترك فى مجال السياسة العالمية

لكنْ الواقع أن القيـاس معكوس ، وأننا نجحف أبلغ الاجحاف إذ نسوي بين الزعيم التركى والزعيم الألمانى فضلا عن ترجيح هذا على ذاك ، لأننا فى هذه الحالة نسوي بين من يعارض التيار ومن يحمله التيار ، وننسى أن مصطفى كمالا نجح والدنيا كلها عقبات وسدود فى وجهه ، وان أدولف هتلر نجح والطرق كلها مفتوحة بين يديه

فما من طائفة ولا حادثة وقعت فى ألمانيا خلال الجيل الماضى إلا أفادت هتلر على عمد أو على غير عمد

وما من شيء كان عائقاً له الا كان فى الوقت نفسه عائقا لألوف من ذوى الجاه والسلطان يسعون لرفعه عن الطريق ، ويستفيد هو من سعيهم بغير مجهود

كان الألمان جميعا يطلبون تبديل الحال التى كانوا عليها بعد الحرب العظمى وكانوا فى ذلك فريقين :

فريقاً يريد تبديل الحال للعود إلى ألمانيا القديمة : المـانيا التى تسيطر على الدنيا وتتأهب للغارة الـكبرى كرة أخرى ، وهم أصحاب المصانع والضياع والقادة والضباط ولا سيما الصغار منهم الذين ضاعت وظائفهم بضياع الجيش الألمانى كما

ضاعت عليهم أحلام المجد والخيلاء

وفريقاً يريد تبديل الحال لبناء الدولة الألمانية على أساس جديد ، وهم الفقراء والأوساط والعمال ، ودعاة الحرية وأعداء العهد القديم

وكلا هذين الفريقين كان يضرب بمعوله فى أساس النظام القائم ، ويفتح من وراء كل ضربة يضربها ثغرة فى السد الذى كان يصد النازيين ويحمى عليهم مدارج الصعود

كان المحافظون من الأغنياء حانقين ، لأنهم فقدوا ما كان لهم من الجاه فى الدولة القديمة ، وأصبحوا على خطر من الشيوعية والاشتراكية وسائر المذاهب الحمراء .

وكان الأحرار من أوساط الناس حانقين ، لأن هبوط أسعار النقد ضيّع ما ادخروه وضيع ما يكسبون من رزق ضئيل

وكان العمال حانقين ، لأنهم لايجدون عملا وقد بلغ عاطلوهم فى بعض السنوات سبعة ملايين .

وكان المظنون — أو كان الواجب — أن يحارب الشيوعيون هتلر وأشياعه كما يحاربون ألد الخصوم

غير أنهم جروا على حماقتهم المعهودة فى ايثار الديمقراطيين والاشتراكيين المعتدلين بالعداء قبل كل عداء ، لأنهم يخشون من دعوتهم أن تنزع منهم جميع أنصارهم . ولا يخشون كما اعتقدوا ، فى ذلك الحين ، أن يهجرهم أنصارهم ليلحقوا بالنازيين والمتشددين من أحزاب اليمين

واتفق من غرائب المصادفات فى الوقت الذى ظهر فيه هتلر أن رجحت كفة ستالين فى الروسيا على كفة تروتسكى المبشر بتعميم الدعوة الحمراء فى أنحاء العالم ، فقررت حكومة « السوفييت » أن تنفض يدها من الشيوعيين فى البلاد الخارجية

فلا تمدهم بالمال والمعونة ولا تساعدهم بالدسائس ونشر الدعوة ، فما هى إلا أسابيع معدودات حتى نفدت أموال الشيوعيين الألمان وعجزت صناديقهم عن اطعام العمال العاطلين وعن بذل الاجور والمرتبات للموكلين بشئون الحزب والداعين إلى نشر مبادئه حيث يقدرون لها الرواج والاقناع . فتحولوا الوفا الوفا إلى معسكرات النازيين : إلى المعسكرات التى كان ملوك الصناعة فى تلك الآونة يترعون صناديقها بالاتاوات والامداد ، ويهيئون لها شراء المعدات والأجساد بالاطعمة والأزواد !

وأعجب من هذا أن تجيء المعونة بعد المعونة لهتلر وأشياعه من موظفى الدواوين وهم أيدى الحكومة وعيونها والمفروض فيهم أنهم أنصارها وأعوانها على أعدائها . ولكنهم كانوا — إلا قليلا — جنود العهد القديم وتلاميذ الاستبداد ، فبذلوا لهتلر وأشياعه قصارى ما استطاعوا أن يبذلوه ؛ وما هو بقليل

فلما قضى القضاء على هتلر بالسجن خمس سنوات (١٩٢٣) لأنه شهر السلاح فى وجه الدولة وأقدم على العصيان ـ لم تمض عليه تسعة شهور فى السجن حتى عفى عنه خلافاً لأحكام القانون التى تحرم العفو عن كل مجرم عائد سومح قبل ذلك فى العقوبة ولم يتب عن مقارفة الاجرام ، وكان هتلر قد حوكم وحكم عليه قبل ذلك بالحبس ثلاثة « أشهر موقوفة التنفيذ » .. فلم تحل هذه السابقة دون العفو عنه مرة أخرى . بعد شهور قضاها فيما يشبه معيشة القصور . بل لم يقبل المحلفون توقيع



هتلر وزملاؤه فى السجن ﴿ تلاحظ هدية الزهر التى كانت أمامه ﴾

الحكم إلا بعد أن أكد لهم رئيس المحكمة أن العفو صادر لامحالة ، فلا ضرورة لاظهار القضاء بمظهر المخالف لنص القانون الصريح

ولما تبين أن « الجنسية الألمانية » لا تشمله لأنه رعية الحكومة النمسوية احتالت وزارة برنسويك على الأمر بتعيينه فى وظيفة « شرفية » تسمى وظيفة الاستشارة فى تلك الحكومة Regierungsrat ليصبح المانى الجنس بحكم التوظيف ، وفاقاً لدستور فيمار الذى يشمل بالجنسية الألمانية كل أجنبى يشغل وظيفة فى حكومات الولايات ، أو حكومة الريخ الكبرى

ويبدو من هذا وأشباهه مبلغ الاغضاء والاملاء الذى حف بهتلر وأشياعه وهم ينشرون دعوتهم ويهددون خصومهم ويستكثرون من أذنابهم ، آمنين مطمئنين لايجازفون ولا ييأسون من المعونة عند الحاجة اليها . لأن دستور فيمار قد الغى حكم الاعدام فلا خوف منه .. ثم لا خوف من السجن الذى يعقبه العفو بعد قليل

* *

ثم أتمت الدسائس فى حاشية المارشال هندنبرج مابدأته الحوادث والازمات ، فانتقلت بهتلر من شغب الطريق إلى ديوان الاستشارة

وكان المارشال الكبير قد وهن واستسلم ، وثقلت عليه وطأة السنين ، فأصبح أرجوحة تتردد بين رجلين من دهاة زمانه : أحدهما أمين سره القديم الجنرال فون شليخر الذى قيل فيه أنه أحق بقيادة البحر « لبراعته فى ارسال القذائف تحت الماء » . . وثانيهما فون پاپن الذى كان يساكن الرئيس هندبرج فى قصر واحد ، وقيل فيه أن قدرته على خداع المحترسين منه العارفين بخداعه أكبر من قدرته على خداع الواثقين به المطمئنين اليه !

كلا الرجلين كان يريد ان يضرب منافسه ويقضى على نفوذه وأن يستخدم



جريجور شتراسر مؤسس «النازى» فى ألمانيا الشمالية
وأحد ضحايا هتلر فى المذبحة المشهورة

النازيين فى مأربه لأنه لم يكن يستطيع أن يستخدم الديمقراطيين والاشتراكيين وسائر أحزاب الوسط والشمال

وكلاهما كان يريد السوء بالنازيين ويضمر لهم الغدر وأن يشطرهم شطرين بعد ارتقائهم مناصب الاحكام، ثم يضرب أحدهما بصاحبه متى سنحت له سانحة قريبة وكثيراً ما كانت تسنح فى تلك الأيام

لكنهما كانا مختلفين فى الأسلوب وان اتفقا فى نية الغدر والوقيعة، فكان فون شايخر ينوى أن يرشح نفسه للاستشارة وينذب زعيماً من كبار زعماء النازيين لوكالة الاستشارة، ثم يتقدم إلى الريشستاج فيقسم النازيين عاجلا أو آجلا بين هتلر وبين الزعيم النازى الآخر (وقد وقع الاختيار على جريجور شتراسر منشىء حزب النازى فى المانيا الشمالية) ... فينحل الريشستاج ويعاد الانتخاب ويخرج النازيون فريقين ضعيفين يزيدهما هو ضعفاً بسلطان الحكومة الذى يقبض عليه بكلتا يديه، وهو مستشار الدولة

وكان فون بابن يريد أن يكرر ما حدث فى انجلترا من ترشيح المستر رمزى ماكدونالد لرئاسة الوزارة رجاء أن يضعف حزب النازى كما ضعف حزب العمال فى البلاد الانجليزية، فاقترح على المارشال الهرم أن يدعو هتلر إلى تأليف الوزارة مع اثنين أو ثلاثة من انصاره الذين يرضاهم المارشال، وقنع هو بوكالة الاستشارة معتقداً أنه يملك زمام الأمور بسيطرته على المارشال وتألبه مع سائر الوزراء

ولما طال التنافس بين الخصمين فكر فون شليخر فى الانتقاض والتآمر بالمارشال مع بعض القوادالعسكريين وبعض رؤساء العمال الساخطين على النازيين وأحزاب اليمين. فاتفقوا على تدبير إضراب عام يجتمع فيه العمال وحامية بوتسدام ويزحفون على برلين فيتخذون من ذلك ذريعة للحجر على الرئيس الشيخ وإعلان



المرشال هندنبرج بين هتلر وجورنج

« حالة الطوارىء » والقبض على دفة الحكومة باسم الضرورة القصوى التى تقتضيها المصلحة الوطنية

ونمى الخبر الى فون پاپن الساهر على حركات خصمه فأبلغه الى المارشال وأقنعه بوجوب الاسراع الى دعوة هتلر وإقامته على رأس الوزارة ، ولم ينس خطته الأولى التى أراد بها أن يحتفظ بأعنة الأمور فى يديه ، فاشترط أن تكون له وكالة الاستشارة وأن يكتفى فى مجلس الوزراء بعضوين اثنين من النازيين وهما الدكتور ولهلم فريك والكابتن هرمان جورنج

وقد كان له ما أراد !

إلا ان الحوادث قد خالفت ما قصد من تدبيره ، فجرت الانتخابات الجديدة باشراف المستشار هتلر على الطريقة النازية المعهودة ، وصدرت المراسيم بحل جماعات الشيوعيين ، واشتد المرض بالماريشال الهرم فاصبح لا يعى ما يقول ولا ما يقال بلسانه ، ثم مات وتبوأ هتلر مكانه باسم زعيم الأمة ومستشار الدولة ، وأفلتت الأعنة من يدى فون پاپن فانقاد لسائقيه

على أن الدسائس ، من شليخر أو پاپن ، لم تكن هى جماع البواعث التى أكرهت هندنبرج على قبول هتلر فى رئاسة الوزارة ، وعلى إبقائه فيها بعد ذلك الى أن كان منه ما كان . فقد أكرهه على قبوله باعثان آخران ، قد يصح أن يقال أنهما باعثان شخصيان

أهم هذين الباعثين أن هندنبرج كان يحذر المغالين من المحافظين أحزاب اليمين ، لأنه كان يعلم أنهم يكيدون للنظام القائم و يسعون الى إعادة الملك سيرته الاولى فى سلالة هوهنزلرن ، وكان هندنبرج ـ على نفوره الفطرى من هدم نظام يقوم هو على رأسه ـ لا يحب فى تلك الآونة أن يواجه العالم بالتحدى والمناجزة وما يتبعهما لا محالة من تضافر الدول على ألمانيا وذهاب كل أمل فى تخفيف قيودها

واحسان الظن بمقاصدها . فاذا لم يكن بدٌ من الخيار بين الملكيين أو الشيوعين أو النازيين الذين لايرحبون برجعة آل هوهنزلرن — فهولاء النازيون أولى بالتجربة ! ولا سيما اذا تكفل بكبحهم زملاؤهم فى الوزارة من أصدقاء الظاهر أعداء السريرة

والباعث الثانى هو فضيحة الضياع الشرقية كما كانوا يسمونها فى تلك الايام ، وخلاصتها أن الحكومة خسرت أموالا كثيرة من خزانة الدولة بُذلت جزافا لاناس من أصحاب الضياع الواسعة فى بروسيا الشرقية معظمهم أصدقاء أو أقرباء أو جيران للرئيس ، وتهامس بعض النواب بهذه الفضيحة ثم لغطوا بها وطلبوا التحقيق فيها ، وثارت الثوائر حولها لوفرة المأزومين والمفلوكين والمتطلعين إلى قليل المال يحرمونه وهم يسمعون بالحكومة تكيله جزافا لكبار الزراع وأصحاب الضياع

فغضب الرئيس على شليخر لأنه لم يفلح فى اسكات تلك الأصوات ومداراة تلك الفضيحة ، وبدا له ان الحكم على طريقة النازيين بالقمع والارهاب وقطع الألسنة وكم الأفواه خليقٌ أن يريحه من لغط اللاغطين وزعم من زعموا أنه قد أخذ لنفسه بعض ما قيل انه أعطاه الجيران والأصدقاء ، وهو زعم ظالم تكرر على ألسنة الشيوعيين ولم يثبت قط بالقول الوثيق .

ويرى بعض المطلعين ان هندنبرج ما كان ليطلق أيدى النازيين فى قمع الشيوعيين وحل أحزاب المعارضين لولا انزعاجه الدائم من فضيحة بروسيا الشرقية وأقاويل أحزاب الشمال .

فهذا وذاك وغير هذا وذاك من دسائس الحاشية وطوارىء الزمن وقد مهدت كلها الطريق لهتلر ووضعت السلم تحت قدميه حيث يريد وحيث لا يريد .

فاذا قلنا ان زعيما كمصطفى كمال قد هجم على التيار اللجّىّ فشقه بالعزيمة التى

تروضه والأيْد الذى لا يباليه فماذا صنع أدولف هتلر فى تياره !

لبس فيه عوّامة النجاة ، ولم يدفع موجة واحدة من أمواجه ، بل ذهب مع الموج إلى مدى وثبتين من الساحل ، ثم وثب إلى الساحل فى أمان .

* * *

أفكاره وأفكار غيره :

وكما حملت الحوادث هتلر على اثباجها إلى ذروة الحكم حملته كذلك الأفكار السياسية التى نشأت فى قومه على عهده وقبل عهده بجيل أو جيلين : فلم يبتكر قط فكرة واحدة من تلك الأفكار التى شاعت بين الشعوب الجرمانية وكان لها شأن فى توجيه هذه الشعوب وجهتها الأخيرة ، ولم ترجع اليه صيغة واحدة من الصيغ التى دارت على الألسنة وكان لها شأن فى اذكاء النخوة القومية واقناع السواد . وما أسهل ما يقنع « عقل » السواد ؟ ! انه ليبحث عمن يقنعه ، بل يبحث عمن يخدعه ، ولا يهرب إلا ممن يفتحون عينيه ويرشدونه إلى الحق الصراح .

فالجامعة الجرمانية[١] التى تغنى بها هتلر قد ظهرت فى موطنه خاصة وقبل مولده بنحو ثمانين سنة ، ودعا اليها الفيلسوفان هردر Herder وفيخته Fichte أوائل القرن التاسع عشر فأطنبا ما أطنبا فى مزايا الجنس الجرمانى وفضله على سائر الأجناس البشرية وانه هو دون غيره شعب الله المختار المهيأ بالفطرة لمناجاة الأرباب ومكاشفة الأسرار ، وان لغته دون غيرها هى لغة الحكمة والفلسفة والعلم بحقائق الأشياء ، وان حكومته دون غيرها هى الحكومة التى قدرتها عناية الله لقيادة الأمم قهراً أو بالارشاد والاغراء ، وما من كلمة تغنّى بها هتلر فى هذا المعنى إلا ومرجعها إلى محاضرات فيخته الأربع عشرة التى ألقاها (سنة ١٨٠٧)

(١) Alldeutachtum

ووضع بها — من الوجهة الفلسفية — أساس تلك الدعوى التي يدعيها الجرمان .

ثم ظهرت دعوة هر كلاس Her Class قبل الحرب الماضية وتجاوبت أصداؤها فى صميم البلد الذى نشأفيه هتلر ونعنى به لنز Linz من الأقاليم النمسوية

واقترنت بهذه الدعوة دعوة مشابهة عُرفت باسم أوربا الوسطى تارة [1] وباسم الزحف على الشرق تارة أخرى [2] وشُرحت شرحا وافيا فى كتاب فردريش نومان Friedrich Naumann الذى كان يزعم كما زعم هتلر من بعده أن التهام أوربا الوسطى قديتأتى بمجرد الارهاب والاستعداد من غير حاجة إلى قتال.

أما قداسة الجنس الآرى فقد بشر بها الكونت دى جوبينو الفرنسي فى كتابه تفاوت الأجناس البشرية عند منتصف القرن التاسع عشر قبل أن يولد هتلر بنحو أربعين سنة ، وتبعه الانجليزى هوستون ستيوارت شمبرلين Houston Stewart Chamberlain الذى تجرمَنَ وبنى ببنت فاجنر الموسيقى الكبير وألف كتابه أساس القرن التاسع عشر مشيدا فيه بالعبقرية الجرمانية راداً فيه كل حضارة وكل عظمة انسانية إلى ذلك الينبوع الذى لاينبوع غيره — فى رأيه — للحضارات والعبقريات

والحركة النازية نفسها بجملتها وتفصيلها ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر على يد رجل يشبه هتلر من وجوه كثيرة وهو Vater Jahn الخطيب المتهوس الذى نظم فى المانيافرق القمصان الرمادية والأندية الرياضية ، وبلغ من جنونه أنه أشار باقامة السدود بين ألمانيا وفرنسا وبغرس الآجام التى تملأها الضياغم والسباع على حدود الأمتين صيانة للدم الجرمانى الطهور من التلوث بأوشاب الأمم الاجنبية ! وكانت الدعوة « التيوتونية » على لسانه تقابل الدعوة الآرية على لسان هتلر ، فكان يوصى أتباعه الشبان أن يتجسسوا على آبائهم فى البيوت

---

(1) Mittleurope (2) Drag Nach osten

وزملائهم فى المدارس ليردعوهم بالبطش والقسوة اذا خالفوهم فى دين العصبية الجنسية Volkstum وطالما صاح كما يصيح النازيون اليوم أن الشرف هو السلاح وأن من لا سلاح له فلاشرف له Wehrlos ehrlos . . . .
وأن العنف أساس الخلق والكرامة ومناط الحكم والسياسة .

وعلى جهل هذا الرجل وفراغ عقله لم تتورع جامعات المانيا أن تهدى اليه ألقاب الشرف العلمية والفلسفيه ، ولم يتورع الأدباء والشعراء أن يهدوا اليه الدواوين والمصنفات ، تمجيداً له واعترافا بسداد آرائه !! مما يدل على خليقة مستقرة فى دخيلة النفس الجرمانية أن تهتز لأمثال هذه الصيحة ، وأن تلبى أمثال هذه الدعوة ، ولا سيما بعد الهزائم والازمات .

ويقول فيلسوفهم ترتيشكه Treitschke فى تعليل ذلك : « إن هذه الحركة العامية ذات جذور متأصلة فى قرارة الخليقة الجرمانية ، فان قومنا طالما حنوا الى معيشة الفطرة الأولى ، فكلما جاش فى عروقهم الدم تبيغت نفوسهم بدفعة العنف الطاغية ! »

كذلك عداوة اليهود لم يكن هتلر أول دعاتها والنافخين فى نارها : بل كانت مذابح اليهود فى أوربا الوسطى وأوربا الشرقية أقدم من مولده بمئات السنين ، وكثيراً ما اقترنت تلك المذابح بأيام الضنك والمجاعة وشح الأموال . لأنها أيام تثور فيها الحفائظ ويضطرب فيها الحكم وتؤمن عواقب العبث والاغتيال .

كذلك الصليب المعقوف « شارة النازية » لم يخترعه هتلر بل اقتبسه من الجنود الألمان الذين عادوا به « من فنلندة » بعد ان حاربوا فيها الجيش الأحمر ، ولم يتغير منه إلا لونه الأزرق فقد سوده النازيون .

على ان حركة القمصان فى ألمانيا الحديثة إن هى إلا نسخة مستعارة من حركة القمصان فى ايطاليا الحديثة باشاراتها وشاراتها . مع فارق واحد فى تحيتها .

وهو أن السلام الرومانى فى روما معقول . أما فى جرمانيا فهو حركة يد بغير مدلول

ولم تكن الفلسفة النازية من مبتكرات العصر الحديث ولا سيما فى حملتها على الديمقراطية ووصفها الحاكم الجدير بأمانة الولاية . وإنما هى حكاية أو محاكاة للحكم التيموقراطى Timocracy الذى ذكره افلاطون وقال أنه نظام يسند الدولة إلى من لهم عزم وحماسة ولا يسندها إلى ذوى الرأى أو ذوى السيادة وأنه يقوم على « الارادة » ولا يقوم على الرغد الذى تتوخاه حكومات الشعب أو على الرشاد الذى تتوخاه حكومات العلية والسروات

وصفة الرجل « التيموقراطى » كما لخصها أفلاطون « أن يكون غليظا فى معاملة العبيد خلافاً للرجل المهذب الذى يترفع عن هذا الخلق ، وأن يخضع للسلطة ويحب القوة والجادة ، وألا يتذرع إلى طلب الحكم بالفصاحة وما اليها بل يطلبه لأنه مقاتل تفوّق فى أعمال الفروسية واجالة السلاح . وهو كذلك محب للرياضة والطراد »

* * *

وأعجب مما تقدم أن هتلر لم ينشىء الحزب الذى أصبح رئيساً له بعد ذلك بل أنشأه دركسلر Drexler و بضعة من رفاقه ؛ وأنه لم ينشىء فرقة واحدة من فرق الجيوش الأهلية التى راجت بعد الحرب الماضية لأحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، كفرقة القمصان البنية أو فرقة الحرس السوداء أو غيرها من جيوش اليمين . بل انشأها ارنست روهم Ernest Roehem وفرانز سلدت Franz Seldte و بعض الضباط القدماء

وكان اسم الحزب الذى رأسه هتلر حزب العمال الألمانيين ، فندب من قبل الحكومة للتجسس عليه كما قال فى كتابه ، ثم اقترح على أثر انضمامه اليه أن



هتلر وأصحابه قبل زهو النجاح

يسمى الحزب الاشتراكى الثورى ، محاكاة للاشتراكيين الثوريين فى روسيا الحمراء . فنفر زملاؤه من هذه التسمية ووقع اختيارهم بعد البحث والمشاورة على اسم « الوطنيين الاشتراكيين » ليتوسلوا باسم « الوطنيين » إلى اجتذاب أنصار اليمين ، وباسم الاشتراكيين إلى اجتذاب أنصار الشمال ، وليصبح الحزب بهذه التسمية قابلا لاستغراق الألمان جميعاً فى يوم من الأيام

فمن أى وجه نظرت إلى الرجل لم يسعك أن تحسبه زعيما لألمانيا لأنه خلاق

حوادث أو خلاق أفكار ، ولم يسعك أن تحسبه زعيما لأنه أقدر من فيها وأشرف من فيها ، وغاية ما يسعك أن تقوله على التحقيق أنه تقلد زعامتها لأنه « أنسب » من غيره لظروفها ، وفرقٌ عظيم بين الأقدر والانسب ، لأن المرء قد يناسب الظروف لنقص فيه كما يناسبها لخصلة من خصال الكمال والاقتدار

لا يخطىء :

أشاعت الدعاية النازية بعد احتلال وادى الرين والنمسا أن زعيمهم لا يخطىء ولا يتردد ، فاذا حان الموعد المقدور فلا يستأخر ساعة ولا يستقدم : كل شىء فى أوان وكل شىء بحساب

فلننظر الآن ماهو ذلك الحساب : هل هو حساب عويص بعيد عن التقدير أو هو داخل فى تقدير من يريد ؟

كل ماحسبه هتلر « أولا » أنه يستطيع أن يهزم النمسا وأمثالها إذا أراد فتح بلادها و « ثانياً » أن الدول الاوربية الكبرى لاتقدم على حرب عالمية فى كل لحظة . فهل هذه معضلة وهل هذا حساب ؟

من البديهيات أن ثمانين مليونا يهزمون سبعة ملايين ، ومن البديهيات كذلك أن دول العالم لا تهجم على الحرب العالمية فى كل ليلة ونهار

فأين هو الحساب ؟ وأين هى السياسة ؟

انما الحساب الصحيح أن يمضى هتلر فى سياسته دون أن يوقظ خصومه ودون أن يلجئهم إلى عزيمة الحرب التى ترددوا فيها .

أما أن يضرب النمسا فى سنة ١٩٣٨ وتقع الحرب فى سنة ١٩٣٩ فليس بشىء يعجز عقول الساسة المدبرين ، وليس هو بسياسة ، وانما هو فعل سلاح

فان كان قد فعل ما فعل وهو يعتقد أن الحرب لن تكون ، وأن الدول لن تقدم عليها فذلك نقيض الواقع ، وذلك أفشل الحساب

وما من وزير فى الدنيا يدخل فى تقديره أن يحارب وأن يتورط فى الحرب العالمية وألا يبالى عواقب هذه الورطة ثم يعييه أن يفعل كما فعل هتلر فى النمسا وبوهيميا وغيرها

وأفشل الحاسبين يستطيع أن يفعل كما فعل هتلر إذا كان كل حسابه أن يؤخر الحرب سنة واحدة . ثم تأتى لامحالة !

من الذى يعجز عن مثل هذا النجاح ؟

من الذى يعجز بثمانين مليونا أن يهزم سبعة ملايين !

كل المسألة إذن هى : هل يؤدى هذا الهجوم إلى الحرب أو لا يؤدى اليها

وهاهو ذا قد أدى إلى الحرب عياناً لامن باب الظن والترجيح ، فأين هو الاعجاز فى التقدير والتدبير ؟

هذا هو العجز بعينه فى عمل السياسة ، وهذا هو سوء الحساب وليس هو باتقان الحساب

* * *

ولننظر مرة أخرى فى تقديرات هتلر وأصحابه قبل الحرب لنرى هل هى مثال السداد والاتقان ، أو هى خطل ومجازفة من وجهة النظر النازية فضلا عن وجهات النظر الأخرى

فلماذا لم يضرب دانزيج بدلا من ضرب التشك قبل مؤتمر ميونيخ ؟

لم يكن لبولونيا ضمان من دفاع فرنسا وبريطانيا العظمى فى تلك الآونة ، ولم تكن على استعداد للقتال وحدها كما ظهر بعد ذلك فى الحرب الحاضرة

فاذا ضرب دانزيج واتفقت الدول على خطة مثل خطة ميونيخ فانه لقابض اذن على زمام بولونيا وبلاد التشك وجاراتها جميعاً فى مرافق التجارة والصناعة والاقتصاد ، فلا تقوى إحداهن على رد كلمة ولا على رفض اقتراح

ثم لماذا لم يقبل ما اقترحه الرئيس روزفلت وارتضاه ساسة الحلفاء من عقد المؤتمر الدولى الذى يفصل فى جميع مسائل الخلاف ؟

ألا يجوز أن تختلف الدول فى ذلك المؤتمر فيواجهها مختلفات بدلا من مواجهتها متفقات ؟ ألا يجوز أن ينتزع من أنصار التسليح فى الدول الديمقراطية حجتهم الكبرى التى أقاموها على رفضه التحكيم فلا سبيل إلى معاملته اذن بغير التسليح ؟ ألا يجوز أن يعذره الرأى العام فى الدنيا بأسرها إذا لجأ إلى الحرب لأنه قد أكره عليها اكراها بعد أن جرب وسائل الاقناع فلم يبلغ بها ما أراد ؟

كل اولئك كان جائزا ، وكان خيرا مما اختار

وكل ما هنالك من اعتراض على هذا الرأى أن إطالة الزمن فى المؤتمرات ربما مكنت الدول الديمقراطية من زيادة الاستعداد

فماذا صنع هو الآن ؟ هل منع ذلك الاستعداد ؟ وهل استفاد شيئا من المبادرة بالحرب قبل تمامه ؟

كلا . بل خسر أشياء كثيرة ؛ خسر الوقت الذى كان يزداد فيه استعدادا بالتموين والتخزين

وخسر الفرصة التى كان يوقع فيها الخلاف بين أنصار التسليح والدعاة الى نزع السلاح ، فلا يجمعون كما أجمعوا — من جراء خطته الهوجاء — على ضرورة التسليح جهد المستطاع

وخسر البلاد التى اضطر الى تركها للروسيا فى أوروبا الشرقية وشواطىء البحر البلطى ، وقد كان طامعا فيها لامراء

وربما قيل أنه لايبالى عواقب ذلك لأنه على يقين من خراب الروسيا بعد موت ستالين ، أو بعد الثوره الداخلية التى يتوقعها كثيرون

فان قيل هذا فقد كان أحرى أن ينتظر ذلك اليوم فيستريح من الحرب

الحاضرة ومن سوء السمعة التى جلبها على نفسه بصداقة الشيوعيين

***

الحق أننا لانعرف فى الحاكمين بأمرهم رجلا أفشل حسابا من هتلر فى هجومه كل مرة على خطأ واحد يدفعه من ورائه الى أخطاء

ولقد كان ذلك دأبه قبل ولاية الحكم و بعد ولاية الحكم ، ولا يزال دأبه الى الآن

فقبل الحكم أخطأ الحساب حين ظن أن الفرصة سانحة لقهر خصومه يوم عيد العمال (مايو ١٩٢٣) فاختلس السلاح من مخازن جيش الهجوم ليضرب به العمال المتظاهرين ، ثم عاد الى تسليمه مذعنا لتهديد الضابط لوسو Lossow معترفا معه بما فى هذه الحماقة من العجلة والمجازفة

وأخطأ الحساب من نوفمبر فى تلك السنة حين ظن أن الفرصة سانحة لقلب الحكومة فجمع جنوده وأزمع أن يقتحم ديوان الدولة بميونيخ ، وهو يعلل نفسه بولاء الحراس الحكوميين و يعتقد أنهم لن يطلقوا النار على المقتحمين ... ثم خاب ظنه فكان أول الهاربين عند انطلاق النار ، ولبث بعد هذه المجازفة الأخرى عشر سنوات يستعيد ما أضاع من ثقة ومن أنصار

وأما بعد الحكم فقد يكون فى تفاصيل عمله خطأ وصواب . لكنّ الاساس الذى قام عليه العمل كله خطأ لاشك فيه ، وهو اعتماده هنا كما اعتمد فى ميونيخ على أن خصومه لايطلقون النار . . فقد ظن أنه يراوغ و يراوغ الى غير انتباه ، وأن الدول الديمقراطيه تقبل التخدير بعد التخدير الى غير يقظة . فلم يصدق حسابه هنا ولا هناك

وقبل أن نسأل : لماذا اختاروه ؟ ينبغى أن نسأل : من الذى اختاره ؟ وما معنى اختيارهم إياه ؟

هل معناه أن ثمانين مليونا من الألمان اجتمعوا قبل نيف وعشرين سنة فعجموا أعواد رجالهم فردا فردا فلم يجدوا بينهم أحدا أصلح من هتلر للزعامة الالمانية ؟

هل معناه أن مؤسسى حزب النازى كانوا يملكون السيطرة على الأمة الألمانية بأسرها فيختارون من يشاءون ثم لا يقدر أحد على أن يرفض لهم أمرا ولا يسعه إلا أن يفرغ للزعامة التى ندبوه لها وهو يجهل مصيره ومصيرها ؟

هل معناه أن مؤسسى حزب النازى أصحاب ميزان لا يختل ولا يخطىء فى وزن الرجال فمن اختاروه للزعامة وجب أن يكون أفضل قومه بغير جدال ؟

كلا بالبداهة ! .. لا هذا ولا هذا ولا ذاك

فليس معنى اختياره قبل عشرين سنة أن الأمة الألمانية اختارته ، أو أن المؤسسين لحزب النازى فرضوه على تلك الأمة ، أو أنهم وزنوا الرجال جميعا فلم يخطئوا الميزان

وإنما معناه الواقع أن خمسة أو ستة من المشتغلين بالسياسة نظروا فى متناول أيديهم فوجدوا هتلر موافقا لهم وموافقا للشروط التى يطلبونها

ومتى عرفنا تلك الشروط عرفنا قيمة ذلك الاختيار ، وعرفنا أن معظمها « سلبي » يستلزم النفي أكثر من استلزامه الاثبات ، أو يستلزم في الزعيم المطلوب تجرداً من صفات معلومة ، ثم يأتي بعد ذلك دور المزايا التي ينبغي أن يتحلى بها ويرجح بها على رفقائه

فالشرط الأول ألا يكون من طبقة النبلاء والأسرياء ، لأن نوبة السخط على هذه الطبقة قد بلغت أشدها بعد الحرب العظمى ، فهرب أمراء الولايات وقامت في دسوت الحكومة جمهرة من الصناع والمتوسطين ، وأصبحت كل حركة سياسية يتولاها زعيم من النبلاء والأسرياء متهمة بالرجعة الى القديم المكروه

وظل هذا الشعور غالبا على نفوس الألمان زمنا طويلا بين أحزاب الشمال وأحزاب اليمين على السواء . فكتب الكابتن روهم صديق هتلر يقول : «لا ارتداد إلى العهد البائد . لارجعة . لامعونة لنا تنتظر من أصحاب السعادات الداثرين ، وإنما رجال عمل من جميع الطبقات ، وشبان قبل شيء . . . »

وهتلر كان فقيرا من طبقة أبناء الموظفين الصغار ، وكان في ذلك الحين لايكاد يعدو الثلاثين ، وكان من صف الجند فوق رتبة الجندي بقليل

والشرط الثاني أن يكون خالياً من الروابط الاجتماعية والأواصر البيتية التي تقيده بنزعة من النزعات ، أو تحول بينه و بين التفرغ لحياة المظاهرات وخطب الأرصفة والميادين

وهتلر لم يكن يخسر شيئاً بالتفرغ لهذه « الصناعة » التي هي خير من البطالة والفراغ ، ولم يكن ينقطع عن واجب بيتي أو واجب أبوي أو بنوي ، لغربته وجفاء أهله وعجزه عن الزواج ، فهو يربح كثيراً من صناعة السياسة ولا يفقد الكثير ولا القليل .

والشرط الثالث أن يكون موافقاً للبيئة البافارية وهى بيئة محافظة قريبة إلى أحزاب اليمين ، لأن البافاريين تابعون للكنيسة الكاثوليكية ونفوذ الكنيسة بينهم عظيم . و بلادهم أصلح من غيرها لنشوء الحركات المعادية لأحزاب الشمال ، ثم هى بعيدة عن عاصمة الدولة الكبرى التى فيها سلطانها وهيلها وهيلمانها ، فلا يسهل تهديد النظام القائم فى برلين كما يسهل فى ميونيخ

وهتلر كان كاثوليكيا فى نشأته وإن لم يكن من المتعبدين ، وكان مجنداً فى جيش بافاريا ورائدا من رواد ميونيخ التى كانت تعد فى حينها عاصمة المصورين والموسيقيين ، وقد كان هتلر كما نعلم يتعاطى حرفة التصوير

* * *

والشرط الرابع أن يكون « مهاودا » لزملائه أولا يكون من أصحاب « الشخصيات المخيفة المهيبة المرهوبة » التى يخشون اجتياحها وطغيانها

وقد كان هذا الشرط متوافراً كل التوافر فى هتلر أيام نشأة الحركة النازية . فيجب أن ننسى هتلر الذى يصول الآن بقوة الدولة وقوة الزعامة التى لامنازع لها ولا نجاة لمن يعصيها ، ثم نذكر هتلر الذى كان قبل عشرين سنة محتاجا إلى كل شىء من مطالب المعيشة ومطالب السياسة ، وكان مشهوراً بالدهان والملق لمن فوقه ولمن يملكون أسباب نجاحه

وليس معنى هذا أن هتلر محروم من العزيمة والارادة فهو فى الحقيقة صاحب عزيمة وصاحب ارادة . ولكنها من نوع غير ذلك النوع الكاسر الذى يروع الناس لاول نظرة ، ولعل عزيمته أشبه ما تكون بعزيمة المرأة الدؤب الملحاح التى تصل بالدأب والالحاح والعناد إلى ما تريد ، فهى لا تصدم من يراها أول مرة كما يصدمه المردة القهارون من أصحاب « الشخصية » الغالبة ، بل لعل الناظر يلحظ عليها التردد والجنوح إلى اللف والمراوغة ، فيحسبها طوع يديه حين تحزب الأمور

وقد أشار هتلر نفسه إلى شهرته بالتردد حين وقف فى الريشستاج على أثر مذبحة روهم ورفقائه لتسويغ ما فعله فقال إن المتآمرين قد غرهم به ما زعموه من « عجزه عن البت السريع عجزاً لا يشفيه إلا أن يضعوه أمام الأمر الواقع »

وهذا ظن العشراء به وقد تسنم الذروة التى يستوى عليها الآن . فكيف بما كان عليه أيام الابتداء أيام الشك والترقب والافتقار إلى الأعوان

إن تاريخ الزعامات السياسية لحافل بامثال هؤلاء الذين يختارهم زملاؤهم لأنهم أسلم جانباً وآمن شراً وأطوع قياداً ، ثم تتبدل الأحوال دفعة واحدة يوم يستقرون فينقلبون ذئاباً على من حسبوهم نعاجا لا تفتك ولا تخيف

* * *

تلك خلاصة الشروط «السلبية» التى كانت ترشح الرجل لزعامة النازيين ، وهى الشروط التى تستلزم صفات مفقودة وقلما تستلزم صفات موجودة

أما الشروط التى تدخل فى باب « المزايا » الموجودة فهى الخطابة والحماسة والذكاء والاهتمام بالسياسة والالمام بالمعارف العامة ، وكانت موفورة فى هتلر لأنه خطيب جهورى الصوت شديد الايمان بالعصبية الجرمانية عظيم اللدد فى الخصومة الحزبيه ، ذكي اللب ملم بمبادىء الأحزاب المختلفة منذ صباه ونشأته فى النمسا التى كانت كأنها « برج بابل » من الدعوات السياسية ، تتعالى فيه الصيحات بين المحافظين أنصار البلاط والأسر العريقة ، وبين الأحرار طلاب الاستقلال فى الاقطار المختلفة التى كانت خاضعة لآل هابسبرج ، وبين أشياع الكنيسة ومعارضيها ، وبين الاشتراكيين على اختلاف المذاهب والألوان ، وبين أعداء الساميين وأعضاء المحافل الماسونية والأندية السرية ، فكان حسب الرجل الذكى أن يفتح أذنيه ويفقه ما يسمع ليجتمع له من المعارف العامة والحجج المتقابلة والدعايات المتناقضة ما يكفى لسلوك الطريق فى حركات الجماهير

وكان اجتماع هـذه الشروط مع الشروط الأولى من أندر الأشياء ، ولاسيما فى متناول النازيين وهم مبتدئون مستضعفون لم يبلغوا بعد مبلغ الهيمنة على عقول السواد ولا مبلغ الزلفى عند العلية وذوى الجاه والمال ، فلما التقى هتلر بالافراد القلائل الذين كان يعرفهم وكانوا يعرفونه لم يكن عجبا أن يرحبوا باختياره واجتماع ما اجتمع فيه من شروط الزعامة الحزبية ، فهو طلبتهم فيما يستطيعون بين تلك القيود.

ولم يكبر الحزب قليلا حتى شـعر رجاله أن زعيمهم فى حاجة الى كثير من التشذيب و « التنجير » كما يقول العـامة ، فأشار زميله فيـدر Feder بتعيين مرافق له من الضباط العسكريين يدر به على تنظيم أوقاته وتقسيم ساعاته ، ونصحه آخرون بالاقامة فى برلين فترة من الزمن لأصلاح لهجته الريفية بالمعاشرة والتردد على معاهد فن الالقـاء ، وتقـدم شيئا فشيئا فوكل به شاخت معلما يلقنه أصول الاقتصاد وانتقى له الدكتور والترفنك Walther Funk الذى خلف شاخت فى مركزه بعـد وصول هتلر الى رئاسة الدولة . واتخـذت مسألة تحضيره جانباً فكاهياً يشبه تحضير الممثل لدوره المرسوم...ولم يكن هذا مجازاً أو استعارة بل كان وصفاً حرفياً لما تعهدوه به من التدريب والتهذيب . فقد كان معلمه الاكبر فى بداية الحركة رجلا مشغولا بالاخراج المسرحى والرواية التمثيلية ، وهو الـكاتب الالمعى البراق ديتريش اكارت Dietrich Eckart الذى كان اسمه آخر كلمة خطها هتلر فى كتابه « كفاحى » على سبيل التحية والتمجيد ، والذى اشتهر بالنزعة الآرية وبغض اليهود واتقان الهجاء اللاذع فيما يكتب وينظم . وقـد نزداد علما بمعنى اختيار هتلر للزعامة إذا علمنا الشروط التى كان أكارت ينشدها فى زعيمه وهى « ألا يكون ضابطا لأن الناس أعرضوا عن الضباط ، وأفضـل من ذلك صانع فى كسوة جندى صـغير ، وليس من اللازم اللازب أن يكون ذا رأس كبير ، لأن السياسة أسخف شغل فى الدنيا ، وكل بائعة من نساء

السوق فى ميونيخ تعى مقدار ماوعاه السادة فى فيمار ، والخير من ذاك أن يكون الزعيم غبياً مزهواً يحسن الرد على الجماعة الحمر (الشيوعيين) ولا يجرى من كل رجل كرسى ترتفع لضربه . . . وتمام الوصف المنشود أن يكون أعزب غير ذى أسرة فتنجذب الينا النساء » (١)

ويقول الذين عارضوا أسلوب هتلر فى كتابه وفى خطبه بأسلوب اكارت هذا أن هتلر قد اقتبس منه عبارات بحروفها وكلمات نموذجية من الفاظه التى طالما رددها فى صحيفته ورسالاته ، وأنه اقتدى به فى الكتابة والخطابة ، واحتذى حذوه فى الرأى والطريقة

على أن الدكتور جورج شوت Dr Georg Schott أقدم المثقفين معرفة بهتلر يقول فى وصفه « إنه نقيض رجل الدماغ . إنما هو رجل القلب ، رجل الدم ، مذياع الأحلام »

وللدكتور شوت هذا كان هتلر يقول : « ليس كل منا نحن جميعاً إلا يوحنا صغير . . . إننى اترقب المسيح »

وطالما قال هتلر للقائد « لودندرف » إنه لا يريد الرئاسة ، وحسبه أن يصبح نافخ البوق . . . لأنه أحب أن القائد الكبير أحرى أن يتبوأ مكان هندنبرج ، وأنه هو حسبه أن يتبوأ معه مقعد المستشار . وقد استقال هتلر فعلا من زعامة النازى بعد سجنه ، وتولاه فى تلك الآونة يأس عظيم فأزمع أن يصوم فى السجن صيام ما كسوينى ليسلك نفسه مع الشهداء . . ولولا أن الحركة نامت فى حينها نومة طويلة ولم يدعُ الأمر إلى انتخاب رئيس آخر لكان من الجائز أن تنطوى صفحة هتلر وهو مسجون

فزعامة هتلر على النازيين هذا معناها :

---

(١) من كتاب ترجمه هتلر لمؤلفه كونراد هيدن Heiden

معناها أنه وافق المطلوب فى حدود الطاقة ، وأنه لما استقر فى الزعامة لم يسهل اجلاؤه عنها ، ووجب أن يرأس الوزارة حين وجب أن يدعى حزبه إلى الديوان

* * *

ومالنا بعد هذا وذاك لانختصر مسألة الزعامية الألمانية كلها بكلمات ؟ . . .

لقد تأتى للمدعو « هاوسر » Hausser فى ابان تلك الفترة أن يظفر بستين ألف صوت فى انتخاب رئيس الجمهورية ، وأن يطبع صحيفة تبيع مائة ألف نسخة ، وأن يكون له اشياع ومريدون يعدون بالألوف .

ومن هاوسر ؟

هو رجل لاندرى أمجنون هو أم عاقل ؟ ودجال هو أم درويش ؟ فقد كان يسمى نفسه المهدى المنتظر ، ورئيس الولايات المتحدة الأوربية ، وينادى بأنه هو الحق وهو السبيل وهو الحياة

ومن يدرى ؟ فلعله لو اتفقت له مصادفات كمصادفات هتلر ، وكان للدراويش نصيب من السياسة العصرية لفاز بلقب الفوهرر وسبق هتلر اليه ، لأنه هو أيضا كان يدعيه ويطلب من هتلر مبايعته عليه . . . وكم فى الأيام من مضحكات ! . .

* * *

إن ورقة النصيب لاتساوى عشر مليم ، ولكن كراتٍ ثلاثا أوأربعا تتفق فى دولاب الأرقام كافية لاعطائها قيمة الالوف من الجنيهات

وكذلك تتفق أربع صفات أو خمس صفات متفرقات فيصبح الفرد من الافراد فى قوة عشرات الملايين

وليس حتما من أجل هذا أن يعد هتلر فردا كسائر الافراد

وإنما الذى نقصده أن ننبه المدهوشين المستعظمين حين يسألون : أجندى لم

يرتقى إلى صفوف الضباط يرتقى آخر المطاف إلى ذلك المكان الرفيع ؟

إذ ليس لهذا الاستعظام موضع صحيح . لأن الرتبة الصغيرة لم تكن هى العقبة التى كان عليه تذليلها ، بل كانت هي المزية التى ذللت أمامه جميع العقبات ، وهى الصخرة التى قام عليها جميع ذلك البناء

سياسة هتلر :

من الأوهام الشائعة أن ألمانيا لم تنجح فى ضم السار والرين والنمسا و بلاد السوديت ، ولم تحطم ماحطمت من قيود معاهدة فرساي ، إلا بفضل القوة القاهرة التى أضفاها عليها هتلر فى مدة حكمه .

وهذا خلاف الواقع المؤيد بالأسانيد

فان هتلر قد احتل وادى السار بعد الاستفتاء المتفق عليه ولما يمض على إعلانه التجنيد الاجبارى غير ثلاثة أشهر ، ولم يكن خط سيجفريد مبنياً فى ذلك الحين .

ومصطفى كمال لم ينفق جزءاً من ألف من ربوات الملايين التى أنفقها هتلر على التسليح ، واستطاع مع ذلك أن يفتح الآستانة فتحاً ثانياً وفيها جيوش الحلفاء ، وأن يعيد اليها الحصون التى منعت اقامتها بعد هزيمة الحرب العظمى ، وأن يلغى الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التى سبقت المانيا الحديثة ونشأت من أيام سليمان الكبير

ولما أغار هتلر على النمسا كانت غارته هذه تضارب السياسة الايطالية والسياسة الروسية كما كانت تضارب السياسة الفرنسية والسياسة الانجليزية ، ولم تكن دولة واحدة فى أوربا الشرقية أو أوروبا الوسطى تستريح إلى وقوع النمسا فى قبضة السيادة النازية ، فهل يقول عاقل أن هتلر قد نجح فى غارته بقوة تفوق هؤلاء جميعاً فى ميدان القتال ؟

كلا . ليست المسألة إذن مسألة القوة والاستعداد ، ولم ينجح مصطفى كمال ولا هتلر فيما صنعاه لانهما أقوى من الدول التى كانت تأبى ماصنعاه ، و إنما سر المسألة كله صعوبة الاقدام على حرب عالمية سواء كان المقدم عليها من الحكام الدستوريين أو من الحكام المستبدين

فالذى صنعه هتلر إذن هو أنه غيّر هذه الحالة بسياسته الخرقاء ، وجعل الصعب سهلا على الدول فى مدى ثلاث سنوات ... وما ثلاث سنوات فى تواريخ الامم وحوادث الدنيا ؟ ؟

فهتلر لم يكن قويا يوم أحجمت الدول عن حربه ، ولم يكن ضعيفا يوم نفضت عنها الاحجام ولم تجد بين يديها مناصا من الاقدام . بل كان أضعف ما كان وهى محجمة عنه ، وكان أقوى ما كان وهى مقدمه عليه

فليست القوة اذن هى التى أكرهت الدول على تركه وشأنه يفعل فى السار والرين والنمسا والسوديت مايريد

و إنما كانت هناك حالة إغضاء فغيّرها هتلر بحالة المقاومة والعداء

فان كان هذا ماأراده فقد نجح

لكنه يكون فى هذه الحالة أخرق من عرفت الدنيا من ساسة الأقوام ، لأن أحداً من الساسة الراشدين لا يعمل بيديه ولا يبذل كل مايملك لتأليب أعدائه عليه ، ولو كان على يقين من الظفر الأخير ، فكيف والظفر مجهول ؟ وكيف وهو بعد تحقيقه لا يضمن لصاحبه النجاح فضلا عن دوام النجاح ؟

كلا ! ليست سياسة هتلر هى التى أتاحت له أن يفعل مايشاء ، بل سياسة هتلر هى التى جمعت الخصوم على منعه ، وأقنعت الأمم — قويها وضعيفها — أن كل مسلك مع هذا الرجل غير المقاومة والمصادمة لا يفيد

***

وليس بصحيح أن ألمانيا انتظرت مكتوفة اليدين حتى أراحها هتلر من أثقال المغارم والقيود التى فرضتها المعاهدات

فقد أعلنت الحكومة الالمانية فى سنة ١٩٣١ أنها لا تدفع شيئا من المغارم والتعويضات ثم جاء مؤتمر لوزان فأعفاها منها كل الاعفاء .

وقد تمت فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ قواعد الاتفاق الخماسى على التسوية بين المانيا والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وايطاليا فى شروط التسليح والضمان

واستطاع المستشار هنريش برونتج Heinrich Bruning أن يتفق مع مندوبى انجلترا والولايات المتحدة وايطاليا على إباحة توريد السلاح وتحصين الحدود وزيادة الجيش الى ثلثمائة ألف فى وقت السلم ، وإجازة تدريب الجنود المرابطين الى جانب الجيش القائم ، ومد الخدمة العسكرية الى خمس سنوات . . ولم تبق إلا موافقة السفير الفرنسى لابرام الاتفاق . فما الذى حال دون ابرامه قبل استقالة برونتج من استشارة الريخ ؟

العجيب أن الذى عطل هذا الاتفاق هو فون پاپن وأصحابه الذين كانوا يعملون لاسقاط برونتج ودعوة هتلر الى الوزارة ! . . فانهم اجتمعوا بسفير فرنسا وأبلغوه أن برونتج ذاهب لا محالة فلا فائدة ترجى من تضييع تلك الهبات على وزير يوشك أن يستقيل ، وأن « أناسا متطرفين » يوشك أن ينهجوا فى المانيا سياسة العداء والتحدى فلا يحسن التعجيل بتلك الهبات قبل جلاء الحال [1]

وكأنما أحس هؤلاء الساسة أن نجاح برونتج يقضى على آمالهم وينفض الشعب عنهم ويجنح بألمانيا الى طريق غير طريقهم فأفسدوا عليه وعلى أمتهم

---

(١) كتاب فرانز فون پاپن تأليف Blood Ryan

الامر ، وأحبطوا عمله ليقنعوا الشعب بضرورة التحدى والعداء

وصفوة القول أن استنزاف الثروات والجهود والتسليح والتهديد لم يكن لازما لقضاء مطلب من المطالب النافعة ، وأنه على فرض نفعه لم يكن مضمون العواقب مأمون المصير

فليس من المحقق أن مصالح المانيا أو مصالح العالم تستلزم تلك الأعمال العنيفة التى لايسلوها هتلر ورفقاؤه . ولكن من المحقق الذى لاشك فيه أن تلك الأعمال جميعاً توافق طبائع اناس مفطورين على العجرفة والقسوة والغدر وتمرد الذليل الذى يرضيه أن يهدد ويتوعد ، ولو لم تكن ثمة ضرورة للتهديد والوعيد

وكل عمل من أعمال هتلر ورفقائه نستطيع أن نفهمه إذا فهمنا الحاجة إلى العجرفة والقسوة والغدر والتمرد وسائر تلك الصفات ، فليس فى عمل منها إذن قليل ولا كثير من الغموض

لكننا لانستطيع أن نفهمه إذا قيل أنه لازم للمصالح العالمية والمطالب القومية كائنة ما كانت . لأن لزومها مشكوك فيه ، ونجاحها كذلك مشكوك فيه

وإذا كان التفسير الجامع المانع للاعمال المتفرقة المتعددة هو التفسير الصحيح القريب إلى المعقول ، ففيما تقدم بيانٌ لحقيقة البواعث الباطنة التى تستفز أولئك الناس إلى الجرائم التى يقترفونها ثم يزعمونها من مصالح العالم أو مصالح الالمان

وإنك لتسأل : لماذا اعتدى هتلر على الضعفاء وقتل الخصوم والاصدقاء واختار الارهاب والارغام دون الاقناع والارضاء ؟ ؟ فاذا أجبت : انه فعل ذلك لانه مجرم النفس لم تجد عملا من تلك الاعمال يناقض هذا السبب فى بدايته أو منتهاه

ولكنك واجدٌ مئات النقائض إذا قيل لك أنه قد فعل مافعل لمجد ألمانيا أو لمجد الآريين ، أو لأشباه هذه التعلات ، ولا ينفى هذا أن أعماله ليست كلها جرائم وفظاعات ، فان المجرمين يعملون فى حياتهم أشياء كثيرة غير الاجرام ؛ ولا يتنفسون الاجرام شهيقاً وزفيراً فى اليقظة والمنام



هتلر يخطب

الفصل الثاني

مطالب ألمانيا وشكاياتها

مطالب ألمانيا وشكاياتها :

إلا اننا نبحث مطالب المانيا وشكاياتها بحثاً منفرداً عن الاعتبارات السابقة لنرى مقدار ما تنطوى عليه من الحقيقة ، ومقدار ما تثيره من السخط المعقول فى نفوس الألمان ، وأولها الشكاية الكبرى بل الشكاية الجامعة لكل الشكايات ، وهى معاهدة فرساي .

لقد أكثر الألمانيون عامة والنازيون خاصة من تعديد مساوىء فرساى ومظالم فرساى وجرائر فرساى حتى خيل إلى الناس ان هذه المعاهدة كان ينبغى أن تكتب لمصلحة المغلوب لا مصلحة الغالب ، ولسلامة المانيا لا سلامة خصومها .

ولم يقتصر نقد فرساى على الألمان والنازيين ، بل تعداهم إلى الانجليز والفرنسيين والامريكيين ، ومن وقفوا فى الحرب الماضية موقف الحيدة بين المعسكرين ، وقد كان هؤلاء الناقدون ممن يعتقدون حقاً ان معاهدات السلام اشتملت على جميع تلك المساوىء التى أحالوها عليها ، أو ممن يعارضون حكوماتهم وينصحون بسياسة غير سياستها ، فيحبون أن يلقوا على عواتقها تبعات الحوادث والمشكلات العالمية ويمنون الشعوب مستقبلا خيراً من الماضى الذى يسأمون عنه تلك الحكومات . هذا أو يكون الناقدون لمعاهدات السلام ممن يسخرون أقلامهم للنازيين وأشباه النازيين ، ليساعدوهم على التغيير والتبديل وتحقيق المطالب والمقترحات . وليس وجود هؤلاء المأجورين بالغريب إذا ذكرنا الملايين التى كان النازيون وأمثالهم يبذرونها فى جميع الأقطار .

ومعاهدة فرساى قد اشتملت ولا شك على اخطاء كثيرة وعيوب كبيرة ، أكبرها فيما نعتقد خطأ المغارم والتعويضات التى فرضتها على الألمان . فان هذه المغارم والتعويضات خطأ من الوجهة الاقتصادية الفنية وإن كانت عدلا من وجهة الجزاء والحساب ، لأن الألمان اذا حاولوا أن يؤدوها نقدا لم يجدوا المال بغير تجارة خارجية ، واذا أغرقوا الأسواق الخارجية بمصنوعاتهم و بضائعهم كانت خسارة الظافرين من جراء هذه المنافسة أعظم من خسارتهم بفقد التعويضات ، واذا أرادوا أن يؤدوها عيناً و بضاعة كسد ماعند الظافرين من عين مماثلة و بضاعة مشابهة للبضاعة الالمانية

ومثل هذا الخطأ وشيك أن يظهر ، وقد ظهر . فابتدأ الظافرون باصلاحه على طريقة داوس Dawes ثم على طريقة يونج Young وكلتاهما ترمى الى التقسيط والاعفاء والتأجيل ، ثم عدلوا بتة عن المطالبة بالفروع والاصول وا كتفوا بما أخذوه ، وهو نحو الثمن من المطلوب مما أعانهم على تعمير الخرائب وتجديد المعالم بضع سنوات ، وانتهت هذه المسألة فى مؤتمر لوزان (سنة ١٩٣٢)

فمسألة التعويضات كانت خطأ ولم تكن ظلما ولا عنتا من الظافرين ، اذ ليس بالمعقول أن يغرم هؤلاء الظافرون ماغرموا من تكاليف الحرب ومن تخريب الأرض وتدمير المناجم ودور الصناعة ثم يعمروا هذا الخراب بأموالهم وجهود أبنائهم والالمان المهزومون ناجون فى ديارهم لم تخرب لهم مدينة ولم يتعطل لهم مرفق أو صناعة ... ولو جاز هذا لكانت الهزيمة فى الحروب خيرا من الانتصار

***

كذلك أخطأت معاهدات السلام فى تقسيم بعض البلاد وترسيم بعض

الحدود ، ولـكنه لم يكن بالخطأ الذى لايغتفر ولا بالخطأ الذى يسهل اجتنابه فى مثل ذلك العمل الجسيم

فقد كانت أمام المؤتمرين مسائل متراكمة لا تخلص من ناحية إلا اشتبكت من نواحى شتى : ان خلصت من ناحية اللغـة والجنس اشتبكت من الناحيـة الجغرافية ، وان خلصت من هذه جميعاً اشتبكت من ناحية التجارة والثروة ، وان خلصت من هذه وتلك اشتبكت من ناحيـة الخطط الدفاعيـة والمواقع العسكرية ، وان خلصت من نواحى اللغة والجنس والتجارة والدفاع اشتبكت من ناحية النزاع بين الدول الـكبرى على مناطق النفوذ أو على مرامى السياسة العالمية او على الاحقاد التاريخية أو ماشا كل ذلك من العقد المؤربة التى لاتحصى . فاذا أخطأت المعاهدات فهو خطأ مفهوم ليس فى وسع أحد — حتى هذه الساعة — أن يدل الدنيا على صواب فى موضعه يقنع جميع الشاكين وينصف جميع المظلومين ويبطل جميع المنازعات

وقد رأينا أمثله مما فرضه الالمـان الغالبون على روسيا فى معاهدة « برست ليتوفسك » وعلى رومانيـا فى معاهدة بوخارست وعلى المغلوبين الآخرين الذين لم يبرموا معهم صلحا ولا سلاما فاذا الرحمة كل الرحمة فيما فرضته فرساى وأنفذه الحلفاء من الشروط ، واذا الالمان يقولون ويفعلون دائما كما قال غليوم الثانى فى مبدأ الحرب الماضية : ويل للمغلوب !

ولو أننا نظرنا الى فرساى من حيث الأثر الواقع فى المانيا لوجدنا أن فرساى هذه كانت خيرا للالمان من فرساى التى خرجوا منها منتصرين فى حرب السبعين

فقد كان قصارى ما بلغه الألمـان فى حرب السبعين أن خرجوا منها أمارات متفرقات على كل امارة منها عرش وتاج وفى كل منها حكومة ودستور . . . فأصبحوا بعد فرساى الحديثة دولة واحدة لا فوارق فيها بين الامارات

وقد لبث الألمان المنتصرون أربعا وأربعين سنة حتى استعدوا للحرب الماضية ولم يلبث الألمان بعد فرساى الحديثة عشرين سنة حتى أصبحوا على أهبة القتال فى عدة سابغة لم تكن تملكها دولة منتصرة فى الحرب الماضية

سأل « الجنرال » جورنج سفير بريطانيا العظمى السير نيفل هندرسون عند ذهابه لأول مرة إلى نورمبرج (١٩٣٧) : من من الدول كان أعظم ربحا فى الحرب العظمى ؟

فأجاب السفير : إنها هى إيطاليا لأنها ضمت اليها حدودها الجغرافية والعسكرية ثم الامم الصقلبية بعد ايطاليا

فقال جورنج : « كلا . بل هى المانيا . إذ هى لولا تلك الحرب ولولا الهزيمة فيها لكانت وحدتها ضربا من المحال »

وهذه هى الحقيقة التى لايجهلها زعماء النازيين ولا ينبغى أن يجهلها أحد ممن يعرضون بالنقد لمعاهدة فرساى الأخيرة

على أننا نقارن بين فرساى الاولى وفرساى الثانية فيخطر لنا سؤالان لافكاك منهما وهما : لماذا انهزمت فرنسا فى فرساى الاولى فانتهت من الهزيمة إلى تحطيم الاستبداد وتعزيز الحرية والحكومة الديمقراطية ؟ ولماذا انهزمت المانيا فى فرساى الثانية فانتهت إلى هدم الديمقراطية وتمكين صرح الاستبداد ؟

للأمر سر غير فرساى وكل ما انطوت عليه معاهدات السلام ؟

للأمر سر مكشوف هو طبيعة الاستبداد ومطامع المستبدين فى البلاد الالمانية ولا سيما البلاد البروسية

فقبل فرساى كانت المطالب التى تطلبها المانيا الآن محققة بأجمعها ولم يكن لمظالم فرساى ولا لمعاهدة فرساى أثر

كانت معها دانزيج ، وكان معها مجاز دانزيج ، وكانت معها المستعمرات ،

وكانت معها شواطىء البحر البلطى ، وكانت معها الالزاس واللورين ، وكانت معها عواطف الشعوب التى انقلبت إلى الشك فيها بعد قيام الحركة النازية

فماذا أغنى عنها كل ذلك ؟

لم يغن شيئا ولم يمنعها أن تنادى بالسيطرة العالمية ، وأن تعمل لبسط هذه السيطرة على الأصدقاء والأعداء

ففى سنة ١٩١١ لم تكن هنالك مظلمة من مظالم فرساى ولاهزيمة كاذبة أو صحيحة، ولكن الجنرال فردريش فون برنهاردى Friedrich Von Bernhardi الف يومئذ كتابا عن « المانيا والحرب القادمة » أوجب فيه الحرب على قومه وعقد منه فصلا عنوانه « السيطرة العالمية أو السقوط »

وكان مكسميليان هاردن Harden كاتب صحيفة دى زكونفت Die Zukunft يقول قبل ذلك بسنة فى صحيفته[١] «نحن خلقنا للحرب . فلنصنع الحرب صنعاً قبل فوات الأوان »

وكان الدكتور كلاس رئيس العصبة الجرمانية يقول قبل الحرب الماضية بسنة : (إن قوة ألمانيا العسكرية تستخدم حيثما نتعرض نحن أو يتعرض جيراننا المنافسة من ذوى النيات السيئة ، وان شعبنا الذى يسرع فى نموه يجب أن يقرر حقه فى الوجود وأن يبسط يده على أرض جديدة فى أوربا الشرقيه الجنوبيه على الخصوص)

وكان كارل بيترز Karl Peters مدير الاستعمار السابق يقول حوالى ذلك التاريخ : (ماذا كان بسمارك صانعاً لو كان معنا الآن ؟ لقد كان دائماً على استعداد

(١) ٧ أكتوبر سنة ١٩١٠

للمغامرة بإضرام الحرب العالمية فى سبيل تحقيق مراميه ، ولا مناص لألمانيا من أن تكون على استعداد لمثل ذلك فى كل حين »

وكانت صحيفة الجامعة الألمانية دى بوست Die Post تنذر بريطانيا العظمى (فى سنة ١٩١٢) أن تترك للألمان الحرية المطلقة فى السياسة الأوربية وتقرهم على كل تضخم لقوتهم فى القارة — أى أوربا — سواء نشأ هذا التضخم من محالفات مع دول أوربا الوسطى أو من الاغارة على فرنسا ، وألا تعارض مطامع المانيا الاقتصادية فى البلقان أو آسيا الصغرى » (١)

وكانت صيحة « من برلين إلى بغداد » تملأ الآذان قبل أن يتعلم هتلر معنى التوسع والامتداد

وكان هتلر يحلم فى صباه — كما قال فى كتابه — بسطوة الجرمان وسيطرة الدولة الجرمانية دون أن يكون باعثه إلى ذلك غيظه المحتدم من فرساى ومظالمها الصحيحة أو المفتراة

وثقافة الألمان فضلا عن صحافتهم وأقوال ساستهم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طافحة كلها بهذه النعرة التى لاينكرها القوم ولا يسعهم أن ينكروها : القوة ! ومعنى القوة الغطرسة ! ومعنى الغطرسة السيادة والعدوان . فهم ظلموا معاهدة فرساى ولم تظلمهم معاهدة فرساى ، ولعل الحلفاء قد بالغوا فى الثقة بالمانيا ولم يبالغوا فى الحذر منها والتشديد عليها ، فلو وفوا عنها بعض الترفيه لعجل ذلك بالحرب الحاضرة ولم يؤجلها ، ولحسبته ألمانيا غفلة من الظافرين ولم تحسبه لهم فى سجل الحسنات

---

(١) تراجع هذه الشواهد وكثير من أمثالها فى كتاب « وثبة المانيا » لمؤلفه ارنست هامبلوش nGermany Rampant by Ernest Hambloch

نظرة أخرى فى المطالب الالمانية

ونستقصى الموضوع من جانبه الذى تمثله الدعوة النازية فنفرض أن المطالب الألمانية لم تكن مطلوبة قبل معاهدة فرساى ؛ وننظر إلى الذرائع التى يتذرع بها النازيون فى يومنا هذا إلى تحقيق تلك المطالب . فهل هى ذرائع صادقة ؟ وهل هى مما يؤخذ على ظاهره ؟ أو يمكن أن يجاب والعالم مطمئن إلى عقباه ؟

أهم المطالب التى سبقت الحرب الحاضرة هى ما يسمونه فسحة العيش Le bensraume والمستعمرات القديمة ، ثم دانزيج ومجازها

* * *

فسحة العيش

ويريدون بفسحة العيش أرض الزراعة « اللازمة » لمعيشة الألمانيين فى القارة الأوربية ، وهى مسألة يقول هتلر فى كتابه أنها لاتُحل بالمستعمرات ولا تعالج فى الكمرون ! ولا محيص فيها من النظر إلى التخوم الأوربية التى يقطنها الفلاح الألمانى وقد ضاق به وطنه ، وشح عليه قطانه ، ووجب أن يتوسع أو يموت

فهل تشكو المانيا كثرة السكان وازدحامهم فى الحقيقة ؟ وهل حالها فى ذلك أسوأ من أحوال الأمم الأوربية الأخرى ؟

كل ما يصنعه النـازيون يدل على أنهم يشكون قلة السكان ولا يشـكون كثرتهم وازدحامهم فى المدن ولا فى الريف

فهم يشجعون النسل ويبذلون معونة الزواج ، ويقيدون الهجرة من بلادهم ويسعون فى طلب الأيدى العاملة من إيطاليا والمجر وبوهيميا ومورافيا وبولونيا وغيرها ، ويعلنون أن پروسيا الشرقية تتسع لمليونين من الألمـان النازحين من الاقاليم البلطية بعد التسليم فيها للروسيين

وقد نشرمعهد العمل الألمانى تقريره قبل الغارة على بوهيميا ومورافيافقال انه « على الرغم من وفرة العاطلين الذى وجـدوا العمل فى سنة ١٩٣٨ بشق النفس لايزال نقص الأيدى العاملة شديدا ، واننا إذا قدرنا النقص فى أوائل سنة١٩٣٨ بخمسمائة ألف من الصناع والمستخدمين فهو على تقـدير الوزير سيروب Syrup للسنة المقبلة لايقل عن مليون »

وفى الوصية الأولى من الوصايا العشر التى نشروها فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ وسموها وصايا غزوة الانتاج « ان ألمـانيا فقيرة فى مساحـة الأرض ولـكنها غنية بسكانها غنية بجميع الموارد التى تـكفل لهـا اطعام أبنائها فى هذه المساحة المحدودة ، واخراج الخامات الصناعية بمقادير عظيمة »

* * *

واذا قارنا بين نسبة السكان على حسب المساحـة والتعداد فمساحة ألمـانيا . . . / ٢٦٨ ميل مربع ونسبة السكان فيها على هذا نحو ٣٦٦ فى الميل

ومساحة بلجيكا ٧٧٥ / ١١ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٧٠٧ فى الميل

ومساحة فرنسا ٦٥٩ / ٢١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ١٩٧ فى الميل

ومساحة هولندة ٦٩٨ / ١٢ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٦٧٤ فى الميل

ومساحة بريطانيا العظمى . . . ٩٨/ ميل مربع ونسبة السكان فيها ٤٨٨ فى الميل

فألمانيا اذن أوسع مساحة من بلجيكا وهولندة وبريطانيا العظمى ،[1] ولو أضفنا إلى مساحة بلادهن مساحة مستعمراتهن لما تغير وجه المسألة بهذه الإضافة ؛ لأن أبناء هذه الأمم القاطنين بالمستعمرات بضعة ألوف لاتقدم ولاتؤخر فى الحساب . وقد اثبتت الاحصاءات عن سنة ١٩٣٧ ان القادمين إلى تلك الدول أكثر من النازحين عنها ماعدا هولندة وايطاليا . ولم يكن المهاجرون الالمان فى جميع المستعمرات الألمانية يتجاوزون عشرين ألفا على أكبر تقدير : أى نحو العدد الذى كان يعيش فى باريس او لندن من الألمانيين

فالصيحة بما يسمونه « فسحة العيش » أن هى إلا صيحة مصطنعة تخفى وراءها بواطن مكتومة غير ظواهرها المكشوفة

وحقيقة الأمر هى أن النازيين يريدون زيادة السكان ليتمكنوا من فتح الأرض وانتزاعها من أبنائها ، ولايحتاجون إلى الأرض كما يزعمون لأنهم يشكون ازدحام السكان .

أو كما قال هتلر : « اننا الآن نعد ثمانين مليونا من الجرمان فى القارة الأوربية ، ولكن صواب سياستنا الخارجية هذه لايتقرر ولايثبت حتى نصبح فى مدى قرن واحد مائتين وخمسين مليونا يقيمون فى هذه القارة ولايقيمون فيها معصورين كأنهم الارقاء فى خدمة العالم . . . »

وكأنما مشكلة « الفسحة » المزعومة هى فى أدمغة هؤلاء الناس : كيف

---

(١) الحرب البتراء تأليف أريك مور ريتشى

The Unfinished War by Eric Moore Ritchie

نعتدي ؟ وكيف نبلغ المدد الذى يتيح لنا الاعتداء ؟ وليست هى مشكلة الزحام أو التعاون بين الأمم على تذليل العقبات وفض المشكلات

وسبب الاعتداء حاضر على كل حال . ومن الضرورى أن تموت اليوم كل أمة يطمع النازيون فى أرضها ، لأنهم ينتظرون بعد مائة عام من يصلون إلى الدنيا من مواليد الغيب المجهولين ! . . . وهم بالقياس إلى ما كان عليه آباؤهم قبل مائة عام لن يزيدوا عند حلول الأجل المقدور على مائة مليون

* * *

ولو كان النازيون صادقين فى شكوى الزحام لـكان قبيحا بهم أن يعتبروا قتل جيرانهم حقا مشروعا لا يعارضهم فيه معارض ، وان يعتبروه الحق الوحيد الذى يحق للعالم أن يلتفت اليه ، أو الحل الوحيد الذى لا يفـكرون ولا يفـكر العالم فى غـيره . فـكيف والصيحـة كما رأينا كاذبة ؟ وكيف وهم لا يشعرون بالضيق من كثرة السكان بل يشعرون بالضيق من قلتهم واحتياجهم الى المزيد ؟

المستعمرات :

أما المستعمرات فتراد للاغراض التالية وهى : تصريف السكان ، أو تصريف السلع والمصنوعات ، أو جلب الخامات ، أو المآرب العسكرية والخطط الحربية .

فأما تصريف السكان فقد رأينا قلة غناء المستعمرات جميعا فيه . ولا سيما المستعمرات الألمانية القديمة التى لم يكن منها مايصلح لسكنى البيض غير إفريقية الجنوبية الغربية

فكل من رحل الى المستعمرات الألمانية من أهل المانيا لم يتجاوزوا عشرين ألفاً يسكن مثلهم كما قدمنا فى عاصمتي فرنسا وانجلترا

وليست الولايات المتحدة ولا الأقاليم الجنوبية من أمريكا مستعمرات نازية أو مستعمرات لدولة أوربية ، ولكنها قد اتسعت لعدة ملايين من الألمانيين يعيشون فيها على حال لا يستبدلون بها المعيشة فى أحسن المستعمرات

وأما تصريف السلع والمصنوعات فلا يعقل عاقل أن الهمج الافريقيين يستنفذون من السلع والمصنوعات مايساوى نفقات يوم واحد من الحروب الحديثة

وأما الخامات فليس منها فى المستعمرات التى كانت تطالب بها ألمانيا غير قليل من المطاط والنحاس ونزر من الأطعمة ومادة الغذاء . وقد دلت الاحصاءات الالمانية نفسها على أن الحد الأقصى الذى بلغته الواردات من المستعمرات إلى ألمانيا لم يتجاوز نصفا فى المائة من جملة وارداتها

ولنضرب المثل بمستعمرة واحـدة لتوضيح هذه الحقائق المحصورة بالأرقام ، أو لتوضيح دخائل النيات التى يخفيها النازيون وراء دعوى المطالبة بالمستعمرات

فستعمرة الـكامرون يسكنها مائتان وواحد وثمانون من البيض الأوربيين : منهم مائة وستة وسبعون ألمـانياً ، وواحد وستون بريطانياً معظمهم موظفون ، وأربعة وأربعون من أجناس أخرى معظمهم قسس ومبشرون

وقد عرضت مزارع الـكمرون للمبيع (١٩٢٥) فاشتراها الألمـان الذين كانوا يعيشون فى المستعمرة قبل الحرب الماضية وأوشكت أن تنحصر فى أيديهم تجارتها صادرة وواردة كما جاء فى احصاء سنة ١٩٣٧

فأصدر الألمـان ما قيمته ٤١٩ر٩٤٦ جنيها انجليزيا من جمـلة صادرات تساوى ٥٢٦ر٥٥٤ جنيها . ولم تزد قيمة الصادرات إلى الجزر البريطانيـة عن ٣٣ر٧٠٠ جنيه

واستورد الألمان من بلادهم ماقيمته ١٥٦ر٧٧١ جنيها من جمـلة واردات تساوى ٣٢٨ر٨٤٣ جنيها . ولم تزد الواردات من الجزر البريطانيـة عن ٣٩ر٢١٠ جنيهات

ولا ننس أن خامات المستعمرات جميعا قلما تبلغ جزءا من ثلاثين جزءا من خامات البلاد الحرة ، وان أمما كثيرة اصغر من أن تـكره منافسا أو تقتحم سوقا تتجر فى العالم وليس لهامستعمرات كالسويد والنرويج وسويسرة ، وان الولايات المتحدة لاتملك كندا ولـكنها مع هـذا تصدر اليها ثلاثة أضعاف الصادرات الانجليزية ، وان رؤس الأموال البريطانية فى الارجنتين أكبر من نظائرها فى جميع البلاد التابعة لبريطانيا العظمى

فالساسة المتوجسون من خفـايا النيات التى يواريها النـازيون فى اطواء

مسألة المستعمرات معذورون إذا أيقنوا أن الغرض المطلوب إذن هو العدوان العسكرى والترصد للحروب والغارات

وحسب القارىء أن يلقى نظرة على مواقع المستعمرات الألمانية القديمة ومواقع حلفائها ليعلم ما يهدد العالم من أخطارها . فليس أسهل من ايصاد مسالك المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر على من يملك مكامن الغواصات والألغام فى تلك المستعمرات ، أو يملك مراكز الطيران على جميع الشواطىء الافريقية ، وبعض الشواطىء فى المحيط الهادى وما يليه

وليس أسهل من تهديد القارة الافريقية برمتها سواء فى منابع النيل أو فى جوف الصحراء إذا أعيدت هذه المستعمرات إلى الأيدى النازية ، وثبت للقبائل الافريقية التى تفهم المحسوسات ولا تشغل بالها بما عداها — أن النازيين هم الغالبون وانهم يأخذون كل ما يريدون

عندئذ لا يأمن أحد فى افريقية أو فى العالم بأسره تهديد النازيين . ومن الذى يقول ان النازيين لا يهددون وهم قادرون على التهديد ! . . . الذى يقول ذلك لا يؤتمن على مصائر شعوب

ومن العبث أن نضيع الوقت فى تفنيد مايزعم النازيون إذ يقولون انهم يطالبون بالمستعمرات لأنهم يأنفون أن تعزى اليهم جريمة الحرب وان تضيع مستعمراتهم عقوبة لهم على تلك الجريمة . . . كأن النازيين يخجلون من الحرب وهم يتعبدون بها ويؤلهونها ويقدسونها فى جميع ما يكتبون ، أو كأنما كان هتلر ينسى هذه القصة يوم كتب «كفاحه» وقال فيه ان المخاطرة فى سبيل المستعمرات من أسخف الحماقات ، أو كأن فتح النمسا وهى بلاد أوربية لا يعدل فى هذا للعنى سيطرة ألمانيا على المجاهل الافريقية ، أو كأن استيلاء اليابان على بعض

المستعمرات الألمانية لا يضيرها كما تضيرها المستعمرات التى فى أيدى الأوربيين (الآريين أو أشباه الآريين !)

فهذه تعلات تقال ولا يصدق أحد أن الساسة يقصدونها حقا حين يغررون بها جماهير الشعوب ، أو انهم يجازفون بخراب العالم من أجلها ويصرون على هذه المجازفة سنينا بعد سنين ، ولو صدقوا فى ذلك لكانت وصمتهم بالصدق فيه أشد وأقبح من كل وصمة يفتريها عليهم ألد الأعداء

دانزيج :

أما مسألة دانزيج — وهى سبب الحرب المباشر إذا أخذنا بأقوال اللسان — فكل مايذكره النازيون أنها كانت ألمانية ويجب أن تعود إلى حكومتها الأولى . ثم ينسون ماعدا ذلك من الدعاوى والمصالح والتواريخ القريبة والبعيدة

ينسون مثلا أنها لبثت من منتصف القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر مدينة حرة فى ظل السيادة البولونية ، وانها ضُمت إلى بروسيا بعد هزيمة نابليون الأول على خلاف مشيئة أهلها ، وان حياة بولونيا تتوقف على دانزيج ولكن حياة ألمانيا لاتتوقف عليها ولو عُزلت عنها كل العزلة ، وهى حقيقة عرفها الساسه الألمان من قديم الزمن وعبّر عنها ملك بروسيا فردريك الثانى أحسن تعبير حين قال « ان القابض على مصب نهر الفستولا لهو أقوى فى بولونيا من الملك البولونى الجالس على عرش فرسوفيا »

ولم تكن سيطرة ألمانيا على دانزيج ضعيفة فى نظامها الحديث الذى قررته المعاهدات بعد الحرب الماضية ، فقد كان الأمر فيها لمجلس الشيوخ وللحكومة المسؤلةأمامه ومعظم أعضائهما المانيون ، ولم يكن لبولونيا من الأمر فيها إلا القسط الكافى لضمان صادراتها ووارداتها وبريدها ، ثم لا ولاية لها عليها . بل الولاية لعصبة الأمم التى تندب حاكم المدينة وترجع اليه فى العلم بأحوالها

ولم يحدث قط أن تعرضت بولونيا للمواصلات الألمانية فى المجاز البولونى المشهور الا لمراقبة المهربات التى قد تحمل الى بلادها ، ولم يطلب النازيون استفتاء الشعب فى ذلك المجاز لمعرفة رأيه فيمن يحكمه الا على شريطة أن يحكموه سنة ثم

يجرى الاستفتاء المطلوب ! ومعنى ذلك أنهم يحتاجون الى سنة فى الحكم النازى المعهود ليضمنوا جلاء من فى المجاز من البولونيين واستدعاء من يخضعهم من النازيين . . . ثم لا يضمنون هذه النتيجة الا أن يكون الحكم فى أيديهم ساعة الاستفتاء ، وأن يكون كل مقيم فى المجاز عارفا ما سيصيبه إذا اختار بولونيا ، وهو يرى بعينه أن اختياره إياها لا يفيد

فليست « دانزيج » هى بيت القصيد

إنما بيت القصيد هو خنق بولونيا ومن يجاورها من أمم أوربا الوسطى . فلا تجد تلك البلاد منفذا لتجارتها فى غير الأرض الألمانية من الشمال أو الجنوب : ففى الشمال دانزيج و فى الجنوب النمسا ، ولن يدخل الى تلك البلاد أو يخرج منها شيء الا باذن النازيين !

ومتى استعُبدت أوربا الوسطى للنازيين هذا الاستعباد فمصير أوربا الشرقية وما وراءها معروف . ومصير الخطط النازية كذلك معروف ، فهى خطط تجتمع فى خطة واحدة ، وهى استعباد كل من يُبتلى لهم بجوار ، أو يقف لهم فى طريق

وعلى الرغم من هذا جميعه لم تكن الحرب ضرورة قاسرة ولا ضرورة غير قاسرة ، لأن أنصار السلام من ساسة الامم فى أوربا وأمريكا تعبوا وهم يقترحون حلول المفاوضة والتوفيق ، فقيل لهم أن الحل الوحيد هو قبول مايريده النازيون ولو كان فى قبوله الفناء

ولمن شاء أن يأخذ المطالب النازية على ظاهرها ، أو يأخذها على باطنها الذى قلما يستره حجاب

فهى على ظاهرها لا تلجىء الى الحرب ولا يكون المقدم على الحرب من أجلها الا مجرما يجازف بسلام أمته وسلام العالم لغير ضرورة

وهى على باطنها سعى حثيث للسيطرة على العالم وتهديدمن فيه من الأقوياء

والضعفاء على السواء . فهل لابد من هذه السيطرة ؟

وهل الحرب طريقها التى لامحيد عنها ؟

هل هى طريق السيطرة على العالم حتى لو انتهت بالانتصار ؟

نفرض أن السيطرة على العالم غايةلامحيص منها فهل الحرب وسيلة لامناص منها ؟ وهل هى وسيلة مضمونة ؟

وماذا لو فشلت الحرب ؟ وماذا لو امتدت وطالت ولم تفشل ؟ أ كل هذا لايدخل فى الحساب ثم يقال أن السياسى الذى يهجم على هـــذا كله يحسب ولايخطىء الحساب ؟

أن الرجل الذى لا يعرف له سياسة غير هذه السياسة لا يعرف أن يسوس

لأن الأمم إنما تحتاج إلى السياسة لاحتياجها إلى اجتناب هـذه الشرور أما إذا كانت لا تحتاج إلى اجتنابها فما أغناها عن السياسة والسواس !

و إذا كانت سياسة هتلر قـد اضطرته إلى ورود هـذا المورد الو بيل فبئس ما فعل ، وساء نصيبه من السياسة

أما إذا كان مختارا يملك الحرب والسـلم ثم لا يبالى أن يخوض الحرب و يعرض عن السلم فالمصيبة أعظم : المصيبة خطل و إجرام وهوس مجتمعات

ذكرنا طرفا من الأسباب التى هيأت النجاح لهتلر وجماعة النازيين فى الأمة الألمانية ، فنضيف الآن أن هذه الأسباب على كثرتها وقوتها لاتكفى لبلوغه النجاح الذى بلغه لولا السبب الأكبر الشامل المحيط بها جميعا ، ونعنى به خلة راسخة فى الأمة الألمانية تفتح آذانها واذهانها لقبول الدعوات التى من قبيل الدعوة الهتلرية

ففى اعتقادنا أن هتلر لم يكن لينجح ذلك النجاح فى تطويع أمته لو كانت هذه الأمة غير الألمانيين . لأن الأمة الالمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والمخترعين ليست بالأمة العظيمة فى كل شىء . بل لعلها مصابة بقصور شديد سلمت منه أمم دونها فى عدد النوابغ الافذاذ ، وهو قصورها فى التربية السياسيه وضعف ايمانها بالحرية

ولا يخفى أن التربية السياسية تحتاج إلى شىء غير نبوغ الافذاذ وانجاب العبقريين ، لأنها مسألة مرانة متسلسلة فى بنية الشعب بجميع طبقاته وعناصره ؛ ينتقل فيها خطوة بعد خطوة ودرجة بعد درجة ، بالتدريب العملى والحوادث الفعالة فى تركيبه وتأليفه . فلا تبلغ منه التربية السياسية مبلغ العادة إلا إذا تعودها . ولا يجىء التعود بالأقوال والعظات ، وأن وُجد القائلون والواعظون ؛ فكيف وهم لا يوجدون ؟

ويرجع قصور الألمان فى تربيتهم السياسية إلى أصول تاريخية بعضها قديم وبعضها حديث أو قريب من العصر الحديث

ففى العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لاتعرف الاستقرار وآداب العمار. وإذا لجأت إلى الاستقرار فانما تستقر بالتناوب سنة للقتال وسنة للرعى والزراعة: فيقاتل فى هذه السنة من كانوا يزرعون ويرعون فى السنة السابقة، ثم يذهب الزارعون والرعاة إلى القتال ولما يطل عهدهم بالسلم بضعة شهور. وقد وصفهم يوليوس قيصر فى حالتهم تلك فقال: «انهم قلما يبالون الزراعة لأنهم يعيشون أكثر مايعيشون على اللبن والجبن واللحوم، وليس لرجل منهم أرض يملكها ولا حدود تفصل مابينه وبين غيره» .... وقال: «انهم يحسبون من شرف الدولة أن تقفر الديار من حولها دليلا عندهم على الشجاعة التى تقصى جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم» ... «وان اللصوصية لاعيب فيها إذا قورفت بعيداً عن ديارهم، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب الناشئة ومنع الاخلاد إلى الكسل والراحة»

ووصفهم المؤرخ تاسيتوس فقال: «انهم إذا هدأوا واستراحوا تطوع كثير من نبلائهم للقتال فى صفوف القبائل التى تشن غارة من الغارات، وأنهم لايقدرون بغير العدوان والحرب أن يمونوا اتباعهم وحاشيتهم الكثيرة، ويعتمد هؤلاء الاتباع على كرم رؤسائهم فيما يركبون من خيل أو يشهرون من رماح، ولاينالون أجرا غير ماًدب الطعام الغليظ وان لم يكن بالقليل. فالحرب والغنيمة فخر أولئك الرؤساء، وليس من السهل أن تقنعهم بالحرث وانتظار الغلة كما تقنعهم بالهجوم والمبارزة، بل من دلائل الوهن عندهم أن تطلب بعرق الجبين ماأنت قادر على أخذه بالدم المراق ...» ووصفهم المؤرخ جان فرواسات Froissart فى أواخر القرن الرابع عشر فقال «إنهم شعب جشع يجنح أبدا إلى العنف والتهديد والاعتداء،

لارحمة عندهم إذا غلبوا ومعاملتهم لاسراهم سيئة قاسية »

وهذه خلة كانت شائعة فى كثير من الأمم وهى على حالة البداوة والهمجية بيد أن الألمان قد انتقلوا منها إلى حالة تشبهها ولم ينتقلوا إلى حالة الحكم المسؤل والشورى الدستورية كما انتقل بعض الأمم الأخرى رحلة بعد رحلة . فخرجوا من همجية البداوة الأولى إلى نظام الاقطاع الذى لايعرف علاقة بين الحاكم والمحكوم غير علاقة الآمر بالمأمور ، ولا يعرف علاقة بين الولاية والولاية غير علاقة القاهر بالمقهور ، أو علاقة الحرب والتربص والانتقام .

وكانت ولاياتهم تتعدد وتتكاثر كلما نشبت الحروب وانقطعت الوشائج والارحام . فزادت فى نهاية القرون الوسطى على ثلثمائة ولاية لاتضع السلاح يوما خيفة جيرانها وأبناء جنسها أو خيفة الجيوش الجارفة التى كانت تشق أوربا من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق أو من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال . فان موقع الألمان فى الرقعة الوسطى من قارة أوربا تركهم عرضة لكل مغير وجعلهم متوثبين أبداً للاغارة على من حولهم من الغافلين أو المستضعفين ، فعاشوا فى ساحة حرب لا رأى فيها للرعية إلا كرأى الجندى المطيع ، ولا عهد فيها بين ولاية وولاية إلا كعهد المغلوب للغالب أو الغالب للمغلوب .

وظلوا على هذه الحالة الى ماقبل حرب السبعين ، فلم تنقص ولاياتهم عن مائة وسبعين فى أيام الثورة الفرنسية ، ثم انتظموا فى علاقة تشبه الوحدة بالقياس إلى ما كانوا عليه من التفرق والصراع . ولكنهم لسوء حظهم وقعوا فى زعامة هى شر الزعامات ، فسلموا زمام الدولة لامارة لم تكن لها مزية على سائر الامارات غير وفرة العدد ووفرة السلاح ، وهى بروسيا آخر القبائل الجرمانية حضارة وأقلها نصيبا من الأدب والمروءة . فسارت بهم على سنتها وباعدت مابينهم

وبين «التطور» فى سبيل الشورى ومعاملات السلم والمودة ، وتركتهم فى سياستهم لايعقلون إلا «وجهة نظر واحدة» هى وجهة النظر التى يأمر بها السيد المطاع ، ولا يعرفون حق المعارضة لفرد من أفراد الرعية لأن المعارضة منه عصيان ، ولا لدولة من الدول الأجنبية لأن المعارضة منها عداء وقتال

ولبثوا كذلك إلى مابعد الحرب الماضية التى خرجوا منها دولة واحدة قليلة الفواصل والحدود . فلم تنقض عليهم عشر سنوات حتى انكفأوا إلى نظام المعسكر وأدب الغارة والاغتيال

وازنْ بين تربية كهذه لامحل فيها لرأى الأمة فى سياسة داخلية أو خارجية ولا أدب لمن يتربى عليها غير الطاعة أو العدوان ، وبين التربية السياسية التى فرضتها على خصوم الألمان مواقع الجغرافية ووقائع التاريخ

فالانجليز مثلا أبناء جزيرة مستقرة قريرة

فهم لهذا آمنون ، وهم لهذا تجار . ومن هنا بطل فيهم طغيان العسكرية ونشأت فيهم خلائق الشورى والتفاهم والأخذ والعطاء

وهم أقوياء ولكنهم يبيعون ويشترون ، فلا مناص لهم من السمعة ومن الثقة ومن الارضاء ، إذ التاجر لن تنسيه قوته أن يرضى عميله وشريكه ، ولن يستغنى — وان استغنى — عن التفاهم والقبول

وقل ماشئت عن أسرار الحرب الحاضرة وأسباب الحوادث القريبة على تناقض الروايات والتعليلات ، فمالا شك فيه أن تربية الألمان القديمة هى التى جعلتهم يأنفون من مفاوضة الأمم الصغيرة ، ويستكبرون أن يجلسوا مع بولونيا أومع غيرها إلى مائدة واحدة لفض المشكلات وتبادل الآراء ، لأنهم ينظرون إلى المفاوضة نظرة العسكرى الذى لايعرف المفاوضة إلا لاملاء الشروط أو الخضوع لمن يمليها . ومما لاشك فيه أن تربية الانجليز القديمة هى التى جعلتهم يفاوضون

الـكبير والصغير ، وعوّدتهم أن يروا لمفاوضهم حق الشارى على البائع وحق البائع على الشارى ، فى مجال الأخذ والعطاء

تلك الخلة الألمانية معلومة لـكبار الأدباء الألمان سواء منهم الآريون وغير الآريين ، فأديبهم الـكبير « جيتى » يقول

« ان امام أبناء وطننا بضعة قرون أخرى تنصرم قبـل أن يترقوا إلى منزلة من الحضارة تجعل الناس يقولون انهم كانوا برابرة منذ عهد بعيد »

وشيلر زميـل جيتى يقول « أيها الجرمان ، عزيز عليكم أن تصبحوا أمة ، فـكونوا رجالاً فذلك ميسور »

وهينى أشعر شعرائهم الغنائيين يقول : « يوم يتبدد رمز المسيحية الوديع يفور مرة أخرى جنون الغزاة الأقدمين الذى يطنب فى التغنى به شعراء الشمال ، وتهب الأرباب الصخرية من مراقدها فى الآكام المهجورة نافضةً عن اهدابها غبار ألف عام . ويهب معها اله الرعد والبرق ثور يحمل مطرقته الهائلة ليهوى بها على محاريب الآله المسيحى : يومئذ تسمع جهنم من الضوضاء لم يسمع لهـا مثيل قط فى تاريخ العالم كله ، ويومئذ تعلم أن الرعد الجرمانى قد تمادى إلى مداه ، وان الصيحة يومئذ لتسقطن النسر ميتاً فى علاه ، ولتسمعنها الأسود الناكصة فى أقصى الآجام الأفريقية فتختبئ فى كهوفها ، ولتشهدن ألمـانيا فى ذلك الموعد مشهدا تحسب الثورة الفرنسية عنده موقف غزل وغرام . وليتطلعن العالم كأنه على سلالم عرينة الصراع لينظر إلى مشهد هذا العراك الجنونى فى ساحة ألمانيا . . . »

قالهـا هينى قبل مائة سنة فصدقته الأيام ، ولو قالها اليوم لقالوا نبوءة شاعر كذاب من سلالة اسرائيل !

ونيتشه نبيّ القوة عندهم يقول : «الجرمان كالنساء . لايسبر غورهم لأنهم بلا غور . . . وهذا كل ماهنالك . فلا يقال عنهم أنهم ضحل لهذا السبب عينه . اماما

يسمى العمق فى ألمـانيا فهو فى لبابه نقص فى اخلاص المرء لنفسه ، أو هو بمثابة أمة تأبى أن تقف من طبيعتها موقف الوضوح والصراحـة . ألا يحسن أن نضع كلمة الجرمانية رمزا متفقا عليه للدلالة على هذه الآفة النفسية ؟ »

وطالما ألم جيتى ألمـاً شديداً للنظر فى أمور هـذه الأمة التى تتقن التفاصيل وتنسى الشمول والتى « يبدو فيها أفراد أجلاء وتبدو هى أمة زرية »

إلا أن الاختلاف الذى لاحظه لايعد من الشذوذ ولا الخروج على القياس المعقول . لأن البربرية وقوة العقل والطبع لاتتناقضان ، فيجوز أن ينشأ الأفراد المقتدرون فى غمرة البداوة كما ينشأون فى أوج الحضارة ، وأن تعلو الصفات الفردية، وتهبط الصفات القومية . أما النقيضان المستغربان فهما أن تصمد الأمة على حكم الأستبداد وأن تتقدم فى أطوار التربية السياسية وخلائق الحرية التى تواتيها فى تصريف تبعات الحكم ومشاركاته ، وهذا هو جانب القصور فى تربية الالمان

***

ومن المشاهدات التى لاتستغرب بعد ماتقدم أن الالمان على كثرة ما أفادوا العالم فى أبواب العلم والفن والصناعة لم يفيدوه شيئا فى باب العلم السياسى والاصول الدستورية ، فلاهم فى أطوارهم الشعبية تقـدموا وراء القيادة العسكرية وأنظمة الميدان ، ولاهم فى كتابات فقهائهم ودارسيهم ساهموا بقسط قيم من التفكير فى هذا الباب ، وغاية ما ساهموا به أنهم قدسوا الدولة وأقاموها على أساس « القوة الحاصلة » وجعلوا مخالفتها أشبه بالكفر والشيطنة منها بالجريمة التى يعاقبها القانون

فالدولة عند فيلسوفهم الكبير هيجل هى مسالك الحق وخلاصة التاريخ وصورة المشيئة الالهية . . . وماشا كل ذلك من نعوت تلحق الدولة بعالم الغيب فى عرف المتصوفة

والقانون عنـــد فقهائهم هو « سر العنصر » أو لبـاب الروح القومى

Volksgeist وليس هو بالعـدل المطلق الذى يعم جميع الأقوام ولو فى المبـدأ والقاعدة .... فبينما كانت الدول تعلن فى الحرب الماضية أن محا كم الغنائم فيها تطبق قانون الامم وشريعة المنطق الانسانى كانت المانيا تعلن أنها لاتطبق إلا الشريعة الألمانية التى تستمدها من الدولة الالمانية ، وبينما كانت الشعوب المختلفة تبنى اعتزالها لعصبة الأمم على أسباب المصلحة أو على خشية الاخفاق والاصطدام بالوقائع المنظورة كان الالمـان يخلطون بذلك سـببا فلسفيا يقـوم على فـكرة العنصر والقوم ، فلاعدل فى اجتماع عصـبة الامم لانها مجموعة أجناس المشرق والمغرب وسلالات البيض والصفر والسمر والسود ، وانما العـدل أن تقوم على جنس واحد أو أجناس متقاربات ، وأن تعترف بالتفاوت بين السادة والمسودين والاقوياء والضعفاء .... أى أن تبطل معنى العدل فتجعله اعترافا بجواز الظلم لمن يقدر عليه وتحريمه على من يعجز عنه ليس إلا ... وما أبعد الفرق بين قولك أن الظلم هو العـدل والانصاف وقولك أن العـدل مطلوب محبوب ولـكنه متعذر التحقيق ، ولابد من رياضة الطباع عليه

وهذا التفاوت بين اقدار الشعوب يسرى على الرعايا الالمـان فينقسمون الى آريين وغير آريين وينقسم الأريون الى عريقين فى الآرية يحملون جواز العراقة Gross Ahnenass ومحدثين فى الآرية لا يثبتون من النسب فيها اكثر من جد واحد ولا يحملون الاجواز المحدثين Ahnenspiegel وهو لا يسمح لهم بالإنتظام فى الحزب ولا فى جماعاته المختارة (١)

وكان أناس يخالون أن حذلقة الالمان فى تفضيل أنفسهم على العالمين قد بلغت قصاراها خلال الفترة التالية لعهد بسمارك وحرب السبعين ، فاذا بالنازيين يدخرون

---

(١) كتاب الحق والقوة لمؤلفه الفقيه الالمانى الدكتور فردريش رويتر Firedreick Roetter

من هذا المعنى مالم يكن يخطر على بال .

فليس التفاوت باديا باقيا بين القوم الجرمان وسائر الاقوام الآدمية وكفى ...
كلا . بل هناك تفاوت بين حيوان آرى وحيوان أجنبي وبين فاكهة عريقة وفاكهة هجينه ، وبين بذور رفيعة تنبت فى تربة الشمال وبذور خسيسة تنبت فى تربة الجنوب ، فمن المحقق كما يقول الجنرال لدندورف [1] أن الأرنب ليس بحيوان آرى ، وحسبك سببا جبنه الاليم . وحماداه أنه مهاجر يحظى بحفاوة الضيف . أما الحيوان الذى لاشبهة فى ملامحه الجرمانية فهو الأسد ، وهو من أجل ذلك المانى فى دار غربة »

بل التفاوت بين السلالة الآرية والسلالات الأخرى تفاوتٌ فى تركيب الجسد ووظائف الأعضاء وخصائص المترة البشرية .

« فغير الآريين لهم أسنان وفكوك عليا تشبه فى ضيقها ومنظرها خراطيم الحيوان ، وحركة الفكين بين أهل الشمال تسمح بمضغ الطعام والفم مقفل على خلاف الأجناس الأخرى التى تُسمع لمضغها أصوات كأصوات المجماوات . وللفم الشمالى عدا هذا فضائل شتى يمتاز بها كامتياز اللون الأحمر باثارة الشعور ، فان لونه المتوهج القانى يغرى بالقبلات ، وفم الشماليين من أجل هذا مركب صالح فى تركيبه للتقبيل . أما غير الشماليين فهم عراض الشفاه غلاظها ينمون بذلك وبفتحات المنخرين على الشهوة وعلى التعبير الهازىء المضطغن وعلى حركة الارتشاف التى تنبىء بالانغماس فى المتعة الراضية ، وهم يفرطون فى التحدث بمساعدة الأيدى والأرجل مما لايُرى فى حديث أهل الشمال الذين يتكلمون أحيانًا وأيديهم فى الجيوب . ولن تبصر فى غير المرأة الشمالية ذلك النهد الكاعب المكين المستدير الذى يبرز للنظر حتى حين تلق بذراعيها إلى الجنبين . وخلاصة

---

(١) فى Am Qelle Deutscher kraft' أى من منبع القوة الجرمانية

القول ان غير الشماليين ينزلون فى مرتبة بين طبقة الانسان الشمالى وطبقة الحيوان من فصيلة فوق فصائل القردة العليا . فليسوا هم باناسي يقابلون الصفات الحيوانية بالصفات الانسانية ، ولكنهم حلقة وسطى فى الطريق أحرى بهم أن يسموا شبه بشر » . . . . « وإذا سأل سائل ما بال غير الشماليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشماليين ولا يتناسلون من القردة ؟ فالجواب ان الدليل لم يقم بعدُ على انهم وفصائل القردة لا يتناسلون ! » [1] .

وليس المهم أن يؤمن النازيون بهـــذا الهراء ايمان اليقين ، بل المهم انهم يعملون به عمل المؤمنين . ولا ندرى وايم الحق أيهما أقبح بالمرء : أن يصدق هراءاً كهذا فهو مسلوب التمييز فى شؤن الأقوام ومسائل السياسة ، أوأن يدعيه ولا يصدق به فهو خادع محتال .

* * *

أمة تروج فيها هذه الدعوات حيثما ظهرت ليس بعجيب أن يعلوها أضراب هتلر وجوبلز وهيس وجورينج متى أيدتهم المصادفات واندفع بهم تيار الحوادث والأزمات ، وليس بعجيب أن تكذب تلك الأمة على عقولها وهى تكذب على أعينها فتصدق أن هؤلاء صفوة الآريين وهم على نقيض الشمائل التى يزعمونها لأبناء الشمال . فالرجل الشمالى فى زعمهم « أصهب رائع المنظر فارع الطول بيّن الرجولة رشيق وسيم » . . . وهتلر انثوى جنوبى السحنة لا روعة لمرآه ، وجوبلز أعرج دميم ممسوخ الوجه والقامة ، وهيس أسمر من مواليد الأســـكندرية ، وجورينح ضخم بدين جدته فرنسية . . . ولكنهم يهتفون للألمان بما يعجبهم

---

(١) كتاب الأصول الحديثة لبحث الأجناس تأليف هرمان جوشُ اقتباس مجلة الناشيون فى ٦ فبراير ١٩٣٥ .

The New Bases of Racisl Research by Hermann Gauch

فهم مصدقون ولو كذبتهم العيون !

لقد أكبر بعض الكتاب الأوربيين من هتلر أنه « صنع المعجزة » وأعاد إلى الألمان الثقة بأنفسهم وقد شارفوا على الذلة والانحلال .

فهل جاء هتلر قومه برسالة الثقة بالنفس أو رسالة الاستخفاف بالآخرين ؟

ان الواثق بنفسه لايلغى حقوقه فى الحرية ولا يبنى حياته على التسليم والأذعان ولا يصيح على الابراج والشواهق أنه واثق وأنه يقسم أنه لواثق !

كلا . إنما يفعل ذلك من لا ثقة له بنفسه ولاقدرة له على تمييز رأيه ، وليس الاعتداء على الآخرين من صفات الواثقين ، ولكنه من صفات من لا يعرفون الحقوق ولا يدرون معنى الحرمات .

وهتلر قد علم شبان قومه خلائق معلومة لا صعوبة فى تعليمها ، بل الصعوبة فى اقتلاعها وتبديلها لأنها من نوازع الهمجية وخلائق القطعان .

قال لهم البسوا الكساوى والشارات التى تحبونها ، واخرجوا فى الشوارع صفوفاً صفوفاً تزعقون وتتوعدون ، واضربوا اليهود واضربوا الشيوعيين واضربوا الديمقراطيين واضربوا النازيين المخالفين . . . . اضربوا اضربوا اضربوا ولكم المجد والفخار وعلى فرائسكم المسبة والعار .

ولقد عاش أبناء آدم مائة قرن يعاقبون من يضرب ويقيدون يديه ويعيبونه بالشر والرذيلة ولا يزال الضرب مغريا يهون فيه العقاب والتأنيب .

فاذا جاء هتلر وجعله شرفا يبوء المعتدى بفخره ويبوء المعتدى عليه بوصمته ونكره فأين هى المعجزة وأين هى الخليقة الكريمة التى تكتسب بالمشقة والرياضة وهداية الزعماء ؟

هذا اندفاع مع التيار وليس وقوفا فى وجه التيار ، وتلك هى النكسة

والانحدار وليست هى الوثبة والاقتدار ، وما فى هذه الزعامة الرخيصة مسحة من العظمة ولا لمحة من الابتكار .

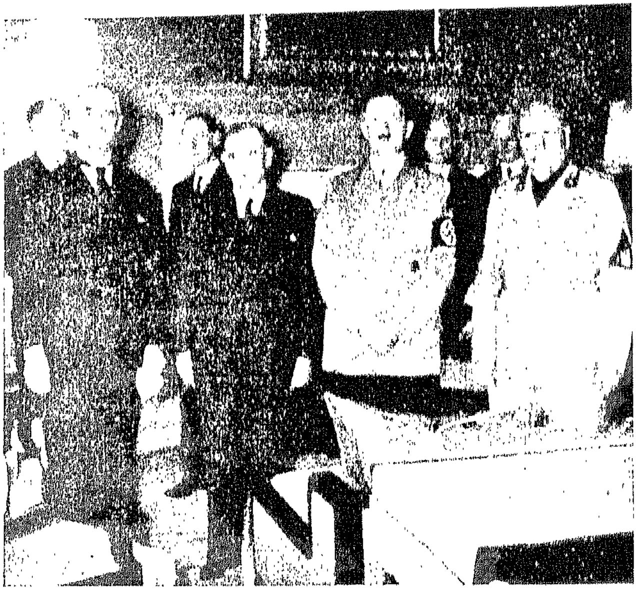
ألغوا وجودهم من ناحية وألغوا وجود الآخرين من ناحية أخرى !

كبحوا حريتهم العالية على الأحرار ثم أشبعوا نفوسهم المكبوحة بشهوة العدوان على حرية الناس . فكانوا خاسرين فى الصفقتين : غادرين بحرماتهم وحرمات من يعتدون عليهم . و بئس التعليم ان كان هذا الصنيع فى حاجة إلى تعليم .

إنما المعجزة أن تعلّم المرء الكرامة فلا يهدر حقوقه ولا يهدر حقوق غيره ، و إنما الرجل الكريم كما قلنا فى كتابنا عن سعد زغلول من « يسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينة كما يسوءه أن يتعرض هو لتلك الغضاضة ، و يعاف الذل حيث كان ولو لم يمسسه فى كبريائه ، وذلك هو الفرق بين الكرامة المحمودة والغطرسة الذميمة . فان الغطرسة الذميمة هى التى تستريح إلى اذلال الآخرين ولا تغار على كرامة إنسان ، وهى التي لا تميز بين الكبرياء بحق والكبرياء بباطل ، ولا تلوم الناس لأنهم اعتدوا عليها مبطلين بل تلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى صواب . ولهذا يستخذى المتغطرس حين تصدمه القوة من سواه ، ولا يزداد الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسها من يتطاول عليه » .

***

وهكذا «معجزات» هتلر فى شتى مراميها لا تستمد قوتها من رفيع الصفات كما تستمدها من وضيع الغرائز والشهوات ، ولا تعتمد على الاقتحام كما تعتمد على الاتباع والانسياق ، ولا تروعك بالبطولة كما تروعك بالمداورة والاستغلال ، ولا تروض الظروف بل تركبها وهى ريضة ذلول ، ولا يرتفع بواحدة منها إلى مرتبة النوادر الأعلين بل يظل حيث كان فى زمرة الأواسط وأبناء المصادفات



هتلر مع شامبرلين ودلادييه وموسوليني



هتلر مع شامبرلن وهندرسون السفير البريطاني

الفَصْلُ الثّالِثُ

نفسُ هتلر

نفس هتلر

صرفنا معظم الكلام فى الفصل السابق إلى بيان « الظروف » التى هيأت لهتلر ماتهيأله من النجاح فى قومه ، لنعزل بين أعماله وضجتها الخارجية ، ونعلم ماهو حقه وما هو حق الحوادث ، ونوازن بين ما هو من فضل الكفاءة وما هو من فضل المكان الذى ارتفع اليه ، ونخلص من ثمة إلى سبر أغواره وأغوار أعماله فنسلكه فى مسلكه الصحيح ونقيمه حيث ينبغى أن يقوم

وسنصرف الكلام فى هذا الفصل إلى دراسة طبائعه وأخلاقه و بواعث تفكيره وهواه ، فيكون سؤالنا فى هذا الفصل : لماذا اختار هذا الطريق ؟ وقد كان سؤالنا فى الفصل السابق : كيف تمهد له هذا الطريق ؟

وفى هذا العصر الذى شاع فيه علم النفس واتصل فيه طب العقول وطب الأجسام يندر أن يشتهر انسان بما يثير النفوس دون أن توضع نفسه هو موضع الفحص الطبي والدراسة العقلية ، ليتبين الباحثون دلالة أعماله ويتعرفوا نصيبها من الصحة والاستقامة أو نصيبها من المرض والشذوذ

وهتلر فى رأى بعض الأطباء مصاب بآفة نفسية يسمونها « شيزوفرينيا » Schizophrenia أو ما يُعبر عنه فى العرف الدارج بازدواج الشخصية ، وهى آفة تنشأ من الوراثة القديمة والحديثة ومن فرط النشاط فى الغدة الدرقية على نحو يغلب فى النساء المريضات ، واليه يرجع اهتياج الشعور عندهن وطغيان الحس على أفكارهن

وقد لوحظ على هتلر كثير من عوارض هذه الأنوثة المريضة لأنه يبكى ويمرح حين يشاء ، ويغضب ويصخب لأتفه الأشياء ، ويثير شعور سامعيه أبداً ثم لا يزودهم يوما بزاد من الفكر المقنع والروية الهادئة فى غير سخط واهتياج ، ويشبه المرأة فى تركيب جسمه لضيق كتفيه وضخامة ردفيه ، وقلة العضل فى تكوين أعضائه مع عنايته بتصفيف طرته وتنميق أظافره ، وندرة ما يبدو عليه من دلائل الرجولة فى اتصاله بالجنس اللطيف ، وكثرة ما يعهد من كيده وولعه بالايقاع وإثارة الشحناء والغيرة بين المحيطين به على نحو ما تصنع المرأة المتبوعة بين المحيطين بها ، وهذا إلى صبره الطويل على كل ألم فى سبيل الظهور والزينة والمتعة بالتفاف الأنظار ، كوقوفه خمس ساعات ممدود الذراع أمام المواكب التى تحييه وتومىء اليه ، وهو نوع من الصبر يعهد كثيراً فى النساء ولا يعهد فى الرجال .

وصاحب الشخصية المزدوجة يتناقض فى تفكيره وشعوره كأنما تصدر أفكاره وأحاسيسه من مصدرين أو من شخصين مختلفين : فهو حيناً سديد الرأى وحيناً شديد الخطل ، وهو تارة وديع لين وتارة شرس عنيد ، وساعةً يحجم ويتردد وساعة أخرى يهجم ويتعسف ، وقد يعالج الأمور علاج الحالم المؤمن ثم لا يلبث أن يعالجها علاج المتشكك الذى لا يقنع بغير الواقع الملموس .

ونشرت مجلة المبضع الطبية Lancet فى أوائل السنة الحاضرة بحثاً عن الهستيريا النفسية عدّد فيه الكاتب عوارضها وعلامات هذه العوارض فى نفس هتلر وأعماله ، فقال ان المريض المصاب بالهستيريا ذكي متعدد الشواغل وإن كان لا يتعمق فى واحدة منها ، مولع بالأسرار لبق فى التسلل إلى مكامن الأهواء ، قادر على تجديد الصور فى خياله وحدسه وربط الشتيت من الأفكار بروابط غريبة وسطحية لا تنفذ إلى اللباب ، وانه مستعد بالفطرة للتغاضي عما لا يوافقه

ولا يرضى لباناته ، وانه جامح النفس فى حبه و بغضه ، متقلب فى أطواره وميوله تدور خواطره كلها على محور واحد هو نفسه وما يتقزز به حسه ، و يفتأ من أجل هذا متشوفا إلى الثناء متعلقاً بدواعى الغرور . منهوما بما يلفت الأنظار و يخلب الأفكار ، وتساعده على ذلك قدرة على الايحاء إلى من حوله والايماء الباطنى إلى صحبه ، فيحظى بينهم حظوة قلما ينالها من عروا من قدرة الايحاء والايماء . وتتعطل فيه مراكز الحس فيصاب بضرب من البلادة و يكل أحياناً عن الاحساس بالجوع والتعب والسهاد ، وهو ما يلوح للناس فى هيأة الجلَد والدُّؤب والثبات .

و يشفع الكاتب كل صفة من هذه الصفات بما يدل عليها من كلام هتلر أو من عاداته المعروفة وحركاته المشهورة ، فيحكم عليه بالمرض الهستيرى وزيغ التكوين .

أما الطبيب الذى امتحن هتلر فى السجن — وهو الدكتور برنشتينر Brinsteiner — فقد نفى عنه المرض العقلى و بوادر الجنون وقال : « ان النظر فى حالته النفسية وطريقة سلوكه أظهرلنا انه لم يصب بضرر من جراء نشأته وتعليمه وحياته الأولى ، وان الانقلاب الذى حاوله فى الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٣ وطالما قيل فيه انه حماقة وجنون قد يسهل رده إلى اختلال العقل واضطراب ميزان التفكير . ولكنك إذا سمعت من هتلر نفسه بواعث الانقلاب وتعليلاته انتهيت إلى الجزم بأنه كان مالكا زمام رأيه أثناء تلك الحركة من بدايتها إلى انتهائها ، وانه لا محل فيها لاختلال التفكير مع احتمال النقص والخطأ فى الباعث والتعليل . . . . » .

وعلى خلاف هذا الرأى الدكتور ماكس فون جروبر Max von grober الأستاذ فى جامعة ميونيخ ، فانه يقول ان تعبير وجهه لا يدل على رجل يملك

زمام شعوره ، بل فيه دلالة على اضطراب واهتياج » .

وللطب العقلى مدرسة أخرى غير مدرسة المباضع والعقاقير ومستشفى المجاذيب على طراز البيمارستان القديم ، وهى مدرسة التحليل النفسانى على مذهب فرويد ومذاهب تلاميذه الذين اقتبسوا منه أساس الفكرة وان ناقشوه فى أجزائها أو اختطوا لأنفسهم بعد ذلك خطة جديدة

فلهذه المدرسة أيضا كلمتها بل كلماتها فى مزاج هتلر وتركيب عقله وسريرة أخلاقه

فمنهم من يقول أنه رجل مكبوت الغرائز الجنسية لعلة فى تكوينه يدل عليها أنه لم يتزوج ولم تعرف له صلة مألوفة بالنساء ، فهو من ثمة يرى فى حب السطوة والقسوة منطلقا لغرائزه المكبوتة ينفس به عن ذلك الكبت الاليم

ومنهم من يقول أنه كان طفلا مدللا ألف التدليل من أمه والشدة من أبيه ، فنشأ مضطرب الاهواء ، يغلب عليه التدليل حينا فلا يطيق المعارضة ولا يزال ينتظر من الدنيا التمليق والموافقة كانها مطالبة باشباع نهمته من هذه العادة ، ويغلب عليه الامتعاض تارة أخرى فيحب التمرد والانتقاض والثأر لنفسه مما أصابه فى طفولته وصباه

ومنهم من يقول هذا وذاك ويزيد عليه أن محنة الفقر والتشرد فى الشباب الباكر قطعت ما بينه وبين الناس من رحم ومحبة وعودته سوء الظن وضعف الثقة بالمودة والوفاء ، فأصبح غير صالح لمبادلة الأفراد عطفا بعطف واخاء باخاء ، وانحصرت علاقاته ببنى الانسان فى صورة الجماهير والجماعات ؛ فأما ان يحيا فى الحركات السياسية التى تقوم على الجماهير والجماعات وإلا فليست له حياة ! واما أن يستيئس فى طلب الحركة السياسية وإلا فليس فى بيئته الفردية متسع للعطف والشعور ، وكل ما تتسع له تلك البيئه الفرديه بمعزل عن السياسة فانما هو والخيبة والنضوب

ومنهم من يرجع الى الوراثة من والديه ، ومن جهة أبيه خاصة : لانه كان رجلا مزواجا تموت له الزوجة فلا تنقضى أشهر حتى ينساها ويبني بغيرها ، وكانت أم هتلر ثالثة زوجاته بنى بها وهى فى نحو السابعة عشرة وهو فى نحو الاربعين : وولدت هتلر وهى فى التاسعة والعشرين وهو فى الثانية والخمسين . وقد مات بضربة فالج ، وقيل أنه مات وهو يتعاطى الخمر فى حانة

ويلاحظ هؤلاء النفسانيون أن هتلر ـ على افاضته فى بعض أخبار صباه ـ يقتضب الكلام اقتضابا عن أبيه وأهله ، ولا يبدو عليه الارتياح الى هذه السيرة فيما يكتبه أو يتحدث به لتابعيه وخاصة رفقائه . ففى الأمر لاشك سر مجهول غير ماهو معلوم مما تقدم ، وفيه الكفاية للدلالة على انحراف الصفات الموروثة .

ويربط بعضهم بين هذا السر المجهول فى نشأة هتلر وبين تكرار الكلام فى كتابه عن الامراض السرية و « سوط عذابها » المنصب على أبناء زمانه ، ويتساءلون ولا سبيل عندهم الى اليقين : ألا يجوز أن يكون اختلال الغريزة الجنسية واهتياج الدماغ عند هتلر متصلين بسر من تلك الأسرار ؟

* * *

هذه الدراسات النفسانية والطبية كثيرة مستفيضة فى جميع اللغات الأوربية لاضرورة لحصرها ولا للاستشهاد بأكثر من النماذج التى استشهدنا بها للالمام عما يقال فى سبيلها

ولسنا نريد أن نعول عليها وحدها دون التعويل على مايزكيها من الوقائع الواضحة التى لاتحوجنا إلى مشرحة الطبيب أو معجم المصطلحات الفنية

ففى اعتقادنا أن أصدق الأوصاف العلمية فى دراسات النفوس هى تلك الأوصاف التى تستغنى عن المصطلحات وعن لغة المعامل والمشرحات ، لأن الأخلاق الانسانية لم توضع فى مجمع علمى ولم تتقرر بعد الكشف الطبي على من

وضعوها فى الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة . فقد كان فى ملايين الملايين الذين وضعوها أناس يجوزون امتحان الأطباء وأناس لا يجوزونه ولا يحسبون من الأقوياء ولا الأصحاء . وانما وُضعت أخلاق بنى الأنسان بتجاوب الشعور وتجاوب الأحقاب والأعقاب ، فملاكها ولا شك هو النفس العاطفة القادرة على مجاوبة من حولها وما حولها مجاوبةً متصلة مستقيمة فيما تؤديه وفيما تتلقاه

فاذا امتحن الأطباء رجلا فلم يجدوا عيبا فى وظائف جسده ولا فى مجس أعصابه وعضلاته ثم ظهر أن هـذا الرجل يحس بالغضب ولا يحس بالرضا ، أو يشعر بما يؤلمه ولا يشعر بما يؤلم غـيره ، أو يقـدر على ادراك عاطفة ويعجز عن ادراك عاطفة مثلها ، فالوصف الصادق لهـذا الرجل أنه ناقص وإن قال الأطباء انه لانقص فيه

ثم هو ناقص وإن لم ينجم عن نقصه ضرر ، كما نحـكم بالنقص على الجهاز الـكهربائى الذى يسمعنا الأحاديث فى وقت ولا يسمعنا فى وقت آخر ، ولو لم تـكن هنالك فائدةٌ من السماع أو ضرر من عدم السماع

فملاك الأخلاق الصالحة نفس صالحة للشعور قادرة على التلقى والأداء ، وقد تنفعنا البحوث الطبية فى التعليل والتفسير إذا عرض لنا مايحوجنا إلى تعليل وتفسير . أما إذا كانت الأخلاق الماثلة أمامنا غنية عن تعليلها وتفسيرها فهى إذن مفهومة مدروسة بغير حاجة إلى معمل أو امتحان

وسنتوخى هذه السُّنَّة دون غيرها في دراسة نفس هتلر وتقـويم عمله وكلامه : نتوخاها لوزن الرجل لا لترجمة حيـاته ، فان وقائع التراجم تتشـابه وتتكرر فى الوف السير ، وتتشابه وتتكرر فى سيرة الرجل الواحد ، ولا تميزه إلا طائفة محدودة من وقائعه وأقواله

التربية والنشأة :

كان أبو هتلر المسمى ألواز (Alois) ثمرة « غير شرعية » من بنت فلاحة ورجل مجهول .

وكان يحمل اسم أمه شيكلجروبر Schicklgruber إلى أن بلغ الأربعين من عمره ، فقيد فى السادس من شهر يناير (سنة ١٨٣٤) باسم الرجل الذى ظُن أنه أبوه وهو جوهان جورج هيدلر ، وقد صُحف هذا الاسم على الألسنة فأصبح هتلر كما ينطق الآن .

وتزوج ألواز بثالثة نسائه « كلارا » أم هتلر وهو فى نحو الأربعين وهى لم تتجاوز بضع عشرة سنة كما تقدم ، وكانت خادمة لزوجته الأولى ثم فرت إلى « فيينا » وهى صبية صغيرة ، وعادت إلى موطنها بعد فترة مجهولة الأخبار ، فخطبها أبوه .

وتربية هتلر من مولده إلى شبابه تربية صالحة لتفسير حياة رجل جامح النزعات متناقض الأحوال ، لأنها لم تجر على استواء واحد بين تدليل الأم وصرامة الأب ، وهى صرامة كانت تشتد وتعنف كلما لح من ابنه رغبة فى احتراف التصوير والعيش فى معيشة الاباق والتشرد ، وهو يعده لوظائف الحكومة ويرشحه لمستقبل رتيب .

وكانت أمه أصغر كثيراً من أبيه كما تقدم ، ولكنها على صغر سنها كانت متوعكة شاكية كما قال هتلر فى كتابه ، ولم تكن قوية العزيمة لأنها كانت تضعف عن تأديب ولدها والاشتداد عليه ، وقد ماتت فى نحو السابعة والأربعين ، وهى سن لا تدل الوفاة فيها على صحة وافية .



أبو هتلر وأمه

ولم يكن أبوه متين البنية ولا كان قدوة فى الوفاء وضبط النفس وبراءة النشأة . بل كان عرضة لنوبات الفالج تعتريه من حين إلى حين ، وكان سريع الزواج بعد وفاة زوجاته ، وكانت ولادته كما تقدم فى غير مهد الزفاف المشروع .



هتلر الطفل

فهل ورث هتلر ما يورث من هذين المزاجين ؟ لقد كانت أمه تقول له فى طفولته أنه صريع القمر Mondsuchtig وهى كلمة تقارب عندنا كلمة « المجذوب »[(١)]

والذين عاشروه مجمعون على نزقه وسرعة بكائه وكثرة هياجه وتقلب أطواره، ويقول روشننج Rauschning

(١) كتاب البيت الذى بناه هتلر لمؤلفه الدكتور ستيفن روبر برتس Stephen H. Roberts

رئيس مجلس الشيوخ السابق فى دانزيج أنه يتخبط و يتشنج و يستيقظ من نومه وهو صائح مذعور كأنما يهرب من أعداء ، والشائع عنه الآن أنه لا ينام ليلة بغير دواء مرقد إلا إذا كان مبيته فى برختسجادن حيث يهدأ بعض الهدوء (١) فاذا أضيف إلى الأثر الوراثى فى الجسد أنه نشأ وهو يعلم مولد أبيه فى غير مهد الزواج لم يكن من شأن ذلك أن يعزز فيه ضوابط الأخلاق أو يدعم فيه الثقة بنزاهة الآداب .

ومات أبوه وهو يناهز الثانية عشرة فأصبح عالة على أمه الأرملة بضع سنوات ، ينتظم فى الدراسة فترة و ينقطع عنها فترات ، وسرعان ماأصيب فى معيشة الطواف والتشرد بمرض صدرى أعفاه من الدرس ومن التجنيد ، فتمت له بغيته من ترك الدراسة واجتناب الامتحان .

وحاول أن يلتحق بمدرسة الفنون فى عاصمة النمسا فلم يقبله الأساتذة لأنهم لم يلمحوا فى صوره مسحة من ملكة المصور الصناع

وكثيرا ماظلمت مدارس الفن نابغا فى صباه ثم أنصفته الدنيا وعُرف قدره بعد حين . إلا أننا لانعتقد أن أساتذة فينا ظلموا هتلر حين ردوا صوره و يئسوا من فلاحه ، إذ ليس أدل على صواب رأيهم من اعراضه الباكر عن الفن واستغراقه فى السياسة ، وهو مالم يحدث قط فى تاريخ فنان عظيم مفطور على الخلق والابداع فى عالم الفنون

فلما ردته مدرسة فينا قنع بالنقش والتخطيط و بدا له فى بعض هواجسه أنه على مثال «ميكال انجلو» بنّاء ومثّال وليس بمصور لوحات وناقش ألوان ، وساوره من المرارة والضغن مايلحق بالغرور المصدوم ، فامتلأت جوانحه بالسخط والانكار

(٢) راجع كتاب « انى أعرف هؤلاء الدكتاتوريين » لمؤلفه وارد پرايس Ward Price وهو أحد المعجبين به

ثم ماتت أمه وهو فى نحو الثامنة عشرة عاجز عن كسب رزقه بسعيه واحتياله . فأوى إلى بيوت الصدقة ومدّ يده بالسؤال ، واجتهد فى جمع قوته بنسخ الصور ونقش تذاكر البريد ، فلم يظفر من هذه الصناعة بطائل ، ولجأ أحيانا إلى جرف الثلج فى الشتاء وحمل الحجارة فى العمارات ، وهو الرجل الذى كان يعتقد أنه خليفة ميكال انجلو على هندسة البناء

وتقضت شبيبته وليس فيها أثر من رحم القرابة أوأنس الصداقة، فمضى عليه فى الحرب العظمى أربع سنوات لم يكتب رسالة ولم ترد اليه رسالة ؛ ولاحظ زملاؤه أنه كان يرقب توزيع الرسائل والهدايا بشيء من الحرد والتمرمر ، فيأبى أن يأكل معهم من أزوادهم حردا وتمرمرا فى الحقيقة لاأنفة وعزة ، لأنه لم يأنف أن يأكل خبز الصدقة وأن يبسط اليد بالسؤال

وكانت علاقته بالنساء ولاتزال محفوفة بالغرابة والغموض . فلم يتزوج ولم يعاشر معاشرة أزواج . وقيل انه لا يزيد على لمس زنود الحسان والجلوس إلى جانبهن ، وانه لايتعلق بعاطفة من قبيل الألفة والمحبة

والحادث الوحيد الذي يذكر فى ترجمته من قبيل المحبة الغرامية قد يزيد الغرابة والغموض ولايجلوهما ، ونعنى به حادث انتحار الآنسة جريت روبال Grete Raubal بنت أخته التى كانت تعيش معه فى مسكنه . فكيفما كانت العلاقة بينهما فليس شغف الرجل ببنت أخته وانتهاء هذا الشغف بالانتحار مما ينفى الزيغ والنشوز ، بل هما خليقان ان يثبتاهما أيما اثبات

وجملة مايفهم من هذه الأحوال أنها أحوال رجل زائغ الطبيعة، ناضب العاطفة منقطع الصلة « الشخصية » بينه و بين أبناء جنسه ، مستعد للبغضاء وليس بمستعد للمودة والوفاء



« موقف هتلر مع فتاة »

كتب هتلر إلى صديقه وزميله روهم فى ذكرى الثورة النازية الأولى خطاباً يقول فيـه : « يهز نفسى فى هذه الذكرى الأولى — ياعزيزى ارنست روهم —

أن أشكر لك خدماتك التى لا تفنى للحركة الوطنية الاشتراكية والأمة الجرمانية جمعاء ، وأن أؤكد لك مبلغ حمدى للعناية الالهية التى أتاحت لى أن أدعو رجلا مثلك صديقى وزميلى » .

وبعد أشهر قليلة قتل هتلر هذا الصديق والزميل ومئات من رجاله شر قتلة ، ووصمه بكل رذيلة من الرذائل التى كان يعلمها ويعتذر عنها بين أصحابه ، ولا يمنعه أن يفخر بالصداقة والزمالة للعزيز ارنست روهم . ولم يتقدم هتلر بوثيقة واحدة تسوغ تلك المجزرة الجائحة فيما بين يوم وليلة ، مع استيلائه على أزمة البحث والتحقيق فى البلاد الألمانية بأسرها .

وكان هتلر يقول عن القائدفون بلومبرج انه هو الصديق « الذى لو تركنى لقذفت بنفسى من النافذة » . . . . . ثم ترك هو فون بلومبرج لسبب يدعو إلى التساؤل الكثير : وهو انه تزوج من فتاة قيل عنها انها سهلة الاخلاق تعمل فى خدمة هيملر رئيس الجواسيس المشهور .

وموضع التساؤل الكثير هو أن هتلر وجورنج حضرا الزفاف بل كانا شاهديه الوحيدين . فهل يعلم هيملر بحقيقة الفتاة ولا يخبر رئيسه قبل الزفاف وهو الرجل الذى يتتبع خطواته ويتأثر حركاته فى ذهابه وإيابه ؟ وهل يغتفر هتلر هذه الزلة لرئيس الجواسيس ولا يغتفرها للزوج المخدوع ؟ وهل كان القضاء على مستقبل بلومبرج هو حل المسألة الوحيد ؟

أيا كان ذنب روهم وبلومبرج وعشرات الأصدقاء الذين انقلب عليهم هتلر مثل هذا الانقلاب فهنالك أمثلة أمامنا على هوان الصداقة عند الرجل وليس هنالك مثل واحد على صداقة واحدة بينه وبين انسان من الناس غير صداقة المتآمرين المشتركين فى مكيدة واحدة .

ولم تؤثر فى سيرته من طفولته إلى أيامه هذه مأثرة واحدة من مآثر اللطف

والنبل وكرم السجية ، وليس في كلامه ولا عمله إلا العداء و «التعاون» على الانتقام والايذاء . ولم يعهد فيه قط انه غلب فظهر منه العفو والرحمة بمغلوبيه من الأفراد والأمم ، وكل ما في نشأته الأولى يدل على ان خلق الغدر فيه ليس بغريب

روى بعضهم انه يحب الكلاب والعصافير والأطفال ، و يحمل صورة أمه حيث سار



هتلر مع كلبه

والكلاب التي شوهدت معه أكثرها كلاب حراسة ، فهي أحرى أن تدل على حبه لنفسه وحذره من أبناء جنسه .

وحبس العصافير قد يدل على كل شي إلا العطف عليها . لأن ألم المخلوق الذي

ركب الله له جناحين لنزع الفضاء وهو محبوس فى شبرين ، أمر لا يحتاج إلى خيال كبير .

على انه لا حب الكلاب والعصافير ، ولا حب الأطفال والحنين إلى ذكرى الأم ، بالعلامة على العطف السليم ما لم يقترن بقرائن النبل ومكارم الخلق وفضائل السماحة .

فكثير من « الهستيريين » يألفون الحيوان و يتعهدونه بالتربية ، ما نفع وما ضر وما كرم وما خبث ، حتى الأفاعى والثعابين . ولا يُعوّل لهم فيما وراء ذلك على مودة وشعور وثيق .

فان لم تكن ألفة الحيوان مقرونة بشواهد الرحمة حيث وجبت الرحمة فهى دليل على فقر الشعور لا على وفرته وغناه ونبل مغزاه . لأنها دليل العجز عن كسب المودة بمجهود عظيم . فلماذا غابت أدلة البر كلها ولم يبق لها من دليل فى نفس هتلر إلا البر بذكرى أمه ؟ و إلا ما يقال من مودته للطفل والكلب والعصفور وهى الخلائق التى يشترى مودتها ولا تكلفه من جانبه مودة انسانية كبيرة ؟ ؟ سبب واحد يفسر ذلك أوضح تفسير وأصدق تفسير ، وهو أن المودة الانسانية فى نفسه ضعيفة ؛ وانه لم يكسب إلا مودة الأم التى تحب ابنها لغير فضيلة فيه ، ومودة الأطفال والعصافير والكلاب التى تمنح مودتها بغير جهد عظيم .

فالتعلق بالأم و بالطفل و بالعصفور و بالحيوان الأليف علامة نبل النفس وغزارة العاطفة إذا كانت علامة من علامات كثيرة ؛ أى إذا عمت شواهدها وفاضت ينابيعها حيثما جرى مجراها . أما إذا انحصر الأمر فى هذه العلامة الواحدة فهو على نقيض ذلك دليل الأثانية وشح النفس والمساومة الرخيصة على كسب العطف والولاء بأرخص الأثمان ، فضلا عما يكون له من الطبيعة الهستيرية التى لا نستغرب منها أشباه هذه البدوات .

أين العدو الذى عفا عنه هتلر ؟ أين الصديق الذى يدخر له بقية من الخير بعد انقلابه عليه ؟ أين الأمة التى غلبها فأظهر لها دخيلة من دخائل نفسه غير القسوة والغطرسة والتنكيل ؟ أين هو الشاهد الواحد الذى يرينا انه يقسو مضطراً ولا يبحث عن القسوة حيثما أتيحت له للذته وجنوحه اليها ؟

إذا رأينا هذا ورأينا معه ألفته للعصافير والكلاب فهنا عاطفة سليمة وهنا شعور نبيل . أما إذا بحثنا عن العاطفة وعن الشعور فلم نر لهما أثراً فى غير العصافير والكلاب فتلك هى وساوس الهستيريا وعوارض الأنانية ، ونقص التركيب .

شجاعته :

يلبس هتلر نوطاً واحداً على صدره هو نوط الصليب الحديدى « الذى يقول بعضهم أنه من الطبقة الأولى ويقول الآخرون أنه من الطبقة الثانية »

ويروى أتباعه أنه استحقه بعمل من أعمال الشجاعة النادرة فى الحرب العظمى ، وهو أنه هبط مع زميل له على اثنى عشر جنديا فرنسيافى خندق قريب من الخطوط الألمانية فساقهم الى الاسر جميعاً بسلاح واحد : وهو الرامية التى يحملها الجنود

والرواية لم تثبت قط فى سجل من سجلات الحرب الالمانية ، ولانخالها قابلة للاثبات ، فهى أقرب الى الهزل منها الى الجد الرصين

ومما يلفت النظر فى أمر هذا النوط الذى يعتز به هتلر اليوم أنه لم يذكره قط فى كتابه الذى ذكر فيه ما هو أهون وأصغر من هذا الشرف البارز ، وأنه لم يترق قط الى رتب الضباط مع افتقار الجيش الألمانى الى الضباط المترقين من صفوف الجند المتعلمين فى مراحل الحرب الأخيرة

وقد وقع الاختيار على هتلر للمراسلة فى مكتب الفرقة المتطوعة فلم يكن من الذين يحضرون حرب الخنادق فى جميع الملاحم . وثبت أن الاصابة التى انتقل من جرائها الى المستشفى قبيل انتهاء الحرب كانت أهون كثيرا من الاخطار التى تعرض لها غيره . لأنها كانت إصابةبالغازات المدمعة Lachrymatory gas

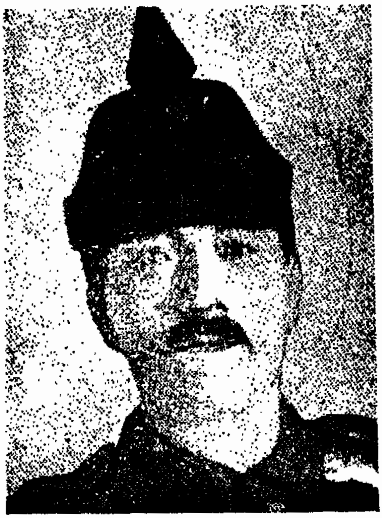


هتلر مع زميلين

التى لاتستلزم الالتحام فى الهجوم ، ولو أنه أصيب باقوى من هذه الغازات لما سلم نظره ولا زالت آثاره كل الزوال كما ثبت من امتحان عينيه

وربما كان فى قصص هتلر عن الحرب العظمى أكاذيب كثيرة لاأكذوبة واحدة أو أكذوبتان . فانه يكذب فى الأمور التى لاخطر لها كقوله مثلا أنهم

كانوا يتغنون فى الفرقة المتطوعة أثناء معركة الايبر بنشيد « ألمانيا . ألمانيا فوق الجميع » مجاراة لمن كتبوا عن الحرب من بعيد . وقد حقق الدكتور فريدولين سولدر Fridolin Solleder مؤرخ الفرقة أنها كانت تتغنى بنشيد آخر عنوانه الحراسة على الرين Die Wacht am Rhine


هتلر كما كان فى الحرب الماضية

ويذكر هتلر غير ذلك من الأحاديث التى تحيط بها شكوك ولا تقل عن هذه الشكوك !

على أن الحرب العظمى شىء بعيد، والحديث عنها عرضة للنسيان والمناقضة والادعاء ، وفى تاريخ هتلر واقعة مؤيدة فى المحاكم والسجلات بشهادة الشهود والحاضرين ، وهى واقعة ميونيخ التى حاول بها إسقاط الحكومة ثم صدمته طلقات النار من حراسها فلاذ بالفرار

قال شهود العيان فى تلك الواقعة أن لدندورف وجورنج صمدا لطلقات النار ، فأسر لدندورف وجرح جورنج ثم نجا بنفسه الى ماوراء الحدود . أما هتلر فسرعان ما سمع الطلقة الأولى حتى طرح نفسه على الأرض فجأة بغير احتراس ، فانخلعت كتفه لشدة الوقعة وتقرر ذلك فى الكشف الطبى الذى أجرى عند اعتقاله . وكأنما كان يحسب حساب الفرار قبل الهجوم فأوصى سيارة أن تلحق به وركبها وحده دون أن ينتظر فيها انقاذ أحد من زملائه فى تلك المخاطرة

وقد كان فرار هتلر حقيقة لاتقبل الجدل ولا الاعتذار ، فلما أكثر خصومه تعييره وتبكيته خطر له بعد بضع سنوات ان يرحض عنه مسبتها و يقطع جريرتها ،

فصعد يوما على منبر الخطابة والى جانبه غلام ناشىء قدمه الى السامعين وقص عليهم أسطورة له لا تقبل التصديق : خلاصتها أنه كان قد وجد الغلام فى الطريق — وكان طفلا يوم هجمة ميونيخ — فأشفق أن تصيبه النار وحمله مهرولاً لينقذه من الموت ، ونسى هتلر أنه كان مخلوع الكتف فى ذلك اليوم ، وأن العظام المخلوعة لا تطيق اللمس الرقيق فضلا عن حمل الأطفال والعدو بهم عدة أمتار ، ونسى أن قصة الغلام كانت مجهولة كل الجهل لا يشير اليها أحد من المدافعين عنه في الفترة بين يوم الهجوم ويوم الخطاب !

وقصارى القول أن شجاعة هتلر لم تثبت قط ثبوت اليقين ، ولم تعلُ قط على مظنة الشك والانكار ، ولم نعرف لها مؤيدا من مسلكه الطويل فى قيادة الامة الالمانية ، وهو يحيط نفسه بالحراس والجواسيس ويوشك أن يتحصن من أقرب المقربين ، مما لم يمهدله نظير فى سراديب أجبن القياصرة والخواقين .

مبلغ صدقه :

وللعلم بمبلغ الصدق فى خلق الرجال السياسيين لا يصح أن نسأل : هل كذبوا أولم يكذبوا ؟ فان الرجل السياسى قد يكذب وطبعه صادق ، وقد يلجأ إلى الكذب حين يلجأ اليه وهو مغصوص مغصوب كما يفعل الانسان وهو يتجرع الدواء العلقمى ، لضرورة من ضرورات الداء

وانما يكون السؤال : ماذا يكلفه الكذب ؟ هل يكذب وهو مستريح أو يكذب وهو مكره متبرم ؟ وهل يسترسل فى كذبه أو يقتصد فيه اقتصادا على قدر المصلحة الموقوتة ؟ وهل يتجاوز الحد فى اختلاقه أو يكتفى بكتمان الحقيقة وتلوينها بغير لونها ؟

فالسياسة كالحرب خدعة ، وليس كل كلام يقوله السياسيون صادقا جد الصدق فى حرفه ومعناه . فيجب ألا تحكم على السياسى بكذب كلامه بل الواجب أن تحكم عليه بحالته وهو يكذب ، فان هذه الحالة لهي التى تبين لنا هل هو رجل صادق يشذ فى كذبه أو هو رجل كاذب يطرّد فى قياس عاداته حين يختلق مايختلق من الأكاذيب والأراجيف

فاذا رجعنا إلى هذا القياس مع هتلر فكيف نجده فى كذبه ؟ انه لم يكذب قط كما يتجرع المرء الدواء الكريه ، ولم يكتف قط من الكذب بمقدار معقول ، ولكنه يكذب كمن يكرع من شراب لذيذ يعب منه عبا و يخشى أن تنزع كأسه من يديه . . . !

فانظر مثلا إلى قوله عن الروسيا : « ان دولة واحدة فقط هى الدولة التى اشمئز من الاتصال بها أية صلة على الاطلاق. تلك الدولة هى روسيا الشيوعية » ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧

أو قوله عنها : « سنمضى عهود المسالمة مع جميع أمم العالم ما عوملنا معاملة الانصاف . إلا فى الشرق فلن ندخل فى عهود من هذا القبيل ، إذ أن الجرمان لن ينافحوا عن البلاشفة ، ولن يخطوا خطوة واحدة فى مثل هذا الكفاح . ولخير لى أن أشنق نفسى من أن أطأ بقدمى هذا الطريق الوبيل » مايو ١٩٣٥

وانظر إلى قوله عن المعاهدات « ان المانيا لن تسلك سبيلا غير السبيل التى رسمتها المعاهدات ، وستبحث الحكومة الألمانية جميع المسائل الاقتصادية والسياسية فى نطاق المعاهدات وعلى حسب مقتضاها . . . . وليس فى الألمان من يفكر فى غزو أمة من الأمم » ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣

وانظر إلى قوله : «ان زعم الزاعمين أن الريخ الألمانى يدبر الخطط لاكراه الحكومة النمسوية لهو زعم سخيف لا برهان عليه . . . وانى لأدفع بكل قوة ذلك الادعاء الذى تدعيه الحكومة النمسوية عن تدبير غارة أو شروع فى غارة على بلادها . وما فتىء الريخ الألمانى على استعداد لبسط يد المودة والتفاهم الصحيح فيما يكفل حرية الألمان النمسويين ، وهو على أتم استعداد — وقد انتهت مسألة السار — لرعاية ميثاق لوكارنو حرفا ومعنى غير قانع برعايته من حيث المعنى وكفى ! » ١٣ يناير ١٩٣٤

وانظر إلى قوله : « ان عهد المفاجآت قد انتهى اليوم » أو إلى قوله عقيب ضم السوديت أن ألمانيا لاتطلب بعد الآن أرضا فى القارة الأوربية ! .

أو انظر إلى عشرات من أمثال هذه التصريحات التى لايقتصد فيها أقل

اقتصاد ولا يعني بها الا نقيض معناها كعهوده لأصحابه وعهوده لجاراته من أمثال الدنمرك و بلجيكا وهولندة وغيرها . فهل هى كلام رجل يكذب مكرهاً مقتصدا أو هى كلام رجل يكذب بغير حساب ولا يبالى أن ينقض فعله أقوى توكيداته وأقسامه ؟

وليس هذا شأنه فى وعوده « الخارجية » وحدها ، بل هو شأنه فى جميع الوعود والتوكيدات

فقد أكد لمدير الشرطة ووزير الداخلية فى ميونيخ أنه لايعمد إلى انقلاب ما عاش ، فلم تمض أيام حتى عمد إلى انقلابه المشهور

وأكد للرئيس هندنبرج أنه يؤيد الوزارة القائمة بعد الانتخاب فنقض توكيده فى اليوم التالى لظهور النتيجة الانتخابية

وأكد للأمة الألمانية أنه فى غنى عن تكرير مذابح برتلماوس اكتفاءً بأحكام القضاء ثم أدار الذبح فى أنصاره وخصومه بغير تحقيق ولا محاكمة ولا اعلان أسباب

ولا موجب فى الواقع لاحصاء أكاذيبه وتسجيل نقائضه بعد أن أعلن بلسانه شريعة الكذب فى انجيل دعوته حين قال : « ان الألمانى لا يدرك على الاطلاق أن الأمة لابد أن تخدع وتضَلَّلَ للظفر باخلاص الدهماء » . . . . أو حين قال « ان من دواعى تصديق الأكذوبة مبلغ ضخامتها ، فان الدهماء فى سذاجتهم ليقعون فريسةً للأكذوبة الكبيرة قبل الأكذوبة الصغيرة »

ولقد نفى المذيعون الألمان روايات روشننج التى نقلها عن هتلر ونسوا ان الرجل لم يقل إلا بعض ماتقوله أفعال الزعيم وأحاديثه وعاداته فى نقض وعوده . فمن هذا الذى نقله روشننج أن هتلر قال له بعد توكيد من توكيداته المشهورة : « انى على استعداد لتوقيع كل اتفاق وضمان كل حد وتأمين كل من شاء بميثاق

من المواثيق ، فان التحرج من استغلال هذه الأمور فهو فكرة بلهاء . . . »

فهل كذب روشننج فى الرواية ؟ ليكن . . . فهو مع هذا لم يزد مثقال ذرة على ماعلم الناس من أفعال هتلر وعاداته التى يعلنها للملأ فى بلاده وغير بلاده ، ولا يفضى بها سرا لصفوة الزملاء وراء الجدران

فهو رجل يستمرىء الكذب غير مقتصد فيه وغير مبال بعقباه ، وليس الكذب عنده جرعة دواء مكروه ، ولكنه شراب سائغ يعب فيه ظمآن



هتلر فى نوبة سوداء

غرابة الاطوار :

يراد الانسان على بعض الأشياء

ويريد هو بعض الاشياء

والاشياء التى يراد عليها ويساق اليها ليست هى التى تكشف لنا دخيلة نفسه وحقيقة أطواره ، لأنها صادرة من غيره

وانما تنكشف لنا دخائله وأطواره من الأشياء التى يريدها هو حسب مشيئته ووفق مناه ، وبخاصة ما كان منها فى معيشته البيتية التى يخلو فيها لنفسه ويتصرف فيها بوحى هواه

وهنا تبدو غرابة هتلر فى كل شيء : فى مسكنه ومطعمه وفرجته وسلواه . فيبدو لنا عقل نصفه فى النور ونصفه فى الظلام ، أونصفه فى ضحوة الواقع ونصفه فى غياهب الأحلام والأوهام : انسان يهرب ! انسان يلوذ بالفرار . . . ومن ثم يبدو لنا أيضا أنه فيما يرتمى اليه من ضجة السياسة ودوي الحركة ومواكب الجيوش ومظاهر السطوة انما هو إنسان هارب ، لائذ بالفرار

قال السفير الفرنسى فى برلين — مسيو فرانسوا بونسيه — من خطاب كتبه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ العشرين من اكتوبر (١٩٣٨)

« لما طلب المستشار الألمانى فى السابع عشر من أكتوبر أن اذهب اليه بأسرع ما أستطيع ، وضع رهن مشيئتى طيارة من طياراته الخصوصية ، فركبتها فى اليوم التالى إلى برختسجادن يصحبنى الكابتن ستهلن ، ووصلت اليها حوالى

الساعة الثالثة بعد الظهر ، ومنها أخذتني سيارة لم تذهب بي إلى (أوبر سالزبرج) حيث يسكن الفوهرر ، بل ذهبت بي إلى مكان عجيب يحب أن يقضي فيه أيامه عندما يروق الهواء

« والمكان يلوح على البعد كأنه مرصد فلكي أو صومعة صغيرة محطوطة فوق أعلى القمم هناك على ارتفاع ستة آلاف قدم ، وتلتف الطريق اليها مسافة تسعة أميال مقدودة في الصخور ، تشهد الجرأة في نحتها بمهارة مهندسها طود كما تشهد بمجهود العمال الذين فرغوا من هذا العمل الضخم في مدى سنوات ثلاث

« وتنتهي الطريق أمام سرداب يفضي إلى الجبـــل وينغلق عليه باب مضاعف من الشبهان ، ويؤدي في طرفه الآخر إلى مصعد عريض مصفح بالنحاس يرتقي رأسا إلى ثلاثمائة وثلاثين قدما حيث يقيم المستشار . وهنا نبلغ من الأعجوبة غايتها القصوى ! فيرى الزائر أمامه بناء ضخما متينا يشتمل على رواق عمدان رومانية ، وعلى بهو مستدير تحيط به النوافذ والمطلات ويبرز فيه موقد كبير تشتعل فيه الأحطاب الضخام ، وأمامه مائدة يحدق بها نحو ثلاثين كرسيا ؛ وتنفتح على الجوانب أبواب حجرات شتى مؤثثة بالمقاعد المريحة الوثيرة

« ويطل الزائر من كل جانب كما يطل من الطيـــارة المحلقة على مشهد متلاحق من الأطواد ، وتتراءى له على البعد ـ وراء منظر كأنه المدرج الرحيب ـ بلدة سالزبرج والقرى التي تحف بها ، يشرف فوقها على مد البصر أفق من القمم والشواهق والمروج والآجام كأنها تتشبث بالسفوح

« وفي الجيرة الملاصقة بالمكان حائط ينبثق أمام العين انبثاقا مفاجئا يخيـل اليك أنه قائم في الفضاء بغير عمد ولا أساس

« وكل أولئك يبـدهك وهو مغمور في شفق الخريف كأنه شيء آبد مفخم يقرب من البحران . فيعجب الناظر ويتساءل : أفي يقظة هو أم في منام !

ويود لو يدرى هل ذاك حصن مونسلفات الذى يأوى اليه فرسان الآنية المقدسة ؟ أو هو صومعة جديدة فى جبل آثوس تخبىء ناسكا يتهجد و يسترسل فى التفكير والعبادة ؟ أو هو قصر انتينيا يرتفع فى قلب الجبال الأطلسية ! أو هو تجسيد لبعض تلك الرسوم الخارقة التى كان فكتور هوجو يخطط بها هوامش روايته عن حكام الجرمان ؟ أو هو خيال مليونى لايدرى مايصنع بأمواله ؟ أو مباءة عصابة يركنون اليها و يجمعون فيها الذخائر والكنوز ! هل هو خاطر عقل سليم أو هو خاطر انسان معذب بجنون العظمة وهواجس الشوق إلى التفرد والسيادة ؟ أو ليس هو إلا خاطر أنسان ملكته المخاوف والظنون ! »

« على أن هناك مسألة واحدة لا يُغضَى عنها ولا تقل عن المسائل الاخريات قيمة عند من يدرسون هتلر من الوجهة النفسية ، وهى أن مداخل البيت وخباياه ومنافذه كلها تحميها الجنود ومكامن المدافع الرشاشة »

قال السفير : « واستقبلنى المستشار بحفاوة ومودة ، وكان يبدو متعبا شاحب السحنة ، ولكنه لم يكن فى يوم من أيامه الهائجة ، ولعله كان فى فترة هدوء واسترخاء ، فأخذنى تواً الى إحدى نوافذ البهو الكبير ، وأرانى المنظر واستراح لما شاهده علىّ من سمات الاعجاب التى لم أحاول اخفاءها ، وتبادلنا بعض التحيات والمجاملات ، ثم جىء بالشاى فى إحدى الحجرات القريبة ، و بدأ الحديث على أثر خروج الخدم و إغلاق الأبواب بيننا نحن الثلاثة ، وأعنى بالثالث هر فون ر و بنتروب الذى لم يشترك فى الحديث إلا فى مناسبات قليلة لم يكن يزيد فيها على توكيد ملاحظات الفوهرر .

« وكان ادولف هتلر مستاء من ذيول الاتفاق فى ميونيخ ، فقد كان يعتقد أن اجتماع الاربعة الذى أزال شبح الحرب وشيك أن يفتتح عهدا من عهود

المسالمة والعلاقات المتحسنة بين الامم ، ولكنه لا يستطيع أن يرى شيئا من ذلك قد حدث . . .

«ان غيوم الأزمة لم تنقشع ، ويوشك ان لم تتحسن الامور أن تغدو شراً مما كانت فى مدى فترة قصيرة ، لأن بريطانيا العظمى تصل صليلها بالانذار والدعوة الى السلاح ، وتلك مناسبة انتهزها الفوهرر للانطلاق فى حملة من الحملات الكلامية المعهودة فى خطبه شنها على تلك الدولة وعلى أثرتها وإعانها الصبيانى بتفوقها ورجحان حقوقها على حقوق غيرها . ثم سكنت جائشة الفوهرر بعد قليل . . . »

* * *

هذه البدوات التى وصفها السفير الفرنسي ليس فيها مبالغة ولا اختراع : لان عش الفوهرر معروف مشهود مكرر الوصف فى أقوال الكتاب، لاخفاء به ولا مثيل له بين مساكن العقلاء . وقد بلغت تكاليف بنائه وتأثيثه وتعبيد طرقه الملايين من أرزاق شعب يشكون باسمه الضنك والفاقة ، فهو وليد التفكير المتسلسل الدائم وليس بالنزوة التى لاتلبث أن تطرأ حتى تزول

ومثل هذا الولع بالاغراب فى المسكن والاستكانة إلى المناظر المسحورة لا يعهد فى غير من أدمنوا المخدرات أو شوهدت عليهم أعراض الخبل والانتكاس .

ففى تاريخ بافاريا الحديث ملك من هذا القبيل كان يزين الأشجار بالمصابيح المستورة ويحف الغرف والمنازه بالسراديب المسحورة . ثم طبق عليه الجنون فمات فى إحدى نوباته وقيل انهم قتلوه .

وفى تواريخ الملوك الهمجيين أو انصاف الهمجيين « قلعة » كهذه القلعة الهتلرية بناها الملك الزنجى خريستوف الذى استقل زمناً فى أوائل القرن التاسع عشر بالسيطرة المطلقة على جانب من جزيرة « سان دومينيجو » ... فقد عن له

أن ينفرد بقصر لا نظير له فى قصور الملوك ، فأمر ببناء قلعته المشهورة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ، ولبث المهندسون يعملون فيها خمس عشرة سنة ولاءً ورفعوا جدرانها من ثمانين إلى مائة وثلاثين قدما وعرّضوها من عشرين إلى ثلاثين ، وأحاطوها بثلثمائة وخمسة وستين مدفعا من الشبهان على عداد أيام السنة : كل يوم مدفع لا يتكرر فى سائر الأيام ! ! ثم شل هذا الطاغية فأيقن بزوال ملكه واقتراب يوم هلاكه ، فأعد لنفسه قذيفة من الذهب أطلقها على صدره من مسدسه يوم هجم الثوار عليه .

يا للقدر من ساخر قدير ! . . . . فهذا القدوة الصالحة لزعيم الآريين وصفوة الجنس الأشقر زنجىّ أسود منتكس الخليقة ، وليته زنجى سليم !

ولا شك ان النزعات « المسحورة » التى من قبيل نزعات هتلر لا تنشأ بين يوم وليلة . فهى داء قديم قد لازمه فى شبابه وكمن فى طوية نفسه وامتزج بأفكاره وآماله . وقد روى هانيش Hanisch زميله فى صباه وشريكه فى بيع تذاكر البريد : ان هتلر شهد يوما وهو فى الحادية والعشرين شريطاً من شرط الصور المتحركة عنوانه « النفق » يخطب فيه رجل يلقى خطبته فى نفق ويصبح بعد ذلك زعيما لبلاده . فالتهب هتلر شوقا إلى محاكاة ذلك الزعيم وخطر له أنه يفتتح زعامته بفاتحة فخمة لو تسنى له أن ينشئها بخطبة يلقيها فى نفق من الأنفاق . وتحدث بهذه الأمنية الساحرة إلى زملائه فضحكوا منه وأثقلوا عليه المزاح(١) .

وهناك اليوم قصور تبنى ثم تهدم فى برلين ، وشوارع توسّع جوانبها على الرغم من جدة المبانى التى تشرف عليها ثم لا يكون لتوسيعها من سبب إلا أن تصبح أوسع مثيلاتها فى أوربا وأمريكا ، ومكاتب يباهون بجلب الخشب لها من ثمانى

(١) سنداى بكتوريال فى ١٦ ابريل ١٩٣٩ Sunday Pictorial

عشرة مملكة ، ومظاهر شتى من مظاهر السموق والروعة لا يضنون بالمال عليها وكلها فيما نظن وليدة الطبع المنتكس وترجمة ذلك « الخطاب فى النفق » الذى لا يزال يُترجَم فى عالم السياسة كما ترجم فى عالم البناء .

نعم لا يزال يُترجم فى عالم السياسة ليوقع العالم فى مجاهيل لا حد لها من جراء هوسة غالبة .

وإلا فما هو «صرح الدولة الجرمانية التى تسود العالم بأسره» إن لم يكن نسخة فى عالم السياسة من قصور ألف ليلة أو من صومعة الجبل التى وصفها السفير؟

انه لصرحٌ يهرب به العقل المصروع من عالم الصواب والرشاد إلى عالم الجنون والبذخ والتهاويل .

انه ناطحة سحاب أو مخبأ فى سرداب ، أو حجاب لا يستر ما وراءه من التبلبل والاضطراب .

وشأن هتلر فى الطعام كشأنه فى السكن من الولع بالغريب والجرى على سنة الاخراج المسرحى ، والتعاظم بأمثال الاشاعات التى تشاع عن كواكب الصور المتحركة فيما يأكلون ولا يأكلون ، وفيما يلبسون ويخلعون .

تارة يقال انه صائم عن اللحوم ، وتارة يقال انه لا يستنزل الوحى إلا بأصناف الجوز والبذور ، ويوماً يقال انه ترخّصَ فأباح نفسه البيض وحساء الدجاج ، ويوم ينقضى على هـذا فيقال انه عاد فحرم على نفسه ما أباح . وهكذا دأبه فى التبغ والجعة وسائر المرطبات .

اخراج مسرحى لا أكثر ولا أقل

فان كان وراء الاخراج المسرحى حقيقة فهى شىء تافه لا غرابة فيه ولا موجب فيه لكل هذه الأقاويل .

رجل يصاب فى صدره فتيًّا فيدرج على كراهة التدخين ، ورجل لا ينام أحياناً من أثر الهستيريا والاجهاد فيهجر القهوة حيناً ليستدرج النوم، ويشربها حيناً لأنها لن تضيره مع السهاد .

ورجل يرث بنية الفالج والنوبات ويقضى السنوات وهو لا يدرك الوجبة الواحـدة فى اليوم أو الأيام المتوالية : فيعتريه عسر الهضم ويتقلب فى اختيار المأكولات ، ويعيي بكأس من الشراب الشديد .

وكل هذا مألوف لا غرابة فيه ، ولكن كيف يتفق هتلر والمألوف ؟ وكيف يخيل إلى الناس ان هتلر يأكل كسائر الناس ؟

إذن تنقلب المألوفات فاذا هى رياضة ونسك واتصال بعالم الغيب وترفّـع عن ضعف الآدميين أبناء الفناء .

وإذا أنالته البساطة ماتنيله الفخفخة من التهويل واللغط والاستغراب فلا ضير إذن من البساطة المسرحية على شريطة أن تكون شيئاً يطاق : كسوة تخلع ثم تلبس بعد ساعات ، وليست كوخا يسكنه ما عاش ، أو مكتباً يشاهد فيه أيان ذهب إلى الديوان .

وان الناس إذ يشهدون هتلر فى كساء بسيط ليقولون : انظروا وانظروا واعجبوا اعجبوا ... أكثر مما يقولون انظروا أو اعجبوا لهتلر فى الطيالس والفراء .

لهذا تأخـذ البساطة نصيبها من مظاهر هتلر ، ويكون فيها أجنّ بالفخفخة والاغراب مما يكون فى الحلل والحلى المسوّمات .

ونظرة خفية إلى نقائض النفس الانسانيـــة ترينا ان بساطة هتلر فى الـكساء وغرابة هتلر فى البناء هما عنوانان لصفة واحدة ، أوهما فرعان لجذع واحد : هو الغرور والادعاء .

فهتلر البسيط فى كسائه لا يتشبه بعلية النبلاء فى لباسهم الفاخر لأنه يعلم أنهم

يترفعون عنه و يعتزون عليه بالحسب والعراقة فيتحداهم و يأبى أن يعترف لهم بأنه نسى أصله ايثاراً لأصولهم ، أوبأنه دونهم فى القدر لأنه يتشبه بهم و يود لو نشأ على غرارهم .

ولـكنه لا يصنع هـذا الصنيع فى بناء الصوامع والقصور ، فلماذا يتفخم هنا و يتبسط هناك ؟ ولماذا يختلف فعله فى كسائه من فعله فى مأواه ؟

لأنه خليفة « ميكال انجلو » فى عبقرية النحت والعمارة ! . . . . فالناس لا يقولون إذا رأوه فى الصرح المشيد : « ذاك هو المحدّث الذى يتشبه بالمعرقين ! » بل يقولون : « ذاك هو الفن العبقرى ! وتلك هى القريحة النادرة التى تتجسم للعيان باعجاز بارئها القدير ! » .

وكلاهما غرور ، وكلاهما ادعاء !

فالرجل ناشز فى تبسطه واغرابه ، هارب من الواقع فيها يدعيه ولا يدعيه ، متعلق بالقصور المسحورة والأبراج الخرافية سواء بنى فى عالم السياسة أو بنى فى عالم المعمار .

والمشهور عن زعماء السياسة أنهم لايعملون كل ماينسب اليهم ، ولا يكتبون كل ما يكتب بأسمائهم ، وهتلر ليس بالاستثناء من هذه القاعدة

ففي برلين مكتب برئاسة سبير Speer أستاذ العمارة « ينفذ » ما يوحى به الزعيم من الخواطر والرسوم فى إقامة المعاهد وفتح الطرق والميادين

وقد يختلف المختلفون فيما هو لهتلر وما هو لمكتب التنفيذ من تلك الخواطر والرسوم . فكثيرا ما يكون الفضل كله للمكتب فى ابتداع الرسم وانجازه ثم يقال أنه من عمل الزعيم أو الرئيس ، وكثيرا مايعرب الزعيم أو الرئيس عن رغبته بكلمة واحدة ثم تأتى التفصيلات بعد ذلك على يد أعوانه ، وهو لا يدرى بها إلا عند انجازها والاحتفال بابرازها

هذه أمور شائعة لايجهلها المطلعون عليها فى الدواوين . إلا أن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هى أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائنا ما كان نصيبه منها ، لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التى لا تقبل الاهمال ، ولا تزال فى الحاحها على صاحبها كالهيام القلبى فى إلحاحه على العاشق الممتلىء بالحياة ، فلاهو يغفل عنها ولا هى تمهله الى زمن طويل

وهذه الحقيقة وحدها — بنجوة عن جميع الأقاويل وجميع الاسانيد — هى الحكم الحاسم فى كفاءة هتلر الفنية ، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء . فهى لن تعدو الطبقة الوسطى بحال ، ولن تتجاوز نصاب التذوق الشائع

بين مصطنعى النقد والموازنة فى الفنون، حتى لو اسندنا اليه جميع الرسوم التى تحمل اسمه فى متحف العمارة بمدينة ميونيخ

ومن خصائص هتلر أنك لا تجد فيه صفة واحدة « خالصة » للعظمة وصحو العقل والطبيعة . فكل صفاته النفسية والفنية ملتبسات بين الاضطراب والسلامة ، و بين الهبوط والرجحان

مثال ذلك أنه يعجب بالموسيقى الكبير « فاجنر »

وفاجنر هو الموسيقى الذى يعجب به المجانين والعقلاء... فقد كان راعيه الاكبر الملك لدفيج البافارى مخبولا مات فى خبله ، وتتفق الآراء بعد ذلك على أن فاجنر هو موسيقى المردة والغيلان « والشخصيات » المنتفخة التى تقرب من التشويه ومن المسخ الكريه : يسمعه العاقل فيعجب لحسن تمثيله هذه « الشخصيات » العجيبة وحسن تعبيره عنها بالاصداء والألحان ، ويسمعه المجنون فيلمس من سريرته موضع التشويه والانحراف ، و يرى نفسه مفهوما على نحو من الانحاء

وهتلر ينكر « موسيقى الجاز بند » وما شابهها من فنون النحت والتصوير الحديث التى يتزعمها يعقوب ابشتين Jacob Epstien

ولكنه ينكر كل شيء حسن أو قبيح مصدره من الزنوج كتلك الموسيقى ، أو كفن النحت والتصوير الذى تزعمه أبشتين واخوانه فى الطريقة... فان أبشتين له عند هتلر سيئتان لاسيئة واحدة . لأنه اسرائيلى فهذه هى السيئة الاولى . . . ولأن تماثيله قريبة فى طريقتها من طريقة الأصنام الافريقية! فهذه هى السيئة الثانية

وقد أبى هتلر أن يصافح الاوائل السابقين من الزنوج فى الالعاب الرياضية العالمية وهم ضيوف بلاده . فاذا كانت العابهم لا ترضيه وهى ألعاب الرياضيين فى جميع الأمم البيضاء أو السمراء فهل ترضيه موسيقاهم وهى شيء يجوز أن يختص بالزنوج دون سائر الشعوب ؟

وعلى هذا النمط يصحو ذهن هتلر وصحوه مقسّم بين الهوج والاستقامة ، وبين العلة والعافية ، فلن يفهم أبدا على وجه الصحة وحدها فى حال من الأحوال

وما يقال عن التصوير والموسيقى يقال من باب أولى عن الكتابة والتأليف . . . فان أحدا من أتباع هتلر لا يدعى له ملكة الكتابة الموهوبه ، ولا يثنى على أسلوبه ثناءه على أسلوب بارع أو جميل ، وإن حسبوا كتابه « كفاحى » انجيلا للنازيين

والشائع — حتى فى أمر هذا الكتاب — أن تفكيره مستمد من الجنرال كارل هوشوفر Karl Haushofer صاحب مذهب السياسة الجغرافية أو «سياسة الجغرافية » التى تعد من مبتكراته ، والتى يتولى إدارة معهدها الأعلى بمدينة ميونيخ Geopolitics

وإن هس Hess كاتب هتلر الخاص قد اشترك فى تأليف كتابه وتنقيحه ، وأصبحت له حصة فيه يعطاها كل عام ، وقيل انها لا تقل عن خمسة آلاف جنيه

لكنّ الطابع الهتلرى مع هذا موجود متكرر فيما ينسب الى هتلر من خطب أو رسائل أو أحاديث

فليس هو عالة على أعوانه ومساعديه ، وليست اللهجة الغالبة فى كتاباته لهجتهم المتفرقة بل لهجته هو التى تتكرر على وتيرتها المعهودة ، فى كل خطبة وكل رسالة وكل حديث

وفى اعتقادنا أن الرجل لا يخلو من عبقرية، وهبةٍ ذهنية

لكننا خلقاء أن نحترس فى فهم معنى العبقرية هنا لنفهم منها ما نريد فى هذا السياق

فعند جمهرة الناس أن العبقرية هى أعلى مراتب الذهن وأرفع طبقات التفكير وهذا خطأ

فأما العبقرية حالة تصاحب كثيرا من المراتب الذهنية ، وتشاهد فى كثير من الصناعات : فهناك الفيلسوف العبقرى والنجار العبقرى ، وهناك القائد العبقرى والخادم العبقرى ، وهناك عبقرية الاصلاح وعبقرية الاجرام ، وهناك عبقريات لا نهاية لها فى أرفع الصفات وفى أوضع الصفات ، كأنما هى حالة الاتقاد التى تشترك فيها جميع الأجسام على درجات مختلفة من الحرارة

ولا يلزم أن تكون الفكرة العبقرية « احسن » فكرة من قبيلها ، بل كل مايلزم أن تكون الصبغة العبقرية بادية عليها

وهذه الصبغة مما يصعب تعيينه وتوضيحه ، ولكننا نقربها بعض التقريب ونوضح مانعنيه بها جهد المستطاع

فالعبقرية أقرب إلى الغريزة والبداهة منها إلى التفكير المسبب والقياس المدروس

ولها خاصة الحماسة والتوهج والرغبة ، فلا يباشرها الانسان وهو كاره أو طامع فى الجزاء ، بل يباشرها كأنه مقبل على رياضة شائقة ومتاع محبوب

والعبقرية تضلل من يراقبها أشد التضليل ، لأنها تفاجئه بالمتناقضات وماهى فى باطن الأمر بالمتناقضات ، إذا نحن نظرنا إلى بواعثها ولم ننظر إلى عوارضها وأشكالها

فالعبقرية شخصية

والعبقرية طلاقة من القيود

كل عمل يعمله العبقرى ففيه مسحة من لوازمه الشخصية لا محالة ، فهو من ثم مطرد على قياس

وكل عمل يعمله العبقرى فهو خارج فيه على القيود ، ثائر على القواعد والمصطلحات . فهو من ثم لا يطرد ولا يفتأ مخالفا للمتوقع والمألوف

وها هنا التناقض الظاهر

ونخطو خطوة وراء هذا التناقض الظاهر فنرى « مفتاح الشخصية » الذى يفسر لنا كل نقيضة ويعلل لنا كل مستعص على التعليل

مثال ذلك غريزة الهجرة فى الطيور ، وقد قلنا أن العبقرية أقرب إلى الغريزة منها إلى التفكير

فالهجرة لها — ولا ريب — غاية واحدة هى طلب الغذاء والسلامة من برد الشتاء ، وبوحي هذه الغاية يهتدى الطير إلى الأوقات والمسافات هدايةً لُدنية لا تجاريها فى الدقة أرصاد الملاحين وآلات الفلكيين

لكنها مع هذه الدقة سبب الغرق والهلاك لألوف الألوف من أسراب الطير ، التى ما تحركت إلا ابتغاء السلامة والغذاء

ومثال آخر غريزة التناسل ودوام الاتصال بين الجنسين

فلماذا يستأثر الرجل بالمرأة ؟

طلبا للذرية لامراء

وماذا يصنع الرجل الذى يرى ابناً له يخونه فى زوجه ؟

انه يقتله أو يهم بقتله !

وهنا التناقض الظاهر :

فهو يقتل ذرية حاصلة إذهو يطلب الذرية المجهولة المشكوك فيها

ولكنك مع ذلك تفهم معنى هذه الغيرة واستقامتها مع الطبيعة ، وترى ماوراء التناقض الظاهر من القياس المستقيم

وهكذا تناقض العبقرية : انما هو تناقض فى الظاهر ، واستواء عند الرجوع إلى أسرار الشخصية الخفية

وهذه هى خصائص العبقرية التى حاولنا تقريبهـا وتوضيحها منعاً لخطأ المخطئين إذ يفهمون أن العبقرية هى أرفع مراتب العقول ، وان الفكرة العبقرية هى « أحسن » ماتجود به الأفـكار

كلا ! ليست العبقرية بأرفع مراتب العقل ولا هى بأحسن ضروب التفـكير

ولـكنها « حالة » على الوصف الذى قدمناه توجد فى الذروة كما توجد فى الحضيض ، وتنتظر فى الترياق كما تنتظر فى السم الزعاف

وعبقرية هتلر هى عبقريته فى إدراك الجماهير ومراوغات السياسة . فمايفهمه فى هذا الباب هو شىء بمعزل عن الاطلاع ، وعن الخبرة المألوفة ، وعن الدرس والتعليم ، وهو شىء أقرب إلى تفاعل المواد وتبـادل الأثر فى الأجسام . فمن الجماهير يعلم ماتريده الجماهير ، وفى وثبة الساعة يفعل ماتدفعه اليه وثبة الساعة . وبينما هو مهتد فى المسافات الطويلة بهداية كهداية الطير المهـاجر بلا خريطة ولا ابرة مغناطيسية ولا دليل ، إذا هو يغرق كما يغرق الطير فى اللجة التى يراها بعينيه ولا يقوى على اجتنابها

ويدعونا إلى اعتقاد العبقرية السياسية أو العبقرية الشعبية فى هتلر أن سياسته لهـا طابع ، وأنها تتسم بحماسة الرياضة ولا تتسم بقيود الشغل وحدود النظام ، وانه يهجم هجوما يخيل اليك أنه بالغٌ به الغاية المنشودة ،ولعله هوالعقبة المهلكة التى تنكل به أشأم النكول عن تلك الغاية

وفى تفـكير العبقرى أبداً حساب « حسبة مجهولة » كالحسبة التى يرمز لهـا الرياضيون بحرف « س» ويرمز لها جماعة التطور بالحلقة المفقودة

هناك أبدا حسبة تنقطع فيها سلسلة التفـكير ولا تنتظم الى النهاية : أو نهايتها القصوى هى « ان قلبى يحدثنى بهذا » وكفى !

وهتلر عندما يذكر « العناية الالهية » كأنها لا تريد إلا مايريد ينم على

غرور عظيم ولكنه لاينم على الغرور وحده بذلك ، ولا يختار فى الحقيقة مايقول اذ « العناية الالهية » فى عرفه هى الكلمة التى يسد بها فراغ تلك الحسبة المجهولة أو الحلقة المفقودة

يسأل نفسه : لماذا أريد هذا ؟ أو لماذا سيتم ماأريد ؟ ثم يعييه الجواب الصريح

يعييه الجواب لأن هناك أسبابا يجهلها ولايستطيع تنظيم حلقاتها الى نهايتها ، فكلمة « العناية الالهية » تسعفه اذن فى سد هذا الفراغ

وقد يقال إن هتلر مغرور حين يتخيل أنه سينجح فى الحرب لأنه يريد ذلك والعناية الالهية لاتريد إلا ما يريد

ولكن هتلر يقول أيضا فى كتابه إن العناية الالهية قيضت له أن يفهم فى شبابه لماذا فشلت أحزاب نمسوية ونجحت أحزاب أخرى ، وأنها علمته أن حركات الجماهير لا تتم بغير اشتراك الجماهير ، وان الانقلاب القومى لا يضطلع به العلية دون السواد . . . . فأى لغز من الالغاز فى هذه البداهة التى ظن هتلر أن العناية الالهية تسوقها اليه ؟

كل ما هنالك أنها الحلقة الناقصة فى سلسلة الافكار المسببة ، يملأها بما يرضى غروره ولا يدعوه الى اعتراف بالجهل أوبالضعف عن النفاذ الى كنه حوادث اليوم ، وقضايا التاريخ

وكلمة « العناية الالهية » هى اللحام الذى يربط به هتلر ما تفكك من تفكيره ومقدماته ، فمن قرأ كتابه أو تتبع خطبه فلن يرى أمامه بناءا كاملا متناسقا إلا إذا صدق دعواه أن العناية الالهية تريد كل مايريد

أما إذا شك فى هذه الدعوى فليس أمامه بناء قائم . وانما هو ركام فوق ركام

كفاءة الخطابية :

فى كل شهرة خطابية منافذ للمبالغة والاطناب لابد منها فى كل زمان ، وفى زماننا الحاضر خاصة

ومنافذ المبالغة والاطناب هذه تأتى من مصادر متعددة : بعضها برىء و بعضها متهم ، ومنها المقصود المدبر ، ومنها الذى يحدث على غير قصد وتدبير

فأول مصادر المبالغة والاطناب جمهور السامعين ، وهم كدأب الجماهير يحبون أن يتأثروا وأن يخلقوا لانفسهم دواعى الحماسة والمغالاة ، وأن ينوّموا أذهانهم تنويما يسهّل لهم أن يعتقدوا ما يحبون اعتقاده ، وأن ينساقوا فى موجة من الشعور لا تطيق الحدود ، ولا تقف دون الاعجاب الكامل . لأن الوقوف عند حد من الحدود المعقولة يفسد الحماسة ، وليس افساد الحماسة مما تطيقه الجماهير

وهى ، أى الجماهير ، طبقات فى هذه الخليقة : ترتفع أو تهبط ، وتعتدل أو تجمح مع الشطط ، على حسب موقفها من الخطيب وموضوع الخطابه

فاذا كان موضوع الخطابه نعرة قومية أو شهوة عدائية يشترك فيها الخطيب والسامعون ، فالجمهور فى هذه الحالة على استعداد للحماسة والاطناب بغير مقدرة كبيرة فى الخطيب

و إذا كان السامعون مرؤسين لذلك الخطيب أو أتباعا متشيعين لحزبه ، يكرهون الغض منه لأنهم يحسبونه غضا منهم ، و يحبون اكباره لأن كبره منسوب اليهم ، فهم اذن أكثر استعداداً للحماسة والاطناب

وإذا كانوا فوق هذا صغارا ناشئين يفورون بحرارة السن الباكرة ، فأحرى بهم وهم جماعات وجماهير أن يستسلموا لما يسمعون ، والا يجشموا الخطيب معجزة الابداع ، ليستجيش بها قلوبا هى من قبل ذلك لاتهدأ من الجيشان

فأدنى الجماهير إلى التسليم هو جمهور صبية ناشئين يصغون إلى زعيم يفخرون به فخر العصبية ، ويسمعون منه صيحة الكبرياء الوطنية . . . وهذا هو جمهور هتلر فى جميع المواقف ، إلا القليل الذى لا يذكر

وقد شهد الناس فى مصر مجامع يحتشد لها السامعون زرافات زرافات من جميع الطوائف والاسنان ، ليسمعوا كلاما يعلمونه ويحفظونه ، من خطيب لا يعجب السامع بصوته ولا بايمائه . . بغية الاجتماع فى الواقع لا بغية الاستماع

ثم تتكرر الدعوة ويتكرر الاقبال ويتكرر التصفيق الذي لاباعث له الا الرغبه فى شيء يثير الشعور ويدفع السآمة و « يبرر » للجمهور وجوده وسعيه وانتظاره ، ويريحه من الحكم على « وجوده » بالفناء . والفناء كريه إلى كل موجود ، جمهورا كان أو غير جمهور !

وفى وسعنا أن نشهد كل يوم حشدا من الناس يبذلون من مالهم ليستمعوا إلى ممثل مضحك مشهور فى دور من الأدوار . فما هو إلا أن يلفظ الكلمة الأولى حتى ينفجر السامعون بالضحك والقهقهة ، وربما سأل أحدهم جاره : ماذا قال ؟ بعد أن يكون قد ضحك مع الضاحكين !

فالمصدر الأول للمبالغة والاطناب فى شهرة الخطباء هو ابرأ المصادر وأخلاها من الغش وفساد الذمة ، وهو دفاع الجمهور عن وجوده حيث انتظم له وجود

* * *

والمصدر الثانى وسط بين البراءة والاتهام ، وبين الاندفاع والتدبير : وهو مصدر الرواة وكتاب الاخبار

فان الصحيفة الاخبارية لتتعمد التهويل والاغراق فى وصف حادثة هينة لا تستحق الالتفات اليها . لأنها تريد من القراء أن يلتفتوا ؛ وتعيش من التفاتهم إلى ما تكتب ، لا من تعويدهم أن يهملوا الأخبار التى تستحق الاهمال

والكاتب الذى يسافر الف ميل لينقل خطبة يلقيها أحد الزعماء فى يوم مشهود مرتقب المصير من المغرب الى المشرق ـ قد يفقد وظيفته إذا قنع بما دون السحر والاعجاز فى وصف ماسمع وما رأى ، وما لبث الناس ينتظرونه ويتكهنون به متشوقين متلهفين !

وقد تتفق الرواية الأمينة فى الصحيفة الرصينة فيقرأها العارف المسئول ويعرض عنها طالب المناظر والعناوين ، ممن ينظرون إلى مسرح السياسة كما ينظرون إلى مسرح التمثيل، وهم جمهرة القراء والنظارة فى كل مكان ؛ فيتواتر النبأ المبالغ فيه وينقطع النبأ الذى يحرص على الصدق والاناة ؛ وينتهى الأمر برواج الكذب والتلفيق، وبالشك فى الصدق والأمانة

فمبالغة السامعين ومبالغة الرواة ملازمتان لكل شهرة سياسية فى كل زمان ولا سيما زماننا الحاضر : زمان النشر والاذاعة، وزمان التشوف إلى الجدة والغرابة ودفع الملل والسآمة

* * *

ويأتى بعد مبالغة السامعين ومبالغة الرواة مصدر آخر من مصادر التهويل فى الشهرة الخطابية قائم على النية السيئة والخطة المرسومة ، ونعنى به مصدر الدعوة المسخرة والأقوال المأجورة ، وهو سلاح يعتمد عليه النازيون خاصة فوق اعتمادهم على سلاح الميدان

وجميع هذه المبالغات قد بلغت فى تعظيم شهرة الزعيم النازى اقصى ما يتاح لشهرة أن تبلغ على الاطلاق : فاهتمام النازيين بالدعوة المسخرة قد جاوز كل اهتمام،

وجمهورهم أقرب الجماهير الى التسليم والاستسلام ، وحملة الاقلام مافتئوا عدة أعوام يتنافسون فى اشباع نهمة القراء بين جميع الاقوام

* * *

فمن الطبيعى اذن أن تكون حقيقة هتلر الخطابية أقل كثيرا من شهرته التى أذاعها الدعاة والصحفيون والسامعون من أتباعه ومريديه ، وأن يدخل فى حساب شهرته كثير من المبالغة والاختراع و « الإخراج »

ونحن فى عصر نسمع فيه الخطباء ونراهم على بعد ، ونحكم على المتكلم فى برلين أو موسكو أو واشنطون حكم راءٍ وسامع ، فما على الذياع ولا على الصور المتحركة من بعيد

وقد رأينا هتلر وسمعناه

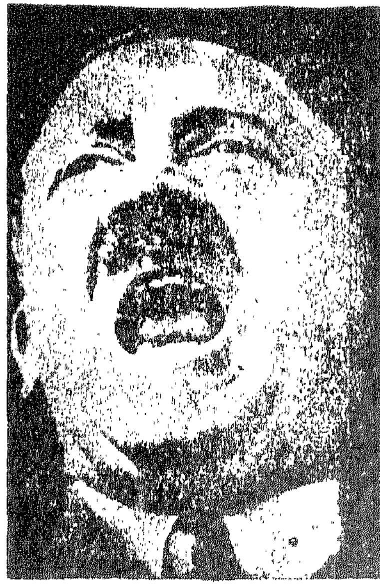
فهو ولا شك خطيب مبين ، ولكنْ لاشك كذلك أنه ليس من ملوك الكلام فى عصرنا الحاضر ؛ وأنه لا يعد من طبقة الخطباء الذين يخاطبون كل جمهور ويتكلمون فى كل قضية ويروضون عَصيّ الاسماع ، ولا نخاله يحسن القول بضع لحظات فى موضوع غير الموضوع الذى يقلبه منذ عشرين سنة ، أو بين أناس غير الذين يوافقونه فى الجملة ، ولا يخالفونه — ان خالفوه — إلا فى التفصيل

فليس هو فى إفاضة بريان ، ولا فى بادرة لويد جورج ، ولا فى مهابة سعد زغلول

ولكنه أقرب الى الممثل الذى كرر دوره حتى حفظه ووعاه ووقع فريسة له فلا يقدر على تبديله

تخيله مثلا غير غاضب ، أو غير متكلم فى مظالم ألمانيا المزعومة ؛ أو غير مطمئن الى آذان سامعيه







هتلر بين الوجوم والغضب الخطابي

وتخيله واقفا فى لندن أو فى موسكو أو فى القاهرة يفاجىء السامعين على غير معرفة باسمه ، ولا عهد بموضوع كلامه

إنه اذن ضائع لا محالة

وعيبه الأكبر أنه لا يُقنع ولا يقيم الدليل ، وأنه ما خرج قط على عادة واحدة تتردد فى جميع مواقفه وموضوعاته ، وهى إثارة الحفائظ و إضرام الكراهية ومواجهة السامعين من جانب الشعور المتّفق عليه بينه و بينهم . . . وفيم اجتهاده فى اقناع من هو قانع ؟ وإيمان من هو مؤمن بغير برهان ؟

ومرجع هذه العادة عنده الى علل كثيرة : بعضها أصيل عالق بطبعه ، و بعضها حديث طارىء عليه من حوادث حياته وعصره

فالحديث الطارىء عليه هو هذا الذى ذكرناه ، وهو أنه تعوّد فى أيامه الأخيرة على الأقل أن يخاطب أناساً لا يحاسبونه ولا يجسرون على حسابه ، ولعلهم لا يريدون أن يحاسبوه لاتفاق الشعور بينهم و بينه

والأصيل العالق بطبعه أنه فقير فى العاطفة الشخصية ، غنىّ فى العاطفة الشعبية ، أي العاطفة التى تربط بين الفرد والجماهير

والعاطفة الشخصية هى التى تربى عادة المساجلة والمحادثة ، ومواجهة العقل للعقل ، والنفس للنفس ، والاصغاء فى موضع الاصغاء ، والاثبات بالحجة الصادعة فى موضع الاثبات

فالرجل المفطور على عاطفة يساجل بها العواطف ، وفكرة يقابل بها الأفكار ، يقول ويسمع ، ويستميل الفرد بالوسائل التى يستمال بها الأفراد ، مرةً بالايحاء ومرةً بالدليل ومرة بالشرح المفهوم ، وفى كل مرة بتبادل الثقة والاعتراف بحق المناقشة والاعتراض .

أما الرجل الذى نضبت نفسه من جانب العاطفة الفردية ، والتى ليس عنده

ما يتبادل به مودة بمودة أو فهما بفهم أو خاطراً بخاطر ، والذى انقطعت جميع الوشائج بينه وبين إخوانه من أبناء آدم إلا الوشيجة التى تكون بين الواحد والألوف أو بين الداعية والجمهور — فذلك رجل محدود القدرة على التحدث والتفاهم وعلى الاصغاء والاقناع ، محتومٌ عليه أن يجد جمهوراً يستمع له . ويكتفى منه بالاستماع ، أو أن يتخيل نفسه قائماً بين جمهور وإن كان فى مجلسه أفراد قليلون .

لهذا اشتهر هتلر بالتدفق فى أحاديث السياسة ساعة بعد ساعة دون أن يقف أو يتمهل أو يسأم التكرار . فان لم يتدفق فى أحاديث السياسة فهو بين حكاية نادرة أو إعادة ملحة مطروقة ، أو سرد تاريخ قديم ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فليس فى مجلسه إلا السكوت والوجوم .

فهتلر الفَردُ « معدوم »

أما هتلر الموجود فهو البوق الذى ينفخ فى الجماهير أو يردد صدى الجماهير .

وانظر إلى صوره وهو فى مواقف التفاهم والتحادث تر أمامك صوراً فاترة باهتة تنطق بالتكلف ونقص الحياة وتبعث فى نفس ناظرها الريبة والنفور .

أما الصور التى يحيا فيها وتلبسه الحركة والشدة فهى الصور التى ينقطع فيها التفاهم ويثور فيها الغضب وتتأجج فيها البغضاء .

وماذا ترى فى هذه الصور ؟

إن الخطباء الحاسيين جميعاً ليغضبون، وأنهم جميعا ليحركون الغضب فى الجماهير .

إلا أن الفرق بين غضب وغضب لفرق عظيم ، وإن الاختلاف بين حماسة وحماسة ليفوق الاختلاف بين القوة والمرض ، وبين الجلال والهوان .

رأينا سعد زغلول وهو غاضب فى خطبه فرأينا غضباً كأنه السيف يصول به الفارس على قرنه ، ويعرف كيف يصول .

ورأينا هتلر وهو غاضب فى خطبه فماذا رأينا ؟ رأينا غضبا كأنه الدمل



هتلر مع السفير البريطانى

المفتوح ينفّس عن ضغينة كامنة كأنهـا القيح المحبوس . فهو فرصة الألم والتذاذ الألم فى وقت واحـد ، وهو علاج للتنفيس عن داء ، وليس بالسيف فى أيدى الأقوياء

هو نوبة مصروع وليس بوثبة صارع

وهو منظر تزورُّ منه العيون ، وليس بمنظر تود العيون أن تمتلىء منه

وهو رقصة الهمجي فى حومة الدم أمام أوثان النقمة والتشفى ، وليس برقصة الفارس فى حومة البرجاس

وقد جمعنا فى هذه الصفحات صورا عدة لهتلر وهو يخطب ، أو وهو يغضب ، لأنه فى الحقيقة قلما يخطب إلا ليغضب . فأية صورة من تلك الصور ياترى يستطيع القارىء أن يكتب تحتها مثلا « هذه صورة هتلر يزأر أو يزمجر ؟ »

إن هذا الكلام ليكتب تحت صور كثيرة لمصطفى كمال أو لسعد زغلول ، ولكن هتلر — على عنايته بصوره واتخاذه رساما خاصا يتبعه فى جميع المحافل ويوزع فى أقطار العالم ألوف الصور بل عشرات الألوف منها — لاتوجد له صورة واحدة تخيل إلى الناظر هيئة الأسد المزمجر أو الأسد الغاضب ، وكلها بلا استثناء مما يصح أن يكتب القارىء تحته : « هتلر يعوى » أو هتلر « يلطم »... ولا جناح عليه

* * *

ومن المعقول أن رجلا كهذا يحب حلقات الخطابة التى يتزين فيها لشياطين غروره وحقده كما تتزين المرأة المجنونة لشياطين الزوار،ويستريح فيهما للهياج والتهييج كما تستريح تلك المرأة لصرعة الرقص وجلبة الطبل ورؤية الذبائح وهى تتخبط فى الدماء

ومن المعقول جداً أن يكره مواقف المفاوضة والتفاهم لأنها تطلعه على عجزه وتكشف له عن خواء طبعه ، وتخرجه منها وهو فى رأى نفسه أقل ممن حوله . . إلا أن يلجأ إلى التهديد بالحرب كما يفعل فى معظم أحاديثه ، فهو إذن فى موقف الاملاء وليس فى موقف المفاوضة والاقناع

وقد سُجلت كلماته فى المفاوضات التى دارت بينه و بين سفراء الدول ورؤساء الحكومات فاذا هى عبرة العبر واضحوكة الأضاحيك : لايكون فيها إلا ممثلا

مراوغ ، أو مهددا يتوعد ، أو منكراً لما يقال على طريقـــة الأطفال والنساء الجاهلات : إني أنكر هذا لأني أنكر هذا ، ولا مزيد . .

ناقشه مستر شامبرلن رئيس الوزارة الانجليزية فى الشروط التى فرضها على حكومة براغ وأوجب عليها فيها أن تخلى الأرض المطلوبة وأن تبـدأ الاخلاء فى الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من شهر سبتمبر (١٩٣٨) وأن تتمه عند انتهاء اليوم الثامن والعشرين

فقال له مستر شامبرلن أن هذا املاء «انذار نهائى» بغير حرب، و بغير هزيمة، على أمة قبلت المطالب وقبلت الاحتلال

واختار شامبرلن كلمة « املاء » عمدا لأن هتلر يذكرها كلما ذكر معاهدات الصلح ومعاهدة فرساى على الخصوص ، ويعتبرها موجبا لفسخ تلك المعاهدات

فما زاد هتلر على أن قال : « كلا ، ليس هو إملاء » وأشار إلى رأس الورقة قائلا : « انظر . . . إن الورقة مكتوب عليها كلمة مذكرة . . »

وهو كلام يقال للابسى القمصان فى ساحـة الخطابة فيقبلونه ويسيغونه ، ولـكنه لايقال فى مفاوضات وزراء وسفراء

فالخطابة هى الميدان الذى يغلب فيه هتلر بهذا الأسلوب ، ولن يغلبَ به فى ميدان آخر

وقد حذق من الخطابة ما يُحذق بالمرانة ومساعدة السامعين المســـتعدين للاصغاء والتصديق ، وأهمه تدفق الكلام وسهولة التعبير

ولم تزوّده الطبيعة من أدوات الخطابة الفطرية الا بزاد واحد وهو انقطاع الصلة النفسية بينه و بين الأفراد واضطراره من أجل ذلك الى مواجهة الجماهير للشعور بالحيـاة ونشاط الاحساس . ومتى نشطت نفسه ودبت الحركة الى ذهنه فلا يندر أن يلهمه الموقف بعض الخواطر البارعه التى يمثل بهـا أعداءه فى صورة





هتلر فى حياته الهادئة

مزرية أو صورة تستفز السخط والامتعاض ، وكلها من ولائد الكراهية وليس فيها صورة واحدة وليدة عطف أو عناية بالآخرين

ويختلف الناقدون فى صوته اختلافا لايتبين الحقيقه فيه من يسمع الصوت منقولا بالمذياع ، وهو ينقل بعض الأصوات على أصلها ويعرّض بعضها للتخريف وبعضها للتحسين

فمن النــاقدين من يعيبون على صوته خشونة تصك الآذان ، ويقولون أنه أجرى العملية الجراحية فى حنجرته لاصلاح هذا العيب

ومنهم من يعجب بما فى صوته من العمق ورنة التجويف ، ويعده من اصلح الأصوات الخطابية لنقل الشعور الجارف والتهويل على السامعين

وسواء كان العيب الذى يعيبه اولئك الناقدون صحيحاً أو غير صحيح فالمهم فى صفات الاصوات أن تؤلف بالتكرار ، وأن يكون لها طابع ولون معروف ، وعندئذ قد يصبح العيب حلية مرغوبا فيها مع النجاح والتوفيق .

زعماء

عصرنا هذا هو عصر الزعماء غير مدافَع بين جميع عصور التاريخ

فقدشهدنافيه كلضرب من ضروب الزعامة على اختلاف شروطهاومقوماتها،

وشهدنا فيه كل ضرب من ضروب الحركات الشعبية وكل جماعة من الجماعاتالتى تدين بالطاعة لزعيم

شهدنا زعماء من طراز سعد زغلول ومصطفى كمال يقودون الاتباع بهيبة «الشخصية» الآمرة وطلعة السيد المطاع

وشهدنا زعماء من طراز غاندى تحف بهم هالة القداسة و يأتم بهم الناس كما يأتمون بناسك المحراب

وشهدنا زعماء من طراز «دى فاليرا» يعيدون عهد القديسين المقاتلين بالصبر والثقة والمفاداة

وشهدنا زعماء من طراز موسولينى يسرى منهم النشاط الحيوى إلى أتباعهم كما تسرى الحرارة فى الأسلاك

وشهدنا زعماء من طراز لنين يقنعون من يقنعونهم بقوة الفكر المتعصب والمنطق المنحرف واللدد العنيف

وشهدنا زعماء من طراز شيان كاى شيك يقررون زعامتهم بصرامة العزم وحصافة الذهن ومثابرة الصبر والعناد

وشهدنا زعماء كابن السعود يجمعون أكبر مايجتمع فى أبناء قومهم من

الصفات . فيفهم الناس أن ابن السعود أكبر العرب لأنه أكبر عربي في طبائع الأمة العربية كما نعرفها الآن

وكل هؤلاء الزعماء يراهم المتفرسون المتوسمون فلا يحارون في أسرار زعامتهم ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الايمان باستحقاق سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى ودى فاليرا وموسوليني ولنين وشيان كاى شيك وابن السعود لمنزلة الزعامة في أقوامهم لهو أسهل كثيرا من الشك في ذلك الاستحقاق

فآخر مايخطر على البال أن يرى المتفرسُ المتوسم رجلا كسعد زغلول أو غاندى على بعد مابينهما من التفاوت ، ثم يخرج سائلا : لا أدرى والله ما الذى جعل هذا من الزعماء ؟ . . . أنه لا يسأل هذا السؤال لأن حيرة الشك هنا لامحيك له في خاطر

أما الذين رأوا هتلر — وقد رآه أكثرنا في الصور المتحركة — فكلهم على مانعتقد يسألون : أين سر الزعامة فيه ؟ لماذا يستهوى الجماهير ؟ وأى شيء يعوضه عن هيبة الزعماء ؟



(هتلر وجوبلز)

وعندنا نحن أن سر الزعامة في هتلر أنه هو «واحدٌ مكبَّر» من جماهير النازيين ، أو أنه هو «مكبر الصوت» الذى يعيد في الساحة الواسعة اصداء أفراد متعددين ، لا يُسمَع الواحد منهم الا إلى أمد قريب

فهو رجل يستطيع كل فرد من أتباعه أن يتمثل فيه نفسه مجسّما معظما بهذا التمثيل . ويقول فى وعيه الخفى : انظر . انظر . هوذا أنت . هوذا نموذج منك فى نطاق كبير

وهتلر من أجل هذا ضائع «المعالم الشخصية» لأنه فى صميمه ولبابه مجموعة من ملامح الجمهور وليس بفرد عظيم له ملامح فرد عظيم

ولو وضع فى وسط خمسة أو وسط خمسين أو وسط خمسمائة لكان حيرةَ الحائر فى الانتقاء والاستخراج ، لأنه صورة لا تتميز من سائر الصور إلا إذا انتزعتها من بينها لتكبيرها

فكل خصلة فى رجل الشارع فهى فى هتلر أضخم وأجسم ، ولكنه يلبسها كما يلبس الممثل دوره فلا يناقضك « بشخصية » مقررة تثير المقاومة والمناظرة ، ولا يشعرك بالغضاضة أن تجلسه على كرسى الرئاسة ؛ لأنك أنت الذى اجلسته عليه وأنت الكاسب عند الموازنة بين نصيبك ونصيبه ، فانما هو « شخصية مسرحية » وأنت الحقيقة الحيه على كل حال

وانظر الفارق مثلا بينه و بين بسمارك ، أو بينه و بين هندنبرج ، أو بينه و بين مولتكة ، أو بينه و بين أصحاب القيادة السياسية والحربية فى أمة الألمان على الاجمال

فليس واحد من هؤلاء « شخصية مسرحية » تقوم على الثوب الذى تلبسه لتمثل به الامة بأسرها

نعم انهم المانيون فى الصميم ، والمانيون فى الخلق والسحناء ، ولكنهم المانيون ينفردون بملامح لا تنغمر فى ملامح السواد ، وليسوا بالقناع الألمانى الذى تتساوى فيه الوجوه

ماذا يبقى من بسمارك إذا نزعت عنه جلباب قومه ؟

يبقى كثير

وماذا يبقى من هتلر إذا جردته من ذلك الجلباب المسرحى أو من تلك الصبغة العمومية ؟

لا شيء

ولا شيء يبقى منه أيضا إذا عزلته عن الحركة النازية فى أوانها المعلوم ودواعيها المسبوقة . « فهتلر غير النازى » لن يكون له وجود . و بسمارك موجود ولو لم يطرق باب الديوان

***

قال كارل شتيبانك Karl Stepanek الممثل الذى رأى هتلر على القرب وكان هتلر يشهد رواياته و يخلع عليه الجنسية الآرية على الرغم من نشأته التشكية : « دخل الفوهرر فقال هيل ! . . . تحية النازيين . إنى مغتبط بحضورك إلىّ . فأجبته : هيل ! ورفعت يدى بالتحية المعهودة

« ثم لفظ ببعض كلمات دارجة وسيماء التفكير بادية عليه ، أما عيناه اللتان اشتهرتا بلون الحديد فكانتا تنظران خلالى ولا أقول تنظران إلىّ . وطالما سألنى أناس من الانجليز عن تينك العينين ماهما وما لونهما ؟ فالحق أقول أننى ما استطعت قط أن أعطيهما لونا بين الألوان الرمادية أو الزرقاء أو الخضراء . إن فى تحديقهما ولا شك شيئا غير مقبول ، فأن وصفه بعضهم بالمغناطيسى فهو فيما رأيت أقرب إلى تحديق الذين ينامون منه إلى تحديق الذين يُنيمون »

وقال السير نيفيل هندرسون السفير البريطانى الذى كانوا يلقبونه فى انجلترا « بالنازى » لفرط رغبته فى مسالمة الألمان : « (١) ألفت أن اسمع كثيرا من

(١) من كتابه اخفاق مهمة Failure of a Mission

الألمان — ولا سيما النساء — يترنمون باشراق سيماه وعينيه خاصة ، وكنت انظر اليهما فأرى فيهما سخونة وغضبا . إذ لم يكن من حظى أن أراه إلا فى المناسبات الرسمية . بيد أننى على الرغم من أعماله ومساعيه التى لا يستطاع الاقلال من شأنها — لست أرى مناصا من المصارحة بما أبقاه فى نفسى من الأثر عند المقابلة الأولى أو بعدها . وذلك أنه لم يشعرنى قط بأية سمة من سمات العظمة

« ولقد كان يسحر شعبه كما هو بيّن بغير حاجة إلى بيان ، وكانت له قدرة على الخلابة إذا أجمع النية عليها ، فانها كانت إحدى بضائعه ومخزوناته ، وكان لها أثر شهدته غير مرة . و إن لم يكن لى منه نصيب

« على أنه فى حالاته المعقولة كان يربكنى أحيانا بسداده وحسن تدليله . فاذا سارت سورته ، وهى الحالة التى كان لها أبلغ السلطان على قومه ، فكل ما كنت أصبو اليه ساعتئذ أن أرجوه تهدئة نفسه

« ورأيت منه كثيراً من اعتزاز الفطرة وتأدبا حينما لقيته ، ولكنى طالما تساءلت وما برحت أسأل : كيف صعد إلى هذه المرتبة ؟ وكيف احتفظ بسلطانه على الأمة الألمانية ؟ وجواب السؤال الثانى فيما أعتقد أن الألمان يحبون أن يسوقهم الحاكم المستبد ، وأن حزبه ليس بقادر وقد حصل على زعيمه أن يبدّله الآن . فلا حيلة له فى ابقائه حيث هو إذا أراد أن يتقى الهدم والدمار »

وقال السير نيفيل فى موضع آخر : « هذه القدرة على خداع النفس واقناعها قد كانت جزءاً موصولا بخططه وتدبيراته ؛ وقد ساعدته على اضرام عواطفه واقناع شعبه بما يريدهم على تصديقه . ويخيل إلى أنه إذا وقف غدا بين يدى الديان فلسوف يجادل يومئذ جدال المؤمن فى ظاهر الأمر بانه كان حريًّا أن يعصم أوربا من أهوال الحرب لو قبل البولونيون شروطه المعقولة السخية ! »

وزارته الرحالة المعروفة «روز يتافوربس» Rosita Forbes فوصفت مظهره

بالتفاهة فى أحواله الهادئة وقالت : «[1] يستطيع هتلر دائما أن يلوح لك فى مسحة البساطة والبراءة على اتمها ، وأن يحس ما يقوله فى ساعة قوله ، وفى تلك الساعة على الأرجح لافى غيرها . ! وهو لا يصطنع المعرفة الغزيرة ، بل يتكلم فى سهولة بالغة . وعيناه — إذا لزم موقف الدفاع — تشفان عن بعض الخلو والفراغ ، ولـكنه يعكس لك ما يحسه متى اهتم بموضوع الحـــديث بكل ما يبدو لك من ملامحه وسائر كيانه . . »

وقال الأستاذ ستيفن روبرت[2] « إن المانيا الجنوبية طالما أنجبت الحالمين وتبّاع الخيالات ، على مثال ملك البجع لدفيج البافارى ، فلا تزال بينهم نزعة القرون الوسطى لاتفارقهم . وهم يعيشون فى عالم كأنه الوهم بين جبال كأنها الخرافات التى لا ترى رأى العيان ، وكأنمـا الحقول والبيوت التى لهم تخريج مسرح وتصوير ستار»

ثم قال : « وهتلر واحدٌ منهم : ابن فلاح يزيد تعليمه قليلا على تعليم كل ابن فلاح ، ولـكنه يستوى الآن فى مكان يعلو على متناول الخيال فى أعجب ما عندهم من قصص الجان

« وفى الحق انه لا يخلو أبدا من هيئة انسان مدهوش ببعض الدهشة ، وقد نبهنى زميل من كبار أطباء العقول لازمني فى رحلة نورمبرج إلى هيئة هتلر وهو يشد نفسه من حين إلى حين فى المحافـــل الـكبرى ليكفّ عن الأحلام ، كأنما هى حالة من حالات الشخصية المزدوجة ، فهو لا يحب أن تبرز فيه صفات الفلاح الشائعة بين جمهرة الفلاحين ، ولايفتأ مذكّرا نفسه بتمثيل دور الزعيم أو نصف الآله بين شعب عظيم ، ونبهنى ذلك الزميل إلى علامة أخرى من

(١) من كتاب هؤلاء الرجال اعرفهم These Men I knew

(٢) Stefhen . H . Robert صاحب كتاب البيت الذى بناه هتلر The House that Hitler Built

علامات هـذه الخليقة ، وهى اسراعة إلى تبديل ملامح الرضى والاكتفاء التى تزحف إلى وجهه أحياناً فى وسط المواكب الشعبية . . . » .

هذه كلها ملامح رجل مطبوع على « الايحاء الذاتى » أو مزاج الاستحضار الذى يستعين به الممثلون على تحضير الشخوص والأدوار .

فهو أبداً شخص غير شخصه ، وهو أبداً لابس قناع من صبغة خياله ، وهو أبدا بين جمهور وعلى مسمع من هتاف وتصفيق ، وإلا فهو نكرة من النكرات .

ونحن نستفيد من أوصاف الذين راقبوه ودرسوه وقيدوا حركاته وسكناته عليه . . . . ولـكنه لا يختفى عنا إذا اختفت أقوال هؤلاء أجمعين ، لأننا كما قلنا فى عصر الزعماء ، وفى عصر المذياع يجوب الفضاء ، والصور المتحركة تتردد فى الأرجاء ، وليس لنا محيص من المقابلة بينه وبين زعماء الأمم فى زمانه ، وليس فى وسعنا بعد هذه المقابلة أن ننسب اليه صفة « ذاتية » كالصفات التى تتجلى فى أمثال سعد زغلول ومصطفى كمال وغاندى وموسولينى ، ولا أن ننسى الفارق بينه وبينهم فى مقومات الزعامة . فهو مكبّر صوت فى ساحة عامة ؛ وليس منهم جميعاً من تنحصر سيماه فى تـكبير الأصوات .

أصحابه :

وربما كان أوفى الطرق وأقربها إلى دراسة نفس انسان أن تلم بسيرة أصحابه وأعوانه الذين يعمل معهم ويعملون معه ، ويحتاج اليهم ويحتاجون اليه .

فمن هذا الالمام بسيرة أصحابه وأعوانه نعلم حقيقة العمل الذى يتفقون عليه : هل هو مبرة يتفق عليها أناس كرام ، أو هو جريمة يتفق عليها أناس مخلوقون للاجرام .

وليس فى وسع أقرب المقربين إلى هتلر وأرغب الراغبين فى الثناء عليه أن يطلق وصف « الأناس الكرام » على أصحابه الأخصاء : جورنج وريبنتروب وجوبلز وهيملر واخوان هذا الطراز !

فكلهم من مرضى الظهور المشهورين بالنقمة والغدر وسوء الدخلة وحب الشرور .

وكلهم ممن يعرفهم العارف فيقول على الفور : ها هنا جريمة مدبرة ! ولا يخطر له على بال انها مأثرة من مآثر النبل والشمم والفضيلة .

ولا حاجة إلى التوسع فى سيرة هيملر فحسبه انه رئيس الشحنة وقائد الجواسيس الذى ترجع إليه آثام الغيلة ومكائد الوقيعة ووصمة التعذيب فى المعتقلات ، وافساد الأبناء على الآباء . والزوجات على الأزواج والاخوان على الاخوان ، سعياً وراء الفضائح وتسقطاً للأخبار واختراعاً للجنايات والأكاذيب ، وقياما « بوظيفة نازية » لا يخطر على البال أن يضطلع بها رجل صادق شريف .



هيملر — عين هتلر التي لاتغمض وإلى جانبه ضابطان نمسويان

ولا حاجة كذلك الى التوسع فى سيرة جو بلز فحسبه أنه مدير الدعاية النازيه التى تقوم على الدس الخبيث والكذب الصريح ، والألمان أنفسهم على الرغم من قسوة الرقابة عليهم يصفونه بأنه أكذوبة تتحرك : وقف الممثل الهزلى لدفيج



جوبلز « الارى » يحرسه رجال الشحنة

فنك Finkh مرة يقول معرضا به «: نحن الالمان نحب صيغة الجمع لغير داع » فنقول مثلا إن الأكاذيب قصيرةالارجل ... لماذا لا نختصر فنقول إن الاكذوبة لها رجل قصيرة !

ولكننا نذكر الحقائق المقررة عن الرجلين اللذين يقبضان مع هتلر على زمام السطوة كلها فى البلاد الالمانية ، وهما ريبنتروب المسئول عن السياسة الخارجية ، وجورنج المسؤل عن الجيش والطيران ، وفيهما ينحصر كل ما فى المانيا من قوة السياسة وقوة السلاح

فالأول من صرعى الظهور وأمثلة « الانتهاز » الذين عُرفوا فى الاصطلاح الحديث بنعت « الوصوليين »

لم يكن من أصحاب الالقاب ولكنه سعى عند عمه حتى تبناه ثم سعى عند المراجع الرسمية حتى قبلت وراثة اللقب بالتبني كما يورث بالبنوة الصحيحة

ولم يكن من الأغنياء ولكنه وصل الى الثروة من طريق الزواج ، فأصهر الى أوتو هنكل Otto Hinckel صاحب الملايين من تجار الانبذة المعدودين

وكان فى نشأته ، وبعد الحرب ، يتجر بالنبيذ فى المانيا الغربية حيث يعسكر الفرنسيون وجنود الحلفاء ، وهى تجارة كانت تقوم على التهريب برعاية «الاعداء» المحتلين للبلاد !

وكان سبب التعارف بينه وبين هتلر من « أليق » الاسباب باخلاق النازيين وطبيعة الحركة النازية

فقد كان ريبنتروب منوطا بالتجسس على الاحزاب البافارية فى أعقاب الحرب الماضية ، وكان ضابطا يساعده فى هذه المهمة ضابط آخر ، فكانا موضع الشبهة والارتياب بين العمال وصغار الجند لانتمائهما الى طبقة الضباط التى كانت كما أسلفنا متهمة النيات فى عرف السواد من أبناء الطبقة العاملة

وكان من جراء ذلك أنهما بحثا عن « جندى » يؤدى عنهما هذه المهمة وينقل اليهما ما يسمع ويرى فظفرا بالطلبة المنشودة ، ولم تكن هذه الطلبة غير « هتلر » الذى كان مستعدا لكل صناعة من هذا القبيل فى مقاهى ميونيخ

وعلى هذا النحو تم التعارف بين الرئيس والمرؤس ، أو بين المرؤس والرئيس وريبنتروب، بعد ، هو موقع الميثاق الالمانى اليابانى لخمس سنوات وهو هو الساعى فى ابرام المحالفة بين الالمان والروس !! وانه لعمل لايخلو من الدلالة على الأخلاق مهما يقل القائلون فى تسويغه باسم السياسة والمناورات الدولية

أما جورينج فالثابت من الاوراق الرسمية فى بلاد السويد أنه كان يتعاطى

المورفين بشـــهادة الاطباء والصيادلة أمام قضاة الأحوال الشخصية فى مدينة « ستوكهلم » سنة ١٩٢٦

وفحوى القضية أن زوجته السويدية طُلقت من زوجها السابق فون كانتزو Von Kantzow ولهـا منه ولد قاصر فاختلفا على الحضانة ، وجاء أهل الزوج السابق إلى المحـكمة يثبتون أن تربيـــة الولد على خطر محقق بين الأم وزوجها الجديد . . . لأن الأم مصابة بالنوبات المزمنة ، والزوج — وهو جورينج — مصاب بادمان المخدرات وأعراض الجنون

و بعد تقديم الوثائق وسماع أقوال الخبراء والشهود قضت المحكمة بفصل الولد عن الزوجين وتسليمه الى حضانة آخرين

وقد ثبت فى المحكمة أن جورينج دخل مستشفى اسبودن Aspudden بعاصمة السويد فى منتصف سـنة ١٩٢٦ للعلاج من آفة المخـدرات وعوارض الجنون ، وأنه نقل منه الى مستشفى كاتارينا Katarina حيث كانوا يحجزونه فى حجرة مبطنة لفرط هياجه بعد تحريم المورفين عليه (١)

وعجائب جورينج فى حب الظهور ونشوز الأخلاق لا تحصى ولا تفرغ منها فـكاهات أهل برلين من نازيين وغير نازيين : حسبك منها انه يلعب بشبل أسد وانه يبدّل نيفاً وعشرين كسوة رسمية ، و يملأ كل واحدة منها بالأنواط والأوسمة والشارات !

والظاهر أن الآفة عامة بين زعماء النازيين على صور وأشكال . فكلهم جياع إلى المظهر البراق ، وكلهم يعيشون فى جو التمثيل والاخراج .

فالمنافس الأول لجورينج — وهو ريبنتروب — لا يكثر مثله فى تبديل الـكسى وحمل الأنواط والأوسمة ، ولكنه لا يعيش بغير تمثيل وتهويل سواء أقام فى

---

(١) كتاب « جورنج أخطر رجل فى ألمانيا » تأليف كورت سنجر Kurt Singer

بلاده أو تغرّب عنها . . . ومن ذلك انه تولى وزارة الخارجية فأقام فيها حرسا من مائة وخمسين فتى يلبسون الكسوة الرمادية الخضراء ، ويرسلون الأهداب من الأكتاف ، ويصطفون كل صباح لأداء التحية فى فناء الوزارة .

وروى مراسل « لايف » Life الامريكية انه حضر مأدبة من مآدب ريبنتروب الرسمية وهو سفير فى العاصمة الانجليزية ، فلما دخل الردهة الكبيرة بصر بابنه رودلف واقفاً على الشرفة وفى يده نسخة لم تفتح من كتاب « كفاحى » لهتلر يقلّب فيها كأنه يقرأها وينعم فى قراءتها !

ثم أدب ريبنتروب مأدبة أخرى فى الخريف التالى تكريماً للكونت شيانو لحضرها المراسل مع الصحفيين المدعوين . قال : فرأيت الفتى فى وقفته الأولى ، وفى موضعه الأول ومعه الكتاب لم يفتح بعد ، وهو مقبل على قراءته بانعام .

وحكاية « هيل هتلر » والوقفة النازيه فى بلاط لندن أعجب ما يُروى من مهازل هذا التمثيل والاخراج !

وقد تساوى ريبنتروب وجورينج فى استغلال الوطنية والاستفادة من محنة الأمة عند الحاجة .

فاحتلال الحلفاء لوادى الرين لم يمنع ريبنتروب أن يقتنص الفرصة ويتجر هنالك بتهريب النبيذ .

وحماسة جورينج الوطنية لم تمنعه أن يعرض سمر المظلات الواقية للبيع فى الأسواق الأوربية ، فأنشأ فى أيام الجمهورية الألمانية المعروفة باسم الريخ الثانى مصنعاً لهذه المظلات بعاصمة السويد يعرضها لمن يشاء أن يشتريها من دول الأعداء والأصدقاء ، وهى تلك المظلات التى يعتمدون عليها الآن فى غارات النرويج والميادين الغربية .

وقد حفظت نسخة الاعلان فى دار المحفوظات السويدية وفقاً للقانون الذى يقضى فى تلك البلاد بايداع نسخة فى المكتبات الحكومية من كل

ورقة مطبوعة . . . فكأنّ جورينج لا يختص وطنه بمخترعاته إلا إذا كان له نصيب من حكمه ، أما إذا كان يائساً من الحكم غريباً فى بلاد أجنبية فليس لوطنه هذا الحق عليه .

وندع هنا ما أفشاه الصحفى سفتون ديلمر Sefton Delmer عن ودائع الزعماء النازيين فى المصارف الأوربية والامريكية وتبلغ فى تقديره سبعة ملايين من الجنيهات .

فسواء ثبت هذا الخبر أو لم يثبت فالهدايا التى قبلها جورنج فى عرسه (سنة ١٩٣٤) ولا يزال يقبل أمثالها تبلغ الملايين ولا شك فيها بين الألمان ... والأسهم التى اشتراها جوبلز فى البلاد الخارجية حقيقة لا تقبل الانكار ، ومنها مائة سهم فى شركة كبيرة يعرفها المصريون وهى شركة قناة السويس حُجز عليها (أى على الأسهم) بقرار من نيابة محكمة السين فى منتصف شهر مايو (١٩٤٠) . . . وقس على ما ثبت بالأوراق والشهادات ماهو مزوي إلى الساعة فى انتظار الاثبات .

إلا اننا لو نفينا الاختلاس ,وابتزاز الأموال عن هؤلاء الناس لظلوا على وصفهم الذى تنكره الأخلاق والأذواق عصابةً من مرضى الظهور ونهّازي الفرص وأصحاب الضراوة بالشرور .

فما هى القضية الشريفة التى يخدمها أمثال هؤلاء ؟ وما الذى يرحض عنهم وصمة هذه الشرور ؟ أيرحضها عنهم انهم أذكياء لبقون فى التحيل ونصب الفخاخ ؟

لقد حيّرت عصابات المهربين فى الولايات المتحدة ذكاء الشرطة والمحققين ورؤساء الحكومة حتى اضطروهم إلى رفع الحظر عن المسكرات . فمن المجرمين أذكياء ومنظمون ، ولكن ليس من رجال الخير والنجدة والقضايا الشريفة فتاكون أشرار ، مجردون من فضائل النبل وسجايا المروءة .

ولولا أن العمل الذى يتولاه هتلر « جريمة انسانية » لما تولاه معه أناس بهذه الطباع .

تلخيص

وفحوى ماتقدم أننا أمام رجل أبتر مدخول الطبيعة

لم تؤهله للخير وراثته ولا نشأته ، ولا صلة الارحام بينه و بين أهله ، ولاصلة المودة بينه و بين صحبه ، ولا القدرة على كسب عيشه ، ولا النجاح والتوفيق فى الفنون الجميلة التى ظن أنه مستعد لها بطبعه ، ولا الغرائز والعواطف التى ركبها الله فى تكوين كل ذكر وأنثى

والى جانب هذا لم يكن لطبيعته المكبوتة مصرف من الحركة الجسدية والألعاب الرياضية التى تُلهى وتشغل عن هواجس النفس المصدومة النافرة وأشواق الجسد العاجز المحسور . لأن هتلر على كل إطنابه فى مدح الالعاب وتنشئة الجيل عليها لم يولع قط بلعبة رياضية أو حركة جسدية ، ولم يشتهر كما اشتهر غيره من الطغاة بغرام السرعة فى ركوب الطيارات والسيارات ، أو غرام الفروسية فى الصيد وتجربة السلاح ، أو ما شا كل ذلك من وسائل التنفيس والتفريج

ولو اقتصر أمره على هذا لكانت نهايته التى لاشك فيها إما الى الاجرام أو الجنون ، وإما الى الخمول والهزال ، ولما سمع به أحدٌ ولا كتب له اسم فى سجل التاريخ

ولكنه نشأ موهوب الذهن فى فترة الزعازع الدولية والمفاجآت السياسية واتفق له أنه كان « مختار » خمسة أو ستة فى بدء حياته الحزبية : اختاروه ولم يكن فى وسعهم أن يختاروا من يشاءون كما يشاءون . ثم تكفّل التاريخ

بالبقية الباقيـة ، وأصبحت الصعوبة بعد ذلك فى اسقاطه ومحوه لا فى ارتقائه وتمهيد طريقه

كيف وصل هتلر إلى الزعامة ؟

وصل اليها لأنه كان « مختار » أولئك الخمسة أو الستة من البداية ، ولم يكن من السهل اسقاط زعيم بعد اختياره

وكيف فعل بعد ذلك مافعل فى عالم السياسة الدولية ؟

فعله لأنه قبض بفضل تلك الزعامة على موارد أمة كبيرة كالأمة الألمـانية ، عدتها ثمانون مليونا وطاقتها الحربية والسياسية والصناعية لاتفوقها طاقة أمة أوربية ، وعقيدة الجيل الناشىء منها فى طاعة « الزعيم » أنها مقدمة على طاعة الآله كما قال مدير المدارس الدكتور رينولد كروس Reinold Kraus حيث كتب فى صحيفة دوتش تاجسيتونج « إن المسيحية عالمية فى شعورها . ولـكن الواجب هو تقديم الوطن على العالم . فمن المستحيـل أن تؤمن بالريخ الثالث ثم تؤمن بان طاعة الله مقدمة على طاعة الانسان »

ورجل يقبض على زمام ثمـانين مليونا من المخلوقات الآدمية هذه عقيدتهم وهذه فطرتهم وذلك استعدادهم للطاعة العمياء ما الذى يستكثر عليه مما فعل ؟ ولماذا يستكثر عليه ؟ ولمـاذا نقف أمام فعله موقف الدهشة والاكبار .

لو أنه كان متقيدا بدستور أومتقيدا بقانون أو متقيدا بعرف مأثور أو متقيدا بمعاهدات مرعية أو متقيدا باجتناب الحرب أو بالسير فى طريق محدود لايتحاشاه ولا يحيد عنه لـكان العجب مفهوما من أن يستطيع ما استطاع . لـكنه لم يتقيد قط بشيء من الأشياء ، ولم يزل يأمر ويطاع فى كل ماأراد

---

(١) ١٩ – ٣ – ١٩٣٤ من صحيفة Deutsche Tageszeitvng

بل نحن نخطىء إذا فهمنا أن المسألة هنا مسألة طاعة . لأنها فى حقيقتها أكثر جدا من الطاعة

المسألة هنا مسألة تعصب لزعيم يراد له التقديس والتمجيد ، ومسألة « ثورة شعورية » جامحة فى سبيل التمكين والتأييد ، أو هى «هوسة» تسبق الطاعة إلى المفاداة والمغامرة ، لأن غريزة الجماعات قد جاشت جيشانها ، فاندفعت كما يندفع القطيع من الماشية فى أثر الحيوان السابق ، ولو إلى الهلاك

أيقال إن هذا مطلب صعب على من يريده ؟

كلا . بل هذا أسهل المراكب وأوطؤها لمن لا يحسب حسابا ولا يتقيد بقيد ... فليس أسهل من إثارة الشرّ فى نفوس الجماعات الغاضبة المتعطشة إلى الانتقام ، المهتاجة بصيحة الحرب والعدوان

وأنه لأسهل المراكب من الوجهة الاقتصادية والسياسية ، لا من الوجهة الشعورية ولا من وجهة النظر إلى غرائز الجماعة دون غيرها

تسلحوا أيها الألمان جميعاً . . !

هذه أسهل صيحة تصاح وأقمنها بالاجابة والقبول :

يقبلها أصحاب المصانع لأنهم يروّجون بها مناجم الفحم والحديد ومصانع السلاح

ويقبلها الضباط والجنود لأنهم يعتزون بها ويضمنون بها العيش والكرامة

ويقبلها العمال والصناع لأنهم يجدون عملا فى صنع السلاح أو فى حمل السلاح

ويقبلها الشيوخ المحافظون لما فيها من تعزيز النظام القديم ، ويقبلها الشبان المتطرفون لما فيها من الحماسة والضجيج ، ويقبلها النساء لأنهن زوجات عمال أو جنود أو أصحاب أموال ، ولأنهن معجبات بمظاهر الفروسية ومواكب الجنود فى كل زمان

فأنت ترى أنها ليست بمعجزة

بل هى نقيض المعجزة

إنها أسهل شىء يخطر على بال من يريد ، ولا مانع يمنعها إلا التفكير فى العواقب على الأمة الألمانية ، وعلى الامم المجاورة لها وعلى العالم الانساني بأسره ...

وهذا مالم يفكر هتلر فيه

لأنه مجرم يركب رأسه

لا لأنه رجل مقدام

* * *

وكل ماصنع هتلر فهو ضرورى لغرض واحد : ضرورى لاشباع غريزة الحقد والغرور والبطش والاجرام فى نفس بتراء ممسوخة

وليس بضرورى لغرض آخر كائنا ما كان

نعم ليس بضرورى لسيطرة ألمانيا المزعومة حتى لو أمكن أن تسود ألمانيا على الدنيا ، وهو مستحيل

وغاية ماهنالك أن « سيطرة ألمانيا المزعومة » هى الستار الذى يداري به هتلر بشاعة إجرامه ، أو هي المخدر الذى يُنيم به وسواسه قبل اقتراف الجريمة أو بعد اقترافها

وإلا فكيف كان هتلر يطيق تلك الأشباح كلها لو صارح نفسه بالحقيقة ، وأعلن نفسه أنه يهدر ما أهدر ويقتل من قتل لمحض الاستمتاع بشهوة الدماء ونهمة الأحقاد

إن القاتل ليرتعد من الوجل والرعب أمام شبح واحد وجثة واحدة . فكيف بالمجرم الذى يقذف بالعالم كله فى اتون النار . وكيف بالمجرم الذى تتراءى له الرؤوس الطائحة من أصدقائه وأعدائه بالألوف ؟ وكيف بالمجرم الذى يقضى على شعوب ويهتك كل حرمة مقدسة فى الشرائع والآداب ؟

الجنون السريع أيسر ما يصيب المجرم الذى تطارده كل هاتيك الاشباح ، ثم يصمد لها الليل بعد الليل والنهار بعد النهار ، بغير مخدّر فعال

وسيطرة المانيا المزعومة هى ذلك المخدر الفعال

فاقتل ياهتلر اذن واضرب وغامر وانتقم وأشبع ما بدالك من ضغينة وشر وكنود ، فما أنت بمجرم منهوم بالشر المستطير بل أنت بطل مشغوف بمجد المانيا الموعود

هل ضمن مجد المانيا الموعود ؟ وهل ضمن السيطرة الالمانية على الدنيا ؟

كلا ! فسيطرة المانيا على الدنيا ولو انتصرت فى الحروب كافةً مطلب لا يكون ، ومصير غير مضمون ، ولا هو بعد ضمانه بمأمون

ولكنه ضمن المطلب الذى لاريب فيه ، وهو اشباع مافيه من شر متفزز ومسخ متحفز ، وطبع مكظوم

وقد يقول قائل الآن انه استهان بالأرواح والحرمات وأقدم على الشر المستطير فى سبيل خطة عظيمة هو واضعها وهو الكفيل بانجازها فى مكان الزعامة على الأمة الالمانية ، أو فى المكان الذى يستطيع فيه أن يتمنى ويحقق ما يتمناه

لكنه مع ذلك فرح بالشر المستطير عند اعلان الحرب الماضية وتهلل له وقال فى كتابه « ان تلك الساعات كانت نجاة لى من الضيق الذى كان يرين على نفسى فى أيام شبابى . فلا يخجلنى أن أقول اليوم اننى قد أُخذت بمجىء تلك الساعة وركعت على ركبتىّ أشكر الله من أعماق قلبى لأنه أتاح لى العيش فى هذا الزمان »

فهو يفرح بالشر المستطير وهو جندى من عشرة ملايين ، ويفرح به وهو زعيم لا يشاركه أحد فى الزعامة ، وليس فى وسع مخيلة أن تتوهم أنه قد فرح بالكارثة العظمى ذلك الفرح لأنه رأى امته منتصرة ورأى أنه سيجلس على

عرشها بديلا من آل هوهنزلرن وهم ظافرون ! أو رأى أمته منتصرة وهو يتنبأ للدولة النمسوية بالانهيار ، أو رآها منهزمة ثم تسلسلت أمامه الحوادث إلى اليوم الذى يشن فيه هذه الحرب الحاضرة . فتلك أوهام بعيدة من تخيل المتخيلين ، وإنما الصحيح من كل هذا أنه مجرم شرير يفرح بالشر حيث كان لأنه لا يعرف الفرح بغيره فى عمل من الأعمال

***

وإيانا أن ننخدع عن كنه الاجرام فنفهم أن المجرم ينوى الجريمة ويعترف بينه وبين وجدانه باختيارها وتفضيلها ولو تسنى له اجتنابها

فان المجرمين ليعتقدون أنهم مكرهون ، وأنهم لولا الأيام والصروف لما اقترفوا قط ما يقترفون ، وما من نزيل من نزلاء السجون تسأله فيقول لك إنه كان يأبى أن يعيش كما عاش فلان الصالح السري وفلان العائل المكفول المونة بين



هتلر يسمع اعلان الحرب الماضية سنة (١٩١٤)

عياله وأهله ، وهتلر أيضا لو سألته لقال لك مخلصا أو غير مخلص أنه كان يود لو تم له كل ما أراد بغير قتال

إننا لنبحث عبثاً فى سجلات التاريخ ووقائع الدنيا الماثلة بين أيدينا لو بحثنا عن المجرم الذى يقول إنه خرب العالم وله مندوحة عن خرابه ، أو ظلم من ظلم وسفح ما سفح لأنه يستريح إلى الظلم وسفك الدماء .

فانكار الجريمة لا ينفى طبيعة الاجرام .

وكفى أن يكون الشر سهلا يواقعه المرء لأيسر ضرورة أو لضرورة موهومة لتثبت طبيعة الاجرام أيما ثبوت .

وما ضرورة دانزيج . وما ضرورة تأجيلها أو انتظار اليأس من المفاوضة فيها ؟ ليست بضرورة على الاطلاق

لكنها مع هـــذا كانت أعضل على هتلر من معضلة المغامرة بسلام الدنيا ومصير بنى الانسان

وسوّغها المسوغون فقالوا إنه قد أسرع إلى الحرب لأنه عاهـد الروسيين على التزام الحيدة وتقسيم الغنائم ، كأنهم ينسون أنهم يعنون بذلك تفسيرا واحـدا لا تفسير غيره ؛ وهو أن صاحبهم يتلهف على ذرائع الشر والبغى فلا يرفضها ساعة العثور عليها ، وليس يتلهف على ذرائع الرفق والسلام

* * *

و بعد فسيطرة المانيا على الدنيا ليست حقيقة فى حيز الوجود ، وليست حقيقة فى مستقبل الأيام ، وليست حقيقة تساوى أهوالها وخسائرها على فرض امكانها لكنها حقيقة على صورة واحدة : وهى الاعانة على طوية الشر والبغى والتمادى فيهما إلى أقصى مداهما . . فهى هذا ولا شك هى حقيقة وافيـة بغاياتها ، مؤدية إلى نتائجها

وليس فى تاريخ الرجل عمل واحد يستعصى على انسان متوسط الذكاء غير

مقيد بالعواقب ولا بوازع القانون والاخلاق

فهو لم يصنع معجزة يوم اختاروه زعيما لخمسة أو لستة من الفارغين للمشاغبات السياسية فى ميونيخ . ولا سيما إذا ذكرنا أن هذه الزعامة لم تكن أمنية مرغوبا فيها ، للشك فى مصيرها واستلزامها أن ينقطع لها صاحبها عن الأعمال والعلاقات

وهو لم يصنع معجزة ببقائه فى زعامته ، لأن خلع الزعيم ولو كان خصومه على هدى ، أصعب جدا من بقائه فى الزعامة ولو كان على ضلال

وهو لم يصنع معجزة باقتداره على مافعل و بين يديه موارد الدولة الألمانية وأمامه عالم لا يريد الحرب ولا يتفق على المقاومة

وفضيلته الكبرى هى نقيصته الكبرى :

هى أنه ركب الدولاب الجامح ولم يبال وخامة المركب ، لأن أسوأ العواقب لا يعنيه ولا يثنيه

فلم يفكر ماذا يكون المصير والمانيا كلها هاجمة على التسليح مشغولة بالتأهب للقتال فالمصانع لا تخرج المدافع والدبابات أبد الآبدين : دورانها على السلاح سرمدا مستحيل ، ووقوفها بعد دورانها أعواما مستحيل ، لما فيه من اغضاب أصحاب المال ، واغضاب الملايين من العمال ، المتسكعين بين الجوع والسؤال

والتحدث عن الحرب ليل نهار لابد أن ينتهى إلى حرب عاجلة ولو لم تكن لازمة ولا ناجحة

وتربية الشعب على المفاجآت المسرحية تعوّده أن يترقبها و يتحفز لها ولا يطيق الفراغ منها ، و إلا فترت الحمية وخمدت نار الزعامة التى هى قوامها وعلة وجودها

وهكذا دار الدولاب الجهنمى دورته المرهوبة ، ولم يكن عند هتلر إلا لعبة أخاذة يستطيبها خيال ا كتع لم يخلق للعظمة الفنية ، وطبيعة جارمة خوت من الرحم الانسانى ، وعقل مخبول يومض فيه الذكاء ، ولكنه ذكاء فى قبضة شيطان .



هتلر بين يدي هندنبرج

الفَصْلُ الرَّابع

قضِيَّة اليوم

دار الكتاب اللبناني - بيروت

قضية اليوم :

ما هى إذن قضية اليوم ؟ ما هى القضية التى يعرضها النازيون على العالم للفصل فيها ؟ وأين هى مصلحة العالم من طرفَىْ القضية ؟

ان هتلر يعرض على العالم قضية الطغيان والحرية الانسانية ، أو قضية الايمان بالسلاح وحده والايمان بشىء فى الحياة وفى الحضارة غير السلاح .

وهو لا يعرض على الناس قضية الطغيان ليقول لهم : أيها الاخوان . تعالوا وكونوا طغاة مثلى . . . . . ولكنه يعرضها ليكون هو الطاغية المتحكم وهم العبيد المستسلمين .

وهو لا يؤمن بالسلاح وحده ليقضى به فى خصومته مع بولونيا وانجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها وغيرها ثم يكفر به ويلقيه جانباً ويعترف بالحقوق والحرمات .

كلا ! بل هو يعتمد عليه اليوم مرة ويعتمد عليه غداً عشر مرات ، لأنه إذا بلغ به ما أراد زاد اعتماده عليه ، وأصبح أقدر على استخدامه مما هو الآن .

فهو قد عمل للحرب فجمع لها عدتها . . . وغيره لم يعملوا للحرب فلم يجمعوا لها مثل تلك العدة .

هل أصاب أو أخطأ فى اشتغاله للحرب دون غيرها ؟

قل انه أصاب أو قل انه أخطأ فليس هـذا مقطع القول الآن ، وإنما مقطع القول ان الذى ينصره أو يتمنى له النصر يخطىء كل الخطأ ولا يصيب فى حقه ولا فى حق العالم أقل صواب .

على ان العالم لو اشتغل للحرب وحدها كما اشتغل لها هتلر لكان معنى ذلك ان الهتلرية قد ربحت المعركة قبل دخولها ، وقد دان العالم بدين الطغيان وكفر بدين الحرية . وأصبح لزاما عليه أن ينقلب إلى معسكر ميدان لا يتربى فيه الطفل ولا يعمل فيه الرجل ، ولا تفكر فيه العقول ، ولا تجمع الدولة مالا أو تنفقه ، ولا تبيح الحكومة شيئاً أو تحرمه إلا فى هذا السبيل .

وبئس الوقاية من الهتلرية تلك الوقاية .

***

يقول هتلر للعالم :

« اعطونى حرية الانسان . . . اعطونى حقوق الانسان . . . اعطونى ضمان الرأى والروح . . . اعطونى تراث الماضى والرجاء فى المستقبل . . . اعطونى حقوق الفرد فى الدولة ألغيها ، واعطونى الدول الصغيرة أدوسها ، والدول الكبيرة أمزقها... وقواعد الطمأنينة فى الأرض كلها أزعزعها وألقى الفزع والفوضى والمصير المجهول فى مكانها . . . اعطونى كل ما تعزون ولا تسألونى ماذا تأخذون ! . . لأننى آخذ ولا أعطى : آخذ الحرية التى عندكم ولا أعطى القوة التى عندى ، أو آخذ رجاءكم فى الحرية ولا أعطى رجاءكم فى القوة . إذ هى لى وحدى لا أعطيها أحدا حتى بين الألمان خلاصة بنى الإنسان . . . فكيف يعطاها غيرهم من المخلوقين للطاعة والهوان ؟

يقول هتلر للعالم : اعطونى الحرمات والحقوق لأن ألمانيا لا تعيش فى الدنيا وللدنيا حرمات وحقوق ؟

فهل يصدق فيما يقول ؟ كلا . بل هو يكذب ويلغو . فما فى الأرض أمة تعيش قريرة راضية والدنيا مسلوبة الحرمات والحقوق .

وهبوه مع ذلك صادقا فملام يدل صدقه ؟ يدل على أن مصلحة المانيا ومصلحة العالم نقيضان ، وان العالم لن يستريح وللألمـان سطوة وشنآن .

والواقع ان العالم — كذب هتلر أو صدق — لن يستريح والسطوة الهتلرية قائمة والدولة النازية دائمة .

فقضية الانسان اليوم هى أن تنهزم المانيا الهتلرية الهزيمة المبرمة التى لا قيام بعدها ، لأن انتصارها هو انتصار لمطالبها التى تبغيها : ومبادئها التى تدين بها : ومطالبها الصريحة التى لا تكتمها هى استغلال الشعوب الأخرى وابتزازها ، ومبادئها الصريحة التى تبشر بها هى سيادة القوة بينها و بين الدول ، وسيادة القوة بين الحكومة والرعية . . . وهل لأحد أن يطمع من حكومة ألمانية فى حرية أوسع من الحرية التى يؤذن بها لأبناء المانيا نفسها ؟ كلا . فما للحرية وجود فى عالم يسوده فرد مقدس معصوم يطلب من الناس ما لا يطلبه الخالق من المخلوقات .

كل ما هنالك مبادىء القوة ، ومعنى مبادىء القوة إلغاء التفاهم والتعاقد فى السياسة الخارجية ، وإلغاء الشورى والانتقاد وضمان الحقوق والأرواح فى السياسة الداخلية . فلا شىء غـير طغيان السيد واذعان الضعيف المحكوم اذعان المستسلم الصامت الذى لا ينبس بشكاية ، ولا يطمع فى إصغاء .

ليس يكفى أن تخرج المـانيا من الحرب وقدفاتها النصر والاستملاء ، بل يجب أن تخرج منها مهزومة عاجزة عن التهديد .

لأنها إذا ملـكت زمام التهديد بعد الحرب لم يلبث العـالم أن يعود إلى ما كان فيه من الفزع الدائم والتسابق الأهوج فى مضمار التسليح ، وأن يسرف إسرافه المنهك فى أهبة الهجوم والدفاع . فتذهب موارده فى اعداد عدة التدمير ثم تضيق هذه الموارد بكل عمل مفيد من أعمال البناء والتعمير . و يعانى أبنـاء

الأمم جميعا ما كانوا يعانونه من الكساد وارهاق النفقات ، بغير أمل فى تبديل هذه الحالة

ولا موضع للمفاضلة بين خروج ألمانيا منصورة أو موفورة القوة و بين خروج الحلفاء منصورين قادرين على المقاومة

فأقل ما يُرجى من انتصار الأمم الديمقراطية أن تبقى حالة الحرية كما كانت فى السنوات الأخيرة ، وهى حالة أكرم وأسلم من كل حالة يتوقعها العالم بعد تسليط الألمان عليه

هذا أقل مايرجى من انتصار الأمم الديمقراطية . أما أكبر مايرجى من انتصارها فهو اتساع آفاق التفاهم والتعاون بينها و بين الأمم الضعيفة ، وهى خطة صالحة للأقوياء والضعفاء على السواء : يظفر منها الأقوياء بعودة لا يستهان بها وتخفيف فى النفقات الحربية هم أحوج ما يكونون اليه ، ويظفر منها الضعفاء بالعضد الذى يريحهم من أعباء الدفاع ، و يتيح لهم أن يوجهوا أموالهم وأرزاقهم وجهة الاصلاح والتعمير

وقد يخطر على بال جاهل أن خروج الدول الديمقراطية من الحرب مضعضعة خائرة أصلح للعالم وأجدى على الأمم الضعيفة

فهذا الخاطر سخيف مأفون . لأن الدول المضعضعة الخائرة لا تضمن تقرير السلام واخافة المتربصين المتوثبين للشر وهم كثيرون : منهم المستبدون الذين تجنبوا الحرب فصانوا قوتهم للارهاب والنهب بغير حساب ، ومنهم الشيوعيون الذين يرقبون يوما يفرضون فيه مذاهب الهدم والكراهية على جميع الشعوب ، وأى فرصة ينتهزونها لترويج مذاهبهم كالفرصة التى يجدونها وهم آمنون سطوة الدول الديمقراطية الكبرى ؟ لعلهم يصيبون بين شعوب تلك الدول نفسها تربة صالحة لالقاء بذور الفتنة والتمرد والانتقاض ، متى وجدوها مضعضعة خائرة

لاتقوى على إخافتهم ولا على علاج المشكلات المتراكمة فى داخل بلادها

وقد يخطر لأحـــد أن مذاهب الهدم والـكراهية تشقي أناسا وتسعد آخرين.... فان كان المقصود انها تسعد الحاكمين بأمرهم فذلك صحيح. أما إن كان المقصود أنها تسعد الأيدى العاملة فليس أفشل من هذا الخاطر بشهادة العيان

فقد اتسع مجال التجربة للطغاة الشيوعيين جيلا كاملا فماذا صنعوا ؟ وماذا أفاءوا على الطبقة الفقيرة من فلاحين أو صناع؟ جمعوا على رأسها من الذل والارهاق مالم يجتمع فى أمة حاضرة ، وجعلوا الدولة صاحبة رأس المال وصاحبة المرافق فى داخل البلاد وخارجها ، فأصبحت الطبقة العاملة من أجل ذلك محرومة حقها قِبَل رأس المال وأصبح الاحتجاج أو الاضطراب فى هذه الحالة تمردا على الدولة وخيانة عظمى يعاقب عليها بالموت أو بالسجن الطويل، وأصبحت الساطة التى يشكو منها العامل هى السلطة التى يشكو اليها . بل أصبحت روسيا كلهـا سجنا كبيرا لايباح الخروج منه ولا الدخول اليه إلا كما يباح الدخول والخروج فى السجون

ولا يكتم الشيوعيون هذا الاخفاق الذى لاسبيل إلى كتمانه ، فهم يعترفون به ويردونه إلى كل سبب غير سببه الصحيح ، وهو سخافة المذهب الذى يجعل تاريخ الانسان كله تاريخ « بنك » أبدى لا محل فيه لغير أطوار النقد وأسعار المصارفات ، ولن يفقهوا هذا ولن يرجعوا عنه . لأن المسألة عنـدهم مسألة شهوة لامسألة فـكرة ، وهى فى قلوبهم حقد على المحسودين وليست رأفة بالمحرومين . وسيمنّون أنفسهم مااستطاعوا أن ينهزم العالم ويتضعضع فيتاح لهم الأمل المنشود ، ويدركوا يومئذ مالم يدركوه بعد الحرب المـاضية التى خرج منهـا الظافرون وهم متماسكون غير مضعضعين

* * *

ولهذا نقول أن قضية العالم هى انهزام المانيا وانتصار الدول الديمقراطية

وكما نقول أن كل نتيجة دون هزيمة المانيا لاتكفى ، نقول كذلك أن كل نتيجة دون انتصار الديمقراطية لا تكفى . لأن الشيوعيين والمستبدين هم المستفيدون دون غيرهم من هزيمة الديمقراطية أو من انتصارها على أعدائها انتصارا لا تحميه

* * *

إن النازيين يتقربون الينا نحن الشرقيين بحجة غريبة ، ويتقربون الى الأمم الأخرى بحجة أغرب وأدعى الى الريبة

أما الشرقيون فيذكرون لهم الشكايات التى يشكونها من الدول الديمقراطية ، والقضايا الوطنية المعلقة بين تلك الدول وبعض الشعوب العربية والشرقية.

ومهما يكن من شأن هذه القضايا والشكايات فمما لانزاع فيه أن المرء لايحمد جراثيم السل لأنه يشكو الزكام ، ولا يرضى بصولة النازيين وطريقتهم فى حكم البولونيين والتشكيين والنمسويين والهولنديين وأبناء الشمال ، لأنه يلقى ما يسوءه من الدول الديمقراطية.

فان الفرق لبعيد جدا بين من ينكر الحرية أصلا وفصلا وبين من يعترف بها ويماطلك فيها ، أو يخالفك فى مقدارها

ولا أمل على الاطلاق فى حرية أو رخاء مع النازيين ، ولا يأس على الاطلاق من بلوغ الحرية والرخاء مادامت للديمقراطية حجة قائمة

* * *

ما من شرقى يرضى للشرق بما دون الانصاف الشامل والحقوق الوافية ، وسيبلغ أبناؤه لا محالة ما يتوقون اليه من انصاف ومنعة بفضل الجهود التى يقوم بها رجال كل بلد على حدة ، وفضل الجهود التى يتعاون عليها رجال الأمم العربية كافة . فمطلب الحرية والانصاف لأمم الشرق مطلب مفروغ منه ، ولا جدال فيه

إلا أننا حين ننظر الى النزاع الاوربى إنما ننظر الى المسألة من جانب الموقف الحربى والسياسة الخارجية ، وهى لا يمكن أن تكون إلا على وجه من وجوه ثلاثة : أن تقف الأمم الشرقية وحدها ، أو تقف الى جانب النازيين ، أوتقف الى جانب الحلفاء

فالوقوف وحدها فى حومة هذا النزاع العالمى لا يتأتى . اذ ليس فى أمم الشرق الأدنى أمة أقوى من فرنسا وهى لم تستغن عن المعونة الانجليزية ، ولا أقوى من بريطانيا العظمى وهى لم تستغن عن المعونة الفرنسية

وحسبنا أن نتخيل تركيا وقد وقفت أمام الروسيا وألمانيا ونظرت الى خلفها فلم تجد من يحمى ظهرها ويملك العدة اللازمة لنصرتها . فماذا يسعها أن تصنع ؟ وماذا يكون المصير إلا أن يطغى الروس والألمان ومن معهم على كل أرض فى طريقهم ليقتسموها أو يقتتلوا عليها ؟

بقى الوقوف الى جانب الحلفاء أو الوقوف الى جانب النازيين ، ولا ترددفى المفاضلة بين الموقفين : قوم يسلمون الحق ويؤجلون موعده ، وقوم ينكرون كل حق لمن عداهم فى خيرات الدنيا ولا ينتظرون من الساميين خاصة الا الخضوع لسيادة الآريين ، بغير أمل فى الخلاص أو فى تبديل الحال ، إلا أن تتبدل الأجناس ... وهيهات !

فالأمم الشرقية لاتعرف مصيرا هو أولى بخشيتها واتقائها وضياع آمالها من مصيرها مع النازيين ، إذا ملكوا زمامها بوسيلة من وسائل الغلب والارهاب

* * *

أما الحجة التى يتقرب بها النازيون الى العالم مسوغين بها مطامعهم وملطفين بها من شرور عدوانهم فهى أنهم لايصنعون اليوم إلاما صنعه الانجليز والفرنسيون فى الاجيال الماضية ، فلماذا يجوز الفتح للانجليز والفرنسيين ولا يجوز للنازيين ؟

ولماذا تهنأ بريطانيا العظمى مثلا بالسيطرة العالمية ولا يغلبها النازيون عليها ؟

فاذا سلّم العالم هذه الحجة وجب أن يطلّق الأمل فى التقدم والتفاهم والسلام أبد الآبدين ، وأن يجعل السيطرة العالمية قبلةً لكل دوله تشعر بالقوة وتعتز بالعدد والعدة : يوم للالمان ويوم للروس ويوم للطليان ويوم لأهل اليابان أو الصين أو من شئت من البلاد ، ولا راحة للدنيا فى هذا الرجراج الصاعد الهابط بين قوم قد استعدوا وقوم يستعدون ، أو بين عدة أقوام مستعدين فى جيل واحد . . .

وذلك هو الجحيم بعينه للظافرين والمظفور بهم أجمعين

والحقيقة أن السيطرة على العالم خرافة أغبياء وستظل خرافة أغبياء إلى آخر الزمان

والناس لا يملكهم واحـــــد
مهما علا فى ملكه واستطال

كما قلنا فى توديع غليوم الثانى الذى ركبه الغرور قبل ربع قرن كما ركب الهتلريين فى هذه الأيام

فالدنيا لاتسودها دولة فى العصور الحديثة وان تسودها دولة فى العصور المقبلة ، وما سادتها بريطانيا العظمى فى أيامنا هذه ولا فى أيامها الماضية . وأحرى بالمستقبل أن يجرى على سنة أقوم من هذه السنة مادام للحضارة معنى وللمصالح المشتركة قدرة على كبح من يعدون عليها ، طغياناً فى سبيل الفتوح ، أو إيثاراً لمصلحة دولة واحدة على المصالح جمعاء

والأمم التى تدخل فى الدولة البريطانية إما مستقلة كافريقيا الجنوبية وكندا واستراليا وزيلاندة الجديدة ، وربما كان سلطانها على لندن أكبر من سلطان لندن عليها

وإما تابعة كالمستعمرات الافريقية وما شابهها وليست سيادة الأنجليز لهـا دليلا على سيادتهم للعالم ، لأن البلجيكيين والاسبانيين يملكون مثلها . ولا ينفع

النازيين عند هذه الأمم أن تُجلى الانجليز عن أرضها . فانها متى استطاعت اجلاءهم فلن تفعل ذلك لتركع تحت أقدام النازيين ، وتقبـل السيطرة ممن يحسبون الأمم الافريقية فى زمرة القرود

و بين الأمم المستقلة والأمم التابعة أمم كأهل الهند يتقدمون فى طريق الاستقلال، وقد تكون للنازيين مصلحة فى الحلول من أهل الهند محل الانجليز... ولكن ما هى مصلحة أهل الهند ؟ وما هى مصلحة العالم ؟ وما هى مصلحة الأمم الغالبة أو الدول المغلوبة ؟ وما هى مصلحة الأمم الواقعة فى الطريق ؟

على أننا لم نذكر الهند لنقرر هذه الحقيقة . فهى غنية عن التقرير ، وانما ذكرناها لنقول ان الحالة الحاضرة فى الهند لا ترجع إلى العوامل الخارجية كما ترجع إلى العوامل الداخلية ، وان بريطانيا العظمى لو رفعت يدها اليوم عن تلك البلاد لما زالت جميع الحوائل بينها و بين قيام الحكومة الوطنية الشاملة ، ولا قاربت الزوال

فهناك الأمراء الحاكمون فى ولاياتهم وهم لا يتفقون ولا يرضون أن يحكمهم مجلس فى عاصمة بعيدة عن عواصم الامارات

وهناك المسلمون وهم كثرة فى بعض الأقاليم وقلة فى بعض الأقاليم الأخرى ؛ ولو شملتهم حكومة واحدة لأصبحوا قلة ضائعة فى جميع الأقاليم

وهناك المنبوذون وهم عشرات الملايين ينظر اليهم البراهمة نظرتهم إلى الرجس الذى يفرقون من ظله ، ولا خـير لهم فى حكومة تضمهم هذا الموضع وتهملهم هذا الاهمال

وهناك اختلاف الأقاليم فى الأجناس واللغات والأديان وعناصر الثروة ومعادن التربة الزراعية ، مما لا يجتمع نظيره إلا فى قارة من القارات الكبار

فمسألة الهند العضال ليست مسألة السيادة الخارجية وحدها ، سواء كانت

عالمية أو مقصورة على بعض أجزاء العالم ، إذ لو فرغت كل سيادة عالمية فى الدنيا لما فرغت المسألة الهندية ، بل لعلها تبدأ يومئذ من جديد

وإنما المسألة فى الهند انها محتاجة إلى الانجليز كاحتياج الانجليز اليها ، وانها لاتخسر إذا حالفت الانجليز محالفة استقلال وكرامة ، كما تخسر إذا انفصل الفريقان دفعة واحدة

فالعلاقة الوحيدة الصالحة للتوفيق بين أمتين فى زماننا هذا هى علاقة المصالح المشتركه والمعونة المتبادلة ، ولو كانت بريطانيا العظمى أقوى مما هى اليوم اضعافا مضاعفات لما استطاعت أن تقيم علاقاتها مع الأمم المتصلة بها على غير هذا الأساس

أما السيطرة على العالم فى زماننا هذا فأوجز ما نقول فيها انها خرافة أغبياء ، وأنها قد بطلت اليوم كل البطلان ، ونرجو أن يكون بطلانا سرمديا لارجعة فيه

* * *

وهنا مفترق الطريقين فى قضية اليوم :

طريق الايمان بالقوة الحيوانية تبقى اليوم كما كانت بالأمس وتبقى إلى آخر الزمان كما كانت فى أول الزمان ، فلا تبديل لها ولا رجاء فى التبديل ولا خير فيه لو كان إلى تحقيقه سبيل ، وسيسود القوى العالم وينبغى أن يسوده وأنفه راغم . ولا عبرة بما يتعلل به طلاب المثل العليا من الآمال والأحلام

وهذه طريق النازيين

وطريق الايمان بشريعة فى الحياة غيرشريعة القوة الحيوانية : وهى شريعة الحق والانصاف والأمل فى تقدم الانسان إلى سنن فى المعاملات بين الأمم والافراد وراء سنة الكهف والغابة

وهذه طريق الديمقراطيين

ويقول النازيون أن شريعة القوة حقيقة لا ريب فيها ، وأن الانسان لا يغالط نفسه فى وجودها إلا لعلةٍ على حد قول أبى الطيب . فالدول الديمقراطية تنادى اليوم بشريعة القوانين والعهود وتنكر سياسة البطش والارهاب لأنها شبعت وامتلأت فلا حاجة بها إلى مزيد من السطوة والسيادة ، والأمم الضعيفة تنادى بشريعة القوانين والعهود لأنها تطمع فى المساواة بينها وبين الأقوياء على أحكام هذه الشريعة

وكل ما يقال عدا ذلك فهو أكاذيب وأوهام

وعندنا أن هذا القول على فرض صحته لن ينفع النازيين ولن يشفع لهم بين يدى العالم . فاذا كانت المسألة كما يقولون مسألة مصلحة وليست بمسألة حق ، فقد كفى خذلاناً لقضيتهم أن تكون مصلحتهم هم ومصلحة العالم نقيضين ، وأن يكون نجاحهم أول خطوة فى خذلان من عداهم من شعوب الدنيا ، حتى شعوب الدول التى تدين بالقوة ولا تدين بالعدل والانصاف ، فان نجاح النازيين يضير تلك الشعوب كما يضير الدول الديمقراطية الكبرى ويضير المستضعفين

على أن المسألة هنا ليست مسألة مصلحة وحسب كما يقول النازيون . فشريعة القوة وشريعة الحق موجودتان لاشك فيهما ، والخصومة بينهما قائمة على أمور مشهودة وليست قائمة على أوهام وأكاذيب ، واحتياج الحق إلى القوة لا ينفى هذه الحقيقة ، لأن القوة أيضا تحتاج إلى الحق فى عملها وفى دعواها

ونحن لا ننكر شريعة القوة والارهاب وننصر شريعة العدل والقانون لأننا أمم ضعيفة تحسب حساب مصلحتها كما يقول النازيون ، بل نحن ننكر تلك وننصر هذه لأن بينهما فرقا صحيحاً بل فوارق جمة فى جميع الأمور : فوارق يجب أن يحرص عليها القوى كما يحرص عليها الضعيف ، ويظهر أثرها فى الضمائر

والأخلاق والعقول كما يظهر فى المرافق التى تتناولها السياسة خارجيـة كانت أو داخلية.

وفيما يلى تلخيص بعض هذه الفوارق التى تدعونا إلى تفضيل شريعة القانون على شريعة القوة ، أو تفضيل الديمقراطية على النازية وما اليها ، سواء بلغنا شأو القوة العسكرية أو قنعنا بما نحن فيه

بداية القضية

إن قضية الحرية الانسانية لم تُطرح للفصل فيها اليوم فى إبان الحرب الحاضرة أو أثناء الأزمات المتعاقبة التى تقدمتها

ولكنها طُرحت للفصل فيها منذ بضع عشرة سنة ، أى من اليوم الذى تصدّى فيه المستبدون للحكم وهم يعلنون جهرة أنهم يستبدون لأن الاستبداد فى الحكم هو الواجب وهو الصواب ، وأنه هو النظام المفضّل على نظام الحرية فى كل شعب وفى كل آونة ، ولم يقولوا كما كان يقال من قبل أن الاستبداد ضرورة موقوتة الى أيام معدودة ، ثم تعود الحرية الى مجراها وترجع الشعوب الى شوراها

يومئذ بدأت قضية الحرية الانسانية فى القرن العشرين ، ووجب أن يتوقع الناس النهاية من تلك البداية

وبدا لنا يومئذ أن نعالج الموضوع من نواحيه القريبة الينا عسى أن ننبه ولو الى بعض الخطر ، وأن نجلو ولو بعض الشبهات . فكتبنا رسالتنا عن « الحكم المطلق فى القرن العشرين » وصدرناها بفصلين نعيدهما فى هذا المقام ونحن نقارن بين الاستبداد والحرية ، لأن وجه المسالة لم يتغير بين أمسه ويومه ، ولم نزل

الدعاوى هى الدعاوى والآراء هى الآراء ، سواء من جانب الحرية الانسانية أو من جانب الطغيان

بدأنا الرسالة بفصل سألنا فيه : « هل فشلت الديمقراطية ؟ » ثم أجبنا السؤال بفصل تال عنوانه « لم تفشل الديمقراطية » . . . وهذان هما الفصلان ننقلهما توطئة للمقارنة التى سنعقدها بين الديمقراطية والنازية على النحو الذى تمثل فى النزاع الحاضر ، ونرجو أن نصل بذلك بين بداية القضيه قبل بضعة عشرة سنة وبين أعقابها التى استطردت اليها فى هذه الآونة

كان الاستبداد المطلق مقدساً فى زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء مآربهم ، وكان هو يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سلطانه على الضمائر والأجسام ، وكان لحق الحكم مصدر إلهى يتلقاه الحاكم المستبد من السماء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب إلا أن يطيعه كما يطيع خالقه ، ويؤمن بحكمته التى تخفى عليه كما يؤمن بأسرار حكمة القدر . فالحكومة رسالة سماوية معصومة على هذه الارض الخاطئة ، والشك فى الحكومة كالشك فى العقيدة . . . كلاهما كفر يعاقب عليه بالحرمان السرمدى من رحمة الله

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة الى ماقبل القرن الثامن عشر . وكان الايمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه إلا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراءهم كما يخفى المجرم جريمته والآثم وصمة عاره ، فلما انتقل سلطان الحكم من المستبدين الى مشيئة الشعوب انتقلت القداسة معه الى المصدر الجديد ، وأصبح حق الحكم مقدساً — مرة أخرى — من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان . وتغيّر النظام القديم ولم يتغير قالبه الذى صنعته العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والعقائد الموروثة

وربما بدأت هذه القداسة الشعبية على سبيل المجاز فى التعبير يلجأ اليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس الحكومة الغابرة وأساس الحكومة الحاضرة ، ثم أضيفت الى هذا المجاز حماقة الفكرة الناشئة وروح الأمل فى المستقبل ، والنقمة

على الماضى . فأصبحت القداسة الحديثة عقيدة فى الضمير يشوبها من الابهام كلُّ ما يشوب العقائد التى تستعصى على متناول العقول

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة فى العرف الشائع فجاءها الخطر من هذه الناحية فى عصر الشك والسخرية من جميع « المقدسات » . . . وسمع الشاكّون والساخرون بهذه « المقدسة » الجديدة فعلموا أن هناك شيئا طريفا يظهرون فيه براعة التفنيد وقدرة التصغير والتقييد ، فأسرعوا اليه فى جد ووقار ، وأعنتوا أنفسهم كثيراً ليقولوا ان الديمقراطية شيء لم يهبط على الارض من السماء وأن القداسة هنا مجاز لاحقيقة له فى العلم والاستقراء ... فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد ، لأن قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية يبحثها الناقدون المحصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الانكار ، فالذين يضعونها هذا الموضع ينظرون اليها من أضيق حدودها التى يعرفها المجازيون والجهلاء ولا ينظرون اليها من أوسع الحدود التى يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح . وإذا كان المتكلم الذى يقول ان الماء العذب شهد حلو المذاق مخطئاً فى صيغة التعبير العلمى فأشد منه امعانا فى الخطأ والغفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب إلى المعمل الكيمى ليثبت أن الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق ، كما يقولون فى لغة المجاز

* * *

فى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت « السيكولوجية » أو علم النفس وتفرعت فروعه وكثر الاشتغال بتطبيقه على الأفراد والشعوب

ولعل أغرب ما استغرب به الناس من قضايا هذا العلم وصفه لأطوار الجماعات والأساليب التى يُجرى عليها فى تكوين عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير

حركاتها واثارة خواطرها . فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية فى العالم الحديث بأكثر من جيلين ، فلاح لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر فى الأذهان أو لما يجب أن يتقرر فى الأذهان ! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتى سنة أو لو انه تقدم فى عصر الاصلاح مثلا لما وقع من الافكار موقع الغرابة فى شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذى يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف ، ثم لجاءت الديمقراطية حتما فى سياقها الطبيعى دون أن يتخيل إلى أحد أن حقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطى أو تعارض حكم الشعوب . لأن الديمقراطية كانت نتيجة لازمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجة لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم فى تفسير حركات الجماعات . فلو علم الناس فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا منزهة عن عيوب الطبيعة البشرية لما كان ذلك مانعاً لوقوع تلك الحركات فى أوانها ولا واقياً للأنظمة العتيقة من التداعى والسقوط . ولكن «السيكولوجية» ظهرت بعد الديمقراطية فنشأت غرابتها من ثمَّ وكان استغراب الناس اياها وهما متولداً من الوهم القديم الذى تطرق اليهم من تقديس الشعب بعد تقديس العواهل المستبدين . فلولا الخرافة الدائرة خرافة المستبدين الالهيين لما وجدت خرافة الشعوب الالهية ولا اتُّخذت أطوار الجماعات التى استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلا على بطلان الديمقراطية ، ولا قيل ان نظامها قائم على أساس واهن لأنه قائم على مشيئة الشعوب وهى مشيئة لا توصف بالعصمة . وقديما عرف الناس من أطوار الأفراد أنهم يطمعون ويستأثرون وأنهم ينقادون للهوى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضلال البعيد وأنهم غير معصومين بحال ، فلم يكن هذا العلم بأطوار الأفراد هو الذى قضى على حكومة الفرد ، ولم تتقوض النظم الأولى الا حين تعذر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الأمم .

***

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيبت آمال الحالمين فيهـا وخيبت آمال أولئك المظلومين الذين صوروا زمانها المترقب فى صورة الفردوس الأرضى أو العصر الذهبي الذى تغنّى به الشعراء وتحدثت به الأساطـير . فلا ظلم ولا اجحاف ولا تمييز بين القوى والضعيف أو القريب والبعيد : كأنما صوت الشعب المنطلق من غيابات الأسر نغمة ساحرة كنغمات « أورفيوس » يتجاور فى سماعها الليث والحمل والضاريات والنقاد ، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يخيب فيها الظن ويحكم عليها الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجربة الأولى ، وهى لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب

فلم يكن أقسى على الديمقراطيـة ولا أظلم لها من غلاة المؤمنين بهـا الذين كانوا يكلفونها ماليس يكلفه نظام فى هذه الدنيا . أيةً كانت قواعده من الصحة ، ونيات القائمين به من الصلاح

هذه كلها أسباب يصح أن تسمى بالأسباب المصطنعة للشك فى حقيقة النظام الديمقراطى والأخذ فيه بالعرض دون الجوهر المقصود

على أنها ليست بجميع الأسباب المصطنعة التى يمكن أن تعدد فى هذا المقام . فهناك أسباب مثلها دعت إلى الشك فى حكومة الشعب قلما تتجاوز المرضيات إلى دخائل الأمور... فمنها أن عيوب الحـكومة الشعبية مكشوفة ذائعة لاستفاضة علاقاتها واشتراك المئات والألوف فى دعواتها وأعمالها . فليس لها حجاب من الفخامة والروعـة كذلك الحجاب الذى كانوا يسترون به عيوب الحـكومات المستبدة ويتعاون فيه الـكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزويق ، وخليق بهذا التكشف أن يغض من فضائلها بعض الشىء

وان مجرد القول بان الشعوب لا تصلح للديمقراطية لدليل على أنهـا درجة عالية يجب أن تتوجه اليها آمال المصلحين وطلاب الـكمال ، فى حين أن القول

بجهل الشعوب واضطرارها من أجل ذلك إلى الحكم المطلق دليل على مصلحة الحكام المطلقين فى بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التى بها يخلدون

ومما يضعف جانب الحكام المطلقين فى دعوتهم هذه أنهم يعيبون على الجماهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك إلى تزكية الحكم الدكتاتورى أو الحكم المطلق ... مع أن التجارب الكثيرة — والتجارب الحديثة منها على الخصوص — قد أظهرت أن الدكتاتورين الصالحين هم رجال الشعوب وثمرة تلك الأطوار، وأن الجماهير لا تعوزها البديهة التى تفطن بها إلى مقدرة القادة وتوليهم إعجابها وتخصهم بثقتها واقبالها وتسلمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التى تغار عليها وتغضب للمساس بها إذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الاعجاب. فاذا احتاجت الجماهير إلى المصلح النافذ فى اصلاحه فليس أقدر على هذا المطلب من زعيم شعبى تبرزه البديهة الشعبية، ولا أسرع منه فى حث غريزة الامم ومغالبة ما فيها من العيوب، وكأن هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذى يطاع لأن طاعته سرور ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التى تبذل فى اطاعة أمره. وقد يكون الزوج زوجا بالصيغة الرسمية ولكنه لا ينال هذه المكانه ولا يأمن الرياء والخيانة إذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة.

وعبث ولا ريب أن تعاب أطوار الجماهير وأن يقتصر الأمر فيها على النقد والزراية وهى هى الاطوار التى لازمتها فى كل ما تمخضت عنه الانسانية من الثقافات، وفى كل من تمخضت عنهم من الدعاة والمصلحين

فأصلح الطبائع لاحياء الشعوب هى الطبائع التى بينها و بين الشعوب مجاوبة فى الشعور ومساجلة فى عناصر الحياة. وإذا كانت الشعوب تخطىء فى عرف العلماء فليس عرف العلماء هنا هو القياس الذى يرجع اليه فى تقدير الدوافع والنتائج، لأن الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيما تريد. بل ليس العلماء

أنفسهم بنجوة من الخطأ على حسب مقياسهم ، لأن أخطاءهم قديما وحديثا فى تصور الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات .

للديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الانسانية التى لا فكاك منها . وقد يكون لهذه العيوب فى مجموع الحضارات الانسانية فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها إن لم يزد عليه

ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الأعلى المنشودة فى الخيال والموصوفة فى الاحلام . إذ هذه الحكومة لا موضع لها فى عالمنا ولن يكون لها موضع . ولكنها تقارن بالأنظمة الأخرى فى جملتها ويُنظر الى عيوبها بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف

فلعل هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التى لا يستغنى عنها أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية . . . إذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزلها فيما مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد

وكذلك لا يصح أن نقيس الديمقراطية بمقياس الأغراض التى أعلنها دعاتها والآمال التى عقدوها عليها لان هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها ويسيطروا عليها — وإنما تقاس مزاياها بالضرورات التى أدت اليها أولاً ثم بالفوائد التى نجمت عنها فعلا ولا تزال تنجم : فهى بلا ريب قد أوجدت للعصبيات الحزبية مخرجا غير الفتن الدموية ، وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة فى الحكم وأنها قادرة على تبديل الحكام ، فضعفت فيها نزعة الثورة بقدر ثقتها من الاشتراك فى الحكومة والقدرة على تبديلها ، وهى فى مدى خمسين سنة قد صاحبت فى عالم الصناعة والعلم تقدما لم تبلغه الانسانية فى خمسين الف سنة ، وكلما ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الخرافة التى كانت تهيىء لفرد واحد أن يملكهم له ولابنائه من بعده ملك السيد للعبيد .

* * *

يقول بعض الباحثين — (ومنهم الاستاذ ساروليا الذى ألقى محاضراته فى هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية) — إن الحكم النيابى تراثٌ انجليزى غير قابل للتعميم فى الأمم الأخرى . ويضرب « ساروليا » المثل بالأمة الفرنسية التى لا تستقر فيها الوزارات طويلا لاختلاف الأحزاب وصعوبة التوفيق بينها إلى زمن طويل، ويعتبر ذلك الاختلاف من أعراض الحكم النيابى ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل أمة... ولو كان الحكم النيابى هو الذى خلق العصبيات الحزبية فى فرنسا لكان قول الاستاذ وأمثاله صحيحاً فى هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية ، ولكن الواقع أن العصبيات الحزبية لم تفتأ تمزق فرنسا كل ممزق فى عهود حكامها المطلقين ، ولم يخلُ جيل واحد فى تاريخها من فتنة على وراثة العرش أو فتنة على المذاهب الدينية أو فتنة على القحط والافلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لاخفاء هذه المنازعات ، حتى توطدت فيها الديمقراطية فانحصرت « العصبيات » فى مناوشات الأحزاب وسكنت الثورات وبطلت المجاعات ، ولم يمنعها اختلاف الأحزاب أن تتماسك بعد الحرب العظمى وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصارا لا ينكر افادتهم لها منكر ، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها فى عهد الملوك الشموس ، وأن تكون هى وزميلاتها المنتصرات عنوانا لانتصار الحرية الشعبية وآيةً على أن حكومات الشعوب تحتمل من الصدمات ما لم تحتمله حكومات القياصرة والطغاة . فانكسرت الروسيا والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة فى الشئون العامة بين الشعب والحكومة ، وخرجت الأمم من تلك المحنة بعبرتها التى لا تضيع

وقد فعل تراث الحكم النيابى فعله فى انجلترا كما فعل فعله فى الأمة الفرنسية ، فوقاها الثورات والخصومات الدامية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مرتين فى

القرن التاسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب ، وهو فى جوهره أشد من الخلاف الذى أفضى إلى الثورة الجائحة فى عهد الاستبداد

ومن النظريات التى أذاعها بعض المؤرخين — وفى طليعتهم فلندرس بترى العالم المشهور فى الأثريات المصرية — أن الحكومة الشعبية كانت هى الدور الأخير من أدوار الدول فى التاريخ القديم ولا سيما تواريخ الدول المصرية : يبدأ الدور بفاتح عظيم ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون ، ثم يضعف هؤلاء القادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر فتثور عليهم العامة وتتولى الأمر الحكومة الشعبية ، ثم يسطو عليهم مغير جديد فيبدأ الدور الأول كرة أخرى... وهكذا دواليك عصراً بعد عصر فى سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشارقة والمغاربة .

فاذا صح هذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم . لأن الحكومة الشعبية كانت فى التاريخ القديم فترة منفرده تقع فى إحدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها فى تلك الفترة ، بل ربما كانت فى بداية الدور الأول — دور الفاتح العظيم — فتحدث الغارات من ثَمَّ وتتجدد الأدوار . أما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصور على بعض الحكومات !

لم تفشل الديمقراطية

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر إلى الآن من آثارها وعلاماتها الا ما يدل على نجاحها وثباتها وانها ستكون أساساً للحكم فى المستقبل تُبنى عليه قواعد الحكومات ويرجع اليه فى اصلاح كل مايحتاج منها إلى الاصلاح

أما تلك الأسباب المصطنعة التى ألممنا بها فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة إلى الاستبداد القديم ، وهم أقل الناس حقاً فى تجريح الديمقراطية بعد ماتبين من فشل حكمهم فى بلاد كثيرة وأحوال مختلفة . فاذا بطل ايمان الناس بقداسة الديمقراطية — مجازاً أو حقا — فمن المقرر المقطوع به أنهم لايرجعون إلى الايمان بقداسة المستبدين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات ، واذا قيل ان الجماهير تنخدع للزعماء وتؤخذ بالمظاهر وتستمال إلى العقائد التى تُبث فيها بالايحاء والتكرار فهذه الأطوار لم تكن ملغاة فى العصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفا فى تصريف الأمم وقيادة الحكومات . وماذا كان يصنع المستبدون طوال العصور الماضية إلا أن يستعينوا على خداع الجماهير تارة بالخرافات والأوهام وتارة بالمظاهر والوجاهات والألقاب والأسماء وتارة أخرى بالعطايا والمواعيد إلى سائر ما هو معروف من أساليبهم فى تمويه الأعمال وإخفاء الحقائق والتحيل على الغرائز والشهوات . ولو أحصيت الحروب التى أريقت فيها دماء الألوف من المحاربين والمسالمين خداعا للشعوب وتمليقها لها ، أو لو

٥

أحصيت الأرواح البريئة التي أزهقها أعداء الحرية والمعرفة ، أو لو أحصيت الثورات والقلاقل التي شجرت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والأسماء والمنازعات الصبيانية والدعاوى الفارغة ، أو لو أحصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الحظوة وأعوان الطغيان لكان في بعض ذلك شاهد على حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير ومن يضرهم انتباهها ، وأن تلك الغفلة لم تدم كما دامت في عهود المستبدين ، ولم تفد أحدا كما أفادتهم ، ولم يحذروا شيئا قط كما حذروا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط كما رغبوا في بقائها واستطالتها . . . وإنما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع في هذه لأقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها ، ولكنه لا يتسع في عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والكتمان

ومن الأسباب المصطنعة أنّ نقد الديمقراطية يرضى غرور تلك الفئة التي تحب أن تتعالى عن « الشعبيات » لما في ذلك من الامتياز والادعاء ، ويرسل على الديمقراطية ألسنة الثرثرة والفضوليين ومن لا ينظرون إلى عواقب الكلام

ومنها أنه المستبدين الطامعين في رجعة الحكم القديم يسعون سعيهم سراً وجهراً لتشويه كل نظام غير نظامهم وتأليب الناقمين على الحكم الحديث ، ولابد في كل حكم من راضين وناقمين

ومنها أننا في زمن تتوالى فيه المخترعات ويسألون فيه أبداً عن أحدث الآراء وأغرب الأخبار . فاذا مضت خمسون سنة على الناس وهم يمدحون الديمقراطية فالذي يفاجئهم بعد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب الزيّ الطريف في كل مجال

فأنت ترى أن نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجبه الأسباب الحقيقية التي لا دخل فيها للوهم والغرض والفضول . وأما الاسباب

الصناعية فما هى وما مبلغ ما تجيزه ؟ هى أشياء لا تجيز لأحد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها فى طريق الفشل القريب .

على أننا اذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم كما تكررت فى دولات الفراعنة وجيرانهم فكل ما يستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذر على الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم فصار الامر الى الشعوب تحكم نفسها الى حين . ويبقى علينا أن نسأل انفسنا متعجبين : هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التى وصلنا اليها ان هى إلا فترة موقوتة جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء فى مقدرتهم على الحكم دون الكافة والأوساط ؟ وهل نعود بمدزوال هذا الوباء الى عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت الله ؟.. لقد كانت الديمقراطية بالأمس حكومة الشعب وكان الشعب هو العامة . أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها الاجزءا من سلطان الأمة ، وهى كلٌّ شامل يدخل فيه السوقة والسراة والامراء

* * *

انتهى الفصلان من رسالة الحكم المطلق فى القرن العشرين

ويوم كتب هذان الفصلان كان هتلر يوالى دعوته ويوحى بكتابه الذى لم يكن يقرأه أحد ، وكان بينه وبين ولاية الحكم أربع سنوات ، وبين اضرام الحرب الحاضرة إحدى عشرة سنة . فاذا كان قد أقنع الناس بشىء فى هذه الفترة فقد أقنعهم بخطر الاستبداد على العالم ، وأراهم أن المستبد حيث كان إنما يسخر الحضارة فى خدمة الهمجية ، وإنما ينكص بالخاضعين له من قومه ومن الأقوام الأخرى أحقابا الى الوراء

الفوارق بين الديمقراطية والنازية

فى التقدم

إن النازيين ينكرون التقـــدم ويدعون أن المضاهاة بين ماضى الانسان وحاضره فى عناصر الأخلاق تدل على الدوران فى حيز واحد ، ولا تدل على التقدم خطوة بعد خطوة ، أو الارتقاء درجة فوق درجة

وهـذا بحث يطول ولا يُفضى بنا الى طائل فيما نحن بصدده . فحسبنا أن التهذيب جائز مشاهد فى طبائع الحيوان ، وأن تقدم الانسان فى علومه وصناعاته وآرائه محسوس لا يخفى الفرق الشاسع بين حاضره وماضيه

ولنضرب مثـلا واحدا على امكان التهـذيب فى طبائع الحيوان يغنينا عن أمثـلة كثيرة ، وهو مثـل الكلب الذى كان فى توحّشه أخوف ما يُخاف على الأطفال والطير وصغار الغنم ، فأصبح الآن حاميا أمينا لهـا يدفـع عنها المخاوف ويرعاها وهو جائع محروم

أما التقـدم فى عـلوم الانسان وصناعاته وآرائه وأحواله المـلابسة للعلوم والصناعات فهو أظهر من أن يحتاج الى تمثيل

* * *

ومقاييس التقـدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال : فاذا قسنا التقدم بالسعادة فقـد تتاح السعادة للحقير ويحرمها العظيم ، واذا قسناه بالغنى فقـد يغنى

الجاهل ويفتقر العالم ، واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية

إلا مقياسا واحدا لايقع فيه الاختلاف والاختلال ، وهو مقياس «المسؤلية» واحتمال التبعة

فانك لا تضاهى بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية ، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته

ولا اختلاف فى هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد ، أو بين الهمجى والمدنى ، أو بين المجنون والعاقل ، أو بين الجاهل والعالم ، أو بين العبد والسيد ، أو بين العاجز والقادر ، أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل

فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع

والنازية تهدم هذا الخلق من أساسه ، لأنها تقضى على الحرية والتصرف والاختيار ، وليس من المعقول أن تحاسب إنسانا على التبعات وهو مسلوب الحرية مأمور ، فيما يأخذ وفيما يدع ، من مطالب عيشه وواجباته نحو قومه

وقد ركدت القرائح فى ألمانيا منذ تولاها النازيون . فلم يظهر فيها نابغة فى العلم والفن والحكمة ، ولم يؤثر عنها ابتكار مفيد فى الثقافة العالمية ، هذا وهى الأمة التى امتلأ تاريخها بأعلام الأدب والبحث والاختراع

ولقد شكا هذا الركود وزراؤهم وقادتهم وكرروا الشكوى مرات . . .

فكتب الدكتور سيروب Syrup رئيس مصلحة العمل فى شهر مارس من سنة ١٩٣٨ يقول : « إن الجيل الجديد من رجال العلم ناقص فى جامعاتنا . ولا شك أن بناء الدولة والثروة معا يستلزم وشيكا أن ينشأ المهندسون والكيميون وعلماء طبقات الأرض والطبيعيون والأطباء »

وربما خطر لبعضهم أن النازيين لا يكترثون لذلك النقص ما استطاعوا إخراج الضباط والجنود وتزويدهم بالسلاح

ولكن الواقع غير ذلك . فان التعليم الفنى لازمٌ اليوم للضباط والجنود لزومه للمهندسين والصناع . وقد كتب الماجور التوماس فى صحيفة فرانكفورتر زيتنغ يقول : « ان الاستاذ زيميك Zemeck مدير المتحف الجرمانى فى ميونيخ قد أشار فى آخر اجتماع لمكتب الريخ الاقتصادى إشارةً خاصة الى هبوط طبقة التعليم العالى بين الناشئة الالمانية ، ولا مناص لى من موافقته فى رأيه . اذ الخطر عظيم فيما أرى على قوة دفاعنا اذا انحصر نطاق التربيـة الذهنية وضاق أفق التفكير ، من جراء فرط الاهتمام بالتربية البدنية .

ومتى بلغ بالأمر أن يلحظه قادة الفرق والألوية فى جنودهم المدعوين للخدمة فمما لاجدال فيه أنه يدل على ضعف ماثل فى نظام تعليمنا الآن »

وقد تخرج من المدارس العليا فى سنة ١٩٣٧ ثمانية عشر ألف طالب فالتحق منهم عشرة آلاف بخدمة الجيش وانقطعوا عن حياة الدرس والاستبحار فى العلوم (١) ولم يظهر أن الآخرين وجدوا متسعا لهم فى هذه الحياة

***

وسواء شكا القادة النازيون أو لم يشكوا ذلك النقص المطرّد فهو نقص لا يستغرب من جيل مفتون بالمواكب والصفوف ، مشغول بالثكنة والطريق عن المكتبة والمعمل ، مشغوف بما يرضى الحواس الحيوانية دون ما يرضى الفكر والروح

ومتى نظرنا الى المبادىء التى يقوم عليها بنيان النازية لم نجد بينها مبدأ واحدا يستدعى التقدم وراء آداب الحيوان

---

(١) هتلر والمانيا لمؤلفه هنريخ هاوزر Hitler Versus Germany

فالطاعة العمياء هى طاعة السرب والقطيع ، وحركة الصفوف هى حركة الطيور والنمال ، والزعامة « الغريزية » أعرق فى الحيوانية من زعامة الارتياد والاختيار ، بل حتى التضحية العمياء لها مرجع الى غريزة الحيوان ، وليست هى من فضائل البصيرة والضمير

وما من عبث ولا مصادفة كان تقدم العلوم والصناعات فى العصر الحديث أعظم وأوسع من تقدمها فى جميع العصور

فمنذ نشأت الديمقراطية نشأت حرية البحث وحرية الكشف وحرية الابتداع . ولا عجب أن يخترع الناس فى مائة وخمسين سنة أضعاف ما اخترعوه فى مائة وخمسين ألف سنة ، لأن الاختراع وليد التصرف والاختيار ، وهما نبات يزكو فى عهد الحرية ولا يزكو فى عهود القسر والتسخير

* * *

الاخلاق :

والأخلاق « أولا » لا تفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار ، فاننا لا نعرف آلة ذات خلق . وإنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الادراك والتكليف

وأنت تستطيع أن تقيم على ابنك حارساً يلازمه فلا ينسى واجبا ولا يهم برذيلة ، ولكنك لا تربيه بهذه الحراسة ، ولا تجعل له روحا ولا تمييزا كتمييز العقلاء بين ماينتهى عنه وما ينتحيه

وكذلك تربى الأمة هذه التربية فلا تنتفع بما ربيت فيها من عادة التسليم والاستسلام ، بل تقتل فيها فضيلة الاستقلال وتهيؤها للذل والخنوع ، وربما كان ذلها وهى تشكو السيد وتثلبه أشرف لها وأجدى عليها من الذل لسيد تهتف له وتحييه

وكثيرا ما نسمع التشهير والتجريس بالفضائح أو الرشاوى التى تنكشف فى الأمم الديمقراطية ويتخذها المستبدون دليلا على فساد أصيل فى النظام الديمقراطى والحكام الديمقراطيين

ويحق لأبواق الاستبداد أن تطنب فى ذلك التشهير وذلك التجريس لو كانت الرشاوى والسرقات تمتنع فى دولة المستبدين ولا تحدث إلا فى دولة الديمقراطيين . بيد أن الواقع الذى لاجدال فيه ان سرقات الطغاة المستبدين فى جيل واحد تربى على سرقات الديمقراطيين فى جميع الأجيال

وإنما يجسر الناس على اتهام السارق فى عهد الحرية ولا يجسرون على اتهامه فى عهود الطغاة ، أو يجسر منهم من لايبالى بالمصير فيلقى جزاءه من حيث ينجو السارق بما سرق ، وذلك أحرى أن يحسب للديمقراطية من المزايا ولا يحسب عليها من العيوب

وما يزعم أحدٌ أن « النظام الديمقراطى » يقتلع الرذائل من الطبائع البشرية ويتركها وليس فيها إلا الفضائل والحسنات

فهذا ما ليس يزعمه زاعم فى نظام من أنظمة الحكم كيفما كان، وغاية ما هنالك أن الديمقراطية تكشف رذائل الحكام ولا تحميها كما تحميها سطوة المستبدين ، وهذا وحده غنيمة جديرة بالذب عنها والحرص عليها

على أن الأموال التى أنفقها هتلر فى تشييد قصوره السحرية وتنظيم حراسته الشخصية ، والأموال التى فرضها على كل قارىء ألمانى ثمناً لكتابه تارة وثمنا لصحفه تارة أخرى ، لتبلغن أضعاف ما اختلس حاكمٌ ديمقراطىٌ أو عدة حكام ديمقراطيين فى عمر طويل ، وهو مع ذلك معدود فى عرفهم من أمثلة النزاهة والعفاف !

ولا يخفى أن الحرية ليست بأرخص من المال ، وأن جميع الحكام المستبدين

يسلبون الحرية ، وليس جميع الحكام الديمقراطيين يسلبون الأموال

كذلك لا يخفى أن القتل جريمة أقبح من السرقة وأوبل منها ، وهو شيء يقترفه الحاكم المستبد حيث شاء

قتل فى ألمانيا ألوف من الناس ولم تحفل الحكومة باثبات الذنب على واحد منهم ولو بعد نفاذ العقاب ، مع سهولة الاثبات لمن يقبض على أعنة الدواوين بغير رقيب

وإنما رخصت الأرواح وشاعت الغفلة فأمكن هذا حيث يحسبون اختلاس الأموال من المستحيلات

ومنذ خمس سنوات قتل المستشار النمسوى دلفوس فكتب النازيون يومئذ يقولون إنه شهيد الماركسيين ، وقال فون پاپن سفيرهم فى فينيا «إن حكومة الريخ تنعى الجريمة وتأسف لوقوعها»

وما هو إلا أن سقطت النمسا فى أيدى النازيين حتى احتفلوا بتكريم ذكرى القتلة وقام رودلف هس ينادى علانية «بأننا نذكرهم فى اليوم الذى سيق فيه هؤلاء الثلاثة عشرة من نخبة الزملاء إلى الموت المهين على المشانق الزرية ، وأن أطيافهم لتمشى فى مقدمة الصفوف حيث مشت فى الدنيا جموع النازيين»

فهذا العدوان الوضيع على حياة رجل لا ذنب له عندهم إلا الأمانة لاستقلال بلاده ، وهذا الرياء القبيح فى انكار الجريمة ثم الاشادة بفاعليها ، وهذه الرذائل التى تتكرر فى حبس شوشنيج والتنكيل بامثاله من رؤساء الأمم المغلوبة — من الذى قال انها دون السرقة فى شناعتها ووصمة عارها ؟ ومنذ متى كان للمستبدين حق الصولة على الضمير الانسانى فلا يأنف إلا مما يريدونه على الأنفة منه ، ولا يثنى على الخلق الجميل إلا إذا أمروه بالثناء ؟

إن فساد الأخلاق فى حكومات الاستبداد لما يمكن اثباته بالأرقام . ففى

المـانيا النازية مئات الالوف من الجواسيس والرقباء ، وكل جاسوس من هؤلاء فهو رمز للرياء والجبن والخوف واهدار الحقوق ، و إلى جانب هـــذا الجيش من الجواسيس والرقباء جيش مثله من الدعاة والمقرظين عملهم فى الحياة أن يكذبوا على أبناء وطنهم ويخدعوهم بالباطل والنفاق . وكل هذا — كل هذا لا يساوى فضائح ستافسكى وأمثالها من عيوب الحكومات الديمقراطية ؟... شاهت العقول أن كان هذا حكمها على الأخلاق ، فـكيف وفضائح ستافسكى شائعة مع رذائل التجسس والدعوة الـكاذبة لا يحجبها إلا الجبن والتهديد ؟

وأبشع من هـــذا أنهم يمسخون الأذواق فيسوّلون لها أن تستمرىء هذه الرذائل كأنها حسنات وطيبات . فمن الأمثلة التى ينصبونها للاعجاب مثل الابن الذى يشى بابيه وأولياء أمره و يتجسس عليهم لرؤسائه النازيين... فيشو بون هذا المعين الطاهر — معين الحنان والاخلاص — بشائبة مسممة لا تُبقى فى النفس الانسانية على موضع للأمان

* * *

ثم تسرى ظلمات هذه الأخلاق المنكوسة إلى دخائل العقول فتغشّى عليهـا بظلمات فوق ظلمات . لأن العقل الذى يتعود أن يرى للمسألة وجها واحدا لاوجه غيره يتعطل فيه التفكير ولا يفهم حجة الآخرين ، ثم يتعود أن يتلقى الأفـكار كما تصاغ له لا كما يصوغها هو بعد تقليبها على جميع الفروض والاحتمالات ، ولا يقتصر هذا العيب الفـادح على المحـكومين بل يسبقهم إلى الحـا كمين الذين لايسمعون اعتراضا ولا يصبرون على اعتراض . ومن جرائر ذلك ولا شك أنهم يتعنتون فلا يديرون أسماعهم إلى حجج خصومهم ولا يعرفون من حل المشكلات إلا أن يقمعوا المعارضين فى أوطانهم ويشهروا السلاح على سائر الأوطان

وعلى ذكر المشكلات وحلها تقول ان الآخذين بالظواهر يتوهمون أن النظم « الدكتاتورية » أصلح النظم الحكومية لعلاج المشكلات العويصة وحل العقد المؤربة فى زمن وجيز

وهذا صحيح إذا نحن أخذنا بالظواهر ولم نتعقب الحلول والعلاجات إلى جرائرها المحتومة ونهاياتها التى لا محيد عنها

أما إذا نحن تجاورنا الظواهر إلى ما وراءها فالنظم الدكتاتورية فى الواقع تدارى المشكلات ولا تمحوها ، أو هى فى أكثر الأوقات تحل مشكلة واحدة وتخلق إلى جانبها مشكلات عديدة . كما فعلت فى مشكلة البطالة

قيل لكاتب انجليزى : لابطالة فى ألمانيا !

قال نعم . ولا فى سجن دارتمور ! . .

ومعنى ذلك أن علاج البطالة على الطريقة الألمانيه النازية مستطاع فى كل مكان يرضى سكانه أن يعيشوا فى بلادهم عيشة السجناء فى دارتمور

وجلية الأمر أن النازيين عالجوا البطالة « بتشغيل » العاطلين جنودا فى الجيش ، ورقباء فى ديوان الجاسوسية ، وعمالا فى مصانع السلاح والذخيرة ، ونزلاء فى معسكرات الاعتقال ، وأجراء بانصاف أجور وارباع أجور

وكل علاج من هذه العلاجات يؤدى إلى كارثة مطبقة تهون إلى جانبها.

كارثة البطالة

لأن استنفاد ثروة الأمة فى المدافع والدبابات وما اليها يضيع المال بغير عوض ويؤدى إلى رخص العملة وضعف القدرة على الشراء . فما يُشترى فى هذه الحالة بعشرة قروش لا يساوى ما يُشترى فى الأحوال الطبيعية بقرشين

ولأن انفاق الملايين على السلاح يلجىء الحكومة إلى ارهاق الرعية من أصحاب الأموال والموظفين والعمال بالضرائب الثقيلة والخصوم المتعددة بأسماء شتى . فيحسَب الأجر على صاحبه خمسة قروش مثلا وهو لا يقبض منه أكثر من ثلث ما حسبوه

ولأن « تشغيل » المصانع بالسلاح والذخيرة لابد أن يقف أو يدوم . فان وقف فهناك صدمة الركود المفاجىء وكارثة البطالة من جديد ، وان دام فهناك دوام الكساد ورخص العملة وضرورة البحث عن مصرف للسلاح فى القتال والتخريب

وليس فى وسع حكومة أن تخلق جو الحرب بتجييش الجيوش وتكديس السلاح وتهييج الخواطر وتجويع الناس دون أن تصطدم بالحرب طائعة أو كارهة ، ومحتاجةً اليها أو زاهدة فيها ، فهى أسيرة مسخرة وليست بحرة قادرة على التدبير والتقدير ، وهى كالدابة المسحوبة من لجامها إلى حيث تشاء أو لاتشاء ، وليست كالرجل الذى يضع قدميه حيث تبصر عيناه

* * *

ومثل آخر مشكلة التجارة

فالنازيون يحلون هذه المشكلة بالترقيع والتلفيق والخداع والاحتيال ، فلايلبثون قليلا حتى يجدوا أنفسهم بين ضرورات القوة العمياء

يعرضون على الأمم أسعاراً أكبر من الأسعار التى تبيع بها محصولاتها الزراعية ثم يعرضون عليها مصنوعات حربية بأرخص من أثمانها فى البلاد الأخرى ، مقايضةً ومبادلة . لأنهم لا يشترون بالنقد الحاضر

ثم يبيعون المحصولات الزراعية بأقل من الأسعار التى اشتروها بها ، ويماطلون فى تسليم المصنوعات بدلا منها ، ليرفعوا أثمانها

ولما كانت الأمم التى تعاملهم مضطرة إلى استيفاء ديونها فهى تعود فتقبل كل ثمن ، كما يقبل الدائن كل ما يستطيع الوصول اليه من أمتعة المدين المماطل

وتمضى فترة وجيزة فتعلم الأمم التى تعاملهم أنها خسرت عملاءها ، لأن عملاءها يشترون محصولاتها من النازيين بأرخص من الأثمان التى تباع بها فى أسواقها الوطنية

وهنا يرى النازيون أنهم مستهدفون لقطع المعاملات ، عاجزون عن إطالتها والاستمرار عليها بغير التهديد والارهاب ، والقتال كرة أخرى

هذه أمثلة من « العلاجات » النازية

وهى أشبه بعلاج الشعوذة والطلاسم منها بعلاج الطب والجراحة العلمية

والمشعوذ قد يخدع مريضه فترة من الزمن ويقنعه أنه خير له من الطبيب وخير من الجراح !

والطبيب أو الجراح قد يفشلان فى بعض الأمراض ويبدو للمريض أنه أخطأ فى الركون اليهما وقلة الركون الى السحرة والمشعوذين

ولكن الطب طب والشعوذة شعوذة على كل حال

ومتى عرف الطب علاجه فذلك هو العلاج الصحيح الذى يقاس عليه ويطمأن اليه

أما إذا بقى العلاج الطبى مجهولا فليس ذلك بحجة على صلاح الشعوذة والتدجيل ، ولو نجحا الى حين

وهكذا مشكلة البطالة مثلا فى البلاد الديمقراطية ، فان هذه البلاد لم تحسم داءها حتى الساعة ، ولا تزال تعالجها بالاعانات تارة وإنشاء أعمال الاصلاح والتعمير تارة أخرى ، الى ما شابه ذلك من المسكّنات والملطّفات . ولكنها مسكنات الطب وليست بمسكنات الشعوذة ، ثم هى حيرة سليمة المغبة ، وليست بدواء كاذب يخلق الى جانبه عدة أو دواء

ومن الواضح أن مشكلة كمشكلة البطالة التى ترجع الى أسبابها العالمية لن يتأتى أن تحلها أمة واحدة فى داخـل حدودها ، ولن تعالَج يوما بمعزل عن علاج الـكساد العالمى واختلال المبادلات التجارية

فاذا شعرت الأمم بهذه الضرورة ودفعها الشعور بها الى ابتغاء الوسيلة الناجعة بالتعاون فيما بينها فذلك خيرٌ للعالم وخيرٌ لكل أمة على حدة من الجرعة القاتلة التى تودى بالعليل والصحيح

ومتى رأى الطبيب من واجبـــه أن يترك بنية المريض تعمل عملها وتدبر مقاومتها فعليه أن يظل طبيبا يفعل مايوحيه اليه طبه ، وليس عليه أن يلبس للناس لبوس المشعوذ الدجال

* * *

النظام

والنظام هو « فخر » النازيين لأنهم يعيبون على الديمقراطية اختلاف الآراء وصعوبة الاتفاق على قرار ، و بطء الانجاز بعد الاتفاق عليه

والقـول الصواب هنـا أن نقارن بين أحسن الديكتاتوريات وأحسن الديمقراطيات ، كما نقارن بين أسوأ الحكومات من الجانبين . فلا نفرض النظام الدكتاتورى كما يكون فى « مثله الأعلى » ونفرض النظام الديمقراطى كما يكون فى أقبح الأشكال والأوضاع

ومما لاشك فيه بعد هذه المقارنة أن أفضل حكومة ديمقراطية خير من أفضل حكومة دكتاتوريه . وأن الدكتاتور الردىء شر من الديمقراطية الرديئة على أسوأ ماتـكون

والنظام بغير « انتظام » نقيضةٌ لايقبلها العقل المستقيم . فما هى وسيلة انتظام

الدكتاتورية حاكماً معصوما بعد حاكم معصوم ، وخلفا صالحا بعد سلف صالح ؟

لا وسيلة على الاطلاق

ولكن الديمقراطية الصالحة تعقبها ديمقراطية صالحة ان لم تكن أصلح منها، لأن مرجع صلاحها الى الشعب قبل حاكميه

أما اذا كان الفساد من الشعب نفسه فهو فاسد مع الشورى وفاسد مع الاستبداد ، وقد يكون المستبد غبيا سفاحا كما يكون الحكام الديمقراطيون عجزة أو مختلسين

وما الحيلة فى فساد المستبد الجائر، وكيف السبيل الى تبديل حكمه ؟ . . . .

لا سبيل غير الثورة والفوضى

أما الديمقراطية فباب التبديل فيها مفتوح بغير ثورات و بغير سفك دماء

على أن الحاكم المستبد إنما يصلح من جانب و يفسد من جوانب شتى ، فيعطى الأمة نظاما ان أعطاها ، و يسلب منها حرية الرأى وكرامة الاستقلال والارادة حيثما ظهر وكيفما كان

والديمقراطية بعدُ لا تعيي بالمواقف العصيبة التى لابد فيها من اطلاق أيدى الحاكمين . لأنها تطلق أيدى الحاكمين فى هذه المواقف بنظام مقرر معروف ، ليس كله استبدادا لأن أساسه تفويض الأمة . وليس كله حرية لأن الحرية فيه محدودة حيث تقام لها الحدود . وربما تعلمت من سرعة العمل فى أيام الحروب دروسا تنفعها أيام السلام . فتأتى السرعة من طريق التعليم والتعود لا من طريق الأرغام والالزام

ففى الديمقراطية «احتياط» لأحوال الاستبداد ، وليس فى الاستبداد احتياط لأحوال الديمقراطية ، اذ هو استثناء دائم ، ولن لايجرى إلا على حكم الاستثناء

وربما كان للاستبداد ــ إذا صلح ــ بعض حسنات المستشفى الذى يضمن

النازلون به نظافة الطعام وجودة الهواء وانتظام المواعيد بأعين الأطباء . فاذا استشرى فساده فهو حبس كحبس الحجاج لاحرية فيه ولاظل ولاطعام

أما الديمقراطية فهى بيتك الذى تعيش فيه وفق مرادك ، إذا صلح فهو خير من المستشفى ، وإذا فسد فهو خير من حبس الحجاج . . . والناس مخلوقون للعيش فى البيوت لا فى المستشفيات والسجون .

* * *

الصحة

ونحن نذكر المستشفى على سبيل المجاز والتمثيل ولا نعنى أن الصحة تتوافر لرعايا الحكومات المستبدة كما تتوافر فى المستشفيات

فمن غير المعقول أن حكوماتٍ تجور على أقوات رعاياها وتعتمد على نظام الجرايات فى أوقات السلم لتنفق على السلاح والذخيرة تستطيع أن تكفل التغذية النافعة لأولئك الرعايا المحرومين . وكل حكومة تتخذ شعارها «المدفع ولا الزبدة» كما تفعل الحكومة النازية فليس فى وسعها أن توفّق بين نقص الأرزاق وتصحيح الأجسام

وقد تعجب الناظر مواكب الألعاب الرياضية ومعارض الجيوش فيخالها عنوان الصحة الحسنة والأرزاق المكفولة لسواد الأمة ، ولكنه لا ينظر إلى ما وراء ذلك نظرة قريبة حتى يتبين مكامن الداء ويعرف الثمن القاصم الذى اشتُريت به هذه المشاهد الجوفاء : موكب زمر وطبل واحد ووراءه ألف أسرة تحرم الغذاء والكساء ؛ ولولا هذا التمويه الفاشل لوجدت منهما الكفاية وفوق الكفاية

ويقترن نقص الأرزاق بنقص الرعاية الطبية ، لانصراف الأطباء إلى ملازمة الفرق العسكرية ، أو لانصراف الشبان عن دراسة الطب والاستبحار فى العلوم

فتقل الرعاية الطبية وهى أحرى ما تكون بالمزيد ، لازدياد حاجة الناس اليها من جراء سوء التغذية وضعف الوقاية

وفى كتاب الدكتور مارتن جمبرت الألمانى المسمى « يحيى الجوع [1] » بيانات واحصاءات مستمدة من مصادر النازى الرسمية تدل على مبلغ انتشار الأمراض والعلل بين الناشئة الألمانية من أثر المبدأ القائل « المدة ولا الزبدة » أودعوا السمن واصنعوا المدفع Guns before Butter

فاصابات الحمى القرمزية فى سنة ١٩٣٣ كانت ٧٩٫٨٣٠ فأصبحت ١١٧٫٥٤٤ بعد أربع سنوات

و إصابات الدفتيريا فى سنة ١٩٣٣ كانت ٧٧٫٣٤٠ فأصبحت ١٤٦٫٧٣٣ بعد أربع سنوات .

وفى دورتمند خمسة وخمسون فى المائة من الأطفال مصابون بلين العظام ، ولا يزيد عدد الأطفال المعافين من أعراضه فى ميونيخ على خمسة وثلاثين فى الألف ؟

وجاء فى التقرير الطبى عن الجامعات سنة ١٩٣٩ « ان مقابلة الأحوال فى السنوات الأربع الماضية تدل على هبوط فى مستوى الصحة بين الشبان . فان زيادة المصابين بمرض القلب فى السنة الماضية مزعجة غاية الازعاج . . . . وعدد الطلاب الذين لايصلحون للانتظام فى سلك الفرق الرياضية قد تضاعف فى السنتين الماضيتين ، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية فى سنة ١٩٣٥ أقل من عشرين فى المائة ، فأوشك أن يبلغ الخمسين فى المائة الآن » .

وانتشار الأمراض بين العمال أكثر وأعضل . وقد حرّمت الأمم تشغيل الأطفال فى بعض المعامل إلا المانيا النازية ، فانها — لحاجتها إلى الصناع بالأجر

(1 Heil Hunger by Dr Martin Gumpert

القليل — قد أوجبت على الأطفال أن يعملوا من العاشرة ، وارتفعت نسبة الناشئين الذين يعملون فى وادى الرور بين الرابعة عشرة والعشرين من ٨٥٥ فى كل عشرة آلاف (سنة ١٩٣٢) إلى ١٧٧٨ بعد ذلك بخمس سنوات .

ويشيع النازيون انهم يروضون الناشئين على فرح القوة والفرح بالحيـاة . ولـكن المقارنة بين حوادث الانتحار فى المـانيا وحوادث الانتحار فى البلدان الأوربية الأخرى لا تنبىء عن فرح بالحياة بل فرح بالموت . فان عدد المنتحرين فى المانيا وحدها يكاد يساوى عددهم فى أرجاء القارة الأوربية بأجمعها .

وكذلك زاد عدد الموتى ثمانين ألفا كل سنة فى ألمانيا الجديدة ، وكان معظم الزيادة فى الأعمار ما بين الأولى والخامسة عشرة ، وما بين العشرين والخامسة والأربعين ، أى فى سن الطفولة وسن الشباب : سن الفرح بالحياة

وهذه نتيجة بدهية لا غرابة فيها مع نقص التغذية وإرهاق الأجسام بالعمل وكبت النفوس واستفزاز الأعصاب

* * *

التربية

وتربية العقول أضر فى ظل النازيين من تربية الأجسام

لأنهم يتعمدون تعويج الرؤس ويجردونها من ملـكة التفكير المستقيم فلاترى الدنيا على حقيقتها بل تراها كما تحب الحـكومه أن يروها ويثابروا على رؤيتها : يصبغون التاريخ والجغرافيا للطفل بالصبغة التى تساعدهم على ترويضه واقتياده ، ويغرسون فيـه الأحقاد التى يضرمونها بالغضب والشر كلما أحبوا أن يضرموها ، ويخلقون له وجودا عجيبا لا مجد فيه ولا حق ولا فضيلة لغير الآريين المزعومين ، ويفقدونه الملـكة الصحيحة التى يختبر بها حقائق الأمم والرجال ، فلايرى الأشياء

ولا يتصور المعانى الا بعد تحريفها وتشويهها كما ترى الأشباح فى المرايا المقوفة ، واطرّادها أمامه على نسق واحد لا ينفى أنه زائغ مضلل وأن تفكيره وشيك أن يخونه متى لمح شعاعا واحدا من الضوء فى عالم الرؤية القويمة والنظر السليم

ويستولون على الطفل من السادسة فيقلدونه خنجراً صغيراً ويطبعونه على الشر والنقمة يسمونها المجد والنخوة الآرية ، ويخيل اليهم أنهم بهذا وأشباهه يفرغون الدنيا بجيل مشاكس متنمر لا حيلة لها فيه إلا أن تستكين له أو تقضى على كل قوة فى يديه . وذلك فى وهمهم مستحيل لشيخوخة الدنيا واضمحلالها ، وآية الشيخوخة والاضمحلال عندهم ان الدنيا لا تألف الضراوة بالشر ولا تتغنى بالقتل والقتال

فتلاميذهم على غرار تلاميذ الحسن بن الصباح الذى كان يخيل إلى أتباعه انهم فى نعيم مقيم ماداموا فى طاعته ورضاه ، وانما يقود تلاميذه بتخدير الحشيش وهم يقودونهم بما يشبه الحشيش من الأوهام والأضاليل

وهؤلاء التلاميذ هم الذين يترنمون بصيحتهم على الحرية : « أيتها الحرية ! اننى أبصق على وجهك ! » . . . وكلمة أبصق هى ألطف تعبير لما يقولون فى ذلك النشيد

***

البيئة

ولعل الفاصل المبين بين الديمقراطية والنازية هو فاصل البيئة التى تعيش فيها كل منهما

فليس أدل على سلامة الديمقراطية من أن قيامها فى الأمة دليل على مزايا كثيرة فى تلك الأمة ، أو دليل على أن الأمة فى معيشة طيبة ومعاملة حسنة ،

وانها ذات أخلاق لاضرر من اطلاق الحرية لأصحابها ، وأطوار لاتعـدو طوقها ولاتستعصى عليها

وليس أدل على وخامة الدكتاتورية من أن قيامها فى الأمة دليل على شذوذ فى معيشتها أو على خوف من بعض الاخطار المحدقة بكيانهـا ، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلما أعوزهم أن يسوغوا قيامهم فى شعب من الشعوب

فالبيئة الديمقراطية كالأرض الآمنة القريرة ، والبيئة الدكتاتورية كالمحجر الصحى أو كالمخفر الذى لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق

ولم يعرف التاريخ قط أن ديمقراطية حاربت ديمقراطية على مبادئها ، وانما تتحارب مثلا حكومة اسبرطة العسكرية وحكومة اثينا الدستورية ، أو تتحارب ولايات الشمال فى أمريكا وولايات الجنوب ، لأن الشمال يطلب الحرية للسود والجنوب يطلب لهم التسخير والاستعباد

أو يتحارب نابليون بونابرت وبريطانيا العظمى ، أو بسمارك ونابليون الثالث ، أو اليابان وروسيا القياصرة

وحتم على النازية وما شا كلها أن تـكون بيئة حرب تنفر من السلم كماتنفر البنية من السم الذى يتلفها ويقضى عليها . فان « الزعيم » لا يخدع الناس عن عقولهم وحرياتهم إلا بما يزلفه لهم من بواعث الهيـاج وسورة الشعور وشهوة البغضاء وتعاقب الحوادث بالضجة والصليل . فان لم يتعهدهم بهذه المثيرات فتر عندهم وباخ وآذن نجمه بالأفول

وهو مع هذا يتعاظمهم بروعة التقديس والتأليه ومظهر القدرة التى تأمر فتطاع ، وتريد فلا يحال بينها وبين ما تريد . فان وقف بين جيرانه ونظرائه موقف المساوم الذى يأخذ ويعطى ويتقدم ويتراجع صغر فى أعينهم وضـاع بينهم

وأوشكوا أن ينقلبوا عليه وينتقموا لذلتهم الماضية مما أسبغوا عليه من الهول والتهويل . فهو يشل يديه عن عمل الساسة كل يوم يلبس فيه هالة التقديس والتأليه : فأما أن يرسل الصواعق من سماء جو بيتير ، وأما أن يهبط إلى الأرض مع الهابطين

فسلام الدنيا إذا حكمتها الديمقراطية مفهوم لأنها تقوم على التفاهم ولا تحصر الرأى فى يدى انسان واحد . ولكنه غير مفهوم والدنيا تحكمها الدكتاتورية ، بل غير مفهوم وفى الدنيا دكتاتورية واحدة على مذهب التقديس والتأليه ، تفتأ من يوم ظهورها تقعقع بسلاح العدوان وتنشىء أبناءها على تمجيده واصطفائه دون سائر الخطط وسائر الحلول

* * *

ومن الملائم أن نستحضر فى اخلادنا قبل ختام هذه المقارنة ان تفضيلنا الديموقراطيه يؤدى إلى تعميمها فى كل أمة ، وان تفضيلنا النازية أو الدكتاتورية لا يؤدى إلى مثل هذا التعميم ، لأن النازيين يعتبرون مذهبهم مزية جنسية يستأهلها صفوة الخلق من أبناء الشمال ولا يستأهلها الجنوبيون ولا المغلوبون ، وآخر ما يفكرون فيه إذا انتصروا أن يتركوا الشعوب الصغيرة للمستبدين من عشيرتها ، والزعماء المقدسين من أبناء جلدتها ، ولكنهم يدينونها بشريعة العسف التى لا تؤمن بتقديس ولا بحق مصون لحاكم أو محكوم من الضعفاء

ويحسن بنا كذلك أن نستحضر فى أخلادنا أن الديمقراطيه لم تنته من التطور ولم تتحجر على وضعها الذى هى عليه فى هذه الايام . فهى نظام يتقدم مع تقدم الشعوب ، وتزول نقائصه كلما زالت نقائص الناس ، ولا أمل من الناحية الاخرى فى ارتقاء الدكتاتورية طبقة بعد طبقة وسيدا بعد سيد . لأنها راجعة إلى

القفزات والنوادر ، منوطة بالآحاد المتفرقين ، معرضة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتعمير

قال الامام الشيخ محمد عبده : «لايصلح الشرق إلا بمستبد عادل »

نعم . ولم يفسد الشرق إلا بالمستبدين الظالمين ، ولم ينهض نهضته المرجوة فى القرن العشرين إلا بنفحة من الحرية الديمقراطية سرت اليه . وقد جرب حظه فى الاستبداد طويلا فليجرب حظه فى الحرية ، وليجعلها اليوم قضيته الكبرى ، فهى فى الحق قضيته التى ينتصر فيها فينجو من ظلم أبنائه وظلم الغرباء



اوتو شتراسر

الفصل الخامس

قضية الغد

ولعلها كانت أحجى أن تكون قضية أمس أو أمس الأول ، لو كانت « السياسة » تمشى فى طليعة الشعوب ولم تكن تمشى وراءها بخطوات

وقد قيل إن الساسة يتخلفون عن عصورهم ثلاثين سنة لأنهم يقتبسون أفكارهم الحديثة فى زمن ويتولون الحكم فى زمن آخر ، ولأنهم يلبثون إلى أن يمر « الصف الأخير » من « محافظى الشعوب » ثم يمروا وراءه ليجتنبوا مشقة الابتداء والاقتحام، ويأمنوا مغبة «الرجة الثورية» التى تصاحب دعوات الاصلاح

وليتها ثلاثون سنة !

فانها على ما نرى مائة أو مائة وخمسون ، وكأننا لا نزال الآن فى أوائل القرن التاسع عشر من حيث سياسة العالم وفض المشكلات بين الشعوب والحكومات

ماذا كان يحدث لو أن الدول جميعا — كبيرها وصغيرها — أجمعت على انذار هتلر بالحرب لو أنه رفض خطة التفاهم فى المشكلة البولونية وأبى إلا خطة الارغام ؟

كان ينثني عن الحرب ولاجدال

وكانت كل دولة من هذه الدول تخدم مصلحتها هى قبل أن تخدم مصلحة العالم ... لأن خمس دول على الأقل كانت تأمن على حوزتها من غارة هتلر ، وان كانت بولونيا وحدها هى التى انفردت بالتهديد فى بداية النزاع

فلماذا لم تصنع الدول ذلك ؟

لم تصنعه لأنها تعمل فى السياسة الدولية كما كانوا يعملون قبل مائة سنة ، وهم يومئذ على صواب

فبعد الحروب الدينية والحروب التى نشبت بين الأسر المالكة من جراء الخلاف على الوراثة رشدت الأمم بعض الرشاد فاجتنبت الحروب « العاطفية» والنزوات الحماسية واتبعت « المصلحة » وحدها فى إدارة علاقاتها الخارجية ، فلا تعادى ولا تصادق من أجل مصالح الأمم الاخرى ولو كانت تجاورها أو تماثلها ، ولاتظن أن حدثا من الأحداث يعنيها مادام يجرى من وراء حدودها

وجعلت شعارها كلمتين اثنتين : الكلمة الأولى «مصلحتي» . . . والكلمة الثانية « لا يمنيني ! »

وصمدت على ذلك فى جميع الأزمات الدولية ، ولا سيا أزمات الحروب

* * *

إلا أن العالم قد تغيّر ، وقام بعد العالم فى القرن التاسع عشر عالم متشابك متماسك لا تنفصل فيه أمة عن أمة ، ولا تطرأ فيه المشكلة الدولية إلاّ سرت آثارها إلى أبعد الأمم وأقربها على السواء

فقيام حكومة النازي فى المانيا كان مسألة المانية داخلية على رأى الساسة « الحصفاء » من المدرسة العتيقة

ولكنْ ألم يكن كذلك مسألة داخلية بولونية ؟ ألم يكن مسألة داخلية بلجيكية ومسألة داخلية نرويجية وإنجليزية وفرنسية وتركية ومصرية ؟ ألم يكن مسألة داخلية فى جميع الأمم التى اضطرت من جراء قيام النازيين إلى اتفاق مالم تكن تنفق ، وتدبير ما لم تكن تدبر ، واتخاذ ما لم تكن تتخذ من الحيطة ،

وفرض ما لم تكن تفرض من الضرائب ، وانتداب من لم تكن تفكر فى انتدابهم من الوزراء والساسة والسفراء !

أ كل هذا لا يكفى لاعتبار المسألة الداخلية فى أمة مسألة داخلية فى الأمم الأخرى ؟

بلى . إنه لكاف وأكثر من كاف

ولكنّ النازيين أغاروا على بولونيا ومن ورائها أمم شتى تنتظر وتحسب أنها تسلم بالانتظار ، وتبتعد وتحسب أنها تأمن بالابتعاد

فلم تنقض أسابيع حتى فهمت كل واحدة منها أنها اخطأت فى حق نفسها واخطأت فى حق غيرها ، ولم تفد أحدا غير المعتدى عليها وعلى غيرها

فلا هى سلكت طريق المروءة ، ولا هى سلكت طريق السلامة . . .
وبئست السياسة التى تحيد عن هذين الطريقين لتمهد بيديها طريق المعتدين عليها

انتهى فى السياسة الدولية عهد « مصلحتي » وعهد شئوني وكفى !

وأصبحت المصلحة الآن فى التوحيد بين المصلحة الوطنية والمصلحة العالمية ، فلا تنفرد أمة فى سياستها إلا على نية من نيتين : العدوان على غيرها أو التعرض لعدوان المعتدين

فاذا أبت أمة من الأمم إلا أن تفرغ جهودها كلها للسطوة العسكرية وأن تشبع نفوس أبنائها كلهم بنوازع البغي والعدوان ، فماذا يبقى للامم الأخرى بازاء هذا الخطر الذى يهددها واحدة بعد واحدة ؟

لا يبقى لتلك الأمم إلا أن تعمل كلٌّ منها منفردةً فتستعد وحدها لدرء الخطر عنها ، وهى الخاسرة بما يضيع عليها من الأموال والجهود وعلى أبنائها من الحقوق والحريات

هذا أو تعمل الأمم مجتمعات وتقلع عن سياسة «مصاحتي» ، «ولا يعنيني» لأنها نقيض المصلحة والمروءة والسداد

وفى هذه الحالة يكفيها ربع الاستعداد الذى كانت مضطرة اليه لو أنها عملت على انفراد

لأن دولاً عشراً تبذل ربع مجهودها ومالها أقوى من دولة واحدة تبذل كل ما عندها من مجهود ومال

فهذه « الخطه العالمية » أقل نفقة وأقرب إلى السلامة ، وأشبه بالكرم والمروءة ، ولا عائق يعوق الأمم عن المضى فيها إلا البلادة والغباء

ومتى ثبت لزوم الخطة وثبت إمكانها ، وثبتت فوائدها فهى فى انتظار « الاداة » التى تصلح لتنفيذها ، أو هى فى انتظار « واسطة الاتصال » بين الحكومات

وليست هذه الواسطة المرجوة — بل الضرورية اللازمة — بالطريق المقطوع

فالتعاون الدولى قد أخرج بعد اليوم ضرورة و « عقلا » ولم يعد كما كان قبل اليوم حلما من الأحلام أو عاطفة من عواطف المتخيلين

وصداقات الدول لا ينبغى أن تقوم غدا على أساس غير أساس الاشتراك فى العدوان أو الاشتراك فى دفع العدوان

والاتفاق على دفع العدوان أيسر من الاتفاق على العدوان ، لأن المعتدين يتغالبون ويتنازعون ، ولا يمضون فى الوفاق الى نهاية الطريق

وتلك قضية الغد

وتلك هى عبرة الحرب الحاضرة ، إن كانت لها عبرة على الاطلاق

* * *

فلهذه الحرب أغراضها التى لامناص من تحقيقها

ولانعنى تلك الأغراض التى يعلنها الساسة ويؤمنون ، أولا يؤمنون ، أنهم يعملون لها وينتهون اليها

ولكننا نعنى الاغراض التى تتجه اليها الحوادث وتوجه اليها الساسة فى تيارها الجارف الذى لايسلس عنانه لأحد ، وإن خيل الى كثيرين أنهم قابضون عليه ، مستوون فى الركاب

وكل حادث عظيم من حوادث الدنيا فله نتائجه اللازمة اللازبة اذا شئناأن نتجنب كلمة المقاصد

فالحرب الماضية انتهت بزيادة الأمم المستقلة فى أوربا وأفريقيا وآسيا ، وبدخول التحكيم الدولى فى دور جديد من أدواره الكثيرة ، وبفشل النزعات المادية فى تجارب الأمم والأفراد . فقد فشلت تجربة الماركسية فى روسيا بعد أن أتيحت لها فرصة لا نظير لها ، وفشلت تجربة الخلاعة والانطلاق من ضوابط الآداب والأخلاق ، فأحس كل خليع مستخف بتلك الضوابط أن النفس التى لاضابط لها نفس متفككة خاوية ، وأنها من أجل ذلك خليقة أن تتهالك وتستخذي فى إبان سرورها وانتشائها ، كأنها تنفر من ضعفها وتتقزز من خوائها . فرجعت النفوس تتمرد على التمرد ، وتتمثل طريقها الى الايمان والمثل العليا

واذا قصرنا القول على الجانب السياسى فقد تحقق شطر من أغراض الحرب الماضية وهو تقرير المصير فى أمم كثيرة ، وبقى شطر فى انتظار التحقيق وهو انصاف الاقوام الصغيرة أو الاقليات ، واتمام التعاون « عملا » بين الحكومات

فما هى أغراض الحرب الحاضرة ؟

أولى من سؤالنا عن أغراضها أن نسأل عن أسبابها

فاذا سألنا عن تلك الأسباب ظهر لنا الماركسيون والماديون بأسبابهم التي لا يعرفون غيرها ، وخلاصتها المضحكة أن الدول قد انفقت ألوف الألوف من

ربوات الدنانير للوصول الى عشرمعشار هذا المقدار، وهى لاتثق من هذا المكسب كما وثقت كل الثقة من ذلك الخسار

والماركسيون أو الماديون أول من يجهل أن « الدينار » ليس بشيء فى ذاته، وأنه لا يصبح شيئا إلا حين يمثل حاجات النفوس والأجسام، ومنها الغلب والزهو وإرضاء الأوهام والخيالات

وقد أحصيت أسباب شتى للحرب الحاضرة غير أسباب الماركسيين والماديين وهى الخوف من الحرب واتخاذ الحيطة لها، وفقدان المثل العليا والأصول الاخلاقية التى لااستقرار للنفوس مع فقدانها، والتفاوت بين الامم فى طبقات الحضارة ونظم الاجتماع. فان التفاوت يمنع التعامل بقسطاس واحد، ومتى تعددت أساليب المعاملة صعب التوفيق ونجمت أسباب الخلاف

إلا أن هذه الاسباب جميعاً تنطوى فى السبب الأكبر الذى تتلاقى عنده، ولا قبل لنا باستيعابها فى تفصيلها إلا اذا استوعبناه فى جملته، ثم رددناها اليه

ذلك السبب الأكبر هو افتراق الطريقين بين الماضى والمستقبل، فان العالم اليوم حائر بين ماضيه ومصيره، فلا هو قد فرغ من الماضى بتةً ولا هو قد وصل الى تقرير المستقبل وتوطيده والاتفاق عليه

ماض لا رجعة له، ومستقبل لم يأت بعد، وقد آذن فى عصرنا بالظهور:
فى الماضى كانت السياسة تقوم على أساس العصبيات وتُكثر منها مااستطاعت لتعتز بناصرها: بين عصبية وطنٍ وعصبية جنس وعصبية لغة وعصبية دين، وعصبية موقع ومصلحة

وفى المستقبل يضيق العالم بهذه العصبيات، لأنه يتسع ويتقارب بمواصلاته، وكلما اتسع وتقارب اشتبكت مصالحه ومشار به وتعذر على الامة أن تنعزل فيه، واستحال أن يحكمه قوى واحد وأن يتفق على تقسيمه أقوياء متحاربون،

واستحال أن يُهمَل فيه شأن الضعفاء ، فلا غنى فيه عن التفاهم والتعاون ، وأن ينسحق فيه القوى الذى لا يأخذ خصومه الأقوياء والضعفاء بغير السلاح

فلا مناص إذن فى الغد المنظور من قيام السياسة على أساس العلاقات العالمية المشتركة ، حتى فى الأمور التى كانت تستأثر بها كل دولة وتأبى أشد الاباء أن تشاركها الدول الأخرى فى كثير أو قليل منها ، كالعملة والجيش والسياسة الخارجية ، والمصطلحات الاجتماعية

فهذه المسائل كانت معدودة فى شريعة العصبيات القديمة عنوان السيادة القومية التى يستقل بها كل قوم عن سائر الأقوام

فأصبحنا فى مسألة العملة نرى كثيرا من الأمم ترتبط بنظام واحد وترجع إلى ثقة واحدة ، ولا تملك أمة واحدة أن تستقل بعملتها عن سائر الأمم

وأصبحنا فى مسألة الجيش نرى فرنسا تشير على انجلترا بنظام التجنيد فتقبل اشارتها ، ونرى أسطولا فرنسيا بقيادة انجليز ، وجيشا انجليزيا بقيادة فرنسيين ، ونرى نحن المصريين اننا نقبل الجيوش الأجنبية فى أرضنا ونعتبر اقامتها بيننا أثناء الحرب تنفيذاً لاتفاق محمود مرغوب فيه

وأصبحنا فى السياسة الخارجية نرى المذكرة الواحدة تكتب وتدرس فى دواوين أمم كثيرة قبل انفاذها ، ونرى اللجان « المختلطة » تحل محل الوزراء المنفردين فى كل دولة

وبلغ من اشتراك اللجان ومجالس الحرب فى جميع الشئون أنها لم تترك عملا واحدا تنفرد به السيادة القومية على النحو القديم

فهذا عالم جديد ، وهذه أحوال جديدة ، وهذه طلائع للمستقبل لابد أن تبلغ تمامها ، ولما تبلغه بعد

ومن ثمة هذا التقلقل ، وهذه المحاولات ، وهذه التجارب ، تارة فى ميادين

السياسه وتارة فى ميادين التجارة ، وتارة فى ميادين القتال

وما من عبث ولا مصادفة قد انقسم المعسكران المتقاتلان اليوم هذا الانقسام معسكر ألمانيا وأصحابها الظاهرين والمستترين ، ومعسكر بريطانيا العظمى ومن معها من الحلفاء والأصدقاء

بل هما يمثلان فى انقسامهما عالم العصبيات من جهه ، وعالم المشاركة العالمية من جهة أخرى

فها هى ذى ألمانيا تحمل راية العصبية الجنسية باسم الآرية أو باسم الأقوام الشمالية ، وفى صفها أو من خلفها الروسيا الشيوعية وهى التى تحمل راية التعصب للطبقة العاملة وتسميها سيادة الصعاليك

وها هى ذى بريطانيا العظمى تحمل راية المشاركة العالمية وتقوم على التساند بين شعوب كثيرة داخل الامبراطورية وخارجها ، قد اتصلت كلها بالمحالفات والمعاهدات والدساتير التى تساعد على المعاونة ولا تمنع الاستقلال ولا تجور على الحقوق الوطنية ، فليست كندا ولا استراليا ولا أفريقيا الجنوبية أقل استقلالا فى اعلان الحرب من انجلترا نفسها . . . أما خارج الأمبراطورية فهناك فرنسا وتركيا ومصر على اختلاف الأجناس واللغات والعقائد تتعاون وتتفق فى الغاية اتفاق الأنداد ، الذين لاينوون البغى على أحد من الأحرار ، باسم تعظيم جنس حاضر أو إحياء دولة غابرة

ففى أحد المعسكرين نموذج صغير للعالم البائد عالم العصبيات والعداوات والمشاكسات ، وقوامه جماعة النازيين

وفى المعسكر المقابل له نموذج صغير للعالم المقبل عالم التعاون على تحقيق المشاركة الدنيوية فى غير تعطيل للسيادة القومية ، وقوامه جماعة الحلفاء

و بين هذين النموذجين، أو هذين المعسكرين ، سر الحرب العظيم الذى تندمج

فيه الأسرار كافة ، وسببها الأكبر الذى تتفرع منه الأسباب النفسية والفكرية والاجتماعية والتجارية قاطبة . وتلك هى قضية الغد التى نترقب الفصل فيها بعد الحرب الحاضرة ، ولا يعنى الفصل فيها أحـدا من بنى الانسان كما يعنى الأمم العزلاء

* * *

ومن التغرير بالآمال أن نتخيل أن المشاركة العالمية حاصلةٌ فى بكرة المدنة بعد الحرب الحـاضرة ، وان الدول سترمى السلاح بيـدٍ وتقيم حق العـالم باليد الأخرى . فالعافية درجات كما يقولون فى حـكمة العامة ، وأمثـال هذه الآمال الـكبار لاتسرع إلى التمام فى اللحظات القصار ، وحسبنا أن نعرف اتجاه آمالنا وأن نتوخاه فى أعمالنا فنطمئن إذن إلى كل خطوة نخطوها ، وننزع عن عقولنا حيرة السالك فى مفازة لا معلم فى أرضها ولا قطب فى سمائها . ونثوب إلى الايمان فى السياسة ، فنصيب صواب المؤمنين ونخطىء خطأ المؤمنين ، ولا نقذف بأنفسنا فى تيار الحوادث يجرفنا إلى حيث شاء ، ويمضى بنا من حيث لاندرى إلى حيث لاندرى . كأننا خشبة من حطام لادفة لها ولا شراع

ليست هذه الحرب نهاية الحروب، وليس المهم أن تنتهى الحرب بعـد أمد قريب أو بعيد

وانما المهم ان نفصل بين بطولة الحرب واجرامها بفاصل يميزه الناس كما يميزون موت الشرطى فى سبيل الحق من موت اللص على مشنقة القصاص ، وأن تكون للعالم شريعة يدين بها الخارجين عليه كما كانت لكل أمة شريعة تدين بها من يخرج عليها

وقد يمضى زمن قبل أن يُشنق رئيس أمة باغية جزاء له على اضرام الحرب فى سبيل شهواته وخيالاته ، ولكنه إذا أصبح فى أعين الناس مستحقا للشنق

فوصول الحبل إلى عنقه وتقصيره عن الوصول اليـه سيان فى حـكم الآداب والأخلاق

وستبقى القوة والضعف بعد الحرب الحاضرة، وتبقى بعد جميـع الحروب المقبلة، سواء نشبت فى سبيل الفتوح والمغـامرات أو نشبت فى سبيـل العـدل والأمان

فلن يأتى فى تاريخ العالم يوم تصبح فيه القوة هى الضعف و يصبح فيـه الضعف هو القوة: ذلك الغاء لمعنى الـكلمات فضلا عن الغائه لحقائق الأشيـاء

ولكن القوة ضروب .

فاللص الذى يقطع الطريق و يزهق فرائسه المنهزمين قوىٌ يعتمد على قوته .

والسيد السريّ الذى يطمع فى حق الضعيف فيبذل المال فى إرضاء المحامين والشهود وتضليل القضاء ونقض الشريعة قوىٌ يعتمد على قوته

إلا أننا لانعرف عاقلا على الرغم من هذا يقول: الغوا القضـاء وأبيحوا قطع الطريق لأن القوى والضعيف لايتساويان، أو ينكر أن نصوص الشريعة وانظمة القضاء مكسب انسانى يغار عليه المظلوم وان لم يبلغ منه مايروم

فمن قال ان الحرب الحاضرة تسوّي بين القوى والضعيف فهو خادع أو مخدوع، ولـكنها إذا استطاعت فى عالم السيـاسة الدوليـة أن تفرّق بين قوة اللص الخارج على الجماعة وقوة السري الممتّز بمنزلته فى أمته فقد — استطاعت الشيء الـكثير، وتركت بقية للمستقبل عسى أن تتحقق فى زمن يسير

* * *

كيف تتأدى الحرب الحاضرة إلى هذه الغاية ؟

الرأى عندى أبداً هو أن العقيدة سابقة للنظام كما أن الوظيفة سابقة للعضو فى اصطلاح علماء الاحياء

فهل وجد فى الدنيا شىء يسمى « الحق العالمى » وشىء يسمى « الجريمة العالمية » ؟

هل ينظر العالم إلى من يزعج سلامه و يستهين بتراث الآداب فيه نظرته إلى مجرم مأفون أو نظرته إلى بطل جليل ؟

ذلك هو السؤال !

فاذا كان « الحق العالمى» قد وُجد بيننا ، بل إذا كانت الرغبة فى وجوده قد غلبت على نفوسنا ، فالنظام الذى يتولى الانفاذ والاجراء بالمرتبة الثانية بعد هذه المرتبة الأولى !

والذى أعتقده جازما لا أشك فيه ان تقرير الحق العالمى واجب ، و إننا اليوم فى مقام المشترع الذى يريد أن يقرّر بالنصوص حقوقا مرغوبا فيها وجرائم مغضوبا عليها ، و إننا فى أوانها وفى فرصتها الكبرى ؛ فينبغى أن نضن بها على الضياع

و يأتى بعد ذلك دور « النظام » الذى يتكفل بالانفاذ والاجراء ، فماذا عسى أن يكون هذا النظام ؟

إن الفروض والمقترحات فى هذا الباب لا تقتصر على المثاليين والخياليين ، فان أناسامن المسؤلين فى السياسة كالمسيو بريان قد عرضوا على سبع وعشرين دولة أن يفكروا فى تأسيس « اتحاد » كالاتحاد الأمريكى أو السويسرى أوالأسترالى على نحو من الأنحاء ، قبل نشوب الحرب الحاضرة بعشر سنوات

وقد سبقه ولحق به مفكرون من الأدباء والحكماء ذهبوا إلى توحيد الوزارات وتوحيد المجالس النيابية وتقسيم الكراسى فيها بين الأعضاء على قواعد يؤثرونها و يحسبونها وافية بالقصد قابلة للانفاذ

و يغلب على الظن أن إنشاء هذا الاتحاد غير ميسور وغير لازم فى الجيل

الذى نحن فيـــه ، لأن الاتفاق على أساس الانتخاب عسير . فهل نعتمد فى الانتخاب على العدد ؟ أو نعتمد فيه على طبقة الحضارة ؟ لا هذا ولا ذاك مما يسهل الاتفاق عليه

إلا أن الاتجاه مع ذلك مرسوم

والخطوات الأولى فى هـــذا الاتجاه تغرى بخطوات تالية لا تُخشى عاقبةُ المضى فيها

وأسهل من إنشاء الحكومة العالمية فيما نرى توجيه الجهود إلى إنشاء سوق عالمية للخامات ، وسوق عالميه للمصنوعات ، وأن يكون الاصدار والايراد بين هذه وتلك بمقدار متفق عليه ، على مثال الاتفاق الذى تلاحظه الدول فى زرع الحبوب والأعشاب التى تدخل فى سموم المخدرات

وليس من الضرورى أن يتوحد مكان هذه السوق أو تتوحد مصادر التصدير والتوريد . إذ يكفى أن يتوحد مكتب التسجيل والاحصاء حيث كان الانتاج والتوزيع ، ليعرف الطالب من أين يطلب والبائع لمن يبيع . وخليقٌ بالعالم الذى تتصل فيـه شرايين الأثير والكهرباء بين تليفون وتلغراف ومذياع أن يهدما كان عصيا من هذا المطلب قبل سنين

* * *

ولا يخلو من الطرافة أو من الأهمية أن نشير هنا إلى اقتراح الزعيم الألمانى الذى يرشحه الكثيرون لرئاسة الحكومة الديمقراطية فى ألمانيا بعـد هزيمة هتلر وسقوط نظامه ، ونعنى به أوتو شتراسر Otto Strasser شقيق جريجور شتراسر ومساعده فى إنشاء حزب النازى بأقاليم ألمانيا الشمالية ، وقد كان جريجور صديقا لهتلر وكان هتلر أباً لولديه التوأمين فى العماد . ثم انفصلا. فأرسل إليه هتلر نفرا من أعوانه فأخذوه من بيته وهو بين زوجه وأبنائه وقتلوه ركلا بالأقدام

لكنّ هتلر لم يسترح من أوتو كما استراح من جريجور ، ولا يزال يخشاه ويتهمه بكل مكيدة تصيبه أو تصيب نظامه

ورأى « أوتو شتراسر » فى علاج مشكلة التجارة العالمية وما تنطوى عليه من مشكلة المستعمرات أن تؤلف لها شركة كبرى تدور فيها الأعمال على أساس المعاملات المالية التى لا تحتاج إلى مداخلة من الساسة أو الجيوش

ورأيه الذى أبداه لمكافحة الحرب قبل بضع سنوات أن تنصف الدول ألمانيا وتقضى على سيطرة بروسيا قضاءً لاتقوم لها من بعده قائمة ، وعنده أن تقويض بروسيا لا يتأتى بغير تقويض السادة البروسيين الذين يحتكرون الضياع الواسعة ويعيشون فيها عيشه الطغاة ولا يأذنون لحكومة فى ألمانيا أن تستقر وتهدأ فى أماكنها ما لم تقم على أركان الطغيان والعتو والعدوان

وفى هذا الرأى هو ولاشك مصيب ومخلص لوطنه وللعالم .. فما تأتى المصائب لألمانيا ولا للامم المبتلاة بطغيانها إلا من قبل أولئك « السادة » البروسيين

* * *

على أن التفكير فى حرب الدول لا يغنى عن التفكير فى حرب الطبقات ، إذ ربما نجمت الحرب الدولية من جرائر النزاع بين طبقة وطبقة فى أمة واحدة ، أو أمم عديدة

والرأى اليقين فى هذا الصدد أنّ حرب الطبقات لن تهدأ بتغليب طبقة ولا باستنزاف طبقة ، سواء كانت هى طبقة الأغنياء أو طبقة الصعاليك ، وإنما تهدأ بالتعاون القومي والتنافس الشريف ، وتبقى الطبقات باقية ، ما بقيت الحياة ، إذ ليس السر الكامن وراءها سر « النقود » كما فهم كارل ماركس وأشياعه ، ولكنه هو سر الحياة الذى يقضى بتعدد القيم وتعدد المساعى وتعدد الكفاءات والأذواق واللبانات

وخير ما تعالج به مشكلاتها أن تتوسع الأمم فى نظام « الجماعات التعاونية » فلا يستفيد « رأس المال » شيئا إلا كان مردّه إلى المشترين ، وأن تتوسع فى نظام المشاركة بين العامل وأصحاب العمل فيصبح للعامل نصيب فى ربح عمله ، وترجع الدولة إلى ما فاض من ربح يتجاوز المعقول فتأخذ منه حصةً للضريبة التى تفيد الجماعة كلها ، وتعين الفقراء منها قبل الأغنياء

لا نقول إننا وفينا الكلام فى الاصلاح السياسى أو الاصلاح الاجتماعى بما قدمناه ، فليست توفية الكلام فى ذلك من مطالب هذا الكتاب

ولا نقول إن حلاً من الحلول السياسية والاجتماعية كائنا ما كان سيفض مشكلة الحياة بين الأمم والأفراد . فمشكلة الحياة لا تفض ، ومطالبها لا تنتهى ، وقصاراها أن

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

فان الحياة التى لا تواجه كل يوم كشفا جديدا وتسعى كلّ يوم إلى مجهول جديد لهى حياة فقراء جدباء لا تستحق أن تعاش

ولكننا نقول إننا أشرنا إلى وجهة الهداية ، وإننا إذا مضينا فى هذه الوجهة على هداها فقد بلغنا شوطنا ، وأبرأنا ذمة أمسنا إلى غدنا ، ولم نكن — نحن أبناء العصر الحاضر — سدًّا يعوق طريق العصر المقبل ، أو غيهبا ينحرف به عن مسراه

مصر

اجتمع مجلس النواب المصرى فى بداية دوز انعقاده بعد اتفاق ميونيخ بنحو شهرين ، ودارت فيه - لمناسبة الرد على خطاب العرش - مناقشات عدة عن علاقة مصر بالحالة الدولية فى أوربا وغيرها من الأمم الأجنبية ، وكنت مقررا للجنة الرد على خطاب العرش ، فأجبت على الملاحظات التى أبديت فى هذا الصدد بما يلى : (١)

. . . . « سمعنا كلاما متعددا عن مادة الطوارىء فى المعاهدة وما عسى أن تجرنا إليه من مشكلات لا شأن لنا بها . فمن المتفق عليه — ولا شك — بين جميع المصريين أن مصر لا ينبغى أن تدخل حربا يمكنها اجتنابها . ولكن ماهى هذه الحرب التى يمكننا اجتنابها ؟ . . .

أخشى ياحضرات النواب المحترمين أن يُفهم من هذا أننا نقيس الأخطار من حيث قربها أو بعدها بالمقياس الجغرافى . . . أو بمقياس الأيام والساعات ! . . فالفرق عظيم جدا بين منشأ الحادثة و بين النتائج التى تؤدى اليها ، ومثال ذلك قريب الينا من الحرب العظمى . فبلدة سيراجيفو بعيدة كل البعد من الولايات المتحدة ، بعيدة كل البعد من اليابان ، ولكنّ حادثاً واحدا وقع فيها كان كافيا لأن يزج بكلتا الدولتين فى حرب يظهر لأول وهلة أنه ليس بينها و بينهما شأن كبير . أما نحن فقد وصلت الينا فقلبت تاريخنا وغيرت نظام الحكم عندنا

(١) مضبطة الجلسة الثالثة عشرة (٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨)

وأنشأت لنا تاريخا آخر غير ما كان يسير اليـــه مجرى الحوادث لو لم تقع هذه المأساة فى سيراجيفو ، وهذا مثل بسيط يمكن أن يتكرر فى كل حادث

« قيل ان أعداء بريطانيا العظمى كثير ، وهذا صحيح . ولكن يجب أن نذكر أن أعداء بريطانيا العظمى لايحاربونها ليحتلوا لندن ولا لينتزعوا ليفربول ولـكنهم يحاربونها ليحتلوا مصر وأشباه مصر . فالخطر متجه الينا على كل حال ، وإذا انفردنا باخطارنا فليس معنى ذلك أنها تنقص بل لعلها تزيد ، ولست أعنى بهذا إلا أن نعرف الحقيقة على جليتها لأن من يتوهم أن الخطر بعيد وهو قريب منه يوشك أن يقع فيه »

وبعد كلام عن ميناء اسكندرية وقناة السويس قلت فى الرد على بعض حضرات الأعضاء ممن يرون الحد من الحرية الفردية .

« يريد . . . أن يفنى الفرد فى المجموع أو فى الدولة ، ولا يجوز أن أفهم من ذلك أنه يريد اقامة حكم نازي أو فاشيستي فى مصر ، ولـكن يجوز لى أن أقول إن فناء الفرد فى الدولة شىء لا تعرفه الديمقراطية

« فالديمقراطيـة تعطي الفرد أقصى ما يستطاع من الحقوق ، ومعلومٌ أن الغرض الأكبر من التقدم الانسانى هو حرية الفرد قبل كل شىء ، وان التفاضل بين أمة وأخرى إنما هو فى الأمة التى يتمتع فيها الفرد بحقوق الأحرار ، وليس فى مصر من يرى فرقا بين رجل يستعبده أحدٌ من قومه سواء كان زعيما أو غير زعيم وبين رجل يستعبده حاكم أجنبي . هذا وهذا سواء عندنا على كل حال . لأننا نريد أن نكون أحرارا إزاء كل حاكم سواء كان وطنيا أو أجنبيا

ثم قلت :

« ان القوة العسكرية يا حضرات النواب المحترمين ليست هى مقياس الحضارة لأنها قد تكون ضرورية للوصول إلى غرض معلوم أو موقوت ، ولم يقل

أحد من الناس أنها هى مقياس الحضارة ، أو أن ترقّ الجنس الانسانى انما كان بمقدار كفاءة الأمة فى انشاء الجيوش . فأتيلا وهولاكو مثلا كان لهما جيش يعتبر من أقوى جيوش العالم . انما مقياس الرقى والتقدم الانسانى هو شىء واحد : وهو الأنتاج العقلى ونبوغ العلماء والمفكرين والفنانين والمثقفين

فلنرجع إلى حالة البلاد التى أخذت بالنظام الدكتاتورى لنرى حالتها من ناحية الانتاج العقلى . أقول مع الأسف أن كل أمة أخذت بهذا النظام ضاعت فيها الحرية الفردية فركد فيها الانتاج العقلى ركودا تاما ولم يظهر فيها فى السنوات العشر الأخيرة عالم أو نابغ أو كاتب مشهور

[redacted]

تلجأ إلى الحكم الدكتاتورى ؟ إنها لو استطاعت أن تكون قوية كانجلترا لما فعلت ذلك . فهى واقعة فى حكم الضرورة القاسية ، والاضطرار لا يتخذ مقياسا لمجرى الحياة العامة . ثم من أين لنا إذا انشأنا دكتاتورية أن تكون مثل المانيا ؟ لماذا نقابل أنفسنا بالمانيا وانجلترا ولا نقابل أنفسنا بمن هم أمثالنا ؟ لماذا لانقول أن ديكتاتوريتنا فى هذه الحالة تصبح كالدكتاتورية فى دول أمريكا الجنوبية ؟ ولماذا لا نقول إنها تكون مجالا للنهب والسلب واظهار أحط الشهوات ؟ إن المعروف عن معظم الدكتاتورين أنهم لا يطمعون فى مال ، فمعروف عن هتلر وموسوليني وستالين أنهم يعملون بلا أجر . فمن أين لنا الا يقيض الله لنا فى مصر لصاً باسم دكتاتور »

* * *

هذا الخطاب الذى أُلقى فى مجلس النواب قبل الحرب الحاضرة بتسعة شهور يلخص جملة الآراء التى وردت فى هذا الكتاب

ولم يتغير الموقف بعد قيام الحرب الأوربية الحاضرة ، بل اقترب من الظهور والتوكيد كما تقترب الصورة التى كانت بعيدة ثم أخذت تتدانى وتتعرض للضياء

فمصر لا تستهدف للطوارىء والأخطار وحدها فى الحرب الحاضرة أو فى الأزمات الدولية التى تليها ، ولكنها تستهدف لها مع غيرها

ولهذا كان من السداد والانصاف ألا تنوء وحدها باعباء الدفاع عن نفسها والاستعداد للطوارىء والأخطار التى قد تكتنفها وتكتنف غيرها

وهى لو أرادت ذلك لما أطاقته ولا أطاقت بعضه

لأنها تحتاج إلى مئات الألوف من الجند يحمون حدودها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ويحرسون مواقعها الأخرى فى إبان السلم . وتحتاج إلى أضعافهم فى إبان

الطوارىء والحرب الواقعة ، و إلى أسطول ضخم يحرس تجارتها فى البحار القريبة ، و إلى مصانع للسـلاح مستوفاة كل الأستيفاء على اتصال دائم بينها و بين موارد المعادن والخامات

وما دام الخطر على مصر لا يصيبها وحدها فمن الظلم أن تنوء وحدها بدفعه فى جميع الحالات

حسبها أن تقوى على دفعه حتى توافيها قوة حلفائهـا ، ثم تـكون قادرة على المساهمة بالنصيب النافع فى ترجيح الـكفتين ، ولا تظل عالة على كواهل الأصدقاء ، مهملة فى حساب الاعداء

وليست مصر بدعا فى هذه السنة . لأنها السنة التى تجرى عليها الدول كبيرها وصغيرها . فلا تنفرد واحدة منها فى ميدان السياسة أو الحرب كائنا ما كان حظها من العدد والعدة والثراء

فلابد لمصر من صف تقف فيه

فأى الصفين أكرم لها وأصون لمصيرها وأدنى الى مقدورها ؟

أتدخل صفا يشترك داخلوه فى العدوان ؟

أو صفا يشترك داخلوه فى دفع العدوان أيا كان السبب : للشبع أو للضرورة أو لحب الحرية والسلام ؟

أما أن تدخل صفا تشترك فيه مع المعتدين فلا حاجة لها به ولا إمكان ولا أمان : لأنها لم تتطلع قط الى بلد تعتدي عليـه ، وان تأمن أن يعتـدي عليها من يخرجون للعدوان على الناس ، وهى فى طليعة المقصودين المهددين

فليس لمصر مكان أكرم من تأييد الديمقراطية ومبادىء التفاهم بين الشعوب والإيمان بقداسة المواثيق والعهود

ومن كرامة مصر أن تخرج الديمقراطية من الحرب الحاضرة قوية قادرة على الثبات فى ميادين السياسة العالمية ، لأننا عائدون لامحالة الى القلاقل والمطامع والعجز عن التعمير والى انفاق الأموال فيما يضيع ولا يفيد اذا بقيت الدول الباغية قادرة على التهديد والارهاب ، غير هيابة ولا مترددة أمام بأس الخصوم

ذلك أكرم الطريقين وأسلم الخيرتين . بل هى الخيرة الوحيدة التى يملكها العقل وهو حر طليق

* * *

أما العبرة لنا نحن المصريين من موضوع هذا الكتاب الأول وهو تقويم هتلر ووزن مزاياه بالميزان الوحيد الفارق بين الانسانية والوحشية فهي اجتناب الغلو فى استعظام أعماله وأعمال أمثاله ؛ لأن استعظام القدرة على مثل تلك الاعمال قد يسوق الى الاعجاب الخاطىء ؛ والاعجاب الخاطىء قد يسوق الى قبول مايستنكر ولايجمل بضمائر الاحرار

وعبرة أخرى هى اليقظة للدعوات التى من قبيل الدعوة الهتلرية كلما ظهر لها مروجون فى السياسة المصرية . فقد يخطر على البال أن الهوادة مع هؤلاء المروجين لن تضيرنا عاجلا ولا آجلا لأن الخطر الكبير لن يأتى الا من رأس كبير أو طبيعة غلابة أو رجل نادر بين عظماء الرجال . فاذا عرفنا حقيقة هتلر وعرفنا أن رجلا متهم العقل متهم الضمير مقسّم الرأى والهوى بين الجنون والاجرام أملت له الظروف والمصادفات فصنع ماصنع واقترف مااقترف لم ننتظر بمن يحملون عود الثقاب حتى يتاح لهم مخزن البارود المستور ، ولم نجعل الحذر رهينا بالحريق دون عود الثقاب ، أو بكبار الرجال من ذى الملكات العليا دون الأوساط ومن هم أقل من الاوساط . فان الشر لعلى قدر المكان الذى يتبوأه الشرير ، وان المكان

الذى يتبوأه الشرير لقد ترفعه اليه المصادفات ولا يشترط فى كل حال أن ترفعه اليه عظمة واقتدار

***

والعبرة الكبرى فوق كل عبرة وبعد كل عبرة هى أن نصحح مقاييسنا للحوادث والرجال. فان الانسان يطلب جودة النظر لأنها جودة النظر ، قبل أن يطلبها لما تجزيه من نفع أو وقاية ، ولا يزال يطلبها ويحرص عليها ولو استغنى عن المنافع والوقايات

كلمة ختـام

نختم هذه الصفحات وهتلر ماضٍ فى مغامرته الجديدة التى يقامر فيها بأرواح الملايين وهولا يبالي مصير ضحاياه

ونعنى بمغامرته الجديدة هجومه المنيف على شمال فرنسا من طريق هولندة وبلجيكا وامارة لـكسمبرج ، وفاقا لخطـة عسكرية عجيبة . . . يعتمد فيها كايقول جورينج على الوحى والآراء الثورية ولايعتمد على أصول الحرب المعهودة ولا على آراء الخبراء من العسكريين .

وكل « وحي » يدعيه هتلر فانما هو فى حقيقته تجربة فجائية قوامها المعارف المشتتة ، والمقامرة الجامحة ، والاعتماد على الخيانة والتقصير فى موضع من المواضع

وربما كانت خيانه الآخرين أقوى الدعائم التى يعتمد عليها فى مغامراته ، لأن هذا المخلوق الموكوس لم يثق قط بفضيلة من فضائل الانسان بعض ثقته التى لا حد لها بالسفالة الانسانية والغفلة الانسانية . ومن هنا تلك الدعوة التى يستغفل بها الناس وتلك الأموال التىيشترى بها ضمائر الناس . بل تلك الضراوة الوحشية التى يثيرها فى نفوس أتباعه بالتحريض والتلقين ، ولاتعد من الشجاعة أونبل الأخلاق لانها انتكاس إلى غرائز السباع . . . إلا إذا عُدَّت ضراوة السباعضربا من الخلق النبيل

أما المعارف المشتتة هنا فهى خطة الـكونت شليفن ، وخطة جورينج المعدلة

لها بعض التعديل ، وتقريرات الضباط الذين شهدوا الفتنة الأسبانية وغارة النرويج

فخطة الكونت شليفن هى الخطة التى وضعها هذا القائد الكبير يوم إن قام برئاسة أركان الحرب فى بروسيا من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٩٠٦ و بناها على طريقة هانيبال فى معركة كانيا Cannae حيث هجم هجومه المنيف بكل ما عنده من الفرسان على جناح العدو ثم اغرى الجناح الآخر منه بالتقدم إلى حيث استهدف للتطويق السريع .

وكان شليفن ينوى توجيه ثلاثة أرباع الجيش الألمانى — أى توجيه ثلاث وخمسين فرقة من اثنتين وسبعين — فى جناحه الأيمن إلى حدود هولندة و بلجيكا ثم الأرض الفرنسية على الشاطىء إلى العاصمة الفرنسية ، وأن يزوّد هذا الجناح الأيمن بأكبر ماعند الألمان من المدافع الضخام التى استكثروامنها كل الاستكثار . فلا تنقضي ، على تقديره ، ستة أسابيع حتى تنقضّ هذه القوة الجائحة على باريس .

وقد أوشكت خطته أن تنفذ فى الحرب الماضية لولا ان القائدين مولتكه الصغير وفون كلوك خالفاها فى عدة أمور ، فأهملا الهجوم على هولندة وأضعفا الجناح الأيمن بما سحباه من فيالقه القوية لتعزيز الجيش الألمانى فى الشرق وتعزيز الجناح الأيسر فى اللورين . ثم وقع الخطأ فى الزحف إلى الجنوب فلم يجر على النحو الذى قدره صاحب الخطة من الاسراع والاحكام .

ولبث الألمان يتغنون بهذه الخطة ويعتقدون أنها صالحة للتنفيذ فى تجربة أخرى ، لأن الفشل الذى أصابها إنما عرض لها من خطأ الآخرين وليس من خطأ فيها أو فى القواعد التى قامت عليها .

وقد ذكرها هتلر فى كتابه فقال ما فحواه ان فن الحرب يتلخص فى مفاجأة العدو الأكبر بالمدد الأكبر ، والاستبسال فى الهجوم عليه .

ثم عدّل جورينج خطة شليفن بتعديل الأسلحة لا بتعديل القواعد والطريقة . فاعتمد على الدبابات والمركبات المصفحة والطيارات بدلا من الاعتماد على الأسلحة القديمة التي كان عليها المعول كله فى أوائل القرن العشرين . وسميت خطة جورينج بخطة كانيا Cannae الثالثة لأنه نظر فيها كما نظر شليفن من قبله إلى أساليب هانيبال[1] .

أما التقريرات الحديثة التي كتبها الضباط والخبراء الذين شهدوا الفتنة الأسبانية والغارة على النرويج فأ كثر ما تدور على أساليب الفصائل المتفرقة فى الجبال وأساليب الجنود التى تهبط بالمظلات الواقية وتعيث وراء الخطوط لتعطيل المواصلات واقلاق السكان وازعاج المقاتلين من وراء الصفوف .

وهذا كله لم يكن ليغني شيئاً اولا دسائس الجيوش الخامسة أو جيوش الجواسيس والدعاة المستترين الذين يكلفون الخزانة النازية ملايين الجنيهات فى كل سنة وينبثون فى البلاد المعتدى عليها لينتقضوا عليها فى أحرج الأوقات . فلولا التقصير فى نسف القناطر على نهر الموز مثلا لانتهت هذه الخطط جميعاً قبل أن توغل فى دور الابتداء .

وقد وقع تقصير ، ولا شك ، فى عدة الدفاع لا نعلم الآن ما حقيقته ومن المسئولون عنه ، ولعل الحكومة الفرنسية تكشف النقاب عنه قريبا كما وعد المسيو بول رينو رئيس الوزراء

إلا أن الأمر فيما عدا هذا التقصير ليس من السهولة والبساطة بحيث يبدو للمتعجلين والمستغربين والناصحين وأيديهم فى الماء للعاملين وأيديهم فى النار !

---

(١) كتاب هتلر على أوربا لمؤلفه ارنست هنري .

Hitler over Europe by Ernest Henré

فهم يسألون : لم لم يتخذ الحلفاء كل حيطتهم فى الثغرة الضعيفة على حدودهم مادامت للهجوم خطط معروفة وتقديرات لاتعزب عن البال ، ولا سيما بال القواد المحنكين ؟

وهو سؤال يبدو وجيها عصيّ الجواب لولا أن سائليه قد غفلوا عن كثير من الحقائق التى لا تقل فى ثبوتها و بداهتها عن خطط الهجوم فى تقديرات النازيين

فأول ماهنالك أن وجود خطة حربية فى دولة من الدول لا يستلزم وقوع الاختيار عليها فى اللحظة الأخيرة ، ولا أن تنفذ بجملتها وتفصيلاتها عند وقوع الاختيار عليها

فقد يلجأ أركان الحرب إلى خطة أخرى يفضلونها على جميع الخطط المرسومة، وقد يلجأون إلى الخطة بعينها مع التعديل فى بعض أجزائها كما فعل مولتكه وكلوك فى الحرب الماضية

ولا يجب أن ننسى أن النازيين يستبيحون العدوان على حيدة البلدان المستقلة كهولندة و بلجيكا ولكسمبورج والدنمرك والنرويج ولا يستبيحه الديمقراطيون فى حربهم مع النازيين و إلا أسقطوا حجتهم وألحقوا قضيتهم بقضية المعتدين ، ومهما يقل القائلون فى الحجج الأدبية فهى شيء يكسب به الديمقراطيون ويخسر به النازيون ، وقد يكون له النفع أكبر النفع عند النظر فى شروط السلام ومغارم التعويض

ومتى كان النازيون متروكين أحرارا فى تدبير خطط العدوان وأوقات العدوان وفرائس العدوان - ففي وسعهم أن يوجهوا ثلاثة أرباع جيشهم إلى حيث شاءوا حين يشاءون . وليس فى وسع الحلفاء أن يضعوا ثلاثة أرباع جيشهم فى كل مكان وفى كل حين . ولعلهم اذ يختارون نقطة الدفاع مصيبين أو مخطئين أن ينبهوا أعداءهم إلى تعديل ما اعتزموه فى الوقت الأخير

هذا إلى أن هتلر يستطيع أن يجازف بأرواح الألوف ومئات الألوف من جنوده وهو لا يبالى بالمصير، لأنه غير مسؤل ولا متحرج كما هو دأب المغامرين والمقامرين. أما القادة المسؤلون فهم أبعد ما يكونون عن المجازفة بالأرواح والنجاة من الحساب. وليس من أساليبهم أن يطرحوا كل ما عندهم على مائدة القمار فى سبيل الغنى الكامل أو فى سبيل الافلاس

ويضاف إلى هذا وذاك مزية أخرى لاحيلة للحلفاء فيها: وهى وحدة القيادة عند الألمان وتفرقها عند الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين والانجليز. فطالما تعب الساسة الانجليز والفرنسيون وهم يقترحون على الأمم الصغيرة أن تعاونهم ويعاونوها فى تحضير خطط الدفاع وهي تعتصم بالحيدة وتحسب أنها عصمة تغنيها عن الحلفاء والأعوان. فلما هجم الألمان على هولندة و بلجيكا كانوا يعرفون مواقعهم وغاياتهم جملة وتفصيلاً وكان على الحلفاء أن يصلوا أولا إلى الميادين ثم ينظروا فى توجيه الجيوش المختلفة هنا وهنا على حسب الطوارىء من مقتضيات كل ساعة وكل حركة، ومنها أهواء رؤساء البلاد

وتلك مزية تحسب للنازيين فى ميزان الحرب، وإن كانت تحسب للحلفاء فى ميزان السياسة والقانون

ومزية أخرى لاتقل عن هذه المزية هى ارتجال الخطط التى لا يعول عليها أصحاب الأصول والقواعد المرعية فى الحروب. فهذه البهلوانيات من حركات المظلات الواقية وفصائل الدراجات الموغلة من وراء الخطوط لعب غير مأمون وإن بدا نجاحه بعد المفاجأة الأولى أو بعد مفاجآت كثيرة. وإذا كان جورينج قد خشى من عقباه واسرع إلى التبرؤ من تبعاته فى صيغة الشهادة لزعيمه فالأحرى بقواد الحلفاء وهم لا يستوحون الخطط العسكرية من عالم الغيب أن يحاروا عند المباغتة كما يحار اللاعب المدرب مع اللاعب الذى يخالف جميع الاصول، وأن

يتريثوا هنيهة قبل أن يتعودوا طريقة هـذا اللاعب في نقل الورق أو تنسيق الاحجار

تلك هي بعض المصاعب التي يعانيها المقاتلون الديمقراطيون ولا يعانيها المقاتلون النازيون

ولا بد للحرية من مصاعب ، ولا بد لها من ثمن غال

فليس لإنسان أن يجمع المزيتين ، وأن يكون مستبدا وحراً في نزعة واحدة ... ولا أن يأكل حلاوة الحرية بغير نار

* * *

ونحن نـكتب هذه السطور والرحى تدور ولا يعلم أحـد أين يرتمي اللباب وأين ترتمي القشور

غير أن الرجاء فيما نعتقد معلق برجحان الروية على المجازفات ، وغلبـة القدرة الصابرة على القدرة اليائسة التي تفرغ رجاءها كله في الهجمة الأولى . ثم يقعد بها الأعياء ويستعصي عليها الثبات

وهجمة هتلر دليل على هـذا الاستيئاس وعلى أنه يضيق ذرعا بالحصار ولا يقوى على مواجهة الشتاء

وهذا ما قدرناه من بداية الحرب فقلنا إن هتلر لا يصبر عليها ولا يثابر فيها شتاءين متواليتين ، إلا وهو منهوك مضطر في نهاية الشوط إلى التسليم

ولولا ذلك لما جازف بهذه الهجمة ولو كان على رجاء في نجاحها ، فان احتمال الفشل فيها بالغا مابلغ من الضعف لخليق أن يحسّن له الانتظار لو كان يطيقه ويقوى عليه

وتلك علامة خير

وعـلامة الخير الـكبرى أن تفشل هذه الهجمة فيتاح للمدافعين عزل الفرق

النازية بين الشرق والغرب وتعريض من وصلوا منها الى الشاطىء لنيران البر والبحر والهواء . مع انقطاعهم عن المدد والتموين واتصال جيوش الحلفاء في الميادين والفرنسية ، بعد تفرغهم لها وجلائهم عن الساحة البلجيكية

وأن حبوط هذه التجربة النازية لهو أصدق نذير بحبوط الدولة النازية وإن تطل الأيام ... ولعلها لا تطول

أبى الله لهذا العالم الذى أعيى الفاتحين من جبابرة التاريخ أن تحكمه عصابة من المغامرين والأفاقين ، وأن يرتد الى جاهلية جهلاء لا حرمات فيها ولا حقوق

ذلك مالا يكون ، وهيهات أن يكون

فلا أحلامهم مفلحة ، ولا آمال الانسانية مخفقة ، ولا كلمة الحرية منسية ، ولا قضيتها فى موازين القدر دون قضية الهمجية

وكل آت قريب ما

عباس محمود
العقاد

فلاسفة الحكم في العصر الحديث

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

هذه عجالة في مذاهب الحكم التي تشيع في القرن العشرين وقد صدق من قال : « لكل زمان دولة ورجال » ويصدق مثله من يقول إن لكل دولة مذهبا في الحكم وفلاسفة يسجلون ذلك المذهب أو يروجونه ، ولعل هذه المذاهب دليل محسوس على خطأ الذين يقولون ببقاء نظام الحكم على حال واحدة لا يتبدل منها غير الاسماء والعناوين ، فإن التطور في مهام الحكومة وفي نظر المحكومين إليها يتجلى في عرض مذاهب الحكم منذ وجدت للحكم فلسفة إلى ان ترددت مذاهبه التي تشيع بيننا اليوم في القرن العشرين .

وقد تطور الحكم قبل ظهور المذاهب الفلسفية التي تشرح قواعده ونظرياته ، وانتقل الناس من تأليه الملوك إلى الايمان بولايتهم الملك من عند الله ، إلى الفصل بين السلطان الالهي والسلطان الانساني قبل انتشار الفلسفة السياسية وقبل انتشار الفلسفة على الاجمال ، وكانت الأديان الكتابية الثلاثة آية بالغة من آيات هذا التطور البعيد ، فكتاب العهد القديم سجل لزعامة النبي وزعامة القاضي وزعامة الملك مع الجمع بين الحكم والقداسة الدينية في حين والفصل بينهما بعد ذلك الحين ، وخطبة السيد المسيح على الجبل دستور كامل للانسان الصالح الذي ترتضيه المسيحية السمحة في كل مجتمع وفي ظل جميع الحكومات ، والدين

الاسلامي قد فصل مذهبه في الشورى والمساواة واحترام الاجماع وسؤال اهل الذكر تفصيلا يتناول أصول الحكومة ويوافق تطورها مع الزمن ، وكانت هذه الأديان حجة لطلب الاصلاح والكف من طغيان الانسان في جميع العصور .

ونود في هذه المقدمة الموجزة أن نربط حلقات السلسلة من العصور القديمة إلى العصر الحديث ، لأن الحلقات التي صيغت في القرن العشرين أو شاعت خلاله لم تكن لتصاغ من معدنها هذا لولا ما تقدمها من حلقات الحكم القديم والفلاسفة الأولين ، وغني عن القول أن هذا البيان لن يكون إلا تلخيصاً مجملا غاية الاجمال على القدر الذي يكفي هنا للتمهيد المطلوب .

تفلسف حكماء اليونان في مسألة الحكم كما تفلسفوا في سائر المسائل التي عرضت لعقل الانسان في الزمن القديم ، وأعانهم على فلسفتهم أنهم جاءوا بعد فترة من التجارب الحكومية في أثينا وسبرطة كفيلة بأن تمد الفيلسوف بالزاد الضروري للمقارنة والمقابلة بين هذه التجارب المتوالية ، ويضاف إليها ما عرفوه من صراعهم مع دولة فارس ومن صلاتهم الودية مع الدولة المصرية ، فكان القرن الرابع قبل الميلاد فترة صالحة للتعقيب على تجارب الحكم وأنواعه في عدة أقطار أجنبية أو وطنية تتفق في الوطن وتختلف بالمعيشة والعادات ، كما يختلف الأثينيون والسبرطيون .

وقبل أن يصبح مذهب الحكم في اليونان فلسفة كان قد أصبح من الملاحظات الواقعية التي يدونها المؤرخون ، فكتب هيرودوت قبل مولد أفلاطون يقول في المساواة : « إنه من الواضح جيدا في هذه الحادثة ومثيلاتها المتعددة أن المساواة شيء عظيم . فقد كان الأثينيون ولا فضل لهم على من جاورهم في الشجاعة أيام خضوعهم للطغاة ، فما هو إلا أن نفضوا عنهم نيرهم حتى تقدموا إلى الرعيل الأول بين الجميع ، وتبين من هذا أنهم رضوا بالهزيمة حين كانوا مقهورين يعملون للسيد المسلط عليهم ، فلما ملكوا زمامهم حرص كل منهم على أن يبذل غاية ما في وسعه لنفسه » .

ولو أن هيرودوت قد امتد به الأجل حقبة قصيرة لاستطاع أن يزيد على دليله هذا دليلا جديدا على فضيلة الحرية ، وهي ارتقاء الفكر ونبوغ الفلاسفة الذين

يلقون أنوارهم على المسألة بحذافيرها ويتناولون قواعد الحكم وحقوق المحكومين على وجوهها المتقابلة كما تناولها أفلاطون وتناولها من بعده تلميذه أرسطو ومريدوه .

فهذان الفيلسوفان قد تقابلا في مذاهب الحكم كما تقابلا في غيرها من المذاهب العملية والعلمية ، وكانا كالقطبين المتقابلين للدائرة الواحدة ، فكل منهما طرف يكشف محاسن رأيه ومآخذ الرأي الذي يعارضه ، وتتم الدائرة على سعتها بهذين القطبين المتقابلين .

كان أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م) يعظم شأن الدولة بالقياس إلى الحرية الفردية ، فالقوانين لا توضع لتمكين الفرد من فعل ما يشاء ، ولكنها توضع لهدايته إلى فعل أحسن ما يستطيع ، ولا ضير من إكراهه على صلاح أمره إذا كان في حاجة إلى الهداية والاصلاح ، وأكثر الناس في حاجة دائمة إليهما يجوز في تربيتهم ما يجوز في تربية القصرّ والأطفال .

وواضح من هذا أن الحاكم في مذهب أفلاطون بمثابة الأب والمعلم وليس قصاراه أنه خادم مصالح المحكومين ، ولهذا يوصي بإسناد الحكم إلى الحكماء والعلماء ، ويوصي إلى جانب ذلك بتجريدهم من روابط الأسرة وشواغل الثروة تنزيها لهم عن الفتنة والمحاباة ، ولا حرج على ولاة الحكم من استخدام الأساطير والخرافات واختراع قصص البطولة والأعاجيب لترويض الرعية على الخضوع لما فيه نفعها ورشادها ، فهذه في مذهبه « أكاذيب نبيلة » لا غنى عنها في إقناع الدهماء ، ولا يلبثون أن يعرفوها ويعرفوا أعذار من استخدموها متى ارتفعت عنهم غشاوة الجهل والخرافة .

وينظر الفاشيون والاشتراكيون معا إلى أفلاطون كأنه رائد سابق للفاشية والاشتراكية ، فيرضى عنه الفاشيون لأنه يكل الأمر إلى الولاة والزعماء ، ويعظم شأن الدولة والحكومة ، ويرضى عنه الاشتراكيون لأنه يحرم الملكية على الولاة ويسمح باشتراك الجمهور في الملك الواحد ويجعل للنساء حق الحكم مع الرجال ويفرض عليهن واجب الدفاع معهم . ويسوق الفاشيون والاشتراكيون كلمات

له وردت في كتاب الجمهورية تعزز ما يقررونه لتأييد آرائهم ونقد آراء خصومهم . ومنها قول بعض المحاورين في كتاب الجمهورية : « إن العدل مصلحة الاقوى » وإن الرجل العظيم في حل من إرضاء عظمته بالسيطرة على من دونه ، وإن الوازع الأخلاقي رياء ونفاق ما لم يكن صرورة من ضرورات البيئة ، وغير ذلك من دعاوى الحوار التي تقال كما يقال الرد عليها ، ولا تعبر كلها عن رأي أفلاطون .

ولا شك في ميل أفلاطون إلى حصر السلطان في الأيدي القليلة وإعراضه عن إطلاق حقوق الحكم لجميع المحكومين ، بيد أن الشراح الذين يستندون إليه في تسويغ الاستبداد يخطئون تفسيره وقد يتعمدون تحويله عن معناه ، لأنه شديد الانكار لحكم القوة شديد الاعجاب بحكم الرضا والاقناع ، وتفرقته الكبرى بين الملك والطاغية أن الملك يهتم بحب رعاياه وأن الطاغية يفرض عليهم طاعته غير مبال منهم بشعور بعد شعورهم بالرهبة والولاء . وقد فاضل أفلاطون بين حكومة الفرد بغير قانون وحكومة الخاصة بغير قانون وحكومة الدهماء بغير قانون ، فقال إن حكومة الدهماء هي أفضل هذه الحكومات وإن شرورها أهون من شرور الحكومة الفردية المطلقة وشروز الحكومة التي يحتكرها الخاصة مع إطلاقها واستبدادها ، إذ كان فساد المستبد يشمله ويشمل كل من عداه وتمتد أوهاق ظلمه إلى جميع الطبقات ، وإنما يسوء حكم الدهماء حين يشرعون له القوانين لأنهم يجهلون أصولها ويولون أمرها غير أهلها ويسيئون التشريع كما يسيئون التنفيذ ، وليس كذلك الخاصة المقيدون بالشريعة كما يتفق عليها من يفقهونها ويحسنون الرقابة عليها .

وقد توزع مذهب أفلاطون حديثا بين أناس متفرقين يدعي كل منهم أنه قادر على تطهير نظامه من النقائص التي احتاط لها الفيلسوف في زمانه ، والواقع أنه مذهب مفروغ من استحالة تطبيقه ، فالمناقشة في نظرياته تسلس لمن يريدها دون أن يحبسها الواقع عند حد محدود .

***

إلى الطرف المقابل لهذا الطرف يتجه أرسطو تلميذ أفلاطون الأول الذي لقبه الأقدمون بالمعلم الأول .

فالحكم عنده وظيفة خبرة يتدرب عليها ذووها وليس وظيفة فلسفة وحكمة ، وهو يقسم الحكومات إلى ثلاثة أنواع : هي حكومة الفرد وحكومة الأعيان وحكومة الشعب أو الديمقراطية ، ولكل منها آفة تمسخها وترجح سيئاتها على حسناتها ، فإذا مسخت حكومة الفرد غلب الهوى في نفس حاكم واحد على مصلحته ومصلحة الرعية كلها ، وإذا مسخت حكومة الأعيان فهو الاحتكار الذي يسخر الأكثرين من المحكومين للأقلين من الحاكمين ، وإذا مسخت الحكومة الديمقراطية فتلك هي فوضى السوقة والدهماء .

وليس عدد الحاكمين هو الفرق الجوهري بين الحكومات الثلاث ، ولكن الفرق الجوهري هو الفرق بينها في حقوق المواطن ، وخيرها ما تكفل لجميع المواطنين بالمساواة في الحرية ، وهذه المساواة هي التي تبطل القول بأن الحرية هي أن يفعل كل إنسان ما يشاء . فلو جاز لكل أن يفعل ما يشاء لجاز له أن يعتدي على غيره فتبطل المساواة ، وإذا تساوت حريتهم جميعاً فهذه هي الحرية في حدود القانون ، وذلك هو القانون الذي يوضع لجميع الرعايا ولا يوضع لطبقة منها دون طبقة .

وإذا تكلم أرسطو عن المواطنين وحقوقهم فإنما يتكلم عن الأحرار ويستثني الأرقاء ، فالمواطن من شترك في تسيير الدولة برأيه أو بعمله ، ولم يكن للأرقاء على عهد أرسطو شيء من المشاركة في الحقوق السياسية .

والتفرقة بين الحكومتين الصالحة والفاسدة عند أرسطو هي أصدق تفرقة قال بها الفلاسفة حتى اليوم . فالحكومة صالحة متى عملت لمنفعة المحكومين ، وفاسدة متى عملت لمنفعة الحاكمين . مثلها مثل كل أداة توضع لغاية ، ولا تؤدي الحكومة غايتها إذا كانت لا تنفع رعاياها .

وليس من رأي أرسطو أن « خير » الناس هم الحكام ، فمعنى هذا أن الذين لا يتولون الحكم أشرار ، أو معناه أن أخيارا قلائل يستأثرون وحدهم بحقوق جميع

الأخيار .

وليس من رأيه أن الحكم حق للثروة ، فمعنى ذلك جمع الثروة والسلطة في أيد قليلة .

وليس من رأيه أن الكثرة تباشر الحكم بجميع آحادها فتلك استحالة لا تتحقق في الواقع ، ويكفي من الكثرة أن تكون مكفية المؤ نة راضية عن معيشتها .

واشتراط الرضا من جانب الأكثرين ضمان لإخلاص الحكومة في خدمتهم . ووفرة الناس ، في رأي أرسطو ، كوفرة الماء التي تعصمه أن يأجن ويتعفن كما يتعفن الماء القليل بأقل شائبة .

وقد وجد أرسطو أن توزيع مهام الحكم ضمان آخر لمنع التفرد بالسيطرة الحكومية ، فتنقسم الحكومة بين الاستشارة والإدارة والقضاء ، وتنشأ من تخصيص الحكام لكل قسم من هذه الأقسام طائفة خبيرة بما تتولاه ، وقيام الحكم على القواعد الديمقراطية يمنع أن تنحصر هذه الطوائف في كبار السادة والأغنياء ، ويمنع ان تنحدر إلى السفلة والجهلاء ، فسبيلها أن تؤ ول إلى طبقة وسطى لا تستبد استبداد الأعلياء ولا تسف في أعمالها وأخلاقها إسفاف الأدنياء .

ويعارض أرسطو أستاذه في شيوع الملكية كما يعارضه في احتكار السلطة ، فقد بحث شيوع الأرض وتقسيم الغلة ، وبحث شيوع الغلة وتقسيم الأرض ، وبحث شيوع الأرض والغلة معاً ، فخلص من هذه البحوث إلى ضرر الشيوع في هذه الحالات جميعاً ، لأنه باب النزاع وسوء الاستغلال ، وأضمن منه للسلم أن تباح الملكية مع تقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء .

بهذين المذهبين ـ مذهب أرسطو وأستاذه ـ تمت لأثينا رسالتها العظيمة في فلسفة الحكومة ، وهي أوفى رسالة فلسفية كانت مستطاعة قبل عصر الميلاد .

* * *

وتأتي رسالة روما بعد رسالة أثينا ، وهي رسالة عملية يقل فيها نصيب الدراسات الفلسفية . ومع استثناء القوانين المسطورة لم يبق من تراث روما في

فلسفة الحكم غير كتابين لخطيبها الأكبر شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م) وهما كتاب الجمهورية De Republica وكتاب القوانين De Lagibus عرفت روما ضروب الحكم جميعاً مع تعدد أنواع الحكام وتعدد أنواع المحكومين : عرفت الملك والجمهورية والقنصلية وحكم الدكتاتور العادل والدكتاتور الظالم ورقابة الشيوخ الأعيان ورقابة الوكلاء الشعبيين ، وعرفت الحكم الذي يقوم على حقوق العلية والحكم الذي يقوم على حقوق العلية والعامة ، والحكم الذي يستثنى منه الأرقاء والحكم الذي يقبلون فيه بعض القبول ، وتركت بتجاربها العملية رسالة عامرة بالنماذج والتعديلات لا يستغنى عنها باحث من الدارسين لنظم الحكومة في جميع الأوضاع وبين جميع الأقوام .

أما رسالتها الفلسفية فهي كما تقدم محصورة في كتابي الخطيب الكبير ، وجانب الاقتباس فيها من المدرسة الأثينية أكبر من جانب الاستقلال بالرأي والابتكار ، ولعل إيمان شيشرون بالنظريات هو الذي جنى عليه فجعله يصر في أثناء ولايته للحكومة على توخي الغايات التي لا تدرك وسوم الشيوخ والأعيان ما لا طاقة لهم به من النزاهة والاعتدال ، فكان الموت جزاءه على هذه النزعة المثالية التي لا تقبل التطبيق .

نقل شيشرون عن الفيلسوف اليوناني زينوقراط Xenocrates أنه سئل : ماذا استفاد منك تلاميذك ؟ فقال : إنهم استفادوا أنهم بمحض اختيارهم يعملون ما توجبه القوانين على الآخرين .

يقول شيشرون : « إنه من رأي أعقل الحكماء أن القانون لا يرجع في أصوله إلى فكر إنساني ولا إلى عمل أمة من الأمم ولكنه شيء خالد يحكم الكون كله بما يوحيه من أوامره ونواهيه » ، وإن أفضل المجتمعات هو المجتمع الذي يوافق إلهام الطبيعة ولا يعطل هذا الإلهام بزيغان المطامع والشهوات .

وينكر شيشرون قول أفلاطون إن ذوي الاستعداد لفهم الشريعة جد قليلين بين البشر ، ففي اعتقاده على عكس ذلك أنه ما من إنسان إلا وهو قادر على فهم الشريعة كما توحيها الطبيعة ، وإن القانون الطبيعي يقضي بالمساواة بين البشر في

هذا الاعتبار ، وإنه عند عصيان هذا القانون الطبيعي يقع من الناس الاجتراء على نصوص الشرائع المسطوره .

ويقول على لسان سيبيو وهو يلخص حجج الديمقراطية : « إنهم يقررون انه ليس من الانصاف أن تدان الديمقراطية على عمومها لان الجمهرة الجامحة من سواد الناس لها عيوبها ، وإن الناس ما داموا متناسقين يخضعون كل شيء لسلامتهم وحريتهم فلا حكومة أنأى عن خطر الثورة وأمكن استقرارا من حكومتهم . اي من الحكومة الديمقراطية » .

ويمضي سيبيو قائلا : « وعلى الجملة لا يعتبر أنصار الديمقراطية أن الحكومات الاخرى جديرة باسم الحكومة ، فمالي مثلا أطلق اسم المالك الذي هو أليق الاسماء برب الارباب على مخلوق بشري متلهف على السيادة والاستئثار بالغلبة كأنه في سوقه للرعية يدفع أمامه قطيعا من العبيد ؟ أليس الاحرى بي أن أطلق عليه اسم الطاغية ؟ . . »

والعجب في هذه الديمقراطية الغالية وهذا القانون الطبيعي أن تتمخض عنهما الدولة الرومانية التي كانت رسالتها في العالم « صناعة » القوانين . . ! فقد أصاب من قال إن شيشرون كان رائداً للثورة الفرنسية والثورة الامريكية قبل ألف وسبعمائة سنة ، وإنه بهذه الاقوال عن القانون الطبيعي وعموم المساواة بين البشر كان زميلا لجان جاك روسو ظهر في العصر الغابر قبل الاوان .

* * *

مضى من القرن الاول قبل الميلاد عصر شيشرون ، إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد عصر ماكيافلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) اكثر من خمسة عشر قرنا لم ينبغ فيها من فلاسفة الحكم من يستحق أن يذكر غير ثلاثة ، اثنان منهم حبران جليلان من أحبار الكنيسة وعلمان بارزان من أعلام الفكر وهما القديس أوغسطين والقديس توما الاكويني ، والثالث هو جون أوف سلسبوري القس الشاعر الفيلسوف الذي عاصر الملك هنري الثاني في إبان الخلاف على الدين والسياسة .

ولد القديس أوغسطين في منتصف القرن الرابع (٣٥٤ - ٤٣٠) وألف كتابه

عن مدينة اللّه تفنيدا لقول القائلين إن روما آمنت بالارباب الوثنية فعاشت في القوة والرخاء عدة قرون ، وآمنت بإله الدين المسيحي فعجل إليها البوار بعد قرن أو قرنين ، وقد استغرق تأليفه ثلاث عشرة سنة في أوقات متقطعة فكثرت فيه النقائض كما كثر فيه الاستطراد من موضوعات الحكم والسياسة إلى موضوعات الفقه واللاهوت ، ويتحدث القديس أوغسطين عن مدينة اللّه كأنها مدينتان إحداهما في السماء والاخرى على الارض ، وهو لا يعني بمدينة السماء سلطان الكنيسة ولا يعني بمدينة الارض سلطان الملوك والامراء ، ولكنه يعني بهما مدينتين مثاليتين يبنيهما اللّه والصالحون من عباده بالتقوى وعمل الخير والزهد في الملذات والشهوات وقضاء الحياة في رعاية أوامر اللّه واجتناب نواهية ، وتنعقد الصلة بين ابناء المدينة بأن يحبوا الله ويحب بعضهم بعضاً في اللّه ، ويضرب الشراح المثل لهذه الصلة الروحية بالصلة التي يشعر بها قراء الكتاب الواحد إذ يعجبون بمؤلفه ويستروحون جمال فكره وبلاغة كلامه ، فالأمم التي تشترك في حب اللّه وتمجيد آياته هي أمة واحدة في مدينة اللّه .

وأهم المبادىء السياسية التي اشتمل عليها كتاب القديس أوغسطين هي : (١) أن اقتناء الأملاك وجمع الكنوز هو شهوة من شهوات النفس البشرية الخاطئة وليس شريعة من شرائع اللّه ، وأن أفضل المجتمعات ما كانت خيرات اللّه فيه مباحة لجميع عباده يأخذون منها بمقدار ما يحتاجونه في لوازم الحياة و (٢) أن المستقبل للوحدة الإنسانية التي تؤلف بين المؤمنين في حب اللّه و (٣) أن الأمل الأكبر للجماعة الإنسانية هو « السلام » وهو في حكمة القديس أوغسطين مرادف لكمال الروح وكمال الالفة بين البشر ، وليست غايته اجتناب الحرب وكفى . إذ لا سلام بغير إخوان كما أنه لا حرب بغير أعداء و (٤) أن الرق ثمرة الخطيئة والخطيئة هي السبب الاول لخضوع الإنسان للإنسان ، ولعل كبرياء السيد عقاب له وضراعة العبد غفران وتكفير و (٥) أن خضوع المؤمنين لاصحاب السلطان الدنيوي واجب في حدود الامور الدنيوية ، فإذا تجاوزها أصحاب ذلك السلطان فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق و (٦) أن الناس في مدينة الأرض حجاج إلى مدينة السماء أقربهم إليها من هانت عليه النعمة الأرضية في سبيل

النعمة السماوية الابدية .

***

وتعاقبت القرون إلى القرن الثاني عشر الذي عاش فيه جون أوف سلسبوري (١١٢٠ - ١١٨٠) صاحب كتاب دليل الحاكم الذي اخترع له اسم بوليكراتكاس Policraticus واسترعب فيه الكلام على واجبات الحاكم وواجبات الرعية وشروط الحكومة المطاعة ، وأهم آرائه أن الفضيلة هي غاية الحياة وأن هذه الغاية لا تدرك بغير حرية ، وقد ضرب المثل للحرية المطلوبة بكلام من يدعى فيليب philip في مواجهة مجلس الشيوخ الروماني حيث نعى عليهم جمودهم وتراخيهم فلم يغضبوا لتبكيته وقال له الشيخ الذي نهض ليخرجه : « لا عليك أن تسلم نفسك إلي فإنني لست بالشيخ صاحب السلطان في نظرك » .

وقد أوجب فيه على الملك أن يعمل بالقانون ، وفرق فيه بين الراعي ، والحارس الأجير ، واللص ، في تربية القطيع : فالراعي يعمل بخلوص نية وصدق رغبة ، والحارس يعمل لحساب غيره طمعا في الأجر وخوفا من العقاب ، واللص لا يبالي من القطيع إلا أن يلتهم ما استطاع التهامه ويخفي فعلته عن أنظار مطارديه .

***

وانقضت حقبة في اقتباس القوانين من بقايا الدولة الرومانية شاعت خلالها النظريات التي أشرنا إلى بعضها في تلخيص مذهب شيشرون ، كالقانون الطبيعي وحق المساواة . وشاع معها تعريف القانون بأنه مجموعة العرف والعادة التي اصطلحت عليها الشعوب وتولى رؤساؤها القيام على تنفيذها بالنيابة عنها ، ووافق هذا الاعتقاد غرضا من سادة أوربة لميلهم إلى الاستقلال بالسلطة الدنيوية عن السلطة البابوية ، وظهر في تلك العصور الاولى من يقول كما قال مانيجوزل أوف لاتنباخ في القرن الحادي عشر : « لا احد يملك أن يجعل نفسه امبراطورا أو ملكا ، وإنما هو الشعب الذي يرفع إنسانا فوق نفسه ليحكمه ويدبر شؤونه على أصول الحكم الصالح ، معطيا كل ذي حق حقه ، متوليا من يتقي

بحراسته ومن يعتدي بنقمته ، وقائما بالقسط بين الجميع » .

وظهر في القرن الثالث عشر من يقول كما قال براكتون الفقيه الإنجليزي : « لا ينبغي للملك أن يعلو على مكانه أحد ، إلا أن يعلوه سلطان الله والقانون . لان القوانين هي التي تنصب الملك ، وعليه أن يمد القانون بالقوة والنفاذ . . إذ لا ملك حيث لا قانون » .

***

بين هذه التمهيدات المختمرة نبغ الفيلسوف الديني الكبير توماس الإكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ونظر إليها وإلى كتب الفلسفة جميعاً في مذهبه السياسي الذي شرحه أثناء تعليقه على كتاب السياسة لأرسطو وعاد إليه في رسالة لم يتممها سماها « ولاية الأمراء » .

والكون كله في مذهب القديس توما حكومة ذات درجاتHierachy يستوي الإله على عرشها الأعلى ، وأهم آرائه أن الحكومات الدنيوية ينبغي أن تتوجه بطلب المشورة إلى آباء الكنيسة ، لان الإنسان في هذه الحياة يسعى إلى غايتين : إحداهما روحية والأخرى جسدية ، وليست سعادته الجسدية هي الغاية القصوى بل هي وسيلة لتحقيق غايته العليا وهي سعادة الروح . فالكنيسة التي تشرف على أمر روحه أولى بالتقديم من الحكومة الدنيوية التي تشرف على أمر جسده ، ومن حق حكومة الدنيا أن تطاع في كل شيء تتساوى فيه طاعة المرؤوس والرئيس . أما إذا فرض الرئيس على مرؤوسيه ما لا يقبله هو ولا يلتزمه فلا طاعة للحكومة الدنيوية ولا حرج على مرؤوسيه عن عصيانه والثورة عليه . وقد توصف حكومة القديس توما بأنها مزيج من الفردية والانتخابية ، لانه يشير باشتراك الشعب في انتخاب الملك والنبلاء ، ليتم امتياز الممتازين وأمان الضعفاء من بغي الاقوياء ، ومساك الوفاق بين الجميع هو القانون الطبيعي الذي لا يخفي على أحد ، وهو يخول الرعية أن تقاوم راعيها أو تكف عن الطاعة إذا أقحم عليها قانونا لا يطابق ذلك القانون .

***

ثم جاء عصر ماكيافلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) وهو الرجل الذي أصبح اسمه علما على سياسة الغش والغيلة والقسوة والدسيسة والتماس النجاح بكل وسيلة ، وتعود شهرته الى ما اشتهر من وصاياه في كتابه الموسوم « بالأمير » .

أما الحقيقة فهي كما قال في رسالة منه إلى بعض ثقاته « إن كتاب الامير نزغة هوى » ، ولم يكن الرجل كاذبا فيما وصف به هذا الكتاب ، فكل ما فيه من الجد أنه طمح إلى توحيد إيطاليا كما توحدت فرنسا وأسبانيا ، ورأى أمامه طائفة من شرار الأمراء يتنازعون فيما بينهم ولا أمل في توحيد وطنه مع بقائهم ، فمن أزاحهم من طريق الوحدة بما وسعه من وسيلة فلا جناح عليه .

على أن مذهب ماكيافلي الصحيح مفصل في تعليقاته على كتب ليفي العشرة وملحوظ فيما بين السطور من كتاب الامير ، فهو يقرر ان الاستناد إلى الشعب أضمن لصيانة الحرية من الاستناد إلى الاعيان والنبلاء الذين يتكلون على ما ورثوه ولا يزالون يطمعون في زيادته بالعسف والحجر على المحرومين ، وأن وفاء الشعوب أوثق من وفاء الامراء ، وأن الملك الحق من يحبه رعاياه ويهابونه لا من يرتاب فيه رعاياه ويمقتونه ، وأن الدكتاتور الذي يخشى خطره على الحرية هو الدكتاتور الذي يغتصب القوة ولا يستمدها من رعيته ، فإذا انطلقت يده في الحكم باختيار الرعية كما كان يحدث في الدولة الرومانية القديمة فهو قمين أن يبلغ قومه من المجد والرخاء ما لا يبلغونه في ظل القوة المفاجئة . وعبرة التاريخ الروماني في رأي ماكيافلي أن الجمهورية تصلح ما بقيت قوية متوازنة الاركان لا تبغي فيها طبقة على طبقة ، فإذا هي تضعضعت وآذنت بالزوال فالدكتاتور الذي تقدم وصفه خير حاكم يتعهد الوطن في تلك الحالة . ومساك الحكمة السياسية في كتاب الامير وفي التعليقات على التاريخ الروماني هو « أن سلامة الدولة مقدمة على كل مصلحة أو شريعة ، فإذا وجبت وقايتها من غائلة تهدد سلامتها فلا محل المبحث في النصوص والفتاوى ولا حرج من اتخاذ كل وسيلة لدفع الغائلة عنها ، ولا يصعب على ولاة الامر مع هذا أن يسوغوا عملهم للشعب بما يقنعه لاستدامة إيمانه بالشريعة وقوانين الاخلاق .

والمثل الاعلى للحكومة في مذهب ماكيافلي هي الحكومة التي تسقط أمراء

الاقطاع ، وتنهض بالطبقة الوسطى ، وتؤمن الشعب على حريتـه ومعيشتـه ، وتنضوي إلى حاكم قوي يمزج بين دهاء الثعالب وجرأة الاسود ، ويلتف به رعاياه عن حب ومهابة وثقة لا عن خوف وخنوع واستسلام .

***

وفيما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر دخلت نظريات السياسة في دور جديد يدور على محورين : محور القوانين الطبيعية أو الحقوق الطبيعية التي تقدم ذكرها ، ومحور الخلاف على حق الكنيسة وحق الدولة وأيهما أحق بالاتباع عند احتدام النزاع بين السلطتين .

وأدى استقلال الملوك عن الكنيسة واضمحلال نفوذ النبلاء والفرسان أصحاب الإقطاعات إلى استقلال الاوطان والدعوة إلى حقوق الوطـن وحقـوق الامـة ، فتركزت الحقوق السياسية رويدا رويدا في الشعب وبرزت على طليعته طبقتـه الوسطى ، وهي أقدر طبقاته بعد اضمحلال السادة الأعلين من النبلاء والفرسان « الإقطاعيين » .

هذه النظريات عن الحقوق الطبيعية وحق الكنيسة وحق الدولة وحق الشعب لم تزل تتراءى على درجات متعددة ووجهات متعارضة في بحوث الفلاسفة الذين كتبوا عن فلسفة الحكم من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .

فأقدمهم جان بودان الفرنسيJean Bodin(١٥٣٠ - ١٥٩٦) يشرح نظرياته في ستة مجلدات يسميها « الكتب الستة في الدولة » ، ويقرر فيها أن الاسرة والملكية (أي الامتلاك) هما أساس المجتمع ، وأن النظام الملكي المقيد هو أصلح الانظمة الحكومية ، وأن صاحب السيادة متى بويع بها حرم على الرعية نقض ولائه كائنا ما كان اعتذارها لنقضه ، وتفرقته بين السيادة الشرعية والسلطة القائمة بالقـوة أن السلطة القائمة بالقوة قد تحفظ النظام ولكنها لا تحفظ القانون وهو السند الوحيد الذي يقوم عليه حق الطاعة والولاء . ولهذا الكاتـب حوار أجـراه بـين يهـودي ومسلم ومسيحي تابع لكنيسة روما ومسيحي من أنصار لوثر وأبيقوري وموحد بالله غير متدين بدين فانتهى منه على ترك الجدل في العقائد الدينية والتلاقي بينهم

جميعاً على سماحة في أمور هذه الحياة الدنيوية .

وتوماس هوبــز الإنجليزي Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) قد حضر الثورة التي قادها كرومويل وكان معلما للملك شارل الثاني ، وبنى فلسفة الحكم على ما استخلصه من القوانين الطبيعية في زعمه ، وفحواه أن الفعل ورد الفعل هما مدار كل حركة في الطبيعة ، وأن تدافع الناس في المجتمع هو مدار السياسة ، وأن العامل الاكبر في نفس الإنسان هو حفظ ذاته ، ومن أجل حفظ الذات يطلب القوة ويطمع في الغلبة على غيره . فمن هنا كانت الحالة الطبيعية بين الناس حالة حرب لا أمان فيها لاحد على نفسه ، وهذه هي الحالة التي تضطرهم أن يسلموا مقادهم إلى الدولة لحماية بعضهم من بعض وتمكينهم جميعاً من استخدام حقوقهم الطبيعية التي يتعذر عليهم استخدامها بغير دولة حاكمة ، وهذا التسليم منهـم أبدي لا رجعة فيه ، إذ كانت الرجعة فيه نكسة إلى فوضى الهمجية التي لجأوا منها إلى سيادة الدولة فلا يجوز استرداد هذه السيادة ممن تولاها ، ولا يحق لاحد من الرعايا أن يعترض عليه ، فإن إرادته قانون وقانونه هو مناط الاخلاق ، ولا قيمة لعهد لا يحميه سيف ، فلن تصل العهود إلى مدى أبعد من حد السيف الـذي يرعاه ، ومتى عجز صاحب السيادة عن حياطة الرعية وتغليب سلطان الشريعة فذلك هو الحد الذي تنتهي إليه سيادته ويستدعي الرعية إلى تسليم هذه السيادة لغيره .

ويأتي جون لوك الإنجليزي Jhon Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) عقـب هوبـز بجيل واحد فينقض مذهبه في الحرب الطبيعية ويقيم في مكانها طبيعـة الاجتماع والتضامن الاجتماعي ، ويعتبر ولاية الحكم وكالة عن الأمة تحاسب عليها ، فلا تصلح سياسة الأمم إلا بمحاسبة الرعية لولاتها واعتبار الحكومة مسؤ ولـة أمـام شعبها ، وينقض لوك مذهب هوبز في نشأة القانون كما ينقض مذهبه في السلطة الحكومية ، فالأخلاق هي التي توجد القانون وليس القانون هو موجدهـا قبـل وجودها ، ولا حد لحرية الانسان في عمله ولا في ملكه إلا الحد الذي يكفل لغيره حقوقا مثل حقوقه ، وخير الحكومـات عنـده هي الحكومـة التـي تنفصـل فيهـا السلطات وتجري على النظم الدستورية ، ووظيفتها الكبرى هي حماية الحـرية

وحماية الملك والثروة .

ويلي جون لوك في التاريخ البارون دي مونتسكيو الفرنسي Montesquieu (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) صاحب كتاب روح القوانين ، ومذهبه قائم على تفسير القوانين بعوامل الاقليم وأثرها في معيشة السكان وعاداتهم ، ويحسب مونتسكيو من تلاميذ المدرسة الانجليزية في تفضيل الملكية الدستورية ، مع التوسط بين المحافظة والتطرف في الحقوق النيابية .

ويلي مونتسكيو جان جاك روسو الفيلسوف السويسري الفرنسي Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) وكان معاصرا للفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦)Hume رائد المدرسة الحديثة التي تعزو أعمال المجتمعات إلى دوافع لدنية لا تخضع للتعقل في جميع الاحوال ، وأن رابطة الاجتماع نفسها عاطفية وليست بعقلية ، فليس هناك تعاقد معقول بين أبناء المجتمع ولكنهم يتعاطفون ويتنافرون بالحس والشعور ، وما من حكومة تدوم ما لم تكن مستندة إلى التقاليد التي تواضع عليها الناس ، ولو خرجت هذه التقاليد على المعقول .

وروسو يقتبس من هيوم في هذه الناحية ويناقش نظرية العقد الاجتماعي على أساس هذه الفلسفة ، ويجعل شعاره « عودا إلى الطبيعة » لان الفطرة أهدى من العقل وأجدى على صاحبها ، وأولى الناس بالاحترام عنده هم البسطاء الطبيعيون وهم كثرة الناس ، ولهم فوق ذلك حق الاحترام على اعتبار أن الناس جميعاً سواء بغير فارق في « الطبيعة » بين أبناء الطبقات المختلفة ، فكثرة العدد إذن هي المرجح للطبقة الدنيا مع تساوي الطبائع بين أبناء الطبقات ، فالناس طيبون فطرة ما لم تفسدهم الاسباب الصناعية ، وإرادتهم التي يسميها « الارادة العامة » هي قوام القانون والاخلاق .

وقد تعاقب الكتاب بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر على مبدأ وا حد وهو مبدأ « السيادة الشعبية » والحكم النيابي ، فإذا كانت لبعضهم رسالة خاصة ففي مقدمة هؤلاء بنتام Bentham (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) وجون ستيوارت ميل Mill (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) أعظم الفلاسفة المحدثين الذين

اشتهروا بالنفعيين Utilitarianists لانهم يردون أعمال الانسان جميعا إلى طلب السرور والمنفعة . فإن رسالتهم هذه قد كان لها شأن في تركيب كثير من الفلسفات التي تنظر في التربية والاصلاح الاجتماعي من ناحيتي الاخلاق والسياسة ، ويغلو جون ستيورات ميل في تقديس حرية الفرد حتى ليقول إن النوع الانساني لو خالفه فرد واحد لما كان حقهم قاطبة في إبداء رأيهم أصح من حق الفرد الواحد في إبداء رأيه ، ومع هذا الغلو في تقديس الحرية الفردية ، وذلك المذهب في تعليل الاعمال الانسانية بالمنفعة - يرى ميل أن جمهرة السواد تنشد منفعتها الظاهرة ولا تنشد منفعتها الحقيقية ، ولهذا يحسن أن تتبع في الانتخابات طريقة نسبية ترشح للحكم من هم أهل له بالعقل الراجح والخلق المتين والدراية المستمدة من الثقافة والمرانة .

ثم ظهر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر مذهب المادية الثنائية لصاحبه كارل ماركس Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) وفردريك إنجلز Engels (١٨٢٠ - ١٨٩٥) وهو مذهب له شطران : شطر في فلسفة ما وراء الطبيعة وشطر في فلسفة الاقتصاد والسياسة .

ففيما وراء الطبيعة تقرر المادية الثنائية ان المادة يتولد منها ضدها ثم يتولد منهما تركيب واحد لا يلبث ان يخرج من ضده ، وتطبيق هذا المذهب على المجتمع الانساني يدل على أن نظام المشاعية الاول قد خرج منه ضده وهو نظام الاقطاع ثم خرج من هذا ضده وهو نظام الطبقة الحضرية أو الطبقة الوسطى التي عرفت بالبرجوازية ، وأن هذه البرجوازية تخلي مكانها لنظام رأس المال ثم يتبعه النظام الذي يستولي فيه العمال على الحكم فتنقطع الاسباب التي أنشأت الطبقات الاجتماعية ، لانها قائمة على استغلال بعض الناس لبعض فلا محل للطبقات مع بطلان الاستغلال .

اما الفلسفة الاقتصادية فمحصولها أن الانتاج الاقتصادي هو أصل كل سلطة وأصل كل عرف وعادة ، وأن الطبقة التي تتسلم زمام الانتاج الاقتصادي هي التي تضع القوانين والآداب التي تخدم مصالحها ، وسيأتي اليوم الذي يفلس في نظام رأس المال لما فيه من التناقص المتأصل في تكوينه ، فيؤول زمام الانتاج الى العاملين الذين يديرون الآلات المنتجة ، وتسفر الفترة التي تنقضي في

« الدكتاتورية الشيوعية » عن حكومة عالمية لا سيد فيها ولا مسود ولا مالك فيها ولا أجير .

ولم يبين كارل ماركس ولا أصحابه : لماذا تكون كل طبقة ضدا لما قبلها ولا تكون مختلفة منها بمجرد اختلاف ، ولم يبين كذلك كيف يساس المجتمع بعد الدكتاتورية الشيوعية وكيف يمتنع التبديل والتعديل في النظام السياسي ما دام للنوع الانساني بقاء على هذه الغبراء .

***

بعد هؤلاء الفلاسفة الاقدمين والمحدثين لم يظهر من فلاسفة الحكم من يعرف له مذهب مذكور غير هذه النخبة التي لخصنا نماذج آرائها في هذه الرسالة ، وقد أغفلنا بالبداهة أصحاب مذهب الفوضى لان مذهبهم في فلسفة الحكم هو إلغاء جميع الحكومات .

ومزية الفلاسفة المحدثين على الفلاسفة السابقين أنهم قد وضعوا مذاهبهم مستفيدين من جميع المذاهب ومن جميع التجارب ، ومستفيدين معها من كشوف العلم الحديث في طبائع النفس البشرية آحاداً وجماعات ، ومن كشوف العلوم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت مجهولة قبل بضعة أجيال .

وإذا أردنا أن نجمل الفارق بين القدامى والمحدثين في مدارس الفلسفة الحكومية فالفارق الواضح بينهم أن الاولين أكثر اقتراحا وأكثر تعويلا على عمل العقل في الحياة الإنسانية وأشد من لاحقيهم تعلقا بالمجتمعات المثالية التي تسمى بالطوبيات Utopias وأن المحدثين يقل في فلسفتهم الاقتراح والتعويل على عمل العقل ، ويكثر وصف الواقع والتعويل على الدوافع النفسية .

وسيرى القارىء أنهم جميعاً يخطئون وأنهم جميعاً يصيبون ، وأن مسألة الحكم مسألة تنتقل بها الحلول من عصر إلى عصر في الغيب المجهول . . والعلم بمواطن الخطأ والصواب منها أفضل وأسلم من الجهل بها على كل حال .

جورج سوريل
١٨٤٧ ـ ١٩٢٢

George Sorel

كان جورج سوريل من المعمرين كمعظم زملائه من فلاسفة الحكم في العصر الحديث ، فامتدت حياته من سنة ١٨٤٧ ـ إلى سنة ١٩٢٢ ووقعت في خلال هذا الغمر حرب السبعين وتأسست الدولة الالمانية وتداولت فرنسا أنواع مختلفة من الحكومات ، ثم نشبت الحرب العالمية الاولى وقامت بعدها حكومة شيوعية في بلاد روسيا القيصرية . فاستطاع سوريل أن يقرن بين مشاهدة الوقائع ومطالعة التواريخ ومذاهب السياسة التي كانت في إبان رواجها حوالي الزمن الذي بلغ فيه سن العمل والتفكير ، فبنى مذهبه على ما استخلصه من المشاهدة والمطالعة ، وكان يقول إنه يطالع ليمسح من ذهنه بعض ما تعلمه في صباه ، فهو يطالع لنسيان بعض القديم كما يطالع لتحصيل بعض الجديد .

ويعتبر سوريل أستاذاً لكثير من الكتاب في فلسفة الحكم والسياسة ، ومنهم باريتو وميشل اللذان كتبنا عنهما في هذه الرسالة ، وكان موسوليني يقول : « إن الذي جعلني أنا ما أنا لست مدينا به لنيتشه ولا لوليام جيمس ، بل لسوريل »

ومن عجائب الخصائص التي امتاز بها سوريل أنه يصلح أن يكون أستاذاً

لاناس يخالف بعضهم بعضا مخالفة النقيض . . لانه في طوية نفسه محافظ متمرد ، ويتوقف على فهم هذه الطبيعة فيه فهم كل ما آمن به وكل ما أنكره من المعتقدات والاخلاق .

كان فرنسيا من النورمانديين ، فيه ما فيهم من طبيعة الجد والمحافظة ، فهو لا يتمرد لانه يحب الإفلات من الواجبات والمأثورات ، بل يتمرد لانه يقدس الواجبات والمأثورات ويشمئز من التبذل والاباحة والانطلاق مع الشهوات والصغائر ، ولعل استقامته في حياته الزوجية مثل فريد بين الاكثرين من دعاة الثورة وأنصار التجديد .

ويمكننا أن نعرف الطريق التي تنفتح أمام هذا الثائر المتمرد إذا عرفنا الآراء التي كانت طاغية في زمانه على الافكار ، فهناك نزعة تمرد أمام كل رأي طغى على سائر الآراء ، ومن ثم كانت ثورة سوريل على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ، وثورته على الشيوعية الماركسية كذلك .

ولد سوريل في شربورج وتعلم في مدارسها ثم تخرج من مدرسة الصناعات والفنون بباريس واشتغل بهندسة الطرق والقناطر إلى أن بلغ الخامسة والاربعين وحصل باجتهاده وأمانته على وسام فرقة الشرف ، ثم ثقلت على نفسه آفات الفساد والاختلاس فترك الهندسة وعول على الدعوة إلى إصلاح المجتمع من حيث يقدر له الصلاح .

وران على ضميره شعور الاشمئزاز فملكته فكرة الانهيار والتداعي ، فراح يكتب عن تداعي العالم الحديث كما يكتب عن تداعي العالم القديم ، وليس أكثر في كتاباته من كلمات الانحلال والانحطاط والخراب مقترنة بوصف النظم الاجتماعية التي وجب في عرفه أن تنهدم أو تزال كما تزال الانقاض .

واتفق أنه تصدى للسياسة والفرنسيون خاصة يتحدثون عن آخرة الزمن Fin de siècle لاقتراب نهاية القرن التاسع عشر ، كأنما هم يتحدثون عن اقتراب يوم القيامة ! فوافقت هذه النغمة شعوره بانحلال كل شيء وحاجة كل شيء الى اعادة البناء .

وقد أسلفنا أن الافكار الطاغية في كل زمن من الازمان تدلنا على الوجهة التي تنفتح بطبيعتها أمام المتمرد في ذلك الزمن .

ولهذا تمرد سوريل ـ كما أسلفنا ـ على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ،، كما تمرد على الشيوعية الماركسية .

ففي أواخر القرن التاسع عشر بلغ مذهب داروين أوجه من الشيوع بين المفكرين فاستهوى إليه الباحثين والمتكلمين في المجالس عن محدثات العلوم ، وكان المذهب كما شاع يومئذ يقوم على نظرية تنازع البقاء ونظرية التقدم والارتقاء ، وهو خطأ في ترجمة كلمة التطور وقع فيه القراء الاوربيون كما وقع فيه قراء المشرق في أوائل عهدهم بهذه النظريات ، لان التقدم Progress لا يلزم من القول بتطور الحياة وتطور الاشياء على العموم .

أنكر سوريل كلتا النظريتين . فقال بتنازع القوة والسيادة بدلا من تنازع البقاء ، وقال بالدورات التاريخية بدلا من التقدم المطرد في أدوار التاريخ ، وقد رجع في الايمان بإرادة القوة إلى نيتشه ورجع في القول بالدورات إلى فيكوVico الذي يقول بنكسة الحضارة إلى البربرية وتجدد الحضارة كرة أخرى من غمرة البربرية دواليك على طول الزمن إلى غير انتهاء .

وكان العلم الحديث قد أرسل معاوله لهدم كل معتقد قديم ووقر في أذهان بعض أنصاره أنه قادر على تفسير كل سر من أسرار الطبيعة والنفس البشرية ، وقادر على إصلاح كل عيب من عيوب الاجتماع .

وبدأ رد الفعل على هذه الدعوى في إبان الوقت الذي تحول فيه سوريل من الهندسة إلى السياسة ، فثار على دعوى العلم بل ثار على العقليين الذين يعالجون مسائل الاخلاق ومشكلات الاجتماع كأنما هي كلها قضايا عقلية تخضع للمنطق والتعليل ، ووافقت ثورته هذه ظهور مذهب برجسون القائل بدفعة الحياة وظهور مذهب وليام جيمس القائل بأن « العمل الواقع » هو مقياس الحقيقة ، وامتزج المذهبان في رأي سوريل فأنحى على الفلاسفة الاقدمين والمحدثين الذين حسبوا أن الاقناع كاف للإصلاح وأن الاخلاق منوطة بتعريفات العقول والعلوم ، وعد من عيوب المجتمع « البرجوازي » أو مجتمع الطبقة الوسطى أنه يعتمد على الإقناع في جميع الامور ، ولا يلتفت إلى الفضائل الحيوية وبواعث العمل من أعماق السرائر والطباع .

وكفر سوريل بالاحزاب البرلمانية جميعاً ، وطوى لبه على إيمان لا يتزعزع

باستحالة الإصلاح والانقاذ على يد حزب من هده الاحزاب ، وزاده إيمانا بذلك أنه خاض معركة الدفاع عن الضابط دريفوس فلم يلبث أن لمس بنفسه كيف يعرض المسخ لكل حركة نبيلة في معترك السياسة ومنازعات الاحزاب ، وأيقن أن الجمهور الغالب بين سواد الناس لا ينساق لدعوات النبل والاريحية ولا تجدي مخاطبته بهذه الدعوات على اي نحو من الانحاء ، وإنما تجدي الدعوة إلى الاريحية النبيلة إدا خوطبت بها نخبة مختارة من المطبوعين على الإقدام والمفاداة ، وخرج من تعقيبه على تواريخ النهضات جميعا بفكرة لازمته طوال حياته ، وهي أن نهضات الاديان والحضارة كانت على الدوام من عمل نخبة قليلةélite تفرض مشيئتها على الكثرة الكبرى فتنقاد لها كما ينقاد القطيع لرائده أو لراعيه .

واشترك سوريل في السياسة العالمية أيام الدعوة إلى السلام وفض المشكلات بالتحكيم والوئام ، فنفرت نفسه من هذه الدعوة لانه اعتقد أن آفة الانسانية في زمانه هي الاستكانة إلى الدعة ، والركون إلى الرغد والرخاء ، وتهيب الإقدام على أخطار البطولة والفداء ، وهي الأخطار التي لا غنى عنها لاستنقاذ « المجتمع البشري » من الإسفاف والابتذال والنهوض به إلى المثل العليا وعظائم الطموح والآمال الجسام .

***

ولا يكتم سوريل أن آراءه هذه في مجملها تنم على التشاؤم وأنها صريحة في السخط والنقمة ، بل هو يجهر بتفضيل التشاؤم على التفاؤل ويزعم أن المتفائلين لا يعملون شيئاً لأنهم يتخيلون أن الحوادث تجري في مجرى الصلاح والأمل بغير حاجة إلى جهود المصلحين وذوي الآمال البعيدة ، وقد غلا في تشاؤمه أحيانا من غباء الجماهير التي يريد إصلاحها كما قدمنا ، وكان طوال حياته من أنصار الكاتب المعروف لقراء العربية جوستاف لوبون الذي يقرر أن الجماهير تبعد السادة ولا تبرح على استعداد للإقبال على « قيصر » يروعها بقوته وجبروته ، ولم يكن هو يكره أن تلتف الجماهير حول « قيصر » يلهب حماستها ويستنهضها لغايتها ، ولهذا جنح فترة من الزمن (١٩١٢) إلى حزب اليمين المتطرف الذي اشتهر باسم « أكسيون فرانسيز » Francaise Actionلانه الحزب الذي يؤمن بالعمل والقوة ويقدم النظام على الحرية وينكر المجالس النيابية في صورتها

الحاضرة ، ومن الواجب أولا في عرف سوريل أن تنصرف الجماهير عن لغط الديمقراطية وتلتف حول راية واحدة ، ثم تسعى بها النخبة المختارة إلى غايتها المنشودة .

أما هذه الغاية المنشودة فهي موضع الافتراق بينه وبين أصحاب المذاهب الاخرى . فهو مع إقباله على مذهب كارل ماركس في أوائل شبابه يخالفه كل المخالفة في جدوى المساعي السياسية والاعتماد على الحكومة ، وهو كذلك يخالف الاشتراكيين النيابيين ويعتقد أن حكومتهم إذا قبضوا على زمام الدولة لن تختلف عن حكومات النبلاء أو الطبقة اوسطى .

إلا أنه ـ مع مخالفته لكارل ماركس ـ يدين بقوة العوامل الاقتصادية ويستند إليها في اختيار الحركة التي تؤدي إلى الإصلاح . فلا بد من التعويل على طبقة اقتصادية لإنشاء المجتمع الجديد ، ولن تكون هذه الطبقة بالبداهة طبقة العلية لانها هي التي فسدت وجنت بفسادها على المجتمعات الحاضرة ، ولن تكون هي الطبقة الوسطى لان أوساط الناس يتحرون الامثلة العليا التي يتحراها علية الناس ولا يجدون في شؤون معاشهم موضعاً لفكرة جديدة يجرون وراءها لتقويض مجتمع وإقامة مجتمع في مكانه . فلم يبق إلا سواد الدهماء من الاجراء والمعوزين للنهوض بأمانة الرسالة الجديدة وراء هذه « النخبة المختارة » .

وعلينا أن نذكر دائما إعراض سوريل عن التفصيلات العلمية والبرامج المعقولة التي يتوخاها الطوبيون إذ يتوهمون أنهم مطلعون سلفا على كل خطوة من خطواتها في الحاضر والمستقبل . فأمثال هذه البرامج لا تقدم ولا تؤخر في حوادث التاريخ ، ولا يبلغ من أثرها أن تستجيش نفوس الجماهير وتلهب فيها الحماسة والنخوة وترتفع بها إلى التفدية والاستشهاد .

إنما اللازم في هذه الحالة خرافة أو أسطورة أو أمثولة أو فكرة ساحرة ، ولا يلزم عند عرض هذه الفكرة إلا أن تروق السامعين بصيغتها وتلقي في روعهم أنها قابلة للإنجاز في جملتها ، ومهمة النخبة المختارة هي توكيد هذه الفكرة بالتكرار والتعزيز والعمل الذي لا يحجم عن العنف إذا اقتضاه .

ويسمى سوريل هذه الفكرة « Myth » وهي في اللغات الاوربية تقابل الخرافة والاسطورة كما تقابل الشخص المتخيل أو المثالة التي يتمثلها من ينظر إليها ولا

يكاد يتبينها ، وقد اخترنا لها كلمة الامثولة لانها وسط بين معنى الفكرة ومعنى الخرافة . فإن سوريل لا يبلغ بمعنى الكلمة أن تكون فكرة قابلة للدرس والبرهان ، ولا يبلغ بها أن تكون خرافة يعلم السامع لها انها خرافة لا تثبت في عالم الواقع ، وقد قال في تعريفها إنها لا تقبل التنفيذ لانها مشروع عمل ومحاولة ، فكل ما يقال عنها إذا أخفقت أنها لم تتحقق اليوم وسوف تتحقق في المحاولة التالية .

والامثولة التي اختارها سوريل لتكويف الجماهير حول الراية هي « إضراب عظيم » تتحفز نقابات العمال والصناع لإعلانه في وقت من الاوقات ، ولا ضير في تصويره لهم في صورة الواقع القريب .

وفحوى الامثولة أن تعرض الطبقة الفقيرة عن الانتخابات وتنصرف بجهودها كلها إلى تنظيم النقابات وإعدادها ليوم « الإضراب الاعظم » متى تم لها أن تقبض على أزمة الإنتاج في المجتمع كله ، ويومئذ تضرب عن للعمل وتشل حركة الطبقة العليا والطبقة الوسطى وتبرم أمرها في إدارة المرافق العامة وتوزيع مطالب المعيشة بالمبادلة والمقايضة أو بأسلوب المعاملة الذي تمليه الضرورة في حينها .

أيمكن هذا ؟

في رأي سوريل أنه يمكن ، ولكنه يرى أيضا أن المهم هو فعل « الامثولة » في نفوس المتمثلين به لا إمكان وقوعها بجميع أجزائها ، وقد يقع الإضراب الاعظم أو لا يقع على طول الزمن ، ولكنه ينفع في بلوغ غرضه ويؤدي إلى نتيجة تهدي إلى ما بعدها .

فالاماني التي أذاعها الحكيم الايطالي « ماتسيني » بين قومه كانت كأضغاث الاحلام في رأي النقاد « المعقولين » . . ولكن إيطاليا الحديثة لم تكن لتصبح شيئاً مذكورا في العالم الاوربي لولا تلك الاماني والاحلام .

وجنود نابليون بونابرت كانوا يقدمون على « الاستشهاد » إيمانا بمجد البطولة ومجد الدولة ، وهم يعيشون ويموتون في فاقة لا ينفعهم فيها هذا المجد ولا ذاك .

وبعد فمن ذا الذي يسوغ له أن يدعي الجزم بما يكون أو لا يكون من أطوار الجماعات البشرية في المستقبل البعيد ؟

إن العقائد الكبرى قد انتشرت بين أتباعها لانها ملأت قلوبهم بالثقة وعمرت

صدورسم بالامل ووافقت منهم دخيلة السخط على ما هم فيه ، ولم تنتشر لانهم عرضوا وعودها على موازين الاحتمال فرجحت عندهم كفة الإمكان . . ويقول سوريل إن الدين الذي يوضح كل عقيدة بالعقل والبرهان يضعف ويتزعزع وإن الدين الذي يترك للغيب المجهول محلا من الضمير يقوى ويستقر ، وبهذا يعلل غلبة الكثلكة على اللوثرية في الديانة المسيحية .

يقول : إن البدعة الحديثة التي جاء بها القرن التاسع عشر قد خيلت إلى جماعات المتعالمين أن العلم التجريبي قادر على شق الحجب والنفاذ إلى غياهب المستقبل : « ولان الفلكيين سجلوا جداول القمر ترى المتعالمين يتوهمون أن غاية العلم كله هي استطلاع المجهول بدقائقه وخفاياه ، ولان فريبيه Verrier قد استطاع أن يومىء إلى موقع السيار نبتون الذي لم يكن مرئيا قط وكان فرض وجوده مفيدا في تعليل الاضطراب على السيارات المرئية - ترى المتعالمين يتوهمون أن العلم قادر على إصلاح عيوب المجتمع والايماء إلى الخطط التي تزيل المساوىء من هذه الدنيا . ومن الجائز أن نعتبر أن هذا هو تصور الطبقة الوسطى للعلم وأنه على التحقيق يطابق النزعة الفكرية التي هيمنت على رؤ وس أصحاب الاموال حين رأو أنهم - مع عجزهم عن الإحاطة بشؤ ون مصانعهم - يجدون على الدوام المخترع الالمعي الذي يخرجهم من ورطاتهم ، وكأنما كان « علم الطبقة الوسطى » طاحونا تخرج لنا حلولا لجميع المشكلات التي نلقاها في طريقنا ، فليس العلم إذن وسيلة من وسائل إتقان المعرفة ، بل هو حيلة لتحصيل بعض المنافع المطلوبة » .

وكذلك يتقي سوريل اعتراض العلماء والباحثين المحللين على فكرته العزيزة التي ساهم بها في حركة الثورة النقابية ، وهي الإضراب الاعظم .

ونقول إنه ساهم بها في الحركة النقابية لان الحركة النقابية في ذاتها كانت قائمة منتشرة قبل انتمائه إليها ، ولكنه برز فيها لانه اشتهر بتوكيد أمثولة الإضراب الاعظم وساعد على تدعيم الحركة النقابية بنظريات الفلسفة وعلم الاجتماع ، وقد أراح نفسه وأراح أصحابه من مؤ ونة المناقشة والجدل حول هذه الامثولة ، فتقرر لديه أن العلم مخطىء في ادعائه الإحاطة بما ينجم عن التبشير بالإضراب الاعظم ، ولكن المبشرين به غير مخطئين لانهم على يقين من إنجاز شيء على سنة

العمل والتغير التي حلت في اعتقاده محل سنة التقدم والارتقاء .

وقد أسلفنا أن الرجل صالح لان يتتلمذ عليه المتفقون والمتناقضون ، ولعل طبيعة الحركة النقابية نفسها ترشحها للالتقاء بكثير من المذاهب على فرط ما بينها من التناقض والافتراق .

فهي تلتقي بالفوضية لانها تنكر الحكومة وتنفي عن برنامجها استخدام الجند والشرطة في مجتمعها الذي تسوده بعد نجاحها ، وتصر على أنها إذا بلغت من القوة أن تستخدم الجند والشرطة فقد بلغت من القوة ما يكفي لإدارة المجتمع بالنقابات دون غيرها .

وهي تلتقي بالشيوعية لانها تؤلب الاجراء والفقراء وتعتبر الحرب بين الطبقات أصلا من أصول الاطوار الاجتماعية .

وهي تلتقي بأحزاب اليمين المتطرفة لأنها تحارب الديمقراطية والحكومة النيابية وتكل الامر إلى النخبة الممتازة دون الكثرة المغمورة .

بل هي تلتقي بالمصلحين السياسيين من رجال الكنيسة الذين يقترحون الحكومة التعاونية Corporative State لحل مشكلة الطبقات ، فإن التعاون يقوم في بدء الامر على نقابات .

ولا يرى أحد من المطلعين على مساعي الدعاة الاجتماعيين والسياسيين - ما ظهر منها وما بطن - أن الحركة النقابية تتقدم في العالم وتؤذن بالامتداد والاتساع ، فربما كان أهم سبب للهتاف باسمها أن النقاد نسبوا نجاح الفاشية الايطالية والنازية الالمانية إليها ، وزعموا أن موسوليني طبق نظام النقابات في مجلسه النيابي تنفيذاً لآراء سوريل الذي أعلن غير مرة أنه من تلاميذه !

بيد أنه « نجاح معكوس » أن ينتهي إنكار الحكومة إلى تركيز السلطان كله في أيدي الحكومة ، فربما كان القول بإفلاس النقابية لهذا السبب أصح من القول بنجاحها لاجله ، ولا سيما بعد انهيار الفاشية والنازية وبعد تجربتها في الدولتين على أوسع نطاق .

والظاهر أن « النقابية » مبتلاة بداء أصيل يتعذر شفاؤه ، إذ هي تصاب مما يبدو أنه موطن القوة فيها . فعلة فشلها لاصقة بعلة رواجها لا تنفصل عنها

إن من شواهد القوة - في الظاهر - أن تلتقي المذهب بعدة مذاهب تتناقض فيما

بينها كما تتناقض الفوضية والشيوعية أو الفاشية والحكومة الدينية ، ولكن هذا بعينه هو مكمن الضعف في المذهب حيث التقى وحيث افترق ، إذ هو يتشعب ويتوزع ولا يصيب قوته كلها في اتجاه واحد ، فله ممن يؤ يدونه من جهة محاربون مستميتون في حربه من جهة أخرى ، كلما وصل إلى الفعل الحاسم والتنفيذ الاخير .

وإذا جاز الاخذ بالارقام المسجلة في أسانيد المصانع وأسانيد الهيئات الثورية فهذه الارقام تدل على تناقض النقابيين في جميع البقاع التي ظهروا فيها ، وكأنما يطرد النقص في عددهم ورواج دعوتهم في كل قطر تقدمت فيه الصناعة والحكومة النيابية . فهم على حظ من الرواج في أمم أمريكا اللاتينية وكانوا على حظ من الرواج في أسبانيا الجمهورية ولكنهم يتأخرون ولا يتقدمون بين صناع الولايات المتحدة والجزر البريطانية .

ففي الولايات المتحدة نشأت طائفة من العمال على غرار النقابات الفرنسية وسميت هناك « باسم عمال الدنيا الصناعيين » وهي الطائفة التي يشار إليها بحروف (i . w . w) اختصاراً لاسم Industrial Workers of the World ولكنها لم تلبث أن عكفت على نفسها وانعزلت عن صفوف الحركة العمالية في أنحاء الولايات من أقصاها إلى أقصاها ، فبقي فيها الطارئون المهاجرون وقيل على سبيل الفكاهة إن عمال أمريكا طبقتان : طبقة أرستقراطية وهي التي اشتملت على المحنكين الاصلاء وطبقة عامية وهي التي اشتملت على هؤلاء الطارئين الغرباء ، وقد أصاب الفرع الكندي والفرع الاسترالي ما أصاب زملاءهم في الولايات .

أما الجزر البريطانية فالذين بقوا من عمالها خارج النقابات التي تدين بالجهود البرلمانية لا يزالون في الوقت نفسه خارج النقايات الثورية التي تنكر البرلمان والحكومة ، وقد اتخذوا لهم عنوانا آخر باسم الاشتراكية النقابية Guild Socialism وخالفوا النقابيين الثوريين في إنكار الحكومة معلنين أن بقاء الحكومات لا يضير « المصنع » إذا اشتغل بإدارته على الاصول الاقتصادية .

وسوريل نفسه قد ختم حياته وهو على يأس من النقابيين الثوريين فاعتزلهم واعتزلوه ، وشيعته الصحافة الشيوعية الرسمية بأوصاف لا ترضي تلاميذه من

قبيل : « الرجعي والبرجوازي والفوضي والبرودوني ـ نسبة الى برودون Proudhon ـ » ذاكرة له فقط أنه كان يعمل على إضرام الثورة ما استطاع .

ولم يكن الرجل ذا وجهين باختياره ، ولكنه كان على الرغم منه ذا وجوه شتى يلاقي بها أقصى اليسار وأقصى اليمن ، فأدركه حظ من تعددت وجوهه ، فلم يكن وجيها عند هؤلاء ولا هؤلاء .

باريتو

Pareto

١٨٤٨ - ١٩٢٣

ڤلفريدو فردريكو داماسو باريتو هو وريث أسرة إيطالية نبيلة ، كان أبوه من أنصار « ملا تسيني » إمام الوطنية الايطالية وأقام زمنا في فرنسا فتجنس بالجنسية الفرنسية وقضى حياته منتصرا للمبادىء السياسية المتطرفة ، وولد له ابنه « باريتو » صاحب المذهب الذي نحن بصدده في باريس حيث نشأ وتعلم وتخرج من مدارسها ومدارس تورين .

وقد خلف باريتو أباه في هندسة السكة الحديد الايطالية ، ثم اشتغل بهندسة المناجم وعكف في أثناء ذلك على مذاهب الفلسفة الحديثة وأهمها في إبان نشأته مذهب أوجست كونت إمام المدرسة الوضعية ، وقد خرج من دراساته وتجاربه مناقضا لرأي أبيه في إيمانه بمادىء الحرية المتطرفة ، فكان من أنصار حرية التجارة ولكنه كان يشعر بخيبة الامل من جراء إخفاق الحكم الديمقراطي في بلاده وفي بعض الامم الاوربية الاخرى ، ولما أعياه تقرير مذهبه في الاقتصاد وفي السياسة بين أبناء وطنه تحفز للهجرة منه ولبى أول دعوة وصلت إليه من سويسرة لتعليم الاقتصاد السياسي بجامعة لوزان ، وهناك توفر على بحوث الاقتصاد ثم على التوسع في دروس الحكم واستخلاص القواعد التي تقوم عليها النظم الحكومية ،

وانتهى منها بالرأي المفصل الذي شرحه في كتابه الضخم المترجم إلى اللغة الإنجليزية باسم العقل والمجتمع Mind and Society ويعتبر باريتو أعلم هذه الزمرة من فلاسفة الحكم في العصر الحديث ، فهو على علمه بالرياضة صاحب نظريات وتعريفات في علم الاقتصاد عن القيمة والدخل والطلب ورأس المال والسعر يعول عليها الاقتصاديون ويحلها الموافقون لها والمتشككون فيها محل الاعتبار ، وكتابه الذي تقدم ذكره أوفي الكتب مراجع من أمهات التواريخ والثقافات الغابرة والحاضرة ،وأحفلها بالاسانيد والامثلة والقرائن التي عني بتقسيمها وتبويبها على نهج المناطقة والعلماء التجريبيين ، فهو في مجلداته الأربعة الضخام أوفى كتب الفلسفة السياسية التي وضعها الاقدمون أو المحدثون إلى اليوم .

ومع شغف الرجل بوضع القوانين وتسمية النظريات لم تغرر به الثقة إلى الجزم بعصمة القوانين التي تتعلق بأطوار المجتمعات الإنسانية . ففي وسعك أن تقول إن التاريخ يكرر نفسه كما في وسعك أن تقول إنه لم يكرر نفسه قط على حسب الواجهة التي أنت ناظر اليها ، فإذا نظرت إلى جوهر العوامل التاريخية فهناك تكرار لا شك فيه ، وإذا نظرت إلى العوارض الظاهرة فليست هناك عارضة تشبه غيرها كما تشبه النسخة من الكتاب نسخة أخرى ، ومن كلامه في تقديم نظرياته : « إن القوانين التي تسمى بقوانين العرض والطلب لا يمكن أن تستخلص من الإحصاءات وفاقا للمقادير والأثمان التي ترصد لبضاعة ما مجلوبة إلى السوق . فإذا قال الاقتصاديون إن زيادة الغرض تؤدي إلى هبوط الثمن فهم يقررون قانونا عن حالة مثالية ينذر أن تشاهد في عالم الواقع ، ويجب أن نلاحظ في تطبيق نظريات الاقتصاد أنه من الوهم أن نعتقد أننا أقرب إلى الواقع حين نبدأ بقانون العرض والطلب مما نكون حين البدء بقانون الاستعمال والمنفعة الذي ذهب إليه الاقتصاديون الاولون أو قانون هامش المنفعة أو الندرة أو المحدودية وغيرها من قوانين الاقتصاديين المتأخرين ، ومهما نصنع فنحن في النهاية راجعون إلى التجريدات العامة ولا يسعنا أن نصنع غير ذلك » .

فلا محيص إذن من التفرقة بين القوانين التي يثبتها التطبيق طردا وعكساً كقانون الجاذبية في الفلك مثلا وبين القوانين التي تبنى على حشد الآمثلة والمقارنات

وتلجئنا إلى الخوض في كثير من المشابهات والمفارقات ، ثم تؤخذ الحقائق فيها بالتغليب في غيبة ما هو أولى منها بالاعتماد عليه ، وأصدق منها في تفسير العدد الاكبر من الوقائع والاطوار .

بذلك الاطلاع ، وبهذا التحفظ ، تقدم « باريتو » إلى شرح نظريته المستفيضة في نظم الحكومة ، وهذه خلاصة منها كأوجز ما يمكن أن تلخص ألوف الصفحات في بضع صفحات صغار .

* * *

أول ما يقرره باريتو أن أعمال الإنسان لا تقترن كلها بالتعقل ولا بمعرفة الاسباب ولا تكون الاسباب التي تعزى إليها هي الاسباب التي توحيها ، ولا سيما الاعمال التي تدور عليها سياسة المجتمعات .

فهناك أعمال تعقلية أو منطقية ، وهي الاعمال التي لها غايات معلومة ووسائل مرسومة ، كالمنضدة يصنعها النجار ، والكتاب يصنفه المؤلف ، والقصر يشيده البناء ، والصورة ينقشها الرسام .

وهناك أعمال لا تخضع للتعقل ولا يتابعها التعقل إلى نهاياتها ، ومنها السعي إلى الامثلة العليا ، أو أحلام السعادة الابدية ، أو الانظمة المثالية في المجتمعات ، أو ما شاكلها من المطالب التي لا تتضح غاياتها ولا تتفق العقول على وسائلها .

ونحن في الاصطلاح نسمي الاعمال الاولى بالمنطقية ونسمي الاعمال الثانية باللدنية أو الغريزية ، ونفضل اللدنية لان الغريزة قد تتصل كثيرا بالمعقولات .

ولهذه الاعمال جميعاً من النفس البشرية مصدران : مصدر الجذور ومصدر المشتقات .

فالجذور قلما تتغير من زمن إلى زمن ، والمشتقات هي التي تتغير بالاسماء والتعبيرات الكلامية والفنية ، ويكثر تغييرها عندما يزول نظام من أنظمة الحكم ويخلفه نظام آخر ، فلا بد لكل نظام من مشتقاته ومصطلحاته ، مع بقاء الجذور في الغالب على ما كانت عليه .

والجذور على الدوام هي المصدر الاكبر للاحداث السياسية ، فإنما المشتقات تفسيرات لا يهم كثيراً أن تتفق أو تختلف ، ما دامت الجذور هي الاساس المكين .

لهذا يتفق في التاريخ أن تعترف الامم بغاية واحدة ودين واحد ولكنها تتناحر فيما

بينها كأنها متشعبة المقاصد متناقضة الآمال ، لان مقاصدها وآمالها هي المشتقات العرضية ومن ورائها الجذور الكامنة على الدوام بغير تبديل .

وكذلك يتفق أن تتفرق الامم شعارا ومقصدا وتجتمع في صف واحد أمام عدو واحد ، لان حركاتها تصدر من جذورها ، وجذورها على وفاق عند انقسام الاصدقاء والاعداء .

وقد عرض باريتو ألوف الحوادث والصروف التاريخية والدوافع النفسية ثم ردها جميعا إلى ستة أنواع من الجذور .

النوع الاول سليقة التوفيق Combination وهي السليقة التي توحي إلى الإنسان أن يوفق بين كيانه وبين مؤثرات الكون الذي يعيش فيه ، ويصدر عنها السحر والاعتقاد في بعض النجوم أو الارقام أو الطوالع والبخوت ، كما يصدر منها ربط الوقائع العلمية وربط المشروعات الكبرى وكل محاولة لتقرير مركز الإنسان بين ما يحيط به من المؤثرات والآثار .

والنوع الثاني سليقة المثابرة والصيانة Group Persistences وهي الكفيلة بحفظ تلك التوفيقات والغيرة عليها والدفاع عنها ، وإليها ترجع المحافظة على تقاليد الاسرة والامة وضروب العقائد والعادات .

والنوع الثالث سليقة التعبير بالكلام والعمل ، وإليها يرجع الاعراب عن شكايات المجتمع ومقترحات الإصلاح والنقمة من خروج بعض الناس على التوفيقات والتقاليد والاجتهاد في ردهم إلى ما يعتبره العرف سواء السبيل .

والنوع الرابع سليقة العلاقات الاجتماعية ، وإليها يرجع عرف الناس في صلات بعضهم ببعض آحادا وأسرا وطوائف وطبقات وهي سليقة وثيقة الارتباط بالنوعين الاولين .

والنوع الخامس سليقة السلامة وهي تتعلق بفرد فرد من آحاد المجتمع ، ثم هي سليقة يحكمها العرف والعادات ، ولاجلها يتشبث كل عضو من أعضاء المجتمع بسلامة حوزته ويعقد الصلة بينها وبين معالم الحياة الاجتماعية خشية ما يصيبه في سلامته من جراء المساس بتلك المعالم ، عدا ما يساوره من الغيرة على معالم الاجتماع بغير نظر إلى سلامته « الشخصية » .

والنوع السادس سليقة الجنس ، والمقصود بها عرف السليقة الجنسية لا مجرد

الرغبة المتبادلة بين الجنسين ، وعن هذه السليقة تصدر الطواطم الاجتماعية والمحظورات وقضايا الاخلاق وما يصح أن يسمى بالعقد النفسية في الجماعات والآحاد وخرافات الحمل والولادة وخصائص الذكور والإناث والابناء والبنات .

* * *

تتجمع هذه الجذور ـ متحدة أو منفصلة ـ في أساس كل حركة سياسية تشمل المجتمع في حالتي المحافظة أو التجديد ، وهي كما تقدم لا تتغير من جيل إلى جيل إلا في صورها وتعبيراتها الظاهرة وهي المشتقات والفروع .

وقد أحصى باريتو هذه المشتقات فأدخلها في أربعة أنواع : أولها هو مرجع الحكم الاجتماعية والقواعد السياسية التي يتخذها الناس قضايا مسلمة يرددونها أحيانا بغير بحث عميق في معانيها ، وقد تكون صحيحة أو غير صحيحة ، وقد تكون صحيحة في أوقات وغير صحيحة في أوقات أخرى ، ولكن المهم هو سريانها في العرف لا مقدار ما يتحراه القائلون بها من الصحة والتحقيق ، ومن أمثلتها قولهم : « في التأني السلامة وفي العجلة الندامة » و « الظلم مرتعه وخيم » و« عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » و« الناس أكفاء أبوهم آدم وأمهم حواء » و« صوت الشعب من صوت الله » و« الإحسان منجاة من السوء » و« رأيان أفضل من واحد ورأي الثلاثة لا يخطيء » و« خير لك أن تصاب مظلوما من أن تصيب ظالما » ومانحا هذا النحو من حكم الاخلاق الاجتماعية التي يستشهد بها في المواقف السياسية ، وأقواها وأنفذها ما كان موجزا يسهل تكريره على صيغة واحدة .

والنوع الثاني من المشتقات هو الذي يوحي إلى النفس الاطمئنان إلى المصادر والأسانيد التي تستمد من أقوال المشهورين الموصوفين بالثقات ، فما قيل قد يما يتلقاه الخلف بالتسليم ولو لم يكن هناك برهان في الحاضر أو الماضي على صدقه ونجاح المعتمدين عليه .

والنوع الثالث هو المبادىء التي يحسن وقعها في الشعور أو توافق المقررات الشائعة في زمن من الأزمان ، وبهذا النوع من المشتقات يتمكن الدعاة من ترويج أقوالهم بما يسمونه « إرادة الشعب »أو « المصلحة العامة » أو « حرمة الوطن » أو

« حقوق الإنسان » أو « التضامن الاجتماعي » وما إليها من العبارات التي يصحبها شعور مبهم بالموافقة والحماسة .

ورابع الأنواع هو المجازات والكنايات التي يختلط فيها الواقع بالتخيل والتقرير بالتشبيه والتمثيل .

وهذه المشتقات جميعا يطرأ عليها التغيير بين نظام ونظام من سلسلة الأنظمة الحكومية المتعددة ، والداعون إلى النظم الجديدة يعنون باستبدال مشتقات جديدة بالمشتقات القديمة التي يخشون أن تصدمهم وتعرقل حركاتهم كلما هجموا على تراث غابر طالت مدته وتسلل إلى الوعي الباطن في نفوس الجماهير ، ويعينهم في معظم الأحوال على تغيير المشتقات أن تقترن بالنظم الحكومية التي تتابع سخط الرعية عليها وما زالوا يتبرمون بها حتى فقدوا الثقة بقوال دعاتها أو سئموها وكرهوا تردادها ولو لم يفهموا بطلانها . إلا أن المشتقات الجديدة لن تخرج عن كونها صورا وتعبيرات لتلك الجذور الخالدة التي كمنت في الطبيعة البشرية ولازمتها على تعاقب الحكام والحكومات .

ويسأل السائلون : لماذا تحدث الثورات وتتجدد الحكومات إذا كانت تقوم دائما على الجذور الكامنة في الطبيعة البشرية .

وجواب باريتو عن ذلك في كلمات معدودات هو قانون « تناوب الصفوة الممتازة لمقاليد الحكم بين الأجيال المتوالية » .

فمن الخطأ أن نتخيل أن الجماعة البشرية تظل على حالة واحدة لأنها لا تخرج عن طبيعتها البشرية .

فالجماعة البشرية خليط من الأنساب والأجناس والأمزجة والمدارك والمنافع والصناعات ، وقد تكون شروط بقائها معروفة بالنسبة إلى الجماعات الأجنبية التي تزاحمها ، ولكن الشروط الداخلية لا تستقر على حال ولا تطرد على نسق واحد بين جميع الأجيال .

فشرط البقاء في معترك الأمم يتلخص في المناعة والقوة ، وبغير مناعة ولا قوة لا

أمان على الدولة من الضياع أو الخضوع لمن ينازعونها .

أما شروط البقاء للمجتمع في حياته الداخلية فهي متقلبة متجددة ، وفقا للتقلب والتجدد في تركيب عناصره وزيادة بعضها ونقص بعضها ، ونشاط فئة منها وانقباض فئة غيرها .

وقد كان من السهل أن نتوهم مصلحة واحدة للمجتمع الصغير في الأزمنة الغابرة ، وأن نتوهم أن كل مواطن في ذلك المجتمع يعمل مع إخوانه في اتجاه واحد هو الاتجاه القومي الشامل للمواطنين أجمعين .

أما المجتمعات الحديثة فربما كانت لبعض أبنائها مصلحة تناقض مصلحتها في أشد الأزمات التي تهدد كيانها ، كما يحدث في إبان الحروب من التناقض بين أنصار التضخم والغلاء وأنصار الحرب على العموم وبين سواد الرعية الذين يقع عليهم عبء الغلاء وعبء القتال .

ففي مجتمعات كهذه تتصارع القوى وتتدافع المطامع ولا ينقطع التنافس على مراكز الحكم بين ذوي الحول والحيلة وهم لا يصعدون إليها جميعا في كل آونة ، بل يحدث على الدوام أن يكون هناك أناس مقصون عن الحكم وهم قادرون عليه ولا يقلون قدرة عليه عمن تولوه بالحول أو بالحيلة .

وفي كل مجتمع فئات من العسكريين ورجال الدين وكبار الأغنياء والمفكرين والمغامرين والمحتالين على قلة أو كثرة في العدد ، وعلى رجاحة أو نقص في المزايا الخلقية والعقلية ومن صفوة هؤلاء كلهم تتألف الحكومة وتستأثر بسلطان الحكم حتى تفقد مزاياها الأولى وتضعف عن حماية سلطانها فتخلفها على المهل أو على العجل صفوة أخرى يصيبها مع الزمن ما أصاب سابقاتها .

والأمثلة التاريخية التي يرى باريتو أنها تعزز رأيه تستغرق المئات من الصفحات ، وقد تلخص في مثل عام يغني عن الإسهاب في السرد والتفصيل

فئة من الأقوياء يثبون إلى مراكز الحكم في حقبة مؤاتية ، يستعينون بأعوان من الدهاة وأصحاب الحيلة على توطيده وحل مشكلاته ، ويضعف الأقوياء كلما

استسلموا للطمانينة والمعيشة الرتيبة ، ويتهاون الدهاة كلما جازت الحيلة واستقرت عليها العقائد والعادات فلا يكلفون أنفسهم عناء التدبير والتفكير ، ومع ضعف الأقوياء والدهاة يسوء الحكم وتضطرب الحال وتتشعب مصالح الأشياع والخصوم ويتطلع إلى الحكم طراز آخر من الأقوياء والدهاة طال بهم التربص وانتظار الفرصة ، فما هي إلا أن تسنح لهم حتى يثبوا وثبتهم ويعيدوا تمثيل الدور السابق كرة اخرى .

وبين الجذور الستة التي لخصناها فيما تقدم نوعان يرشحهما باريتو لولاية الحكم في جميع الأدوار ، وهما النوع الأول الذي يشتغل بالتوفيق من سحرة وكهان ومفكرين وذوي احتيال وتصرف ويسميهم كما سماهم مكيافلي بالثعالب ، والنوع الثاني الذي يشتغل بالمثابرة والصيانة ويركن إلى القوة والاقدام والطبع الغيور ويسميهم مثله بالأسود ، ولا خوف على الحكم ما دام له حماة من ذوي الحول والحيلة ، ولكنه شرط لا يتوافر على توالي الزمن ، فلا يسلم المقتدر بحوله أو بحيلته من جرائر التواكل والاهمال ، ومن دأب أصحاب الحيلة أن يفقدوا الصفات العسكرية ، ومن دأب أصحاب الحول ان يفقدوا صفات الدهاء والمداورة ، وبمرصد لهم أناس يزيدهم التطلع همة ويزيدهم الأمل بأسا وشدة ، لا يقلون عنهم قدرة وقد يزيدون عليهم ، فتسنح لهم الفرصة لا محالة بعد انتظار يطول أو يقصر ولكنه لا يدوم إلى غير انتهاء .

« وهب أمة من الأمم لها صفوة حاكمة من النوع الأول الذي يشتمل على أوفر العناصر في الرعية قاطبة حظاً من الحنكة والذكاء . ففي هذه الحالة تتجرد الرعية على الأغلب الأعم من هذه المزية ويضعف أملها في الانتصار على الصفوة الحاكمة ما دام المرجع إلى الذكاء والحصافة . . غير أن المعهود على الأغلب الأعم أيضاً أن أصحاب الحيلة والذكاء يفقدون الميل شيئاً فشيئا إلى استخدام العنف والقوة . والعكس بالعكس في أمر أصحاب العنف والقوة ، ومن ثم يؤدي تركيز الذكاء في الأولين إلى تركيز العنف والاقدام في الآخرين ، ويختل التوازن بين الفريقين مع الاستمرار ، لأن أحدهما زاد حظه من الحيلة ونقص حظه من الجرأة والاقدام والثاني زاد حظه من الجرأة والاقدام ونقص حظه من الحيلة ، فإذا حصل مصادفة

أن ذوي الاقدام وجدوا لهم زعيما يحسن الاحتيال وتصريف الأمور ـ وقد ظهر من المصادفات المتكررة في التاريخ أنهم لا يعدمون هذا الزعيم من بين الطائفة المتذمرة في صفوف الدهاة أنفسهم ـ فيومئذ يتهيا لهم كل ما يلزمهم لاقصاء الحاكمين عن الحكم ، وهي الدورة التي لا عداد لتكرارها منذ فجر التاريخ إلى أوقاتنا الحاضرة » .

***

تلك صورة تقريبية تتكرر على مدى الزمن ، بيد أنها لا تتكرر على هذا الشكل دون غيره ، بل تتبدل أشكالها ويثبت منها شيء واحد من وراء تلك الآشكال المتبدلة فلا تفتا صفوة تعلو وصفوة تهبط بالحول وبالحيلة على أساليب شتى ، تتراوح بين أسلوب سبرطة العسكرية وأسلوب أثينا الفلسفية ، وفي كل منها مزيج من السطوة والحصافة .

ويستخدم باريتو بعض مشتقاته أو مصطلحاته لتطبيقه على علم السياسة كالحكمة التي يقابلها عندنا قول القائلين « إن الناس على دين ملوكهم » .

فإنه يقرر أن الآداب والأخلاق في كل مجتمع هي آداب الصفوة وأخلاقها ، وأن الرعايا يتشبهون بحكامهم إن لم يماثلوهم طبعا وعادة واستعدادا للتخلق بالأخلاق الاجتماعية ، ولا يزال المجتمع في أمان ما دام المحكومون يدينون بالآداب والعقائدالتي يعلنهاالحاكمون ويحافظون عليها ، وقد يؤمن الرعايا بوصايا المسيحية التي تحرم القتل والسرقة والكذب وتحث على الايثار والرحمة ويقعون في تلك الأوزار ويتعدد بينهم من يعصون أوامر الدين وينتهكون وصاياه ، فلا يكون العصيان خطرا على النظام القائم كخطر الشك في وجوب تلك الأوامر والوصايا . إذ ليس العصيان هدما للأساس الذي يستقر عليه النظام ، وإنما الكفر به هو الذي يهدم النظام ويعرضه للتصدع والانهيار .

ولا خطر على المجتمع من الذين يتشاءمون بوقائع الأخلاق فيسخرون ممن يشيد بالفضيلة وينكرون أن الصدق ينجي صاحبه والكذب يوقعه في المهالك كما يقال على ألسنة الوعاظ والمرشدين ، فإن هذا التشاؤم يحمل أحيانا محمل الغيرة

على الصدق والسخط على الكذب والرثاء لمن يصابون في سبيل الحق والفضيلة ، ولعل في ذلك متنفسا للساخطين وبابا من أبواب الحض على إصلاح العيوب والتحريض على الآثمين .

وإنما الخطر على المجتمع ممن يسقطون تلك الفضائل والواجبات إيمانا بسقوطها ودعوة إلى عقيدة غير العقيدة التي توجبها ، فهذه هي علامة الخطر والتصدع في البنية الاجتماعية ولن تتماسك بنية تتزلزل فيها قواعد الأخلاق .

وقد ينجم في الآمة مصلحون ومجددون يخيل إليهم ان جلاء الحقيقة عن بعض الخرافات كاف لازالة الآفات الاجتماعية وتقويم النظم والحكومات ، ويجوز أن يصيبوا كما يجوز أن يخطئوا والمجتمع على صواب . غير أنهم مخطئون حتما إذا خيل إليهم أن الجهل وحده هو العامل الذي يحول بين الناس وبين التصرف المنطقي المعقول ، فهناك عوامل غير الجهل تبقى مسيطرة على أعمال الناس ولو زالت من عقولهم جميع الخرافات والأباطيل ، ولم يعهد قط في مجتمع مضى أن الناس خلوا من جهالة أو خرافة وصمدوا على التفكير المنطقي في شؤ ون السياسة ، ولا يظن قياسا على هذا أنهم يخلون يوما من الجهالات والخرافات مهما يتقدم بهم العلم وتنكشف أمامهم مجهولات الكون والطبيعة البشرية .

وذهابا مع هذا الظن ـ بل نكاد نقول مع هذا اليقين ـ ينحى باريتو على من يخلقون الأديان المنطقية في زعمهم ويحسبون أنهم يعوضون بها الناس عن أديانهم التي ألفوها ، فليس أشد من إنحائه على جماعة المتدينين الذين يسمون أنفسهم بالانسانيين Humanitarians ويتوهمون أنهم يصلحون الضمائر بدين يخلقون قداسته بتدبيرهم ، فإنه ـ على تقدير بارتيو ـ دين لا يحسب للمجهول حسابه ، وهو الجانب العميق الذي لا يتجاهله دين من الأديان .

وبعد فما هو النظام الذي يزكيه باريتو ويوطىء له بمذهبه المستفيض الذي اضطلع بجهود الجبابرة لشرحه وتدوينه ؟

إنه لا يتشيع لنظام على نظام ، ولا يلقي بالا إلى فروق الأسماء والقواعد الشائعة أو ما يسميه المشتقات ويرى أنها فروع تقتلع أحيانا ولا تقتلع معها الجذور

إنما هو يبسط الوقائع التاريخية كما وعاها ، ومن تلك الوقائع تبدو له حالة أفضل من حالات ولا يجزم أنها ميسرة الوقوع بالطلب والاختيار .

فالحالة الفضلى هي أن تتولى الحكم صفوة ممتازة من ذوي الحول والحيلة وتتفتح الأبواب لتداول الصفوة كلما أخفقت طائفة منها واستعدت طائفة أخرى للصعود إلى مكانها ، وأن تكون آداب المجتمع معتقدة مرعية لا يتشكك فيها الرعاة ولا الرعايا ، وتتفتح الأبواب هنا أيضا لتجدد الآداب على التدريج بغير حسم بين القديم والجديد يستلزم الصدام بينها لتقويض دعام وإقامة دعام .

ولهذا يتطرف باريتو غاية التطرف في التوصية بحرية المعاملة وحرية التجارة ، وينتقد الطبقات الحاكمة التي تحجر على المعاملات ويدخل في روعها أنها تستديم بذلك مصالحها ومصالح وارثيها . « فما من وسيلة لتوطيد السلم والأمان أنجع من أن تطلق الحرية للتجارة ويمتنع إتلاف الثروة ». وهو على طريقته في الحساب الاقتصادي يفرض أن سنتيما واحدا خصص للتثمير في عهد ميلاد السيد المسيح وجعلت فائدته أربعة في المائة قد تنقص مع دوام السلم ووفرة الرخاء ، ثم يقدر : كم يبلغ هذا السنتيم في سنة ١٩٤٠ بعد الميلاد ؟ إنه يبلغ على حسابه . (٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ريال .

كذلك يقرر من الوجهة الاقتصادية العملية ، لا من الوجهة النفسية وحسب ـ « ان أوفر الأعمال نتاجا هو العمل الذي يقبل عليه صاحبه برغبته ، وأقلها نتاجا ما يعمله لخشيته من العقاب ».

ولو جرى الناس في مطالب حياتهم على سنة التعقل لما حجروا على المعاملات ولا حكموا في الأعمال أمرا غير الرغبة والحرية ، ولكنهم في رعايتهم للحرية والطلاقة ما كانوا قط أحراراً مطلقين .

جايتانو موسكا

١٨٥٨ ـ ١٩٤١

ولد هذا الفيلسوف السياسي في نحو منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفي في نحو منتصف القرن العشرين ، فلو أنه اكتفى بما حدث في مدى حياته من وقائع السياسة وخطوبها لاستطاع أن يتزود من هذه المادة الزاخرة ما يدعم به مذهبا كاملا في أطوار الدول والحكومات .

ولد في صقلية وهي مهد الوحدة الايطالية ومعرض التاريخ الحافل بآثار الدول وغرائب العادات الاجتماعية من أقدم العصور .

ونشأ وهو يستمع الى قصص القتال بين الدولة الدينية المقدسة والدولة المدنية المستقلة ، وتلقى في صباه أقاصيص الرواة عن غريبالدي وفكتور عمانويل وهي من أعجب الأقاصيص عن العلاقة بين القائد « الدكتاتور » والملك المختار ، ثم شهد القارة الأوربية وهي تنتقل من نظام إلى نظام من أنظمة الحكم على اختلافها بين ملكية مطلقة وملكية مقيدة وبين جمهورية وإمبراطورية ، وبين انتخابية تضيق فيها حقوق التصويت إلى انتخابية تتسع فيها هذه الحقوق غاية مداها من الاتساع .

وعاصر فرنسا وهي تتحول من جمهورية إلى إمبراطورية إلى إمبراطورية ثم من إمبراطورية إلى جمهورية كرة اخرى ، وشهد قيام الدولة الجرمانية الموحدة كما شهد قيام غيرها من الدول الصغيرة في أوربة الشرقية ، ولم تمض في حياته فترة دون أن يسمع بنبأ من أنباء الثورات أو الفتوح ، وامتد به العمر حتى حضر الحرب العالمية الأولى وأحاط بكل ما تلاها من أسباب القلاقل أو أسباب قيام الحكومات وتنازعها وانهيارها ، وتم في أيام نضجه تطبيق ثلاثة من المذاهب السياسية في نطاق واسع بين أمم مختلفة الأجناس والثقافات ، فطبق المذهب الشيوعي في روسيا وطبق المذهب الفاشي في إيطاليا وطبق المذهب النازي في ألمانيا ، وطبقت مذاهب أخرى تمتزج فيها هذه المذاهب على درجات من الامتزاج في غير بلاد السلافيين والتيوتون واللاتين ، وعاش إلى ما بعد نشوب الحرب العالميه الثانية فكانت تلخيصا شاملا لكل ما عالجه من المشكلات القومية والعالمية ، وأكدت له من آرائه ما كان محتاجا إلى تأكيد .

وقد جنحت به سليقته إلى دراسة العلم السياسية من جوانبها التاريخية أو الفكرية ، فاطلع على تواريخ الأمم والحضارات في المشرق والمغرب ، وإن تاريخ الدولة الرومانية وحده لكاف لا ستخلاص عبر السياسة في كل صورة وكل زمن ، ولكنه أضاف إلى العلم الراسخ بتفصيلات هذا التاريخ علما يضارعه بتواريخ الدول الشرقية من الصين إلى الهند إلى فارس إلى بين النهرين إلى مصر إلى بلاد العرب إلى ما استحدث بعد هذه الدول العظام من الدويلات والولايات . ثم كان عمله أن يلقي الدروس في هذه الموضوعات على طلاب الجامعات الايطالية ، فتهيأت له المادة الكافية لتقرير مذهب في السياسة مدعوم بالشواهد والأسانيد والتجارب والبحوث ، أيا كان رأي المطلعين عليه من الموافقة أو الاعتراض .

ولم يبلغ موسكا الرابعة والعشرين حتى تمت عناصر مذهبه في ذهنه وأوشكت أن تنعقد على صورتها الأخيرة لولا بعض التنقيح الذي ترادفت به الحوادث في بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فلما أصدر كتابه المسمى « عناصر العلم السياسي » (سنة ١٩٢٣) كان بمثابة رسالته الآخيرة في هذا العلم.

غير محتاجة إلى إضافة جديدة في لباب الموضوع .

ومن الواضح أن موسكا قد أتم تقرير مذهبه قبل قيام الحكومة الفاشية في بلاده على يد موسوليني وأصحابه ، فلم يكن مضطرا إلى صوغ المذهب على الأسلوب الذي يتقي به غضب الحاكم المستبد بعد السيطرة على حرية القلم واللسان ، بل جاءت الحكومة الفاشية مؤيدة لبعض فروضه وتقديراته ، ومنها أن الدولة الملكية قد يقوم فيها حاكم ذو سلطان إلى جانب الملك الذي يتولى الملك بالوراثة ، ويسمى تارة بـ«مين Major Domo» وتارة بالصدر الأعظم وتارة برئيس الوزارة ، وكان توزيع السلطان بين فكتور عمانويل الثالث وموسوليني مثلا من أمثلة الازدواج على هذه الصورة بين الملك والدوتشي كما سمى زعيم الفاشيين .

إلا أن موسكا لم يكن من أصحاب الحظوة الكبرى في الحكومة الفاشية ، لأنه على نقده للتوسع في حقوق الانتخاب لم يكن من أنصار الحكومة المطلقة ولم يكن من رأيه أن الحاكم المستبد أقدر على الإصلاح من الحكومات البرلمانية ، بل عنده أن تمثيل الشعب على صورة من الصور لازم لكف الحاكم عن الطغيان وتجديد العناصر التي تتولى الحكم من حين إلى حين ، وليس هذا الرأي مما يرضاه الحاكم بأمره في الدول الفاشية وما جرى على نظامها ، ولهذا كان موسكا مرضيا عنه محذورا منه في وقت واحد ، وقصارى ما بلغه من مناصب الدولة أنه تولى وكالة المستعمرات زمناً ثم دخل مجلس الشيوخ عضوا معينا مدى الحياة .

وقبل أن نمضي في تلخيص مذهب موسكا نحب أن نقرر بداءة ما قرره هو في أسلوب جازم حازم لا مواربة فيه عن عاقبة المذاهب السياسية التي يحسن بالباحث أن يفكر فيها ، فمهما يكن من صلاح المذهب لتدبير شؤون الأمم فلا محل في هذه الدنيا للحكومة المثالية أو لـ « طوبى » الفلاسفة الآقدمين والمحدثين الذين يمنون الناس جنة النعيم إذا عملوا بآرائهم في الحكم والسياسة . فهذه « الطوبى » خارجة عند موسكا من كل حساب ، وتوكيد هذه الحقيقة عنده لازم كل اللزوم لتبديد غشاوة الجهل والخداع عن أبصار العاملين في ولاية الأمور . فلن يشهد الناس « طوبى » على هذه الأرض وإن طالت الأزمان والآزال ، ولن ياتي على أبناء آدم يوم يعمهم فيه العدل المطلق على يد وال من الولاة أو نظام من

النظم كائنا ما كان ، وغاية ما في الأمر أنه حكم أعدل من حكم ونظام أسلم من نظام .

قال في كتابه الذي ترجم الى اللغة الانجليزية باسم « الطبقة الحاكمة » The Ruling Class : « ان الطوبيات خطرة شديدة اذا استطاعت ان تجذب اليها طائفة جمة من ذوي الاذهان والفضائل الخلقية يصرفون جهود العقل والنفس الى تحقيق غاية لن تتحقق آخر الزمان ، ولن يكون تحقيقها المزعوم عند ادعاء حصوله الا تغليبا لشر العناصر وشقاء لأطيبها وأكرمها وخيبة رجاء . وقد اعلن ادموند بيرك قبل اكثر من مائة سنة ان اية دعوة سياسية تفرض امكان البطولات والفضائل التي تعلو على طاقة البشر لن تسفر في النهاية الا عن رذيلة وفساد » .

وموسكا يابى أن يرجع باطوار الشعوب وصروف الحوادث إلى عامل واحد أو عوامل شتى مرسومة على نهج واحد . فهو لا يعتمد كل الاعتماد على فعل السلالة أو فعل الجو والاقليم أو فعل العوامل الاقتصادية وما يسمونه بنظام الانتاج والاستغلال . فهذه جميعاً قد تفعل فعلها على اشتراك واختلاط في كل بقعة وفي كل قبيل ، ولكنها لا تنفرد بالأثر الفعال في جميع الأحوال .

* * * *

فإذا قيل إن الفضل في قيام الدولة او الحضارة ينحصر في مزايا السلالات فالتاريخ يثبت لنا قيام الدول والحضارات بين سلالات كثيرة كالطورانية والآرية والسامية وسلالة الأمريكيين الأصلاء في أواسط الدنيا الجديدة ، وكثيرا ما يحدث التغير من الركود إلى النشاط ومن النشاط إلى الركود في أقل من قرن واحد لا يتغير فيه تركيب السلالة أو تركيب بنية الآحاد الذين تتألف منهم الأمة . وقد يحدث أن تسيطر على الدولة طبقة من النبلاء بالنسب والوراثة ولكنها تسود بالصفات التي تكسبها من التربية والعادة ، لأن الخبرة بأساليب الحكم شيء لا ينتقل في الدم وليست خصائص الدم مما يتحول في مدى سنوات . وقد تثور الرعايا على حكامها ولم تتغير سلالة هؤلاء في آماد طوال من عصور التاريخ ، وإنما تغيرت التربية

والعادة كما حدث بين نبلاء صقلية ورعاياهم أو كما حدث بين فرسان الأقطاع في القرون الوسطى وأتباعهم في مختلف البيئات . فالسيد القديم كان يستبد بسلطانه ولكنه مقبول محبوب لأن عقائده وأوهامه هي العقائد والأوهام التي يدين بها العامة من حوله ، ولكنه يتغير بالتربية في العصور الحديثة فيصبح « جنتلمانا » بين السوقة فلا يألفهم ولا يألفونه ولا يزال باب الشقاق مفتوحا بينه وبين عماله وفلاحيه .

أما خصائص الجو والإقليم فلا خلاف على تاثيرها في نشاة الدولة أو نشاة الحضارة وإنما الخلاف على حصر التأثير فيها دون غيرها . وقد أولع بعض المؤ رخين بتسجيل القوانين الإقليمية وهي في حقيقتها مصادفات لا تستحق أن تسمى بالقوانين المرعية في سنن الطبيعة . ومثال ذلك أنك تستطيع أن تضع على هذا المثال قانونا تقول فيه إن الأنهار تجري دائما من الجنوب إلى الشمال لأنك تبني حكمك على خريطة ألمانيا أو سيبيريا ، وما هي إلا مصادفة وافقت مواقع الجبال والبحار في تلك الآقطار ، وقد تتكرر المصادفات من قبيلها في تلك القوانين التي يقررون بها انتشار الحضارات من الشرق إلى الغرب أو من الجنوب إلى الشمال . وقد قيل إن حكومات الاستبداد تنشأ في البلاد الحارة وإن الحكومات الحرة تنشا في البلاد الباردة أو القريبة إلى البرودة ، ولكن حكم الاستبداد طال واستطال في روسيا التي يبلغ فيها البرد غاية اشتداده ، والحرية وجدت إلى الجنوب حيث لا تتساقط الثلوج ولا يشتد نفح الهواء ، وربما اختلف السكان في المواقع مئات السنين ، وبينهم شيء من تقارب الشعور والتفكير لا نراه في سكان الموقع الواحد . فالمسلم الفارسي آري والمسلم العربي سامي والمسلم التركي طوراني ولكنك قد تراهم في استعدادهم للتفاهم بينهم أقرب الأمر من أبناء الجنس الواحد في البقعة الواحدة ، وقد ينعكس الأمر بعض الآحيان فيبطل القول بانحصار التاثير في الثقافة أو انحصاره في طبائع السلالة والإقليم .

والخطا في القول بانحصار العوامل السياسية في الإنتاج ونظام الاقتصاد كالخطا في القول بانحصارها في مزايا السلالة أو خصائص الإقليم . فاليونان الأقدمون قد تحولوا من حكم الفرد إلى الحكم النيابي دون أن يطرأ على نظام الانتاج في بلادهم أقل تغيير ، وكل ما حدث أن الفوز في الحرب لم يبق محصورا في اقتناء

العربات بل أضيف إليه ركوب الخيل والقتال بسلاح المشاة ، وقد كانت العربة والمهارة في توجيهها حكراً للأغنياء فزال هذا الحكر بعد تطور أساليب القتال ، ومثل هذا حدث في عصر الأقطاع بعد اختراع المدفع وتهديده لمعاقل النبلاء والفرسان ، فتغير نظام الإنتاج تبعا لهذا ولم يكن نظام الانتاج هو سبب التغيير .

وقد دالت الدولة الرومانية وانتشرت الديانة المسيحية وهما حادثان من أجّل الحوادث في تاريخ بني الانسان ، فإذا رجعت إلى نظام الانتاج قبل حدوثهما وبعد أن حدثا فعلا لم تجد فيه تغيرا في مجمل الأحوال ، وإذا كان قد حدث فيه بعض التغير الطفيف فقد حدث مثله من قبل ولم ينته إلى تلك النتيجة من تداعي دولة عريقة وشيوع دين جديد .

والذين يعلقون الأمل كله على نظام الانتاج ويحسبون أن تعديله كفيل بتعديل الطبيعة البشرية في صميمها لا يأتون بشيء جديد في تعلقهم بهذا الخيال ، فقديما كان « لكتانتيوس » ـLactantius— يقول قبل اعتبار المسيحية دينا رسميا للدولة في عهد قسطنطين إن الناس « لو آمنوا بالإله الحق لانقضى في الأرض زمن المنازعات والحروب ، وتآلف الناس جميعاً بألفة المحبة لأنهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة الأخ إلى أخيه ، فلا يسعى أحدهم للتخلص من جاره ولا يزال كل منهم قانعا بقليله ، فلا غش ولا اختلاس ولا سرقة فما أسعد حال الانسان يومئذ ! وأي عصر ذهبي يطلع على الدنيا بفجره السعيد في ذلك الزمان » .

وهذه الوعود بعينها يجددها ببيل Bebel الاشتراكي الالماني حيث يقول : « إننا لو غيرنا الأحوال الاجتماعية وفقاً للغايات التي تتجه اليها الاشتراكية لانتهينا الى تبديل حاسم في الطبيعة البشرية » .

ومثله دي جورمونت الفرنسيDe Gourmont حيث يقول في بعض فصوله : « لو أتيح لنا إزالة القوانين بتة لأصبح ارتقاء المتفوقين الممتازين هو القانون الوحيد ، وأصبح حكمهم المطلق المشروع غير منازع فيه . فالحكم المطلق لازم لكبح البلهاء ، والإنسان الذي لا ذهن له عضاض » .

ويعقب موسكا على هذه الأمنية « الفوضية » فيقول إنه يقبلها كل القبول مع وضع كلمة الآقوياء في موضع المتفوقين الممتازين وكلمة الضعفاء في موضع البلهاء . فالعيوب التي تعاب بها طبيعة البشر لا ينتزعها نظام الحكم البشري

كيف كان .

وقد عرض موسكا لتقسيم أنواع الحكومات من عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث . فارسطو يقسم الحكومات إلى ملكية وارستقراطية وديمقراطية وتنطوي القرون الوسطى بتقسيماتها الدينية أو التقليدية ، ثم يزعم العلماء المحدثون أنهم وصلوا إلى استقصاء التاريخ الانساني كله فجمعوا أطواره ـ كما فعل أوجست كونت ـ في ثلاثة أدوار : دينية وفلسفية ووضعية ، تقابلها الدولة العسكرية فالدولة الاقطاعية فالدولة الصناعية ، ثم يختصر هربرت سبنسر هذا التقسيم إلى قسمين : أحدهما العسكري والآخر الصناعي ، ويقرن الأول بالاستبداد والحجر على التجارة ، ويقرن الثاني بالحرية وإجراء المعاملات مجرى الصفقات التجارية بالتعاقد والاتفاق والتوكيل .

ولا يعترض موسكا على هذه التقسيمات ولا على التقسيمات التي من قبيلها كتقسيم الحكومات إلى جمهورية ودكتاتورية وملكية مقيدة أو ملكية مطلقة ، فهي صادقة في الدلالة على بعض الفروق وينبغي أن تقبل على هذا الاعتبار ، ولكنها لا تغني عن التماس الوحدة المتكررة في جميع هذه الأنواع ، ولا تحسم الفروق بينها كل الحسم في جميع الأحوال .

فالشبه بين بعض الجمهوريات وبعض الملكيات أقرب من الشبه بين جمهورية وجمهورية أو ملكية وملكية ، وتقسيم الدول إلى عسكرية وصناعية لا يغنينا عن توجيه البحث الأصيل إلى الطبقة الحاكمة في كل من هذين النظامين .

والعبرة كلها بالطبقة الحاكمة في جميع الأحوال .

وهنا نصل إلى حجر الزاوية في مذهب الفيلسوف الذي بوأه مكانه بين فلاسفة الحكم الآقدمين والمحدثين .

***

فمهما يكن نوع الحكومة ، وفي أي بلد تحكم ، وبدي عنوان تشتهر فالظاهرة المتكررة دائما في جميع الدول هي أن الحكم مهمة تنحصر في أيد قليلة جدا بالنسبة إلى الجمهور المحكوم .

هذه هي الظاهرة التي تكررت في جميع الدول ، وستظل كما يعتقد موسكا متكررة إلى آخر الزمان ، لأنها ثبتت بالتجربة والاستقرار وبالاحتمال الممكن دون

غيره عند تقليب المسألة على جميع الوجوه .

ولا فرق في هذه الظاهرة بين حكومة الدكتاتور وحكومات الأمم النيابية التي يعم فيها حق الانتخابات إلى اوسع حدود التعميم .

فمن الوهم أن يفهم من « حكومة الفرد » أنها حكومة يديرها فرد واحد ، لأن الفرد الواحد لا يستطيع إدارة الآلة الحكومية ولا كسب النفوذ في المجتمع ما لم تؤ يده « طبقة حاكمة » تلتف به وتحقق إرادتها بتحقيق إرادته .

ومن الوهم أيضاً أن يفهم من كلمة الحكومة النيابية أن الكثرة الغالبة هي التي تدير دفة الحكومة بالأصالة أو بالنيابة ، فليس بالصحيح أن يقال إن الناخبين اتفقوا على اختيار نائب عنهم ، وإنما الصحيح أن قلة صغيرة جعلتهم ينتخبونه وتمكنت بوسائلها المنظمة من تحويل أصوات الناخبين إليه ، وهذه القلة الصغيرة هي « لجنة الادارة » في الحزب الظافر بأكثر الأصوات ، ولا حيلة لعشرات الآلوف المتفرقين أمام مائة أو نحو المائة يتفقون في الغرض والحركة ونشر الدعْوة ، ويحكمون تدبيرهم بالمرانة الخاصة على أعمال الانتخاب .

ويحدث كثيراً أن تكون الطبقة الحاكمة في الحزب الدستوري أو النيابي أقل عددا من الطبقة الحاكمة التي تحيط بالدكتاتور أو الحاكم بامره ، وأن يكون نفوذ النيابيين أقوى وأصعب مقاومة من نفوذ المستبدين .

ومن هذه الطبقة الحاكمة يتالف سلك الموظفين أو « البيروقراطية » وهي التي تطلع على دخائل الأمور وتستاثر بالخبرة في الدواوين ، فلا يسهل على الحكومة أن تستغني عن خبرتها واقتدارها على معالجة الأعمال .

ولكل طبقة حاكمة صيغة أو جملة من الصيغ تقرر بها سلطانها وتجعلها شعاراً لها في إقناع رعاياها ، ولا يلزم أن تكون موافقة للمنطق والمعقول ، كصيغة الحكم بالحق الإلهي أو سيادة الأمة أو « الحرية والإخاء والمساواة » أو الزعامة المقدسة أو رسالة الدولة أو الحرية الفردية أو التاميم وما شاكلها من الصيغ التي تتبدل مع الطبقة الحاكمة على حسب الأمم والأوقات .

وتبقى الطبقة الحاكمة ما دامت مالكة لصفات القيادة وكفايات الولاية العامة ، وليس من الضروري أن تكون هذه الصفات والكفايات مطابقة لفضائل الطيبة والصدق والإخلاص ولكنها لا يمكن أن تخلو من مزايا الحصافة والجد والحنكة

وبعد النظر والبداهة الموفقة في تصريف الأمور .

وخير الطبقات الحاكمة هي الطبقات التي تخدم المصلحة العامة ولا تجوز فيها المطامع الشخصية على المصالح الكبرى .

ولكن هذا « الخير » لا يأتي من فرض القوانين وتدوين النصوص وتنقيح الدساتير ، فإن الدستور قد يبقى بجوهره خلال عهدين متناقضين كما بقي دستور فيمار على عهد الجمهورية وعهد الدولة النازية ، وإنما يتحقق الخير في الطبقة الحاكمة بفضل القوى الاجتماعية والحصانة الشرعية ، وهما - في فلسفة موسكا - اصطلاحان يحتاجان إلى تفسير وجيز .

ففي كل أمة من الأمم قوى اجتماعية متعددة تدخل في بنية المجتمع بمقادير متساوية أو متفاوتة ، ومنها قوة العقيدة وقوة الرأي وقوة العرف والقوة العسكرية والقوة الصناعية والقوة الزراعية والقوة التجارية وقوة العمل وغير ذلك من القوى التي تشتمل كل أمة على نصيب منها .

أما الحصانة الشرعية فهي الحصانة التي تستمد من قدرة هذه القوى على مقاومة المطامع الشخصية التي قد يعمل لها رجال الحكم ورؤساء الدولة .

فإذا كانت هذه القوى متوازنة متكافئة فالحصانة الشرعية وافية والطغيان متعذر ومصلحة الحاكم في إجراء العدالة أكبر من مصلحته في مطاوعة المآرب الشخصية .

وإذا طغى بعضها على سائر القوى فهناك يختل التوازن وتضطرب الأمور ويتربص فريق من الأمة بفريق .

ولا تقع الثورات العسكرية - في رأي موسكا - لأن بعض القادة يتمردون وبعضهم لا يتمردون . فمهما يكن من نزوع بعض القادة إلى التمرد فهم لا يستطيعونه إذا كانت القوى الاجتماعية التي تتوطد عليها دعائم المجتمع ممثلة في الجيش بقادته وضباطه وجنوده ، وإنما تقع الثورات أو الانقلابات العسكرية لاختلال التوازن بين القوى الاجتماعية واستطاعة قوة منها أن تسيطر على الجيش والحكومة مع السيطرة على المجتمع بغلبة النفوذ .

فالطبقة الحاكمة تحسن أو تسوء على حسب القوى الاجتماعية والحصانة الشرعية لا على حسب القوانين والنصوص ، ومن أفضل الأسباب لضمان التوازن بين

القوى الاجتماعية أن تشتمل الأمة على طبقة وسطى تمنع الاصطدام بين الغنى الفاحش والفقر المدقع وتفتح الباب لتقدم الطبقة الفقيرة كما تفتح الباب لتجدد الطبقة الحاكمة وتناوب السلطان بين المقتدرين عليه ، كلما انتهت مهمة طائفة منهم خلفتها طائفة أخرى تناسب الأوضاع الاجتماعية التي تتعاقب مع الأيام

ولهذا يفضل موسكا أن تتولى شؤون الأمم حكومات نيابية ، لأن الحصانة الشرعية أوفر في الحكومات التي تتسع للمعارضة ، ولأن السيادة إذا احتكرتها فئة من الناس أو شكت أن تفسد وتستنيم ولا تحسب حساب المعارضة والانتقاد .

ويحاول موسكا أن يطبق قوانين الطبيعة على المجتمع في هذه الظاهرة ، فيقول : إن الجو تتنازعه خاصتان : خاصة الميل إلى الركود بحكم القصور الذاتي وخاصة الميل إلى الحركة بحكم الاختلاف في توزيع الحرارة ، وهكذا يحدث في المجتمع حين تسعى فئة من الناس إلى احتكار السلطان في « دائرة مقفلة » وحين تهب « الرياح الاجتماعية » مع اختلاف توزيع الثروة والنفوذ .

وسلك الوظائف في الدولة يتجدد ـ كما يقول موسكا ـ على طريقتين : من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . ففي الحكومات المطلقة يستأثر الحاكمون بالوظائف ويؤثرون بها أنفسهم وذويهم ، وفي الحكومات النيابية يتسع المجال لصعود طائفة بعد طائفة إلى سلك الوظائف أو البيروقراطية ، وذلك أسلم وأجدى من الاستئثار والاحتكار .

***

ومن خلاصة مذهب موسكا يبدو أنه لا يفرط في التفاؤل بمصير الحرية الديمقراطية ، وهو كذلك لا يحسن الظن بأحلام الحالمين الذين يتخيلون أن أبناء آدم متحولون غداً إلى طهارة كطهارة الملائكة وعدالة كعدالة السماء الموعودة ، إلا أنه لا يفرط في التشاؤم كما أنه لا يفرط في التفاؤل ، وجملة أمره في هذا الباب أنه يفرق بين الأخلاق الأدبية المثالية وبين الأخلاق السياسية الواقعية . فالايثار وحب الخير وسلامة الجانب فضائل مأثورة محبوبة على ألسنة الناس وفي كتب الأخلاق ، ولكن الصفات التي ترشح أصحابها للبروز في عالم السياسة لا تتفق على الدوام مع تلك الفضائل المأثورة . بل يغلب على صفات السياسة النافذة أن تنحرف عن النمط السوي عند دعاة الفضيلة والمحبة . فالرجل الذي يقيس آماله

بحقوقه ويوازن بين وسائله وغاياته ويسالم الناس ويجب أن يسالموه قلما يقدم على عمل رائع في ميدان الحياة العامة ، وإنما يتاح الرجحان في هذا الميدان للـذين تغلب فيهم طبيعة الوثوب والاندفاع على طبيعة الانصاف والاتزان ، ومن هؤلاء ينبغ طلاب الإصلاح كما ينبغ طلاب السيطرة ، وكلهم في عرف العقلاء المسالمين أناس « غير معقولين » وغير معتمدين على العقل في كسب الثقة أو كسب المكانة ، بل جل اعتمادهم على التأثير واستجاشة الحس والخيال . ومن تضييع الآمال في غير طائل أن ننتظر من الناس أن يعملوا ما يعقل ويوافق المنطق على الدوام . فإن ميدان السياسة مفتوح للدوافع المعقولة وغير المعقولة ، وينبغي أن يعول الناس في كبح القوة الطاغية على القوة الرادعة ، فلا يصد القوة إلا القوة ولا يفل الحديد إلا الحديد ، وهذا الذي يعنيه موسكا بإعداد القوى الاجتماعية في الأمة لضمان الحصانة الشرعية ، فتعدل الطبقة الحاكمة عن الطغيان لأنها تعلم أن مصلحتها في العدل أوفر من مصلحتها في الجور على حقوق المحكومين .

روبرت ميشل

Robert Michels

١٨٧٦ - ١٩٣٦

يعتبر ميشل حجة بين كتاب الاجتماع والسياسة في دراسة النازية والفاشية دراسة علمية ، فقد مكنته نشأته بألمانيا ومقامه بإيطاليا من التغلغل في أعماق الحركتين والنفاذ إلى ما وراء الظواهر من كل حركة ، فتوفر على بحث الأحوال العامة التي سبقت قيام موسوليني وهتلر في إيطاليا وألمانيا وراقب تنظيم الهيئات التي توسلت بالقوة وبالحيلة إلى القبض على زمام الحكم في الأمتين ، وأمعن في تقصي الدخائل والعوارض التي فعلت فعلها في بواطن تلك الهيئات ومن حولها ، واستعان على ذلك بالصبر الطويل الذي أثر عن علماء الألمان في دراساتهم المستفيضة ، فمن قبلوا أحكامه ونظرياته ومن رفضوها لا يختلفون على حقيقة واحدة : وهي أن مواثيقه وأسانيده كافية وفوق الكافية ، وإنما يعرض لها النقد من التفسير والاستنتاج .

وميشل وصاحباه باريتو وسوريل متفقون على قواعد الرأي في حقيقة الحكومة الديمقراطية ، ولكن ميشل مختص بدراسة المنظمات والهيئات على أنواعها ولا سيما الأحزاب السياسية في نشأتها وتكوينها وأعمالها خارج المجالس النيابية وداخلها ، وخلاصة رأيه أن تكوين الفئات والطوائف في المجتمع البشري ضرورة عامة ،

وأن الأمة والنادي الخاص يتشابهان في قانون واحد يعمل عمله في كل جماعة بشرية مع اختلاف العدد والطبقة والغاية .

يقول ميشل إن الأحزاب المحافظة وأحزاب الأحرار والعمال جميعاً تدعي في العصر الحديث أنها تعمل بإرادة الأمة ، ومنها ما يعتقد أن جمهور الآمة لا يحسن الحكم على القضايا العامة ، إلا أنه ـ بطبيعة الحال ـ لن يتوجه إلى أصحاب الأصوات التي توصله إلى الحكم ليقول لهم إنه يستجهلهم ويستغفلهم ويعمل بإرادته لا بإرادتهم ، ولهذا شاعت في العصر الحديث فكرة « الارادة القومية » مقترنة بتفسير معنى الديمقراطية ، وليست هي نتيجة تفكير ولا دليلا على الايمان بها في ضمائر الداعين إليها .

قال إن الدولة البونابرتية نفسها قامت على مبدأ الاستفتاء والاختيار الحر المنزه عن التخويف والاغراء ، وهي في جوهرها كالدولة التي قامت على دعوى الحق الإلهي من قبلها ولو أن أنصار الحق الإلهي طلبوا الاستفتاء على هذا النحو لما أعياهم أن يصلوا إلى الفتوى التي تعلقت بها الدولة البونابرتية .

ورأى ميشل أن الحكم الديمقراطي أحسن ما في الإمكان بالقياس إلى أنواع الحكم القائم على الدعاوى الأخرى ، لأنه في جملته أسلم عاقبة من غيره لا لأن دعوى الحكم بإرادة الأمة أصح في الواقع من دعاوى الحكام السابقين .

فلا الأمة ولا الجماعات البشرية على إطلاقها قادرة على تصوير رأيها وإملاء إرادتها في جلائل الأمور وصغائرها .

وقد يتوهم بعضهم أن الجماعات البشرية الأولى التي لا تعدو سكان المدينة الواحدة كانت أقدر على تطبيق الديمقراطية من الأمم الكبرى التي تبلغ الملايين ، غير أنه وهم عاجل لا يثبت على المراجعة ولا ينخدع به من يعرف طبائع الجماهير في اجتماعها .

فالمعروف اليوم من دراسة الأطوار النفسية للجماعات والآحاد أن رأي الجمهور ساعة الاجتماع لا يمثل آراء الآحاد المشتركين فيه وهم متفرقون ينظر كل منهم في الأمر على حدة ويقلب وجوهه على تبصر وروية ، وأن آراء الجمهور كثيرا ما تسفر عن الإجماع بالصياح والجلبة دون إصغاء إلى أصوات المخالفين إن كان بينه مخالفون . فإذا كثر المخالفون ـ لاختلاف الزعماء ـ فالاجتماع صائر إلى الفوضى

والشغب فلا يفهم منه رأي محدود .

ومعظم المسائل التي تباشرها الحكومات تدخل في اختصاص الفنيين وتحتاج إلى التثبت من البيانات والأرقام ، فإذا عرضت على جمهور من العارفين أو غير العارفين في ساعة الاجتماع فلا بد من إحالتها إلى فئة خاصة تبت فيها برأيها ، فيقبلها الجمهور على علاتها أو يقع الاختلاف عليها فيتغلب المتغلب بالمؤثرات « الجماعية » التي يرجح فيها الصخب على الحجة وترجح فيها الخطابة على الإقناع ، ويجدي فيها التمهيد بالمناورة والمداورة ما لا يجديه الرأي الخالص من شوائب التمهيد والترويج .

هذا عن الجماعات التي تتلاقى في مكان واحد كما كانت تتلاقى جماعات الناخبين في المدن القديمة ، وهي على هذا لا تمثل المدينة كلها لاستثناء بعض سكانها من حقوق الانتخاب .

أما جماعات الأمم الكبيرة فالمسلم أنها لا تتلاقى في مكان واحد ولو قصرت الاجتماع على وكلاء الانتخابات ، فلا مناص من التفويض والتوكيل .

ويطيل ميشل في شرح الإجراءات المعقدة التي تسبق ترشيح المرشح ولا حيلة للناخبين في مراقبتها ولا في تعديلها ، فيخلص منها إلى وصف الانتخابات بأنها اضطرار إلى الاختيار .

ولا يؤمن ميشل بما يسمى السيادة بالتوكيل أو التفويض ، فإذا صح أن الأمم قد انتخبت وكلاءها بمحض اختيارها ، فليس بالصحيح أن السيادة تبقى بعد ذلك في أيديها ! لأن وكلاءها يستطيعون أن يوجهوها من حين إلى حين ، وهي لا تستطيع توجيههم في كل حين .

وقبل أن يصل التوجيه إلى الأمة ينبغي أن ننظر إلى أساليب التوجيه في داخل الهيئة السياسية بين رؤسائها وأعضائها .

فالجماعة بطبيعتها كسلى لا تنتزع من نفسها القوة على الإنشاء والابتداء في جميع الظروف .

ولهذا يحدث دائماً في النادي الصغير ـ كما يحدث في الجماعة الكبيرة ـ أن يبحث المجتمعون عن رئيس يكلون إليه تصريف الأعمال الضرورية لبقاء النادي والجماعة .

والذي جرت به العادة في هذه الأحوال ان يظفر بالانتخاب من يفرغ للعمل ويحرص عليه ويدأب على طلبه ، وقد يقع عليه تفضيل أصحابه وزملائه للسبب ونقيضه ، فيفضلونه لاتقاء بأسه كما يفضلونه لأمنهم من جانبه واطمئنانهم إلى سلامته ، ويفضلونه لرجحانه كما يفضلونه لقلة منافسته وقلة منافسيه ، ويندر أن تكون هذه الصفات أكرم الصفات التي تصلح عليها رئاسة الرؤساء .

وقد لوحظ أن الرئيس يبقى في رئاسته متى وصل إليها ، فيعيد الأعضاء انتخابه كسلا من عناء البحث والاختيار وفض المنازعات وإغضاب هذا لارضاء ذاك ، أو يعاد انتخابه لما اتخذه هو من الحيطة وتذرع به من الذرائع التي تخيل إليهم أنه عامل مهم لا غنى عن عمله ، أو أن التجديد أسلم على الأقل من ابتداء التجربة من جديد .

يجري هذا في الانتخاب لرئاسة الأندية والجماعات القليلة التي من قبيلها ، ويجري مثله على التقريب في انتخاب الرئيس للهيئات السياسية والأحزاب الكبيرة التي تتناوب الحكم مع غيرها أو تنفرد به فترة طويلة بغير مزاحمة . فمتى ظفر الرئيس بالرئاسة جعل همه الأول أن يحيط نفسه ببطانة من أخصائه يبقون ببقائه ويذهبون بذهابه ، فيشرف معهم على خزانة الهيئة وجدول الانتساب إليها ومجلس تأديبها وأداة نشر الدعوة لها ولحكومتها ، وبهذا يامن المزاحمة ويتيسر له أن يقضي عليها في مهدها ، لأنه يملك أسباب التخلص من المزاحم قبل أن ينجح هذا في تأليب القوى للتخلص من رئاسته ، ويلجأ الرؤساء عادة في بعض المواقف إلى إرهاب الجماعة بإعلان العزم على الاستقالة تهديداً لها وقسراً على طاعتهم والتسليم بما يفرضونه عليها ، وهم لا يلجاون إلى هذا التهديد حين يعلمون أن الاستغناء عنهم ميسور وأن أنصارهم المتكفلين بتاييدهم قليلون ، ولكنهم يلجأون إليه كلما علموا أنه ضربة مربكة للجماعة محيرة لها بين من يتنازعونها ولا سيما حين ينجح الرئيس وبطانته في تهوين خطب المنافسين الأقوياء وإضعاف كل من تحوم الشبهة حوله منهم ، قبل أن يستفحل خطبه .

ومتى توطد مكان الرئيس وبطانته على هذا النحو ففي وسعه أن يفرض مرشحيه للمجالس النيابية على الحزب كله قبل إعلان ترشيحهم للناخبين ، فإذا هم مرشحو رئيس واحد تؤ يده بطانته ولا تأمن أن تشق عليه عصا الطاعة ، واسمهم

أمام الناخبين « مرشحو الحزب ونواب الأمة » .

يقول ميشل إن جريان الانتخاب على هذا النمط بين المحافظين مفهوم لأنهم يشكون كل الشك في كفاءة الجمهور لولاية الأحكام ، وإنه كذلك مفهوم بين الأحرار لأنهم يعتبرون الجمهور ضرورة لا محيد عنها ، ولكن العجيب فيه أنه يجري على هذا النمط أو أشد منه بين طوائف العمال التي ارتهنت مصالحها كلها بحقوق النيابة وتوزيع هذه الحقوق بين صفوفها على سنة المساواة التي لا تسمح باحتكار الرئاسة . فالواقع أن انتخابات النقابات العمالية تسفر عن احتكار للرئاسة لا يقل عن احتكارها في لجان المحافظين والأحرار إن لم يكن أشد منه وأطول أمدا ، وأن الظافر بالرئاسة يندر أن يستحقها بإخلاصه للقضية وقدرته على الدفاع عنها ، فالغالب أن الظافرين بها يستحقونها بالتهجم والاقتحام والتهويل على المنافسين الأمناء ، ثم يحتفظون بها متى وصلوا إليها آمنين المزاحمة بل آمنين الانتقاد .

وإذا انهزم رئيس من كبار الرؤساء مرة فإنما ينهزم لأن المنتصر عليه قد هيأت له الظروف أن يغلبه بهذه الوسائل لا أنه انتصر عليه بوسائل خير منها ، فالقاعدة واحدة والمطبقون لها متعددون .

والأستاذ ميشل شديد الثقة بنظرياته هذه حتى ليرتقي بها إلى درجة القانون ـ بل القانون الحديدي ـ الذي لا فكاك من حلقاته المقفلة ، ويسميه القانون الحديدي لولاية الخاصة : The Iron Law of Oligarchy فلا يتاتى حكم في البلاد الديمقراطية أو في سواها لغير فئة خاصة توافق زمانها . فمن فئة الفرسان إلى فئة النبلاء إلى فئة أصحاب الأموال إلى فئة الخبراء والصناع ، إلى فئات من قبيلها يبرزها كل حكم على مقتضى الزمن بغير خلاف في جوهر القانون ، وهو أن الجماهير تسلم مقادها لآحاد معدودين .

هذه النظرية أو هذا القانون الحديدي قد شاع في بيئات البحث الاجتماعي ودوائر الفلسفة السياسية ، فكان له أثران : أحدهما ارتداد بعض المفكرين عن الديمقراطية والآخر قبول الديمقراطية على علاتها لأنها أقرب إلى الإنصاف والاصلاح من النظم الأخرى .

والأستاذ ميشل ـ على فرط إيمانه بقانونه الحديدي ـ هو أحد هؤلاء الفلاسفة

الذين رأوا هذا الرأي في حقيقة الحكم الديمقراطي فلم يتحولوا عنه إلى غيره ، وحجتهم في ذلك أن المهم هو نتيجة الديمقراطية لا أقوال الدعاة في تفسيرها .

فقد يكون صحيحاً أن الناس لا يتساوون ، وقد يكون صحيحا أن الأمة لا تحكم نفسها بإجماع آرائها أو إجماع كثرتها ، ولكن لا شك مع هذا وذاك في نتيجة الديمقرطية ما دامت مستمسكة بهذا الوصف وهذا العنوان ، وتلك النتيجة هي حسبان الحساب للعديد الأكبر من الرعايا في سياسة الحكومة ، ومهما ينخدع الرعايا بالوعود والأكاذيب فلا بد على الأقل من إرضائهم بتوفير أقواتهم واجتناب شبهاتهم ، وهذه مزية للحكومة باسم الأمة كائنا ما كان عدد الرؤساء المستأثرين فيها بالرأي والسلطان .

غير أن تلاميذ ميشل ـ ممن كانوا يتشيعون لآراء كارل ماركس ـ قد أثرت فيهم نظريته أو قانونه الحديدي أبلغ الاثر في وزنهم للمبادىء الماركسية ، ومنهم الكاتب البولوني الذي يكتب اليوم في الولايات المتحدة باسم ماكس نوماد Max Nomad وينشر آراءه عن تناوب السيادة ومظهره في البلاد الروسية . فهو في كلامه عن المتمردين والمرتدين يقرر أن النظام الشيوعي وضع السلطة الحكومية كلها في أيدي الموظفين ورؤساء المصانع وأنشأ طبقة حاكمة تستغل الطبقة العاملة ولا تفكر في النزول لها عن سلطتها ، ويكاد يردد المثل العربي القائل : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فالمفكرون الشيوعيون وطائفة الادباء والصحفيين هم كهنة هذا النظام الذين يقدسون طبقته الحاكمة كما كان كهان القرون الوسطى يقدسون الامراء والملوك بحق السماء ، والسادة الموظفون هم المستغلون الجدد في مكان المستغلين من أصحاب رؤوس الاموال ، والاجراء هم بغير تبديل إلا أن يكون تبديل الحجر بحرية العمل وحرية الإضراب .

قال : « إن التجربة السوفيتية قد أثبتت أن إمكان الاستغلال في ظل الاشتراكية لا يقل عن إمكانه في ظل أية حكومة سابقة . . وإن المرء اذا استرسل في النبوءة ففي الوسع أن يخمن أن الصورة العالمية المقبلة لاستغلال الانسان للإنسان كما تومىء إليها الاساليب الروسية في امتلاك الدولة لجميع المرافق واختلاف دخول العاملين ـ سوف يكون قصاراها من التغيير تحمل عنوان الاشتراكية » .

فقد ظهر أن الاشتراكية تهتم بمسألة الاستيلاء على أداة الإنتاج ولا تهتم بمسألة التوزيع . مع أن التوزيع الذي يمنع الاستغلال هو المقصود من كل حركة اشتراكية ، ولكن هذا « المقصود » هو الذي لم يكن ولا يكون .

جيمس برنهام

James Burnham

تتسع المسافة بين النظرية السياسية وتطبيقاتها العملية في بلاد العالم القديم ، ولكن هذه المسافة تضيق كثيراً أو قليلا في البلاد الامريكية ، فإن النظريات فيها شيء أكثر من مجرد الاقتراح أو الامنية ، فهي إما برنامج يطبقه الداعون إليه في نطاقهم المحدود ويحاولون تطبيقه على الاثر في نطاق قومي واسع ، وإما وصف لحالة واقعة يلخصها الواصفون في قالب المبادىء والنظريات .

وربما نشأ تقدير النظريات على هذا النحو في البلاد الامريكية من حداثة التجربة السياسية في تلك البلاد وموافقة الزمن الذي تأسست فيه حكوماتها هناك للزمن الذي تداول فيه العلماء الاوروبيون أحدث النظريات في القرن الثامن عشر .

فقد كانت هذه النظريات في حكم الحقائق المقررة عند تأسيس الجمهورية الامريكية الاولى ، فضمنها آباء الجمهورية دستورهم وبياناتهم التي قدموا بها لذلك الدستور ، وعملوا بمبادىء فصل السلطات والحق الطبيعي وحقوق الإنسان وسيادة الامة وتحريم « الضريبة بغير نيابة رقيبة » كأنهم ينفذون أوامر الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأصبح من اليسير منذ قيام الحكم على هذا الاساس أن توضع النظريات موضع التنفيذ السريع أو أن يتلقاها الناس كأنها تلخيص الشؤون الواقعة التي يجري بها العمل فعلا في دوائر السياسة والمال .

ومنذ تأسيس الدولة الامريكية لم تخل بلادها من أصحاب دعوات دينية أو سياسية يطبقونها في نطاقهم المحدود ، وفي هذا الزمن الذي نعيش فيه حاول القصاص الشيوعي ابتون سنكلير أن يطبق الشيوعية في مستعمرة يسكنها من يدينون برأيه ، وأصدر الفيلسوف الفاشي لورنس دنيس كتابه عن « دوافع الحرب والانقلاب » وهو يؤكد فيه أنه يتتبع الواقع الذي سيتم وقوعه بجميع تفصيلاته في أعوام قليلة ، فهو لا يدعو إلى ثورة ولا انقلاب ولكنه يرى بوادر انقلاب يسميه « بانقلاب القصر » آخذ في التمام منذ أعوام ؛ وقد اختار له اسم « انقلاب القصر » تشبيها له بالحركات التي كانت تقع في قصور الملك حيث يذهب أمير ويجيء أمير دون أن يدعو الامر إلى تحريض على الثورة أو سفك للدماء ، وهكذا يعتقد لورنس دنيس أن الحكم في الولايات المتحدة صائر إلى السيطرة الفاشية بغير حاجة إلى هدم بنيان أو زعزعة أركان ، إلا أن يسجل الواقع ما أبرمه الواقع ويعترف الناس بما قد عرفوه فعلا ولم ينكروه .

وأهم النظريات السياسية التي ظهرت في الولايات المتحدة حديثاً نظرية يعتقد صاحبها أنها من هذا القبيل ، أي أنها وصف للوقائع الحاصلة ونبوءة عن الوقائع التي تحصل تباعاً وتطرد في طريق الحصول ، وهذه هي نظرية الانقلاب الفني R. M. التي يدعو إليها جيمس برنهام في كتبه ورسائله وأحاديثه ، ومنها كتاب بهذا الاسم وكتاب عن المكيافليين وكتاب عن الصراع على العالم وكتاب عن هزيمة الشيوعية المقبلة ، وهي من أشهر الكتب السياسية التي يتداولها اليوم من يعنون بفلسفة السياسة من الامريكيين والاوربيين .

جيمس برنهام صاحب هذه النظرية هو أصغر الفلاسفة السياسيين سناً وأحدثهم رأياً ، ولا يزال الساعة في مقتبل العمر يوالي تثبيت رأيه أو تثبيت القول بأنه هو الواقع المقرر الغني عن إطالة العناء في التقرير والإثبات .

ولد في شيكاغو سنة (١٩٠٥) وتعلم في أمريكا وإنجلترا وأعجبته الشيوعية الماركسية في مبدأ الامر فبشر بها واشترك في مساعيها ، وجاء زمن من الازمان كان معدوداً فيه من أقوى أنصار تروتسكي بين الشبان الامريكيين المتعلمين ، ثم قادته دراسته العلمية والاجتماعية إلى الشك في مبادىء الشيوعية ومبادىء الاشتراكية على

إطلاقها والايمان بأن نظام رأس المال ونظام الشيوعية كلاهما غير صالح للبقاء في الاحوال الإنسانية التي تمخض عنها العصر الاخير .

وقد ظل عضواً عاملا في القسم الفلسفي بجامعة نيويورك منذ سنة ١٩٣٣ ، واشتغل خلال هذه السنين بالحركة الشيوعية في دوائر الصحافة وتقابات العمال ، وما زالت آراؤه تتطور مع الدراسة والخبرة حتى انتهى إلى الجزم برفض الشيوعية على سنة ماركس ولنين وعلى سنة ستالين وتروتسكي ، ثم الجزم بأن الشيوعية ورأس المال معاً صائران إلى الزوال ، وأن نظاماً جديداً سيخلفهما عما قريب ، ليستقر به سلطان الطبقة التي تقبض الآن على أزمة الإنتاج وهي طبقة المديرين الفنيين .

يقول برنهام إن العالم سيرى عهداً بغير « نظام رأس المال » كما رأى من قبل عهوداً لم يكن فيها لهذا النظام وجود .

ويستدل على اقتراب أجل هذا النظام بدلائل كثيرة ملموسة في أحوال العالم الحاضرة : منها بطالةالملايين من العمال والصناع مما يثبت أن نظام رأس المال قد فشل وأخفق في تدبير الثروة الإنسانية أو تدبير القوى الإنسانية المعطلة بين يديه .

ومنها عجز رأس المال عن توظيف ماله في الجهات التي تعود استغلالها على أسلوب المستعمرين في القرن التاسع عشر .

ومنها تزعزع القواعد الفكرية والاقتصادية التي كانت لازمة أو كانت مصاحبة لدولة رأس المال . فقد كان إطلاق الاعمال لازما لاصحاب رؤوس الاموال تمكيناً لهم من إرسال أموالهم في التجارة والصناعة بغير رقابة من الحكومة ، وكان مذهب « دعه في طريقه» Laissez Faire هو شعار الدولة كلها لانه أنسب شعار للسياسة والاقتصاد في إبان سلطان رأس المال .

ومنها نشوء طبقة أخرى تستولي على آلة الصناعة والاقتصاد غير الطبقة التي يتألف منها أصحاب رؤوس الاموال .

ومنها عجز هذا النظام عن حل النقائض التي تواجهه كل يوم ولا تزال مواجهة له بطبيعة تكوينه وتكوين المجتمعات الحديثة ، وأقوى علامات هذا العجز أن تضطر

الحكومات إلى تقييد الإنتاج والإشراف على تنظيم المرافق العامة والحد من الارباح وإحلال نظام « الرسم والتقدير » Planning محل نظام الاباحة والإطلاق .

* * *

لكن زوال رأس المال لا يفيد في رأي برنهام أن الشيوعية الماركسية أو الاشتراكية على العموم هي البديل الوحيد من ذلك النظام الزائل .

فسيزول رأس المال ولا تحل محله الشيوعية ولا الاشتراكية التي تتلخص جميعاً في دعوة واحدة : وهي إقامة مجتمع بغير طبقات .

* * *

إن القول بانقضاء رأس المال شيء والقول بأن الشيوعية البديل الوحيد الذي يخلفه شيء آخر . فليس في بوادر الاحوال ولا في التجارب القومية أو العالمية ما يشير إلى اتجاه الحضارة الإنسانية في هذه الوجهة ، وقد تشير التجارب على عكس ذلك إلى اتجاه مناقض لذلك الاتجاه .

فالاهداف التي ترمي إليها الشيوعية كما هو معلوم ـ هي إنشاء مجتمع عالمي بغير طبقات يسيطر عليه العمال .

والتجربة الكبرى التي حصلت في روسيا قد أسفرت عن طبقة حاكمة جديدة تستأثر بالنصيب الاوفر من أرباح الايدي العاملة ، ويتبين من الإحصاءات المعول عليها أن نحو أحد عشر في المائة من السكان يستولون على خمسين في المائة من موارد الدولة ، وهي نسبة أعلى من نسبة الارباح التي تستولي عليها الطبقة العليا في الولايات المتحدة . إذ لا يستولي العشر الأعلى من السكان في الولايات المتحدة على أكثر من خمسة وثلاثين في المائة من مواردها .

ولم يحدث قط حتى الساعة أن الطبقة العاملة سيطرت على مصنع واحد في البلاد الروسية من أقصاها إلى أقصاها ، وهذه حالة يعترف بها الزعماء من عهد لنين ولا يرون لهم محيصاً عنها في تطبيقاتها العملية ، فهم يعترفون اليوم بأن سيطرة العمال على الصناعة وموارد الإنتاج إن هي إلا « صيحة حرب » تجمع الصفوف ليس إلا

وتظل كذلك فترة من الزمن لا يدركون منتهاها ، بل يعترفون ـ وعلى رأسهم لنين ـ بأن الكلمة العليا في المصنع ينبغي أن تترك للمدير الذي يحكم فيه بأمره ولا يتأتى أن تدار أداة الصناعة بغير هذه « الدكتاتورية » المطلقة .

وقد اختل حساب كارل ماركس في مسألة من أهم المسائل التي بنى عليها تقديراته ونبوءاته وهي مسألة القضاء على أصحاب الاموال باستيلاء العمال على المصانع وإدارتها لحسابهم ، واستيلاء الجند على الاسلحة واستخدامها في مقاومة القادة والرؤساء .

فقبل مائة سنة ـ في أيام كارل ماركس ـ كانت الآلات الصناعية من البساطة بحيث يستطاع أن تدار بأيدي العمال ، وكانت الاسلحة على مثل هذه البساطة بالقياس إلى خبرة الجندي وذكائه . أما اليوم فقد أصبحت خبرة المهندس لازمة كل اللزوم لتناول الادوات الدقيقة وتحصيل العلم الضروري لتنظيمها في جملة حركاتها ، وأصبحت الخبرة الفنية التي يتدرب عليها المهندس العسكري أعظم وأدق من أن تسلم مقادها للجندي أو للثائر الذي لم يتدرب على استخدام الاسلحة المحتلفة بالاساليب الفنية .

ومن هنا نشأت طبقة غير طبقة أصحاب الاموال وغير طبقة الصناع والعمال تشرف على أدوات الإنتاج ولا يتأتى الاستغناء عنها في المجتمع القائم على الصناعات الكبرى .

وهذه هي طبقة المديرين الفنيين Managers الذين حذقوا أسرار الصناعة أو حذقوا أساليب تنظيمها وتصريفها وترويج مصنوعاتها ، وهم بين مهندس وعالم طبيعي وخبير بتسيير العمل في المكاتب أو نشر الدعوة أو استطلاع حاجات الجماهير وأهوائها المهيمنة على أشكال السلع وأغراضها ، فلا غنى لمجتمع من المجتمعات عن هذه الطبقة في العصر الحديث ، لانها تسيطر تمام السيطرة على أدوات الإنتاج ومحدثات الاختراع التي يتعذر استخدامها عاماً بعد عام على غير الخبير المختص بالهندسة أو بالصناعة أو بالتدبير والتنظيم .

ومن الواجب تصحيح الخطأ الذي يسبق إلى بعض الاوهام كلما قيل إن طبقة من

الطبقات قد أجلت غيرها من مراكز النفوذ في مجتمع من المجتمعات .

فإذا قال المؤرخ إن طبقة أصحاب الاموال والمصانع قد أجلت فرسان الاقطاع عن مراكز نفوذهم واستولت عليها فهو لا يعني بالبداهة أن هذه الطبقة قد جمعت صفوفها وزحفت على الفرسان في معاقلهم فأخذت عليهم موثقاً بالطاعة والتسليم .

وإذا قيل اليوم إن طبقة المديرين تزجزح أصحاب الاموال عن مراكز نفوذهم فليس المقصود بذلك أنها تغلبهم في مصارعة أو حومة قتال ولـو من قبيل المجـاز ، وإنمـا المقصود بهذه العبارات أن المجتمع قد أصبح ولا غنى له عن رأي هذه الطبقة في تصريف المرافق العامة ، ولا حاجة بعد ذلك إلى تنازع النفوذ بسلاح غير سلاح الواقع الذي لا حيلة فيه للغالب ولا للمغلوب .

يقول برنهام إن العلامات النفسية أحق شيء أن يسمى علامات الساعـة في هذه الشؤون .

فنحن إذا التفتنا إلى أية طائفة من علية القوم في زماننا هذا وجدنا عوارض الحيرة والشك وفقدان الثقة بادية عليها شائعة في خطواتها ومساعيها ، وما من قطـب من أقطاب المصارف والشركات وما إليها ترى عليه اليوم أمارات النظر إلى المستقبل في صدق وهمة واطمئنان إلى مصائر الامور كما يتمخض عنها الغد المجهول . إلا طبقة واحدة من هذه العلية المختارة ، وهي طبقة المديرين الفنيين وخبراء الصناعـة ومـا إليها ، فإنهم مطمئنون إلى أعمالهم مؤمنون ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ بأنها هي الاعمال التي لا غنى عنها في عاجل ولا آجل ، وأنها لا تتوقف على رضا أصحاب الاموال ولا على رضا الصناع والعمال .

ومن الإحصاءات التي يعول عليها برنهام يثبت لديه أن أصحـاب الامـوال قد أوشكوا أن ينفضوا أيديهم عن العمل المباشر في المصانع والشركات ، وأنهم تركوها للمديرين والخبراء يعالجون مشكلاتها بما يعن لهم من مطالب الساعة ، وقنعوا بحضور الجلسات السنوية أو الدورية في مجالس الإدارة التي تقصر مهمتهـا على المراجعـة العامة ، وقد تكون مراجعة اسمية في معظم الأحيان .

وسيمعن أصحاب الاموال في التخلي ويمعن المديرون في التمكن ، ويمعن المجتمع

في تنظيم مطالب المعيشة ومطالب التجارة إلى أن يصبح تثمير المال في الارباح الفردية صورة لا حقيقة لها في الحياة الاقتصادية ، وتدار المصانع والمتاجر على حساب المرافق العامة التي ترسمها الدولة ، فلا يملك أصحاب الاموال شيئاً من الحرية في التثمير والاستغلال .

ويسأل برنهام : ما هو مصير الديمقراطية مع النظام الجديد ؟ فيسرع في الجواب إلى التفرقة بين الحرية الشعبية والديمقراطية ، ويسلم أن النظام الذي يسميه نظام « الطبقة الفنية » يكتنفه بعض الغموض ، ولكنه يرى أنه يقترن بالحرية على وجه جديد ، لان الديمقراطية في رأيه مقترنة بنظام رأس المال ، وليست الديمقراطية مرادفة لمعنى « حق الحرية » حيثما استمتع به الإنسان في الحال والاستقبال .

***

وفي تقدير برنهام أن نصيب الشعب من الحرية في النظام الجديد لا يقل عن نصيبه منها في ظل الديمقراطية ، فما كانت الديمقراطية قط حكماً شعبيا إذا أريد بالحكم الشعبي أن يختار كل فرد من أفراد الشعب حكامه ووكلاءه ، ورأي برنهام كرأي موسكا في قيام جميع الحكومات على قاعدة واحدة وهي قاعدة « القلة تحكم الكثرة » على الدوام سواء جرى الحكم على أساس الانتخاب أو على غير أساس الانتخاب ، وغاية ما يحدث بعد مصير الحكم إلى الطبقة الفنية أن الصيغ والعناوين التي يترنم بها الشعب ويتخذها شعاراً له في السياسة تتغير وتتجدد على نحو آخر ، فتحل قداسة الدولة أو الامة أو السلالة محل قداسة الحرية الفردية ، وتحل الجهود المشتركة محل الحوافز الشخصية ، وتحل كلمات النظام والرسم والترتيب محل كلمات العمل المطلق والرخص الحرة وما إليها ، ويستغني الناس عن الحرية التي كانت لازمة في ظل الديمقراطية فلا يطلبونها ، وفرق بين الاستغناء عن حرية من الحريات وبين فقدها أو تقيدها بسلطان القانون .

والظاهر من الطور الصناعي الذي انتهى إليه العالم في العصر الحاضر أن مسألة الانتاج قد أصبحت مسألة عالمية لا يتسنى على الإطلاق تنظيمها وتعميم النفع منها مع كثرة الحدود بين الامم وكثرة المكوس والعوائق التي تعترض الإنتاج العالمي من

جراء تعدد الحكومات وتعدد الخطط الاقتصادية . فلا بد إذن من نظام عالمي أو من حكومة عالمية ؛ وهذه هي النتيجة المحتومة للتنظيم الفني الذي يكفل المنفعة العظمى من تدبير الصناعة وتصريف المصنوعات والتوفيق بين مقادير الخامات ومطالب الاسواق .

فهل من الميسور تأسيس حكومة عالمية تتولى تدبير شؤون الامم جميعاً وتجمع أعنة السيادة كلها في أقل عدد مستطاع من الايدي والرؤوس !

إن الحوائل دون هذا الغرض كثيرة ، ومنها اختلاف الآجناس والتقاليد الوطنية وصعوبة الاعتماد على جيش واحد لتوطيد سلطان الدولة العالمية ، ولكن برنهام يعتقد أن تدبير الامر مستطاع بالاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ريثما تتهيأ الاحوال التي تسمح بتوحيد الحكم أو توحيد القواعد الاقتصادية بين أمم العالم ، وما دام هذا هو المصير الذي لا محيد عنه فسوف تنجم الحيلة من هنا أو هناك لتوجيه الخطى إلى هذه الوجهة ما بقي للحضارة حظ من البقاء .

ويحرص برنهام على التمييز بين مذاهب الدعوة ومذاهب البحث والاستقراء في مسائل السياسة .

فمذاهب الدعوة يراد بها الإقناع باختيار نظام معين ، ومذاهب البحث والاستقراء تلتزم أمانة العلم فيما تقرره وتأخذ نفسها بوصف ما هو واقع أو ما سيقع بالقياس إلى التجارب الماضية والحاضرة .

ومذهب برنهام ـ في اعتقاده ـ من المذاهب العلمية التي يراد بها تقرير الواقع ولا يراد بها التبشير والتأثير على الجماهير وهو يسوق الامثلة على صحة استقرائه من قيام النظام الشيوعي في روسيا وقيام النظام النازي في ألمانيا وقيام التوزيع الجديد New Deal في الولايات المتحدة وقيام خطط الرسم والتنظيم في شؤون الصناعة والتجارة في العالم كله منذ نشوب الحرب العالمية إلى اللحظة الحاضرة .

فكل هذه التجارب ـ كما يراها برنهام ـ هي عوارض التحول إلى حكم الطبقة الفنية أو إلى الطور الجديد من أطوار الحكم والسياسة .

فليس مذهب كارل ماركس هو الذي يطبق في روسيا بل هو نظام الطبقة الفنية ، وليست فلسفة النازية هي التي نفذت في ألمانيا على عهد هتلر ولكنها هي المحاولة في طريق الحكم الفني مع القضاء على نظام رأس المال ، وليس التوزيع الجديد في الولايات المتحدة برنامجاً مرتبطاً بشخص الرئيس روزفلت كما خيل إلى بعض نقاده ولكنه هو حكم الضرورة الذي أوجب عليه أن يلجأ إلى « توزيعه الجديد » ويوجب الاستمرار فيه على من خلفوه وسيخلفونه .

ومتى تداعى نظام رأس المال فتلك علامة على التطور الطبيعي الذي لا يرجع إلى الوراء ، وسينقضي عهد الشيوعية في روسيا وفي غيرها فلا يلزم من زواله أن تعود الامم إلى نظام رأس المال كما كانت قبل التجربة الشيوعية ، وإنما تبطل التجربة الشيوعية لتعقبها ولاية المديرين الفنيين حيثما وجدت الصناعة الكبرى ، فإن لم توجد فالبلاد التي تخلو منها تظل معلقة بدولاب من دواليب الامم الصناعية الكبرى إلى أن تتمالك قواها وتتمكن من الوقوف على قدميها .

هذه هي النتيجة العملية التي فصلها برنهام في كتبه المتعددة وأهمها هو كتابه الذي ألفه في أوائل ايام الحرب العالمية وسماه الانقلاب الفني Managerial Revolution ، ففي هذا الكتاب خلاصة مذهبه كله بتفصيل كاف لبيان مواطن القوة والنقص فيه . إلا أنه أضاف إليه بعض الحواشي والتعليقات في خلال كلامه عن فلاسفة الحكم الذين سماهم بالمكيافيليين لانهم جميعا يجعلون للحكم صورتين تختلف الظاهرة منها عن الباطنة ، ولا تنطبق الدعوى فيهما على الحقيقة الواقعة .

ففي ختام هذا الكتاب يوجه برنهام ثلاثة أسئلة وهي : هل يمكن الوصول إلى مقررات علمية في شؤون السياسة ؟ وهل يتيسر تعويد الجماهير أن تتصرف في أعمالها السياسية وفاقاً للعلم أو لمقتضيات المعقول ؟ وهل يتيسر للحاكمين اتباع قواعد العلم في حكم الرعايا ؟

وجوابه عن السؤال الاول « نعم » لان استقصاء الوقائع والمقابلة بينها وردها إلى أهم أسبابها المتواترة واستخلاص النتائج منها هو كل ما يلزم لإنشاء « علم السياسة » والوصول إلى المقررات العلمية في مسائلها ولو على وجه التقريب ، وهذه المباحث كلها ميسورة لمن يعكف على دراستها وللذين يتابعون درسها لنقد عيوب الدراسات

الاولى منها .

أما جوابه عن السؤال الثاني فهو نفي هذا الاحتمال لان الدرس العملي لا يتاح للالوف والملايين في حالات الطلب والغضب والتشيع والتعصب وما شابه هذه الحالات التي لا تخلو منها جمهرة الرعايا في وقت من الاوقات .

وقد أجاب عن السؤال الثالث بترجيح إمكانه ، لان توزيع العمل بين العلماء والفنيين يتيح لهم أن يعتمدوا على طائفة منهم تتفرغ للبحث وتملك المعلومات الكافية للتقدير الصحيح ، ولا سيما التقدير الذي تدار على أساسه مصانع ومعامل توازن بين ما تطلبه وبين ما هو مطلوب منها في مختلف المواسم والمناسبات .

ولعل الطبقة الفنية التي تشرف على أدوات الإنتاج ستتولى الحكم وهي أقدر على صد الاغنياء وكبح الجماهير من حكومات رأس المال . لان الاغنياء هم الذين يسيطرون على تلك الحكومات وجمهرة العمال قادرة على تهديدهم في مصالحهم بالإضراب والاعتصاب والهجوم على المصانع أملا في إدارتها لحسابهم كما يمنيهم زعماء الشيوعيين ، وهذا خلاف ما يجري عليه العمل في حكومات الفنيين ، لانهم لا يملكون شيئاً غير الخبرة التي لا ينتزعها منهم المهددون من الفريقين .

على أن الذين يقرون برنهام على اعتقاده في « علم السياسة » يخالفونه في سهولة التطبيق الصحيح ، والمهم في السياسة هو التطبيق .

فردريك أوجست ڤون هاييك

Friedrish August Von Hayek

١٨٩٩

تعتبر مدرسة الحريين مدرسة إنجليزية في نشأتها وتدعيمها وكثرة أتباعها ، ولا يستثنى بعضهم مذهب « هوبس » الفيلسوف من مذاهب هذه المدرسة وهو الداعي إلى تزويد الحكومة بالسيطرة القوية ، لانه ـ مع ميله إلى تعزيز سيطرة الحكم ـ يقرر أن الحكم كله قائم على تراضي المحكومين واتفاقهم على تنصيب الحاكم ، منعاً لعدوان بعضهم على بعض وضماناً من الخوف الذي يساور ضعفاءهم من أقويائهم إذا ارتفعت عنهم سطوة الهيئة الحاكمة .

ويتفق فلاسفة الاقتصاد السياسي وفلاسفة الحكم على مذهب الحريين ، فالمدرسة الإنجليزية ـ مدرسة آدم سميث ـ تلخص آراءها الاقتصادية في إرسال المعاملات بغير قيد وتتخذ شعارها عبارة « دعه في سبيله » على اعتقاد أن سنن الاخذ والعطاء والعرض والطلب خير كفيل بتنظيم المعاملات في الاسواق الداخلية والاسواق الخارجية على السواء .

ويجاريها فلاسفة الحكم من جون ملتون إلى جون ستيورات ميل إلى اللورد أكتون إلى هربرت سبنسر إلى برتراند رسل في العصر الحاضر ، وخلاصة آرائهم جميعا أن « الحرية الفردية » غرض مطلوب لذاته وليست وسيلة نتوسل بها إلى غرض آخر ، وأن مهمة الحكومة مقصورة على كفالة هذه الحرية الفردية فلا حق لها في استخدام شيء من السيطرة وراء هذه الغاية .

على أننا اخترنا الاستاذ هاييك لتمثيل هذه المدرسة لان كلامه فيها أقرب إلى البحث المجرد الذي لا يصدر عن تقليد من التقاليد القومية ، فليس هو من صميم الانجليز ولا من الذين تعلموا في المدارس الإنجليزية ، ولكنه ولد في النمسا وتعلم فيها وفي الولايات المتحدة وانتقل بعد ذلك إلى إنجلترا حيث يقيم الآن ويشتغل بالتعليم في جامعاتها . وقد أصبح له صوت مسموع في ميدان الثقافة والسياسة وشاعت آراؤه على أثر نشرة لكتابه المسمى « بالطريق إلى الرق » ويعني الكتاب أنه لا يكتفي بترديد المبادىء الاولى التي أيد بها الحريون مذهبهم لاختلاف الاحوال بين القرن الماضي والقرن الحاضر ، فإن مبادىء الحريين الاولى قد لوحظ فيها تفنيد حجج المحافظين الذين كانوا يميلون إلى تقييد الواردات وزيادة المكوس واحتكار الاسواق ، أما مبادىء الحريين في العصر الحاضر فالملحوظ فيها تفنيد القائلين باستيلاء الدولة على المرافق العامة وتعميم نظام التأميم على المنشآت القومية الكبرى ، وقد ساعد على إقحام هذه المبادىء في البيئة الإنجليزية عوامل جديدة لم تكن معهودة في القرن الثامن عشر ، ومنها مشكلة البطالة وتكاثر حزب العمال والاضطرار إلى تقييد التجارة وتنظيم الإنتاج في الحرب العالمية الاولى وفي الحرب العالمية الثانية ، وتزاحم الدول على الاسواق واعتماد أصحاب المصانع والشركات على مساعي حكوماتهم عند الحكومات الاخرى .

فمذهب الحريين كما يعرض الآن مذهب جديد في أسبابه ومناقشاته وإن كان قديماً في أصوله وغاياته ، ويبدو من ذيوع كتاب الاستاذ هاييك أن أنصاره والمستعدين للاقتناع به غير قليل بين قراء الإنجليزية ، فقد طبع ست مرات بعد طبعته الاولى ونشرت منه طبعة شعبية غير الطبعة الخاصة ، واعتبره الحريون

معبراً صادقاً عن آرائهم في الرد على أنصار التأميم والتعميم .

يعمد الاستاذ هاييك إلى الحجة الاولى من حجج المقيدين والمنظمين ـ وهي ضرورة التأميم في العصر الحاضر تبعاً لتقدم الصناعة ـ فينفيها كل النفي ويستند في نفيها إلى بيانات لجنة الاقتصاد القومي الامريكية التي درست مسألة التركيز الاقتصادي وسجلت نتائج بحثها في تقرير واف قدمته إلى الكونجرس منذ عشر سنين (١٩٤١) .

وفحوى حجة المقيدين والمنظمين أن تقدم الصناعة في العصر الحاضر لا بد أن يفضي إلى نتيجة من اثنتين : إما احتكار الاسواق في أيد قليلة ، أو سيطرة الحكومة على المصانع والاسواق ، لان تقدم الصناعة يجعل في مقدور المصانع الكبيرة ان تقضي على المنافسة بقلة التكاليف وجودة البضاعة ورخص الآسعار ، فإذا تركت الحكومة حبل المصانع الكبرى على غاربها فالنتجية المحتومة هي الاحتكار والقضاء على صغار الصناع والتجار .

والاستاذ هاييك يقول إن شيئاً من ذلك لم يثبت من بحوث المختصين ،فلا جودة الصناعة ثابتة للمصانع الكبرى ولا سيطرة الحكومة ضرورية لتنظيم الصناعات .

ويختصر الطريق فيقول إن السيطرة الحكومية بدأت في ألمانيا منذ ثلاثين سنة حيث لم تبلغ الصناعة غايتها من التقدم وتأخرت في إنجلترا الي سبقت الامم الاوربية في هذا المضمار . والمعروف أن أصحاب المصانع هم الذين يسعون إلى تقرير نظام التقييد والتنظيم ويبذلون في هذا السبيل غاية ما يستطيعون من وساطة وتأثير . فلو أن الامر كان حتما مقضياً لا محيد عنه لاراحوا أنفسهم من المساعي الحثيثة في هذا السبيل .

وليس قصارى الاعتراض على التقييد والتنظيم أنه عمل لا تقضي به الضرورة في الظروف العامة ، وإنما يعترض عليه الحريون لانه سياسة ضارة بالصناعة نفسها وضارة بالاخلاق والاداب وضارة بقضية السلام في العالم .

فقد كان تقدم الصناعة والاختراع مقترناً بحرية المعاملة وفتح باب المنافسة لمن

يشاء ، ولن يطرد هذا التقدم إذا بطلت المنافسة ووكل الامر إلى رقابة الموظفين الذين يعملون لغيرهم ولا يعملون لانفسهم .

ومتى استقر الرأي على تفويض الحكومات في شؤون الإنتاج والاقتصاد فمن لوازم هذا التفويض أن يسمح لها مقدماً باتخاذ كل « إجراء » يستدعيه التنفيذ في حينه ولا يتأتى أن يحسب له حسابه قبل ذلك الحين ، ومؤدى ذلك ذهاب حكم القانون الذي يتعارف عليه الناس قبل تنفيذه ، وإيكال الامور كلها إلى تقديرات المنفذين على حسب كل ظرف من الظروف .

يقول الاستاذ إن خير وسيلة لحسن العمل هي إقناع العاملين بصوابه وحسن جدواه ، وليس من الممكن إقناع الناس قاطبة بخطة من الخطط السياسية أو الاقتصادية تطبق عليهم في جميع الاحوال ، فينتهي الامر بإحلال الدعوة والتبشير محل التعقل والإقناع ، ويتعارف الساسة والرعايا على الخداع والتضليل للتوفيق بين الدعوة وبين أمزجة الناس وآرائهم ، وتنشطر الامة إلى فريق مع النظام وفريق خارج عليه محتاج إلى الإكراه أو إلى التضليل لإدخاله في سلك ذلك النظام ، ومن هذا الانقسام تنشأ رذيلة الاستبداد التي تقصر الحقوق القومية على من يشايعون السلطان القائم ، ومتى كانت الحكومة هي صاحبة العمل وصاحبة السلعة فالذي يخالفها يقاطع موارد الرزق ويتعرض للجوع والانتقام على يد القانون .

ويناقش الاستاذ أقوال القائلين إن الآفة في الدولة المستبدة هي آفة الحاكمين بأمرهم لا آفة النظام نفسه ، وإن البلاد الالمانية والايطالية لو أسندت إلى حكام غير هتلر وموسوليني ومن معهما لما ساءت فيها الامور كما ساءت ولا تعرض السلم في العالم للخطر كما تعرض له من جراء خطل الرجلين ومن على شاكلتهما من الاشرار أو الإمعات ، ولا أفضي الخطر فعلا إلى وقوع الحرب واتصال القلاقل في العالم بعد هزيمة المعتدين .

يناقش الاستاذ أقوال هؤلاء ويخرج منها على نقيض مازعموه : وهو أن الآفة في النظام حيث كان وليست الآفة في آحاد معدودين يبرزون بالمصادفة والاتفاق في بلد دون بلد وزمان دون زمان .

إن الدكتاتور ـ الحاكم بأمره ـ يصعد إلى عرش جبروته بتأييد جمهرة من الامة يستمد منها القدرة المطلقة على قمع معارضيه وفرض الطاعة العمياء على جميع المحكومين ، وهي تخوله الامر المطلق لانها تتقبل « نظرية واحدة » في شؤون السياسة .

ومن القواعد المقررة أن الإنسان كلما اترقى في العلم والفهم بلغ مرتبة الاستقلال بالرأي والاستقلال بالخلق ، فلا يتسنى اجتماع كثرة غالبة من هؤلاء المستقلين فيها وبغير تعقيب عليها .

فالجمهرة التي تؤيد الدكتاتور هي بطبيعتها جمهرة مسفة في طبقة الفكر والخلق ، تهون عليها حريتها وتهون عليها حرية غيرها . ولا تشعر بفقدان الحرية ، لان الذي يشعر بفقدانها هو الذي يقدر على استقلال الرأي فيشعر بالحجر عليه .

ولا يخفى أن الحاكم بأمره يتعلل على المجالس النيابية لانه يتهمها بتضييع الوقت في المناقشات ويرغب في سرعة الإنجاز ومضاء العزيمة عند البت في جلائل الامور ، فإذا رسخت قدمه في مكانه فليس من المعقول أن يطيق المعارضة ممن حوله ولا أن يحتمل المشاركة وهو قادر على التفرد برأيه ، فلا يلبث أن يحيط عرشه بمن يذعنون له خوفاً واستسلاماً أو عجزاً عن مقابلة الرأي بالرأي والدليل بالدّليل . ولن تطول هذه الحالة حتى تقضي على عناصر التفكير والاستقلال فيمن يقبضون على أزمة الدولة ويديرون معه أداة الحكومة .

ولما كانت جمهرة المحكومين لاتساس بالرأي والروية فلا غنى للحاكم المستبد عن سياستها بإثارة العواطف وتحريض نوازع البغضاء والحماسة على « العدو المزعوم » الذي يخترعه لها إن لم يكن له وجود في مخيلتها . وقد كان « اليهودي » هو العدو المختار لشعب ألمانيا ، وكان الكولاك او مالك الارض هو العدو المختار لشعب روسيا ، وكانت إنجلترا تارة وحكومات « رأس المال » تارة اخرى هي العدو المختار في السّياسة الخارجية ، وعلى الدكتاتور ـ متى استثار حفائظ البغض في نفوس رعاياه ـ أن يسمح لها بافتراس ضحاياها وأن يخلي بينها وبين أعدائها ،

ولها منه أيضاً أن تعينه على ضحاياه وأعدائه . . إذا انهم هم العدو المشترك الذي يقف في الطريق دون بلوغ العظمة المنشودة والمجد المأمول .

فحكم القسوة والإجرام وضيق الحظيرة وقلة الصبر على الآراء المخالفة طبيعة ملازمة للحكومة المستبدة ، وقد قيل إن الطغيان يفسد صاحبه وإن الطغيان المطلق فساد مطلق في جميع الاحوال ، فإذا اتفق مرة أن يتبوأ عرش الطغيان حاكم صالح فلا أمان عليه من عدوى الفساد والانحدار .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن الحكومات انما تسيطر على المصانع والسلع لتتولى هي أعمال التجارة مع الامم الاخرى على أساس القوة والغلبة ، فتصطدم القوة بالقوة ويقع الاحتكاك الذي يخشى منه على السلام العالمي ، ويلتفت العالم بعد الخراب الجائح الذي ابتلي به من جراء المنازعات والحروب فإذا هو قد أضاع من الزمن بتلك السرعة المزعومة أضعاف ما يضيع عليه في المناقشات الحرة ، فضلا عن خسائر الارواح والاموال .

ويعتقد الحريون أن تجارب التقييد والتنظيم محاولات مخفقة تؤول في النهاية إلى الاعتراف بالمنافسة الحرة في نطاقها الصالح الذي لا يجاريها فيه نظام آخر.. فهي محاولات غير ممكنة كما أنها غير ضرورية . فليس في الدنيا إنسان ولا جملة من الناس يملكون المعلومات والوسائل الكافية لإخراج كل سلعة بالقدر اللازم في الآونة اللازمة ، وإنما يتكفل التنظيم بناحية وتتكفل المنافسة الحرة بناحية أخرى ، وتتقلب الاحوال في الاسواق أبداً على حسب الطلب والمحصول وكثرة هذه السلعة وقلة تلك وتغير الاذواق والحاجات بما لا يدخل يوماً في حساب ولا تدبير .

ويطول شرح الآراء والاسباب التي يبنون عليها نظرياتهم في حكمهم على عاقبة التقييد والتنظيم ، سواء منه ما يطبق في ميدان الاقتصاد القومي أو في ميدان المبادلات العالمية .

وقد جمع الاستاذ هاييك طائفة من بحوث علماء الاقتصاد في الامم الاوربية كالاستاذ بيرسون الهولاندي والاستاذ لدفج ڤون ميز النمسوي والآستاذ جورج

عالم الالماني والأستاذ بوريس برتزكاس الروسي وقدم لها في مجموعة باللغة الإنجليزية نشرت باسم « تنظيم الاقتصاد الجماعي » Collectivist Economic Plamning فاتفقت أقوالهم جميعاً على رأي واحد أسفرت عنه التجاوب الجماعية في كل أمة بغير استثناء روسيا الشيوعية ، وخلاصة هذا الرأي أن الإنتاج الجماعي مستحيل بغير تقدير « ثمن » للسلع يتوقف على نسبة الحاجات المعيشية بعضها إلى بعض ولا يتيسر التحكم في تقديره بحال من الاحوال .

وما معنى تقدير « الثمن » الذي يرتفع ويهبط من حين إلى حين ؟ معناه الموجز أن ضبط مقادير السلع بالتحكم والإملاء السابق غير مستطاع ، وأن الحرية الاقتصادية على نحو ما تتغلب على أوامر التحكم والإملاء .

والاستاذ بيرسون الهولندي يعرض في بحثه عن مشكلة « القيمة » لتوزيع الدخل في بلاد الصناعة المقيدة فيتساءل : هل يوزع الدخل بتقدير عمل العامل أو يوزع الدخل بغير نظر إلى عمله ؟ فإذا تغاضى ولاة الامر عن عمل العامل فلا صناعة ، وإذا دخل تقدير العمل في الحساب فهناك التفاوت بين الدخول المتعددة ، وإذا تكفلت الدولة بتشغيل كل عامل فلا بد من وقت يقل فيه الطلب أو تقل فيه الخامات أو تختلف فيه النسب والمقادير فيتعرض فريق من عمال بعض الصناعات لركود الحركة أو البطالة وتصل إليهم الاجور من قبيل الإعانة والإحسان ، وتتشابه الصناعات المؤممة والصناعات الحرة في علاج البطالة على هذا الاسلوب .

ويتساءل أيضا : هل تتغير عادات الكسل والتواكل وإدمان السكر والطمع والإجحاف في الرؤساء والمرؤوسين اذا كان نظام التقييد والتأميم متوقفا على صلاح الاخلاق ؟ وإذا كانت هذه العادات تتغير فما الحاجة إلى قلب النظام الاجتماعي من حال إلى حال والناس يستريحون في ظل كل نظام حيثما عدل الكسلان عن الكسل وعدل السكير عن السكر وعدل المجحف عن الإجحاف ؟ وظاهر من هذه الآراء أن الاستاذ بيرسون وزملاءه من الحريين يرجعون بأسباب الفقر إلى عادات الإنسان وأخلاقه كيفما كان النظام وكيفما كانت أساليب الإنتاج .

* * *

والتنظيم العالمي مشكلة أعضل من مشكلة التنظيم القومي وتوزيع الدخل بين العاملين في الامة الواحدة . فمن الذي ينهض بعبء رأس المال في الصفقات الدولية ؟

تريد هولندة أن ترسل إلى جاوة بضائع مصنوعة في مقابلة صفقة من الارز والبن . فهناك ثلاث طرق لإجراء هذه المبادلة : إحداها أن يصل الارز والبن إلى هولندة ويؤدى ثمنه بعد وصوله أو بعد وصوله واستنفاد بعضه ، والاخرى أن تصل البضائع المصنوعة إلى جاوة ويؤدى ثمنها بعد وصولها واستنفاد بعضها ، أو يرسل كل من الطرفين مبادلته وتلتقيان في منتصف الطريق . فجاوة هي التي تنهض بعبء رأس المال في الحالة الاولى ، وهولندة هي التي تنهض به في الحالة الثانية ، وكلتاهما تنهضان بالعبء في الحالة الثالثة .

ثم يتساءل الاستاذ بيرسون قائلا : ما العمل في الامم التي لا تملك رأس المال حاضراً وتتسلف عليه في انتظار موسم من المواسم ؟ فهنالك أمم لا يحضرها رأس المال كل ساعة وهناك أمم يحضرها الوفر منه دائما ولا يضيرها أن ترجىء الحصول على ثمنه في مقابلة شيء من الربح المنتظر ، وهناك أمم تنقص نصيبها من مادة لتتم نصيبها من مادة اخرى ، وقد يعظم الطلب في العالم على مادة زراعية على حسب المواسم التي تختلف من سنة إلى سنة ثم يقل الطلب على تلك المادة يعينها في نهاية ذلك الموسم ، وتداول المواد والاثمان والصفقات العاجلة أو الآجلة يجري الآن على السنن التجارية والاقتصادية في أعمال المصارف والبيوت التجارية . فكيف يحل التنظيم العالمي محل هذه الطريقة ؟ وعلى أي سنة يجري تقدير الاثمان وتقدير ما تؤديه كل أمة في كل حالة ؟

وخلاصة ما يتوافق عليه الاقتصاديون الحريون في مشكلة التنظيم العالمي أنها تحتاج إلى تدبير أصحاب الحيلة الناجحة وتدبير أصحاب الكفاءة الضرورية لتنفيذها وتدبير أصحاب الهمة والامانة إذا توافرت الكفاءة . فمن الذي يضمن تدبير ذلك كله في وقت واحد وعلى حساب المفاجآت التي لا تدخل في حساب ؟

وكلهم يتسلءلون : ما الحاجة إلى قلب نظام الدنيا إذا فرضنا أن الدنيا ستتحول فيما بين ليلة ونهار إلى فردوس كفردوس الملائكة الابرار ؟ ويتسلءلون أيضا : ربما وجدنا الرجال الذين يصبرون على الشظف من أجل تمجيد صناعتهم الوطنية . ولكن أين هم الرجال الذين يصبرون على الشدة ويقاومون المحنة من أجل سكان مجهولين في جزيرة مجهولة يسمعون بها كرقعة ملونة على خريطة الكرة الارضية ؟

كذلك تستطيع الحكومة القومية أن تقنع بعض رعاياها بالتحول من زراعة إلى زراعة باسم الحمية الوطنية وعلى اعتقاد أن المنفعة تؤول إلى إخوانهم في الوطن الواحد . ولكن كيف تقنع الناس في كل موسم بخطة جديدة تصدر من الهيئة العالمية التي تشرف على تنظيم الموارد والمصادر ؟ ومن أين تأتي القوة العسكرية التي تكره المخالفين والعصاة على الطاعة ؟ وكيف يرضى أبناء إقليم من الاقاليم بإهدار مصالحهم كلما وقر في أخلادهم أنهم ضحية لمطامع الدول الغنية ؟

إنه على الجملة تنظيم غير ضروري وغير ممكن ، ويزيد على ذلك أناس من الاقتصاديين المؤمنين بمحاسن المنافسة الحرة فيقولون إنه ضار بالافراد وبالامم وبالانسانية على عمومها . ففي ظل المنافسة الحرة التي تكفل بها نظام رأس المال نشأت حرية الفكر وحرية الضمير وحرية المعاملة واتسعت حقوق العمال وارتفعت أجورهم وتهيأت لهم ولاية الحكم في أمم كثيرة وتبين بالإحصاء أن دخل الفرد قد تضاعف من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين بحسبان ما يقدر على شرائه لا بحسبان ما يقبضه من العملة وتبين بالإحصاء كذلك أن دخل العامل في روسيا الشيوعية يزيد بقليل على ربع الدخل المتوسط بين عمال الولايات المتحدة ، وهذا مع الفارق البعيد بينهما في الحرية وفرص التقدم ، ومع الفارق البعيد بين مخاطر الحياة قبل القرن الثامن عشر في الدنيا عامة وضمانات الحياة المختلفة بعد قيام رأس المال . فقلت المجاعات والاوبئة وقلت ضحايا الجهل والخرافة ، وخطا بنو الإنسان في قرن واحد خطوة أوسع وأجدى عليهم من خطواتهم في عشرات القرون .

ومساوىء النظام حقيقة لا ينكرها أحد . ولكننا لا نقابل نظاماً معروف المساوىء بنظام خلا من جميع المساوىء . فما من نظام في الحاضر والمستقبل يخلو

من مساوئه التي تعاب عليه . وإنما المقارنة بين مساوىء نظام ومساوىء نظام يلغيه ويعفي على محاسنه ولا ينبغي أن ننسى أن من المساوىء ما هو لصيق بعيوب الإنسانية ولا أمل في تبديله حتى تتبدل طبائع الإنسان .

إنما الوجه أن نحسب الحسنات مع السيئات ، فلماذا ينسون الحسنات حين يذكرون السيئات ؟ ولماذا يعالجون نظام المنافسة الحرة بهدمه ولا يعالجونه باصلاح سيئاته ؟ فالسيارات مثلا لها مخاطرها وتكاليفها وأضرارها وضحاياها ، وما من أحد يقول بإلغاء صناعة السيارات من أجل تلك الأضرار ، بل يقولون جميعا بتحسين معاملها وتوسيع طرقها ومد مسافاتها ، ويحتملون العيوب من أجل الحسنات ، ثم ينظرون في إصلاح العيوب حيثما استطيع الإصلاح .

والنتيجة من مذهب الحريين الحديث والقديم معاً هي « أولا » أن التقييد غير لازم و« ثانيا » أنه غير مستطاع و« ثالثا » أنه غير مأمون العاقبة على المصالح والحريات و« رابعا » أن نظام المنافسة الحرة كفيل بإصلاح عيوبه مع الزمن على حسب مقتضيات الاحوال .

وقد يسبق الى الخاطر مما تقدم أن الحريين المحدثين يتابعون الحريين الاقدمين في رفض التقييد بتة وإطلاق الحرية للمنافسة الصناعية والتجارية بغير استثناء ، وأنهم يعودون إلى شعار الحريين الاول الذي فحواه : « دعه لسبيله » أو « دعه في سبيله »Laissaiz Faire كما وضعه الساسة والاقتصاديون في القرن التاسع عشر بغير تنقيح .

إلا أن الحريين المحدثين لا ينحون هذا النحو ولا يرفضون التقييد والتنظيم كل الرفض في جميع الاحوال .

إنما يرفضون شيئاً واحداً وهو التقييد الذي يبنيه أصحابه على نظريات فلسفية قابلة للخلاف ويفرضونها على المجتمعات كأنها وحي مبرم لا تبديل لكلماته ولا يطاق الخلاف عليه .

إنما يرفضون الحجر على المستقبل إلى آخر الزمان ذهاباً مع معلومات تتغير في كل عصر وقد تنقلب من النقيض إلى النقيض ، أو هم يرفضون التقييد الذي هو

حجر على مساعي الارزاق وحجر في الوقت نفسه على العقائد والافكار وإكراه للعقول على أن تفهم كما يفهم فريق من الناس ، وللايدي على أن تعمل كما يسوقونهم من الآن إلى غير انتهاء .

فهذا هو التقييد الذي يرفضه الحريون المحدثون ، ولكنهم لا يرفضون إشراف الدولة على المرافق التي لا يستقل بها فرد أو جملة أفراد ، ولا يرفضون التقييد الذي توحيه المصالح والظروف حسب الحاجة المتجددة ، وقد يبيح في عام ما يحظره في عام ويخضع في الاباحة والحظر للرقابة العامة التي تصونه عن فساد الاحتكار وفساد الطغيان وفساد التعسف بالاهواء والنزوات .

واسم الحريين كاف لبيان لباب المذهب بحذافيره . . فالحرية الفردية أو حرية الضمير الإنساني هي الغاية القصوى التي تخدمها كل غاية ، وتحسين العيوب مع بقاء الحرية أمل مشروع يجاري سنة الحياة التي تقوم على الخطأ والتجربة والإصلاح ، ولكن ذهاب الحرية خسارة محققة بغير عوض مضمون ، لانه مقدمة لذهاب المصلحة الفردية والمصلحة القومية ، ومن وراء ذلك ذهاب المصلحة الإنسانية وخسارة المادة والروح .

جراهام والاس

Graham Wallas

١٨٥٨ ـ ١٩٣٢

كاتب اجتماعي اشتغل بالتدريس وساهم في تأسيس الجمعية الفابية الاشتراكية وكان أحد الاعضاء في لجنة التحقيق التي ندبتها الحكومة الإنجليزية لبحث مسألة الوظائف والموظفين ، وألف كتبا قيمة في أصول السياسة والاجتماع : منها كتاب « الطبيعة البشرية في السياسة » وكتاب « تراثنا الاجتماعي » وكتاب « الهيئة الاجتماعية العظمى » وكتاب « الرأي الاجتماعي » ورسائل منوعة تدور حول هذا الموضوع ، عدا بعض التراجم والتقارير .

وهذا الكاتب الالمعي طراز آخر غير الكتاب الذين أجملنا الكلام عليهم في هذه الرسالة ، فهو لا يتشيع لشكل خاص من أشكال الحكومة ولا يستخلص من عبر التاريخ محورا خاصا تدور عليه النظم الحكومية ، ولكنه يحاول أن ينشيء علما للسياسة يضارع علم الاقتصاد أو علم الاجتماع إن لم يبلغ في دقته مبلغ العلوم الطبيعية والرياضية ، ويهتدي في محاولته هذه بقول أرسطو إذ يقرر أن السياسة علم يدرس للعمل لا لمجرد الفهم والمعرفة ، فلا ينفعنا أن نرصد حركات الامم

في الماضي ونقيس عليها حركات الامم في المستقبل ونضبط القياس حتى لا يختل قيد شعرة في تقدير ما هو كائن وما سوف يكون . فإن علماء الفلك يتقنون الحساب الذي يترسمون به سير الكواكب في مداراتها وملتقى الشموس والاقمار في أوقاته ، ومواعيد الخسوف والكسوف بأيامها وساعاتها ودقائقها ، ولكنه علم لا يتيح لاحدهم أن يحول كوكبا عن مجراه أو يؤخر لحظة من موعد الخسوف والكسوف .

أما المقصود بعلم السياسة فهو الاحاطة بمجاريها والاقتدار على تعديلها وتحويرها والتأثير فيها ، ومثل هذا العلم لا يكمل في سنوات ولكنه قد يبدأ في ساعات وينتهي بعد حين إلى فائدة لا شك فيها ، ولوظل ناقصا مختلطا عدة سنين .

ورأى جراهام أن تكوين علم السياسة لا يستلزم أن يكون الإنسان معقولا في تصرفاته السياسية ، وهو على حق في ذلك . إذ ليست المراقبة العلمية وقفا على أعمال المتعلقين والمناطقة بل هي قد تتناول حركات الجماد كما تتناول حركات الإنسان في المجتمع السياسي معقولا وغير معقول . وصدق من قال إن المرء ليحتاج إلى كثير من التعقل ليعلم كم يخلو الإنسان السياسي من التعقل ، ولا سبيل إلى فهم السياسة ولا إلى وضع علم للسياسة مالم تكن هذه الحقيقة ماثلة أمام من يدرسونها .

وقد مات جراهام والاس ولما يفرغ من محاولاته في تقرير قواعد علمه ، فلا نريد في هذا الفصل أن نلخص محاولاته تلك أو نلخص المقررات التي عساه كان منتهيا إليها لو امتدت به أوقات الاستقراء والتقرير ، فغاية ما في الوسع أن نعرض هنا نماذج من الاغاليط التي طرحها على مشرحته وأن نلم بأمثلة من أساليبه في مناقشتها أو تفنيدها ، وهي باتفاق الآراء أساليب علمية منزهة عن الهوى السياسي والدوافع الشخصية .

عرض مثلا لقول القائلين إن العامل الاول الذي يحسب حسابه في تصرفات الإنسان السياسية هو حب المنفعة .

فبعد أن تساءل : هل يصدق الإنسان في تقدير منفعته دائما ؟ عاد يضرب المثل لحالة إنسان عرف منفعته في صفقة من الصفقات فإذا بمعرفة المنفعة وحدها لا تكفي لتحقيق غاية من الغايات .

اطلع ذلك الإنسان مثلا على نبأ في صحيفة يدله على طريق منفعة من وراء المساهمة في إحدى الشركات . . فليس هذا الاطلاع وحده كافيا لعمل ما . بل ينبغي أن يتبعه النشاط اللازم للعمل والخبرة الصالحة لاستخدام ذلك النشاط ، وإلا فالعلم بالمنفعة والجهل بها يستويان .

وعرض لرأي القائلين إن الإنسان خاضع لعاطفته في حركاته السياسية ، فقال إن العاطفة الواحدة قد تكون خالصة أو تكون مشوبة فيختلف أثرها في الحالتين .

فالرجل الذي يرى صديقاً مشوها يرحمه ويبكي لمصابه ، وهذه هي العاطفة الإنسانية الخالصة .

غير أنه يصرع الناس ويشوههم إذا التقى بهم في ميدان القتال وقيل له إنهم أعداء الوطن أو أعداء الدين ، فينسى الرحمة أمام الصرعى والمشوهين وتخامره الغبطة حين يعمل الصراع والتشويه في أولئك الاعداء ، وشوائب العاطفة مهمة في هذه الحالة ، لا تقل في وجوب الاهتمام بها عن العاطفة كما خلقت في بنية الإنسان وهي خالصة من شوائبها .

وعرض لرأي القائلين إن نظام الحكومات الماضية والحاضرة قام على حق الملكية ، فقال إن أصحاب هذا الرأي يخيل إليهم أن الإنسان يعمل عملا معقولا حين يبسط يده على قطعة من الارض ، وأن حرصه عليها معادل لانتفاعه منها . على حين أن غريزة « الاحتجاز » تغرى الطفل بحجز الاشياء التي لا تنفعه ولا يعرف منفعتها ، وما من أحد إلا وهو ينفر من الشعور بالمشاع في حياته ويحب أن ينفرد بحوزة خصوصية أو خلوة نفسية Privacy حيث كان في عزلته واجتماعه ، وقد لحظت بعض الاندية هذا الشعور فجعلت من آدابها المرعية أن يقصر العضو خطابه على معارفه من الاعضاء ، ولا يستبيح لنفسه أن يفاتح بالحديث عضوا لم

يتعرف إليه وإن كانت الاندية قد نشأت في الحضارة الحديثة للتعارف والاجتماع .

وعرض لرأي القائلين إن الحكم النيابي الصالح يتحقق بالانتخاب النسبي الذي يفسح المجال لكل ناخب أن يعطي صوته وأن تكون لجملة الاصوات المتفرقة قوة برلمانية لا تخضع لتدبير الاحزاب والزعماء .

فكانت مناقشته لهذا الرأي أنه ترك المفاضلة بين قوانين الانتخاب ورجع إلى البحث في قيمة التصويت : فهل المهم هو إعطاء الصوت فقط ، أو المهم هو تكوين الصوت وما أدى إلى تكوينه من استقامة التفكير أو عوج التفكير ؟

وبحث في مزية المجلس الاعلى الذي يوازن المجلس الآخر ويصده عن الشطط أو الإخلال بسلامة الاداة الحكومية ، فكان من رأيه أن المجلسين معاً يضمنان الموازنة النافعة حيث يتولى وظائف الدولة « سلك » من الموظفين الدائمين لا ينقطع بانقطاع الصلة بين مجلس منتخب ومجلس منتخب يليه أو بانقطاع الصلة بين المجلس الاعلى والمجلس الادنى في مآزق النزاع .وأنكر أشد الإنكار أن ترجع الوزارة إلى النائب لاختيار الموظفين في دائرته الانتخابية ، وهو رأي يقول به بعض المتوسعين في حدود الهيئة التشريعية . فاستدل بتجاربه في لجنة التحقيق على وجوب العزل بين الاختصاصين ، وروى عن بعض الثقات أنهم يتشاءمون لما يلحظونه من تسامح المجالس الحديثة في الخلط بين عمل الوزارة وعمل التشريع ، فمن شأن هذا الخلط أن يجعل المشرعين عالة على المنفذين ، وأن يصدف ذوي الكفاءات عن التقدم للانتخاب .

ومن المسائل التي ألم بها مسألة الاجتماعات التي تعقد لإقناع المستعمين ، فقال إن الذين يحضرون هذه الاجتماعات هم في الغالب مقتنعون بما سيقال فيها قبل حضورها ، وإنهم لم يحضروها إلا لانهم من أنصار الخطيب وحزبه في دعوتهم السياسية .

ونقل من خطب البرنس بولوف السياسي الآلماني المعروف في أواخر أيام آل هوهنزلرن كلاما يقول فيه عن تعميم حق التصويت : « لا اخال أن أحداً من غير الاشتراكيين المتعصبين للنظريات قد بقي على تقديسه لفكرة التصويت العام

واعتبارها بمثابة الآيات المنزلة » ثم يقول البرنس عن نفسه : إنه من جانبه لا يعبد الاصنام ولا يصدق المنزلات السياسية . وإن السلامة والحرية في أمة من الامم لا تتوقفان ـ كلا ولا جزءا ـ على شكل الدستور وأحكام قانون الانتخاب وألمع البرنس إلى كلمة للزعيم الاشتراكي الالماني « بيبل » يقول فيها إنه يفضل النظم الإنجليزية على النظم الفرنسية . فعقب عليها قائلا : غير أن الانتخاب ، في إنجلترا ليس بالحق العام على سنة المساواة وليس بالانتخاب المباشر ، ثم راح يسأل : هل في وسع قائل أن يزعم أن مكلنبرج التي ليس فيها انتخاب عام على الإطلاق أسوأ في حكومتها من جزر هايتي التي تسامع العالم أخيرا بغرائب أخبارها على الرغم من انتخاباتها العامة ؟»

وجواب الاستاذ جراهام على السياسي الالماني أنه على حق إذا كان المقصود بالانتخاب العام أن الذين يتساوون في الاصوات يتساوون في جميع الاعتبارات ، ولكنه يجهل معنى كلامه أو يتجاهله إذا كان الانتخاب العام مبنيا على « أن توسيع نطاق القوة السياسية عنصر هام من عناصر الحكومة الصالحة ، وأن هناك عناصر أخرى للحكومة الصالحة كالاستعداد القومي والتبعة الوزارية وما إليها » .

ومن أسئلة الاستاذ جراهام سؤال عن رضا المحكومين هل هو شرط من شروط الحكومة الصالحة ؟ وقد رجح أن العالم النفساني يجيب عن هذا السؤال بالنفي ، وأنه لو وجه في الزمن القديم إلى أفلاطون لاجاب عنه بالنفي كذلك ، لان العقل في رأيه لا يتصور أن يقوم الحكم على أساس متقلب كأهواء جمهرة الناس ، ويقتدي بأفلاطون في هذا الرأي مفكر حديث هو « ولز » صاحب كتاب « طوبى العصرية » الذي يتخيل فيه قيام ثورة من العلماء الممتازين تتسلم زمام الحكم وتمضي فيه على هدى العلم والاخلاق وإن سخط عليه الجهلاء ، فإنهم كثيرا ما يسخطون على ما ينفع ويفرحون بما يضر ويضير .

ولم يزعم جراهام أنه حل هذه المشكلة ، ولكنه قال انها عقدة جديرة بعقل كعقل بنتام يعود إلى الدنيا مستهديا في هذه المرة بدراسات النفسانيين والاجتماعيين المحدثين ، ولا يقتبس هداه من فنيلون وهلفسيوس .

* * *

من هذه الأمثلة نعرف نهج الاستاذ جراهام والاس في محاولاته ، ونعرف المدى الذي وصل إليه من تقرير قواعد علمه . . فهو كالمهندس الذي يجس أعواد الخشب وحجارة البناء خشبة خشبة وحجرا حجرا ليدل على المادة التي تصلح لبناء البيت المقترح ، أو بناء « علم السياسة » كما بنيت علوم الطبيعة أو علوم الاجتماع والاقتصاد .

وفي اعتقاده أن مجرد الابتداء بتطبيق العلم على السياسة يرينا وجه الخطأ في كلام الذين يتحدثون عن « الديمقراطي المثالي » كأنه لا يعمل لغرض قط غير المصلحة العامة ولا يخطىء أبداً في فهم هذه المصلحة . . فنحن لا نسمع بعالم « بيولوجي » يتكلم عن الحي المثالي الذي لا يجوع ولا يمرض ولا يشكو نقصا في تركيب أعضائه ، فلماذا يبقى بيننا من يتحدثون بالمثالية في تصرف المجتمعات والآحاد ؟ ولماذا نتمادى في أخطاء المخططين الذين يردون تصرف الإنسان السياسي إلى باعث نفساني واحد او يقيمونه على فرض عقلي واحد وهو مزيج من شتى البواعث والفروض ؟

إن علم السياسة مطلوب لضمان السلامة في المجتمعات الإنسانية ، وليكن مثل العالم السياسي كمثل الصانع الخبير الذي يتحرى في تركيب الآلة السليمة أن يكون الشطط في استعمالها محسوبا له حسابه في صميم جهازها ، فتتقي الانفجار إذا زاد الوقود أو زادت السرعة أو أدير فيها مفتاح غير المفتاح الذي ينبغي أن يدار .

فليس من الضروري أن نتقن علم الآلات لتركيب آلة مثالية يمتنع عليها الخلل وتأبى المزيد من التحسين ، بل يكفي من العلم بها ما نحتاط به لعيوبها جهد ما تتيسر الحيطة ، ويكفي كذلك من العلم بالسياسة ما يؤدي بنا إلى مثل هذه النتيجة .

والمفهوم من مجمل أقوال الاستاذ جراهام أن استحالة التعقل في جميع التصرفات الإنسانية لا يحول دون الترقي في علاج الشؤون السياسية ، فإذا كانت الغلبة

للشعور في تصرف الإنسان فالشعور نفسه قد يتهيأ لقبول الآراء الصالحة حسب معلومات « الشاعر » واتساع مجال إدراكه ، وقد يكون أثر الحقيقة من الحقائق أبعد مدى من نتائجها الحسية . كما اثر كشف أمريكا في تصحيح أوهام الناس عن الكرة الارضية وصورة الكون كله ومركز الإنسان فيه قبل أن تستفاد من ذلك الكشف نتائجه الحسّية التي تتعلق بترقية الملاحة والتجارة ، وجمع الملاحظات الصادقة عن طبائع الجماعات وبواعث العمل السياسي فيها وهي مجتمعة وبواعث العمل في آحادها وهم متفرقون ـ علم مطلوب كما تطلب العلوم ، ومحاولة طيبة لإلقاء النور على دوافع الساسة ودوافع المسوسين وحسب الناس من تقدم في هذا السبيل أن يخرجوا بالسياسة من الظلام إلى النور .

تعقيب

أول ما يبادر إلى ذهن القارىء من مراجعة المذاهب المتقدمة دفعة واحدة أنها تتقسم بينها الصواب والخطأ على حصص متفاوتة فليس بينها مذهب ينفرد بالصواب كله ولا مذهب ينفرد بالخطأ كله . وهي على تناقضها من ناحية يتمم بعضها بعضا من ناحية أخرى ، بحيث يحتاج السياسي الحصيف إلى الاخذ بحصة من كل منها ليهتدي بها جميعا في سياسته العامة .

وتكاد تتفق كلها على استحالة « الطوبى » الموعودة التي تتعلق بها أحلام طلاب السعادة ويحسبونها نهاية الشقاء وبداية النعيم المقيم في هذه الدنيا . فمهما تتبدل النظم وتتغير الحكومات فلن تنقطع أسباب الشكوى من الحياة الإنسانية ، ولعل ارتقاء الناس في معارج هذه الحياة يبعث من نفوسهم أسبابا للشكوى لم يشعروا بها في عهود الجهل والقلة ، فإن الشكوى تأتي من الشعور بالكمال كما تأتي من الشعور بالنقص ، وتأتي من حرية التعبير كما تأتي من فقدان الحرية ، بل لعل الارتقاء أدنى إلى الشكوى من الركود والجمود ، ولعل الحرية أدعى إلى التذمر من القسر والخوف .

وعبث أن يقال إن نظاما من نظم الحكم أو الإنتاج يختم التفاوت بين الناس ويبطل دواعي الامر والطاعة بين جماهير الحكام والرعايا . فقد عهد الناس دائما

أن القوة تجلب الثروة كما عهدوا أن الثروة تجلب القوة . وسيظل التفاوت بينهم في البأس والذكاء والهمة والحيلة والجمال بابا من أبواب الاختلاف في حظوظ الجاه والسيادة ، وما من حيلة قط تقضي على دواعي التفاوت بين بني آدم وحواء ، فإننا نرى الخيل يباع واحد منها بجنيهات ولا يباع واحد منها بأقل من عشرات الالوف وأخلق ببني الإنسان أن يمتنع التشابه بينهم إذا امتنع التشابه بين الدواب والحيوان الادنى .

وفي الحياة ظلم وحرمان ، ولكنهما لا يرجعان إلى طائفة دون طائفة ولا إلى خليقة دون خليقة ، وقد يكون الظلام من الاسفل كما يكون من الاعلى ، وصدق المعري حيث قال :

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت

في الصالحات كظلم الصقر والبازي

فليس علية الناس عالة على سفلتهم ولا سفلة الناس عالة على عليتهم ، وليس هناك علية سرمديون ولا سفلة سرمديون ومن قال إن طائفة تعمل وطائفة تغصب فقد ظلم الواقع وانحرف عن الحقيقة الوسطى ، ولا اعتدال قط في أمر من الامور مع انحراف .

فالعاملون بأيديهم يعيشون اليوم بمخترعات العاملين برؤوسهم وقرائحهم ، ولولا هذه المخترعات لهلك العاملون بالايدي جوعا لندرة الصناعات وقلة الاعمال .

والعاملون برؤوسهم وقرائحهم ما كانوا ليخترعوا جديدا لو كانت المعيشة منذ القدم وقفا على حاجات الضرورة ، ولم تكن فيها تلك المعيشة الغالية التي تغري بتشييد القصور وتسيير السفن والتنقيب عن الجوهر والعكوف على فنون الملاحة والسبك والحفر والنسج وفضول الزينة ومناعم الفراغ .

ومن هو العالة على الآخرين ؟ ملايين من الخلق تستفيد الاقوات ولا تعطي الإنسانية شيئاً من تراث الفكر وقيم الاخلاق ؟ أو ألوف من الخلق يجدون فوق الكفاية فيرتفعون بالمعيشة من الضرورات إلى مطالب الكمال ؟

ومَنْ مِنَ الناس ظالم ومن منهم مظلوم ؟ مصلحون يفتحون آفاق المعرفة والفضيلة والجهال او سواد لا يزالون ينصرون كل دجال على كل مصلح ويعينون كل طاغية على طلاب الحق والإنصاف ؟

كلهم إن رجعنا إلى الحقيقة عالة وكلهم عامل ، أو كلهم ظالم وكلهم مظلوم ، وصدق المعري مرة اخرى حيث قال :

الناس للناس من بدو ومن حضر
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ولكما تقسمت الحظوظ وتوزعت الاعمال تبينت حاجة فريق من الناس إلى فريق ، واستحال اكتفاء أحد منهم بما عنده . فليس انقسام الحظوظ وسيلة لاستقلال أحد عن أحد بل هو على الدوام سبب جديد لتعويل كل منهم على سواه .

فلن يستقيم عمار الكون على فئة واحدة ، ولن يرجع عماره يوما إلى علة واحدة ، وعلامة الخطأ الذي لا شك فيه أن نفسر هذا الكون الواسع بتفسير واحد أو ندعمه بدعامة منفردة . إذ لا نهاية لعوامل العمار ولا للمؤثرات التي تنجم عنها هذه الآثار .

فالذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب السرور واتقاء الالم يجهلون الانسان ويجهلون بواعثه التي تحجب غاياته ، ومنها بواعث الطفل الذي يتحرك لينمو وبواعث الرجل الرشيد الذي يتحرك لينمو كذلك ، وإن لم يكن نموه نمو أعضاء وقامات .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب المنفعة يجهلون أنه يقدم على الخسائر وهو عالم بها ويهون عليه الموت ولا يهون عليه فوات أمل من الآمال .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل ليعيش ينسون أن يسألوا أنفسهم : ترى لماذا يحرص على أن يعيش؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للمجد ينسون لماذا يعمل لمجد غيره ويترك

مجد نفسه في كثير من الاحيان ؟

والذين يقولـون إن الإنسـان يعمـل للـدنيا لا يذكرون من يعتزلـون الـدنيا وينزوون عنها .

فما استقامـت الـدنيا قط على فكرة واحـدة ولا صلحـت الحياة قط على علـة واحدة ، ولا موجب للعناء في نقد المطالب والآراء إذا بدا عليها أنها تنقبض هذا الانقباض وتنحرف هذا الانحراف . فكل مذهب باطل إذا غفل القائلون به عن سعة الآفاق التي نعلمها وسعة الآفاق التي نجهلها ، وهي هنالك قائمة عاملة لا تغفل عنا إذا غفلنا عنها ، ولا تتخلى عن مجالها إذا عن لنا أن نخلي منهـا ذلك المجال .

ومهما يكن من تعدد المذاهب وتشعبها في رؤوس الحكماء فرأس الحكمة كلها في السياسة أن الامة الفاسدة لن تتولاها حكومة صالحـة وأن الامـة الصحالـة لن تتولاها حكومة فاسدة .

وما هي الامة الصالحة ؟

ومن الوهم أن يظن أن الامة الصالحة لا تعدو أن تكون مجموعة أفراد صالحين ، فقد يصلح المرء فرداً ولا يصلح عضـوا في أمـة ، ولا تعتبـر الامـة صالحـة إلا بفضائلها الاجتماعية التي يكسبها أبناؤها بالمرانة الطويلة على الحياة السياسية .

فالصلاح للمجتمع استعداد لا يكسبه الفرد بما تعلمـه من المدارس والكتـب ولكنه حاسة اجتماعية تتولد في الامة من مرانتها على مزاولة الشؤون العامة أجيالا متعاقبة حتى تصبح رعاية المصلحة العامة عادة في أبنائها يباشرونها عفو الخاطر كأنهم لا يقصدونها ولا يتكلفونها ، مثلهم في ذلك مثل الأعضاء التي تشترك في تغذية بنيتها وتوزيع غذائها بين أجزائها في غير كلفة ولا روية .

نعم ان علوم المدرسة والكتاب قد تقرب المرء إلى فهم هذه الحاسة الاجتماعية . بيد أنها لا تخلقها لسبب بديهي : وهو أن العادة الاجتماعية تتربى بالاشتراك مع المجتمع ولا تتربى بالفهم والسماع . وشواهد ذلك بينة من المقابلة بين الامم التي

تساوت في انتشار التعليم ولم تتساو في التربية الاجتماعية او التربية السياسية ، فظاهر جدا من المقابلة بين هذه الامم أن المسألة مسألة تربية عامة مشتركة وليست مسألة فهم يستقل به كل متعلم من طريق المدرسة والكتاب .

فالامة الالمانية أمة متعلمة كثيرة المدارس والجامعات تروج فيها الكتب المبسطة والكتب المطولة ويندر فيها الاميون ولا يخلو فرع من فروع العلم من نابغة ألماني يسهم فيه برأي جديد أو تفسير مبتكر ، ولابنائها ولع بالإحاطة والاستقصاء وتبويب المباحث وترتيبها تضرب به الامثال ولا تسبقها فيه أمة حديثة ، وقد كان ينبغي أن تكون قدوة بين الامم في التربية السياسية لو كان مدار الامر على معارف المدرسة أو معارف المطالعة ، ولكنها مع هذا أقل في هذه الخصلة من أمم أخرى دونها في انتشار التعليم ووفرة الاطلاع ، إذ كانت أحوالها التاريخية حائلة بينها وبين المشاركة في حكم نفسها معودة لها أن تدين بنوع واحد من الحكم هو حكم السيطرة والطاعة ، ومرجع ذلك إلى وجودها في وسط القارة الاوربية هدفا للغزاة من الشرق والغرب والشمال والجنوب وعرضة للمنازعات بين أمرائها إذا هي استراحت من الغزوات الاجنبية .

فتعاقبت العصور وهي أشتات من الولايات المتفرقة تخضع كل ولاية منها لامير يحكمها على النظام العسكري ويترقب منها طاعة المستسلم المعترف بضرورة هذه النظم العسكرية . فلم تتعود الوحدة القومية ولم تتدرب على مراقبة حكامها ولم تسر بينها عادات المشورة والمراجعة ولا الخبرة بترشيح من يسوسها في حدود هذه العادات وبرعاية من هدايتها ، فلا جرم سهل فيها وثوب المستبدين إلى مراكز السيطرة وتعذر فيها إسقاط مستبد من هؤلاء بغير كارثة تصدمه من خارج بلاده . ولولا طول العهد باستبداد الحاكم وخضوع الرعية لكانت أحرى بمن هم أفضل من هؤلاء الحكام .

ونكاد نقول إن نوع الحكومة لا يهم ما دام المحكومون على قسط وافر من الحاسة السياسية عارفين بحقوقهم مقتدرين على أخذ الولاة باحترامها ، غير أن المبدأ القائل« بأن الحكم من الامة للامة » هو أصلح المبادىء لمجاراة هذه الحاسة السياسية في وجهتها . وهو المبدأ الذي يعطي المحكومين فرصة بعد فرصة لاختيار

لافضل من الساسة والأكفاء من القادة والولاة ورؤساء الدواوين .

وكما جاء في الاثر : « كما تكونوا يول عليكم » .

وكما قال الافوه الاودي :

تمضي الامور بأهل الرأي ما صلحت
فإن توالت فبالأشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فهرست كتاب
الحكم المطلق في القرن العشرين

فهرست كتاب
الصهيونية العالمية

الموضوع .... الصفحة

فهرست كتاب
النازية والأديان

الموضوع	الصفحة

فهرست كتاب
هتلر في الميزان

الموضوع . . . . الصفحة

فهرست كتاب
فلاسفة الحكم في العصر الحديث

دار الكتاب اللبناني
طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة:
شارع مدام كوري - بناية حطب - مقابل أوتيل البريستول
ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - برقياً: داكلبان.
هاتف: ٨٦١٥٦٣/٨٦٠٧٩٢/٨٦٠١١٤ - مستودعات: ٨٦٠٣٤٨
تلكس: 23715 D.K.L. Att. Miss MAY. H. EL-ZEIN
فرع ثان: سد البوشرية - سنتر فياض التجاري هاتف: ٨٨٣٥١١

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقيا: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX:(202):3924657 CAIRO - EGYPT